

العدد التالى من المجلة

العدد الثانى - المجلد التاسع

يوليو - أغسطس - سبتمبر

قسم خاص عن

الاتجاهات الحديثة فى النقد الادبى

بالإضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	رأبوت	سوريا	٣	لرأت
السعودية	٥	رأبوت	القطيف	٥٥٠	لرأت
البحرين	٥٠٠	فلقة	السودان	٥٥٠	لرأت
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلقة	ليبيا	٣٥	لرأت
اليمن الشمالية	٤٠٠	رأبوت	مصر	٤٠٠	لرأت
عمان	٣٠٠	فلقة	الجزائر	٥	لرأت
لبنان	٤٠٠	ليرة	تونس	٥٠٠	لرأت
الأردن	٤٥٠	نلسا	المغرب	٥	لرأت

الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري المدوافي
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٧٨
للمراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الإعلام - الكويت : ص.ب ١٩٢

المحتويات

النقد الأدبي

التمهيد	بقلم التحرير	٢
الشكل والمضمون في النقد الأدبي الحديث	الدكتور محمد زكي العشماوي	١١
نحو علم جمال عربي « تصور تطبيقي »	الدكتور عبد العزيز الموسوي	٢٧
يعيش حالي . . . بين العربية والتركية	الأستاذ عبد العزيز محمد الزكي	٤٩
النقد الروائي الانجليزي في دور التكوين	الدكتورة نورا شريف	١٠٧

آفاق المعرفة

تكنولوجيا العصر والمجال الطبي للعالم العربي سنة ٢٠٠٠	الدكتور مصطفى كمال محمد	١٣٥
الدافعية بين التنظير والتطبيق دراسة تحليلية مقارنة الدكتور طلعت منصور		١٦٢

أدباء وفنانون

ابن شرف القيرواني		
وأراءه النقدية في رسائله « اعلام الكلام »	الدكتور محمد سلامة موسى	٢٠٧

عرض الكتب

مقدمة للسكان	عرض وتعليق الدكتور مصطفى ناجي	٢٥٥
مهاجرون سود ومواطنون بيض	عرض وتعليق الأستاذ عبد الله عبد الغني غانم	٢٦٩

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

الاتجاهات الحديثة في النقد الأدبي

محمد

ربما كان سقراط هو أول من فرق بين تأليف الأدب ونقد الأدب وميل بينهما ، وذلك حين ذهب الى انه قلما كان يجد من بين الشعراء من يستطيع ان يشرح ما كان يعنيه بشعره . وكأنما كان سقراط يود ان يقول في هذه العبارة انه لم يكن ثمة من بين الشعراء من يستطيع ان ينقد شعره . وقد أدى ذلك بالاستاذ لاسيل ابركرومبي، وهو يستعرض رأى سقراط في مقاله الرائع عن قواعد النقد الأدبي الذي نقله الى العربية مثل سنوات طويلة المرحوم الدكتور محمد عوض محمد الى ان يميز بين ثلاثة انواع من المقارنات هي : **المقدرة على تدقيق الأدب ، والمقدرة على تحليل الأدب تحليلًا منطقيًا ، ثم المقدرة على نقد الأدب** ، وحاول ابركرومبي ان يرد هذا التمييز بين المقدرات الثلاثة الى وجود ثلاث ملكات مختلفة هي ملكة الإنشاء او الإنتاج الأدبي ، وملكة التدقيق ثم ملكة النقد . وهذه الملكة الثالثة يمكن ان تكتسب وان تنمي بالدرس والممارسة والمران ، وأن كان هذا لا يمنع من ان النقد قد يكون غريبًا في كثير من الأحيان ، وأن يصدر على ما سنرى من القارئ بطريقة تلقائية دون ان يعد لممارسة هذا العمل اعدادًا متمعدًا مقصودًا .

ومهما يكن من امر ، فالهم هو ان « الناقد عادة يكون مدركا » للخطة التى يتبعها في نقده ، وان هذه الخطة تعتمد على قواعد منطقية خاصة قابلة لان ترتب بحيث يتألف منها نظام خاص . ومن الممكن دراستها وتطبيقها في دقة وعناية » ، بينما ليس هناك في رايه « قواعد ترشدنا الى كيفية ابتكار الادب ولا الى كيفية الاستمتاع به » . بل الاكثر من ذلك ان النقد الادبي يعجز تماما عن « ايجاد هاتين الملتكئين عند الناس اذا لم يكن لهما وجود من قبل . فهو يفترض اذن وجودهما افتراضا » (انظر كتاب **قواعد النقد الادبي** - دار التاليف والنشر والترجمة - القاهرة - صفحات ٤ ، ٥)

ولكن على الرغم من اختلاف القدرة على النقد الادبي اختلافا تاما عن المقدرة على ابتكاره والمقدرة على تلوقه فليس ثمة ما يمنع بطبيعة الحال من امكان اجتماع القدرات الثلاث في شخص واحد ، بحيث يكون الاديب قارئا للادب وناقدا في الوقت ذاته . وعلى اى حال فان النقد يبدأ بمجرد ان يأخذ قارئ الادب نفسه بالتزام « قواعد عقلية » يطبقها اثناء قراءته ويستعين بها في تلوق الادب مع تقدير ما يقرأ بحيث يصبح الاستمتاع بالقراءة « مبنيا على اساس من الفهم وحسن التخيير » وبذلك يكون النقد عبارة عن « اسئلة معقولة يسألها المرء عن كل شيء يتعلق بالادب ثم الاجابه عنها كذلك اجابه عقلية » (ص ٧) سواء كانت هذه الاسئلة والاجوبة متعلقة بنظرية الادب ذاتها ، او بما يسمونه « بالنقد الاساسي » والنقد الخاص لاعمال ادبية معينة ومحددة بالذات ومع التسليم بهذا كله فليس ثمة ما يمنع من ان يكون النقد الادبي على ما ذكرنا من قبل « عملا شخصيا كالتاليف الادبي سواء بسواء ، ويكون كالادب وليد النبوغ العبقري » بحيث يصدر عن مواهب معينة قد لا تستند الى اى قواعد راسخة ملية او مدروسة ، بل وقد تنفر من مثل هذه القواعد الجامدة فلا تلتزم بها ، وبذلك لا يتمسك الناقد بنظرية محددة او بمبدأ معين بالذات يلتزم به طول الوقت ويحاول تطبيقه على كل ما يقرأ . وهذا هو ما يسميه ابركرومى **نقد الالهام** الذى يصدر عن الخصائص والمميزات والقدرات الذاتية للناقد ، وان كان هذا النوع من النقد لا يعتبر في راي الكثيرين ، وبخاصة من المهتمين بنظرية النقد الادبي ومدارسه اهم انواع النقد ، لان الذى يهم ذلك هو مدى ما يضيفه النقد والناقد الى قواعد النقد وطرائقه واسهامها في شرح تلك القواعد والطرائق وتمسيرها والعمل على اثراتها وتقديمها . فمثل هذه الجهود هي التى ادت وتؤدي الى ظهور الاتجاهات المختلفة ، وتنوع المدارس والمذاهب في النقد الادبي . وسوف نجد **القارئ عرضا لبعض هذه الاتجاهات والمذاهب في هذا العدد** .

والواقع أنه ليس هناك أسلوب أو منهج واحد « صحيح » لمعالجة مشكلات الأدب ، كما أنه لا يوجد مدخل واحد يمكن اعتباره محكاً ومعياراً لتقييم كل أنواع الأدب وكل الكتابات الأدبية على اختلافها . ذلك لأن الأعمال الأدبية كثيرة ومتنوعة إلى أبعد حدود الكثرة والتنوع ، وتغطي حقبة طويلة جداً من تاريخ الإنسان والحضارة . ومع الاعتراف بالدور الذي تقوم به الدراسات النقدية ، وكذلك نظرية الأدب في توضيح ماهية الأدب ومساعدة القارئ على فهم طبيعته وعلى الوصول إلى درجة أكبر من الاستمتاع والتذوق من قراءته للأعمال الأدبية ، فإن من الخطأ الزعم بأن التذوق والاستمتاع وتفسير هذه الأعمال لن تنجح للقارئ إلا عن طريق الإلمام بنظرية الأدب أو الدراسات النقدية فيه . وكما يقول ديفيد ديشيس David Daiches أنه من السخف أن نزع أن اليونانيين القدماء لم يستطيعوا الاستمتاع بأعمال سوفوكليس وتذوقها وتقديرها حتى قدرها قبل أن يجيء أرسطو ويكتب كتابه الشهير عن الشعر Poetica ، أو أن نزع أنه كان يضمن على رواد المسرح في بريطانيا أن ينظروا ومجيبين برادلي A. C. Bradley أو الأستاذ هيلمان Heilman حتى يمكنهم الاستمتاع بمسرحية « الملك لير » . ذلك أن التذوق والتقدير يمكن أن يكونا مستقلين تمام الاستقلال عن نظرية النقد ، ولو أن الاستعانة بهذه النظرية قد تساعد على توضيح معنى العمل الأدبي وبالتالي تساعد على الاستمتاع به ، والغوص إلى أعماقه . وهذا معناه أن النقد الأدبي لا يمكن أن يكون غاية في ذاته ، وأنه حسب تعبير T. S. Eliot ليس غاية ذاتية autotelic وإنما هو بالأحرى وسيلة للوصول إلى فهم أعمق للعمل الأدبي وإلى تحقيق درجة أكبر من التذوق والاستمتاع . وبحقق النقد وظيفته بتحقيق ذلك الهدف .

والذي لا شك فيه هو أن الفن الأكبر بكثير من شرحه على ما يقول Daiches أيضاً ، وأنه ليس هناك من بين النقاد من يمكنه أن يزعم أنه استطاع أن يحدد قيمة الفن الأدبي ومعناه بكل ما تحتوي عليه من معنى . فنظريات النقد نظريات جزئية ومنحيزة وذاتية وقابلة للمناقشة والاختبار ، وأن كان هذا لا يعني أنه لا توجد مقاييس إجماعية للقيمة ، أو أنها تعتمد فقط على الذوق الخاص أو الانطباعات العامة الباهتة . وكل ما يعنيه ذلك هو أنه لا يوجد حكم نقدي لأي عمل أدبي يمكن أن يكون حكماً كاملاً مطلقاً وصحيحاً ومقبولاً من الجميع . ومع أنه يمكن من الناحية النظرية البحث - وضع بعض المبادئ العامة القوية فالواقع أن الأحكام التي تصدر من الناقد عن أي عمل أدبي هي بالضرورة أحكام تقريبية ، وأنه على الرغم من كل ما يبذله الناقد من جهود للكشف عن طبيعة العمل الأدبي وماهيته فلن يستطيع في الأغلب أن يحيط بكل جوانبه وأصنافه . فالعمل الأدبي مجموعة متشابكة ومعقدة من الأفكار والآراء والإحساسات والمواقف والتجارب التي خضع لها الكاتب أو الشاعر ، ومن الصعب ، أن لم يكن من المستحيل ، أن يصل إلى كل جزئيات

تلك التجربة، وأن يتعرف في دقة وعمق على كل جوانبها. ودقاتها . ومن هنا كان النقد الأدبي اقرب في طبيعته الى الفن منه الى العلم ، ومن هنا ايضا كان الناقد الذي يحرص على اخضاع الاعمال الادبية لعدد من المبادئ الجامدة المطلقة ويعمل على تطبيق هذه المبادئ بطريقة منهجية دقيقة وصارمة عرضة لكثير من المخاطر ، كما يشوب عمله كثير من اوجه العيب والنقص .

ومع ان بعض النقاد المحترفين قد يميلون الى وضع قواعد ومناهج ومبادئ محددة لكي يسترشد بها المتدثرون في فهمهم لاصول فن النقد الادبي والاستعانة بها في خطواتهم الاولى كثيرا ما تنقلب الاوضاع وتخرج هذه القواعد والمناهج من الاهداف التي وضعت من اجلها ، بحيث تصبح دراسة النقد الادبي في آخر الامر مجرد دراسة للاسلوب الذي يتبعه الكاتب والمعارف التي يستعملها وما الى ذلك وبدلا من ان يكون دراسة لطريقة الكاتب في عرض تجربته بوضوح وعمق ، واداة لمساعدة القارئ على فهم تلك التجربة وادراك اعماقها وجوانبها المختلفة

ومن هنا كان لا بد من أن نفهم وظيفة الادب او على الأقل الغرض منه . - ولقد اختلفت الآراء في ذلك اختلافًا كبيرا . ولكن الظاهر ان من اهم هذه النظريات التي يمتثلها لفيف كبير من المشتغلين بالنقد الادبي والتي تجد لها صدى عند كثير من علماء الانثروبولوجيا والاجتماع المهتمين بدراسة الادب وتحليله وعلاقته بالمجتمع ، الاتجاه الذي يذهب الى ان الغرض الحقيقي من الادب هو « التعبير » « والتوصيل » فالادب نوع من التعبير عن تجارب المؤلف وحياته واحاسيسه وانفعالاته وما يدور في نفسه وعقله من مشاعر وافكار ، كما انفق الوقت ذاته وسيلة لتأدية هذه التجارب والانفعالات والافكار الى الآخرين بنفس القوة التي يشعر بها الكاتب الذي يمر بتلك التجربة . والافخاق او الفشل في ذلك يعنى الاخفاق والفشل في انتاج ادب يستحق ان يطلق عليه هذا الاسم .

هذه الوظيفة المزدوجة للادب ؛ اعنى التعبير والتوصيل ، تكشف لنا عن الجانبين الاساسيين اللذين يجب توفرهما في اى عمل ادبي ، وهما الجانب الذاتي للادب . والجانب الموضوعي وتوكيد احد هذين الجانبين او الاخر ، والاهتمام به وإبرازه هو الذى ادى الى ظهور مذهب الرومانتيزم من ناحية ، والمذهب الواقعي من الناحية الاخرى ، والجمع بين هاتين الناحيتين (البلاغية والموضوعية) هو الذى يمثل في اختيار الادب نوعا من توصيل او نقل التجربة الحسية المعينة التي يمر بها المؤلف التي يعبر عنها في كتاباته ، وليست العبارة اللفظية في آخر الامر سوى « اداة » وسيلة لتحقيق هذه العملية .

وعلى هذا الاساس فانه يمكن القول مسجاً بـ (كرومبي) - مرة اخرى - ان الادب يفترض وجود اطراف ثلاثة هم المؤلف والقارئ ثم العبارة اللفظية - او الكلام - الذي يكون بمثابة الوسط بين هذين الطرفين . وليس المقصود بالتوصيل هو توصيل (المعلومات) كما هو الشأن في الكتب العلمية، فنحن لا نحكم على الكتابة الفنية او العمل الادبي بمدى صحة ما قد يكون به من (معلومات) ، وانما الذي نأخذه في الاعتبار والذي تصدر عنه احكامنا هو مدى صدق ذلك العمل الادبي في التعبير عن التجربة التي يمر بها الكاتب بكل اصماقها وقوتها ، وقدرة ذلك العمل الادبي على نقل هذه التجربة الدالية بكل جوانبها وتنوعها واصالتها .

فالناقد اذاً ينظر الى التعبير على ان له قيمة ذاتية خاصة به يصرف النظر عن الاحكام التي قد يتضمنها ، وذلك على الرغم من كسل ما يقال عن الادب التطبيقي الذي قد يهدف الى الافئاد ، والى قبول قضية او رأى او حكم .

فالفرض اذاً من الادب الصرف « هو ان يؤدي عمق الإحساس دون ان يكون له غرض اخر غير مجرد وجوده ، كما ان الحكم عليه بالقوة او الضعف انما يكون بالنظر الى قدرة الكاتب على توصيل تلك التجربة والتعبير عنها » .

وما دام العمل الادبي تعبيراً عن تجربة معينة مر بها الكاتب فان النظرة الى ذلك العمل وتقديره وتقييمه يجب الا تكون مجرد نظرة جمالية خالصة وانما لا بد من ان تأخذ في الاعتبار المناخ العقلي والثقافي والحضاري الذي تم انتاجه فيه ، ومحاولة التعرف على العوامل السيكولوجية والظروف الاجتماعية التي خضع لها الكاتب . فهذه كلها امور من شأنها ان تزيد قدرة القارئ على فهم ما يقرأ والاستمتاع به وتقديره ، وعلى الغوص الى اصماق التجربة الانسانية التي يعكسها الكاتب على ما يقول ديشيس .

فكان الادب على ما يذهب اليه انصار هذا المذهب ، ومعهم المهتمون بالدراسات الادبية من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا - هو عمل اجتماعي ثقافي الى جانب كونه انتاجاً فنياً او جمالياً . ومن الطريف ان نذكر هذان الكثيرين من علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الذين تعرضوا لهذه المسألة ينظرون الى الكاتب او الاديب على انه انسان يمارس حرفة او مهنة معينة . والى العمل الادبي على انه وسيلة للاتصال ، اى سلطة ثقافية ، والى القارئ على انه مستهلك لتلك السلطة الثقافية بشكل او بآخر .

والمعروف انه منذ عام حاول شوكنج L. L. Schü King على ما يقبول سكاربيت Robert Scarpit في مقاله عن « الأدب » في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية - ان يضع نظرية من علم الاجتماع الادبي او سوسيو لوجياالتدوق الادبي . ومع ان هذه المحاولة صادفت كثيراً من الصعوبات ، على الاقل في بداية الامر ، فانها اثارت الاهتمام بالموضوع لدى عدد من المفكرين الاجتماعيين الذين اهتموا بالتعرف على العوامل الاجتماعية التي تؤثر في العمل الادبي ومدى تعبير الادب عن الواقع الاجتماعي وانعكاس البيئة الاجتماعية للكاتب في كتاباته ، و اثر البناء الاجتماعي عموماً في الانتاج الادبي . ثم بدأت بعض المدارس التي تأثرت بكتابات الفيلسوف المجري جورجى لوكاش Gyorgy Lukács تنظر السى المجتمع على انه هو الحقيقة الواقعية التي تختفي وراء مظاهر الادب ، وان كان ذلك لا يتنافى في الوقت ذاته مع اعتباره الادب غاية في ذاتها . وقد بلغ الامر ببعضهم الى حد اغفال دور القارئ في عملية الاتصال الادبي ، بل ان منهم من انكر ان يكون الادب عملية اتصال بالمرءة ، وبذلك انكروا وجود ما يمكن تسميته بالاتصال الادبي .

وهذا موقف متطرف يتعارض تماماً مع موقف كاتب مفكر مثل جان بول سارتر Jean-Paul Sartre الذي يرى في كتابه « ما هو الادب » الذي صدر عام ١٩٤٨ ان العمل الادبي السلي هو نتاج مكتوب للفكر لن يكون له وجود واقعي الا حين يقرأ بالفعل ، لان الكتابة تغير القراءة هي مجرد لغو ، كما ان الكتاب الذي لا يجد من يقرؤه لن يكون اكثر من مجموعة من الاوراق الملوثة بالجير . وعلى هذا الاساس فانه لا يمكن اعتبار الظاهرة الادبية مجرد حسيلة للفن نفسه ، وانما هي لقاء او تقابل ، بل واحياناً صدام بين فاعلين صادقين عن الحرية ، الاول فعل انتاج والآخر فعل استهلاك ، بكل ما يقتضيه هذان الفعلان من نتائج وآثار على العلاقات الاجتماعية والاخلاقية . وعلى اية حال فلا بد من ان يكون هناك دائماً « رجل اخر » في الادب : كاتب بالنسبة لقارئ ، وقارئ بالنسبة لكاتب .



وهذا كله معناه ان من الخطوة الى حد كبير اخضاع النتاج العقلي المكتوب للمحركات المالية وحدها او اغفال غيرها من المحركات الثقافية والاجتماعية والاخلاقية ، خاصة وان اداة الادب هي اللغة والكتابة ، وهما اداةان اجتماعيتان .

وليس من شك في ان الكاتب يأخذ في اعتباره في معظم الاحوال الافكار والاحكام والقيم التي تسود في مجتمعه ، فضلاً عن الاحكام التي يصدرها القراء انفسهم على ما يكتب . فالتفاعل بين الكاتب

والقارئ قائم وقوي ويعمل في اتجاهين متكاملين ، بحيث يلعب الكاتب دورا إيجابيا يمثل فيهما يحاول توصيله من « رسائل » أو تجارب إنسانية إلى جمهور قرائه الذين تصدر منهم « استجابات » لهذه « الرسائل » تتمثل في الأحكام التي يصدرونها على ما يكتب والتي تنعكس بدورها على كتاباته الأخرى وهكذا .

ولقد كان من الطبيعي أزاء ذلك أن يشغل دارسو الأدب انفسهم بوضع الحدود واقامة التمييزات بين « التاريخ الأدبي » و « النقد الأدبي » .

فالتاريخ الأدبي على ما يقول الأستاذ بيتشون Bateson يتم بتبيين أن استمد من ب ، بينما النقد الأدبي يحاول البرهنة على أن أ أفضل من ب . . . التاريخ الأدبي يعالج حقائق مؤكدة ، أو يمكن البرهنة عليها ، أما النقد الأدبي فيتناول أمورا تنصل بالاعتقاد أو الرأي ، وقد تتعلق بأصدار الأحكام التقويمية . وهذه تمييزات معقولة ومقبولة إلى حد كبير ، وإن كانت المناهج والأساليب المتبعة كثيرا ما تخطئ بينها ، كما أنه كثيرا ما يصعب تصور تاريخ الأدب بغير الرجوع إلى نظرية الأدب أو النقد الأدبي ، أو معارسة النقد بغير الرجوع إلى نظرية الأدب وتاريخه . وليس من شك في أن النقد الأدبي يأخذ في الاعتبار الأحكام التي كانت تسود في عصور إنتاج العمل الأدبي الذي يتعرض له بالدراسة والنقد ، ويحاول أن يتعمق في فهم اتجاهاتها ومواقفها ولسلفاتها ويتعرف على المعايير الأدبية والفنية الموجودة حينذاك . وتعرف هذه النزعة بوجه عام - كما يقول ويليك Wellek ووارين Warren في كتابيهما عن **نظرية الأدب** Theory of Literature بالـ **النزعة التاريخية historicism** . وكانت هذه النزعة شائعة في ألمانيا بوجه خاص في القرن التاسع عشر رغم اعتراف الكثيرين عليها ، ثم انتقلت من ألمانيا إلى إنجلترا فالولايات المتحدة ولا يزال الكثيرون من « مؤرخي الأدب » يتمسكون بها ، وأدى ذلك إلى ظهور ما يعرف باسم **النسبية النقدية Critical Relativism** - على ما يسميها فردريك بوتل F. Pottle وهذه تسمية تتضمن الاعتراف بوجود نوع من عدم الاستمرار في تاريخ الأدب ، ما دام إنتاج كل عصر سوف يقاس بمعايير عصره فحسب .

ومع التسليم بما في هذا الموقف من وجهة ، لقد تعرض الكثير من الهجوم والنقد ، على اعتبار أنه يغفل أذواق القراء المعاصرين ، ويحصر العمل الأدبي داخل إطار شيق من الوحدة الزمانية والمكانية ، وبذلك يسلبه خاصية العمومية أو الكلية التي يجب أن يتصف بها أي عمل أدبي جيد . فاعمل الأدبي يجب للحكم الصحيح عليه أن يخضع لمعيارين ، وإن يدرس من بعد - متكاملين هما الذوق الفني الذي كان يسود عصر إنتاجه ، ثم الذوق الفني أو الأدبي العام ، ما دام

الادب يعبر عن تجربة انسانية ، حتى وان كانت هذه التجربة تتمثل في شخص المؤلف الذى يجب ان يبرز النواحي الانسانية العامة العميقة في تلك التجربة .

ونحن حين نقرأ أى عمل ادبى انما نقرأه في ضوء عصره ومجتمعه وثقافته على ما ذكرنا ، ولكن ايضا في ضوء التجربة الانسانية العامة وفي ضوء المواقف والاتجاهات الحديثة . وهذا الموقف المزدوج له ما يماثله في الدراسات الانثروبولوجية مثلا ، حيث ينظر الباحث الانثروبولوجى الى اية ثقافة في ضوء الظروف التى انتجتها وكذلك في ضوء ثقافته هو نفسه ، على اعتبار ان تلك الثقافة الجزئية التى يدرسها ما هى الا مظهر من مظاهر الثقافة الانسانية ككل . وكذلك العمل الادبى ما هو الا تعبير عن جزء معين من التجربة الانسانية العامة ، بقدر ما تعرض لها الكاتب .

فكان من الصعب الفصل فصلا قاطعا وحاسما بين وجهة النظر التاريخية والمعاصرة في دراسة الادب . دراسة نقدية ومحاولة تقييمه . ومع ذلك فإنه يتعين على الناقد ان يعمل على ان يتجنب بقدر الامكان الوقوع فريسة في « النسبية النقدية » او في « النزعة المطلقة » Absolutism . ، بحيث يتخلص من قصور النسبية دون ان ينزلق الى الاحكام المطلقة الجامدة التى تعتقد ان الطبيعة الانسانية ثابتة لا تتغير . فالعمل الفنى او الادبى (ابدى) (تاريخى) معا . وليس من السهل الجمع بين هذين (العديدين) ، ولكنه امر لا بد منه اذا اريد فهم العمل الادبى فهما صحيحا يزيد من معرفة الانسان بطبيعة النفس البشرية وعمق التجربة الانسانية وتعمدها .

الشكل والمضمون في النقد الأدبي الحديث

سفلت قضية الشكل والمضمون في الأدب المستغفلين بالدراسات الأدبية والنقدية على مر العصور ، لا في الآداب الأوروبية وحدها ، ولكن في أدبنا العربي كذلك ، وخطورة هذه القضية إنما تنشأ من ارتباطها الوثيق بتقدير قيمة العمل الأدبي وتبين تأثيره . فإن أي خلط في فهم طبيعة العلاقة بين الشكل والمضمون سيؤدي بالضرورة إلى الخلط في الحكم على الآثار الفنية ، وإلى اختلاف النقاد والأدباء في حقائق ؛ إن جاز الاختلاف فيها في العصور الماضية فلا يجوز أن يختلف عليها أحد اليوم . وعلى الأخص بعد أن تطورت دراسات علم الجمال الحديث وبعد أن وضحت من خلال هذه الدراسات الأسس التي يبنى عليها الفن أي كان نوعه .

وقبل أن تبدأ في دراسة هذه القضية وتبعضها في مراحلها المختلفة يحسن بنا أن نحدد ما يعنيه النقد الحديث باصطلاحه الشكل والمضمون والشكل والمحتوى ، وقد يستخدم أحيانا اصطلاح الصورة بدلا من الشكل فيقال: الصورة والمضمون .

والشكل عندهم هو الصورة الخارجية ، أو هو الفن الخالص المجرد عن المضمون والذي تتمثل فيه وتحقق من خلاله شروط الفن الأدبي ، سواء ما كان قصيدة غنائية أم قصة أم مسرحية . فإذا حكمنا على قصيدة غنائية من حيث الشكل مثلا قصرنا أحكامنا على كل ما يتعلق بتحقيق الصورة

الخارجية لهذا الفن من وزن وموسيقى وصور شعرية ، وصياغة فنية ، وبما قد يتحقق من خلال ذلك من جمال أو انسجام في الوحدة أو تناظر في الأجزاء . وبالجملية كل ما يتصل بالعنصر الشعري الفني في القصيدة وصياغته واسلوب تصويره . وكذلك الحال في المسرحية ، فالشكل فيها هو كل ما يتصل ببنائها الدرامي وتماسك هذا البناء وتدرجه من بداية ، الى وسط ، الى نهاية ، ثم التهام أجزائه وروعة تصويره بغض النظر عما يشمل من مضامين أو يشير من قضايا إنسانية أو اجتماعية أو نفسية أو أخلاقية .

اما المضمون أو المحتوى فهو كل ما يشتمل عليه العمل الفني من فكر أو فلسفة أو اخلاق أو اجتماع أو سياسة أو دين ، أو غير ذلك من موضوعات ذات شأن تاريخي أو وطني . ومن هنا يكون المضمون أو المحتوى هو في غالب الامر المادد الخام التي يستخدمها الاديب أو الشاعر ، والتي يشكلها الفنان في الصورة التي يريدها .

وانقسم النقاد وفقا لهذا التمييز بين الشكل والمضمون الى مدرستين: "حداهما مدرسة الشكل والاخرى مدرسة المضمون . وأخذت كل مدرسة تقيس الفن بمقاييسها الخاصة . فاصحاب الشكل لا يرون في المضمون اية قيمة فنية ، ويحصرون احكامهم في دائرة الصياغة الفنية وما يتحقق عنها من جمال . واصحاب المضمون يرون ان الفن كله مضمون . وحددوا المضمون كما يقول كروتشه تارة بما يلد ، وتارة بما يتفق مع الاخلاق ، وتارة بما يسو بالانسان الى سماوات الفلسفة والدين ، وتارة بما هو صادق من الناحية الواقعية ، وتارة بما هو جميل من الناحية الطبيعية المادية " (١) .

والمسألة مرتبطة في جذورها بفلسفة ادراك الاشياء : هل ماهية الشيء متحققة فيه ، أو ان الماهية فكرة منفصلة عن الشيء ؟ او بمعنى آخر : هل المدرك الحي الذي امامنا يحمل في ذاته حقيقة كاملة فيه أم انه يمثل ظلا زائلا لحقيقة منفصلة عنه وبعدة عن كيانه ؟

اما **أرسطو** فيرى ان الماهية ليست فكرا منفصلا عن الاشياء ، والحقيقة عنده كاملة في المدرك الحسي ، ومن ثم فان جوهر الشيء عنده لا يتفصل عن تحققه المادي ، ومن هنا كان عالم الشعر عند **أرسطو** كامنا في المظاهر الحسية ، ويستطيع الباحث ان يستنتج من نقد **أرسطو** انه مؤمن بالتلازم بين الصورة والهيولى .

والذين يفصلون الشكل والمضمون انفسا يعزاون الى حد كبير بين الافكار او الماهيات وبين المدركات الحسية .

والكلمات لا تعني الدلالة على اشياء ، وانما تعني افكارا او اشياء في الوقت نفسه . فاذا ذكرنا كلمة **اسد** يتبادى الى الذهن شيان :

أولا جملة الصفات التي تحدد شكل الاسد وتكتسب عن طريق الملاحظة والتفرقة بين الصفات الجزئية والعرضية والصفات المشتركة :

وثانيا جملة الإرباطات والانطباعات القائمة حول الكلمة ، أو بمعنى آخر ما يمكن أو تضيفه الكلمة من إحساس. من أجل ذلك كان من الصعبان تفصل بين ماهية الاسد وبين الإحساس المرتبط بما تثيره الكلمة في النفس من إبهامات خاصة الإتي نطاق التقسيم النظري بين ما يدرك بالعقل وما يدرك بالحواس . وقد يمكن القول بأن ماهية البدر مستقلة عن جمال البدر الذي يستمد عادة من جملة الإبهامات والإرباطات ، وفي وسع أي إنسان أن يقول أن استدارة البدر واستنارتها شيء وجماله شيء آخر ، كما في وسع الدراسة النظرية البحتة أن تقول أن وصفنا للبدر بالجمال شيء نابع عن الدوق . أما ماهية البدر التي تتمثل في فكرته كتجيم مستدير مستدير في السماء ليلا فشيء آخر اكتسبناه من طول النظر والتأمل، لا عن طريق الدوق .

ومن الممكن أن نقول ذلك ، وإن نفصل بين ماهية الشيء وبين الانطباعات أو الإرباطات القائمة حوله ، ذلك إذا أردنا أن نفرق بين الإدراك العقلي المحض وبين الإدراك الحسي . (٢)

ولكننا في مجال اللغة والأدب نخضع لمبدأ عام لا ينبغي الاختلاف عليه وهو مبدأ رمزية اللغة، فليست الكلمات في اللغة والشعر مجرد علامات وإشارات نتخذها لنشير بها على وجود شيء أو سواه ، وإنما هي رموز تتضمن شحنات من المشاعر والإحساسات .

« فالرموز بالمعنى الدقيق هي تلك التي لا يكتفي فيها على مجرد الدلالة بحيث يكون هناك طرفان فقط : طرف العلامة الدالة من جهة ، وطرف الشيء المدلول عليه من جهة أخرى ، بل يضاف إلى مجرد الدلالة شحنة عاطفية من نوع معين مقصود يراد لها أن تنزوي في نفس الراي أو السامع كلما وقع على رمز معين ، فعلم جمهورية مصر العربية - مثلا - له ما لهذا الاسم من دلالة على البلد المراد الدلالة عليه ، لكنه يضيف إلى مجرد دلالة الاسم على سماء شربا من الشعور يراد أن ينشأ في النفوس كلما وقعت العين على ذلك العلم ... والهلل رمز للإسلام ، والصليب رمز للمسيحية ، فكانهما كلمتان ، لكنهما يزيدان على كونهما مجرد كلمتين لكل منهما مدلوله العين ، إذ هما تضيفان إلى عملية الدلالة موقفا شعوريا خاصا » (٣)

فالكلمات إذن ليست قطعاً من الخشب أو القيسفاء يوضع بعضها إلى جانب البعض ، وإنما الكلمات أرواح تخزن في داخلها مشاعر وإحساسات . وهي وتتفاعل مع غيرها في داخل سياق لغوي قادرة على منح بعضها البعض دلالات وفاعليات خاصة . وبذلك تكون اللغة في يد الكاتب أو الأدبي في حركة خلق مستمرة ، والفن الأدبي استثمار لامتكانات اللغة التي لا تنتهي عند حد .

وإذا فهمنا رمزية اللغة على هذا النحو أصبح الفصل بين الفكر الخالص المجرد ، وبين الشعور والإحساس أو ما تتضمنه كلمات اللغمان أو إبهامات أو إبهامات أمرا بعيدا كل البعد عن المفهوم الحقيقي لآثر اللغة فنيا .

(٢) نظرية المعنى في النقد العربي ص ٧٠ وما بعدها مصطفى ناصف .

(٣) فلسطينيون ص ٤٣ ، دكتور زكي نجيب محمود .

من أجل هذا حق لارسطو ألا يفصل بين الصورة والهولي ، ولكن فهم ارسطو للفة لم يصادف هوى عند مدرسة الفلوفيين الاسكندرانيين ، وعند هوراس وشيشرون فقد رأى هؤلاء ان الشعر عالم من الالفاظ ، واختلط عندهم مفهوم الشعر بمفهوم الخطابة ففصلوا بين الشكل والمضمون تحت اصطلاحى الالفاظ والاشياء (RES) ، واستمر هوراس فمن جاء بعده وحتى فى عصر النهضة فاصبح النظر الى الشعر يتساوى مع النظر الى الخطابة والمنطق وفلسفة الاخلاق (٤) .

ومن الغرب ان يمتد هذا تأثير الى القرن التاسع عشر فينقسم فلاسفة الفن في هذا القرن الى مدرستين : مدرسة الشكل ومدرسة المضمون ، والاعجب من هذا كله ان نرى بيننا اليوم من المعاصرين من يفهم الشعر والادب على انه شكل ومضمون او لفظ ومعنى . ويرجع الفضيلة فيه الى الشكل دون المضمون او الى المضمون دون الشكل . فما اكثر ما نسمع من النقاد ان قصيدة ما جيدة فيما تشتمل عليه من احساسات ومشاعر ، ولكنها فقيرة من ناحية اسلوبها او صياغتها . وكثيرا ما نسمع بعض النقاد يتحدثون عن مسرحية ما فيقولون انها سليمة من حيث البناء الدرامي ، ولكن يعوزها الموضوع الهام ذو الشأن التاريخي او الوطني او الاجتماعي .

وهذه جميعها اخطاء يابها الذوق بل وينفر منها العلم والفهم الصحيح لمعيتي الخلق الادبي والنقد الادبي على السواء .

وليس من شك في ان هذا الخلط في مفهوم العمل الفني خلقا نقدا انما يرجع الى ظهور النظريات الكثيرة مثل نظريات اللذة ، والنظريات الاخلاقية والمادية في الفن وغير ذلك كما يرجع اساسا الى اعمال المنصر الفني اما افلاسنا او عجزنا . الامر الذي جعل اصحاب لنظريات يعتبرون الفن عنصرا لاحقا او عرضيا .

وليس هناك ما هو اشد حسما للخلاف القائم بين انصار الشكل والمضمون من نظرية الخيال عند كولردج فقد حددت النظرية الخطوط الاساسية التي يبنى عليها الخلق الادبي بدرجة لم يعد هناك مجال بعدها للتشيع او الانتقام . فقد عرفنا ان الخيال هو الذي يبدع الشكل العضوي ، وهذا الشكل العضوي ينبع من داخل العمل الفني ، كما انه خاضع لتجربة الشاعر لا لشيء آخر يفرض عليه من الخارج . ومن هنا اصبح الشكل الخارجى في الشعر ليس بذي قيمة في ذاته ، ان قيمته في اتحادة اتحادا عضويا مع سائر العناصر المكونة للعمل الفني . واعتماد كل جزء من اجزاء العمل الفني اعتمادا كلياً على الاجزاء الاخرى هو معيار جودة الشكل عنده . وقد نتج من هذا كله نتائج غاية في الاهمية نجعلها في النقاط الآتية :

اولا : اصبح نقد العمل الفني عند كولردج يقوم على اساس هام هو ان الشكل والمضمون يتحدان اتحادا تاما ، وان الشكل العضوي امر غير مكتسب ، وليس مصنوعا صناعة آتية ولكنه في باطن العمل الفني ويتحدد في تطوره من الداخل ومعنى شكله هو بالضبط اكتمال نموه (٥) .

(٤) ان الشعر ص ١٩١ ، ١٩٢ دكتور احسان عباس

(٥) كولردج ص ٩٣ الدكتور مصطفى بنوي

ثانياً : إن قيمة العمل الفني تأتيه من اتحاد أجزائه ، وإذا كان ثمة قوانين للعمل الفني في قانون العبقريّة ، لا القانون المفروض على الفنان من الخارج . أنه قانونه الخاص الذي يستطيع أن يطرق به أفضل السبل لتحقيق أهدافه ، وبهذا يقضي كورلج على ما كان يلجأ إليه الكلاسيكيون في تقديم عندما كانوا يحددون للقراء أصولاً بعينها لا يحددونها ، ويلتزم بها النقاد فلا يحكمون بالجودة أو الرداءة على عمل فني إلا إذا توافرت لهذا العمل شروط محددة . وبذلك يحطم كورلج فكرة القانون الصارم في النقد ، ويرى أنه مسألة نسبية يحددها العمل الفني نفسه الذي يختلف من شاعر إلى آخر ومن عصر إلى عصر .

ثالثاً : القضاء على ثنائية اللفظ والمعنى التي كانت سائدة في النقد الأدبي قبل كورلج . وله في هذا المجال فهمه الدقيق للغة ووظيفتها في العمل الفني .

فهو يعيز بين الكلمات كأصوات وبينها كأمعان . أو بينها كأدوات اصطلاحية الغرض منها الإشارة ، وبينها كوسيلة من وسائل الدلالة على حقيقة الشيء . غير أن اللغة في الشعر تجمع بين لغة الإشارة الباردة وبين اللغة الحية النافذة للمشاعر . وهو يصف لغة الشعر فيقول عنها : « أنها اللغة الأولى ممتازة باللغة الثانية ، اللغة الاصطلاحية المستخدمة بحيث لا تكفي بمجرد الإشارة إلى الصورة الباردة ، وإنما بحيث تعبر عن حقيقة لشيء (٦) » . ويقول في موضع آخر :

إن الفرق الشاسع بين الالفاظ التي تستعمل كمجرد علامات اصطلاحية للفكر ، والتي هي بمثابة عملة للتخاطب ، عملة ناعمة للملمس أمحوماً كان عليها من رسم وكتابة لكثرة الاستعمال . وبين تلك الالفاظ التي توصل لنا صوراً . سواء أكانت هذه الصورة مستعارة من موضوع خارجي معين لكي تعين وتخصص موضوعاً آخر ، أم كانت مستخدمة بطريقة رمزية لكي تجسد حالة التكلم الباطنة ، أو مستخدمة بحيث تعبر على الأقل عن نزاعه الخاصة » (٧) .

ويعرف الشعر بقوله :

« أنه أفضل الالفاظ في أفضل الأوضاع » (٨) .

ومعنى هذا أن أي كلمة في العمل الفني لا يمكن تغييرها أو استبدالها بأخرى دون أن يفقد السياق معناه . فكل لفظة مستقلة بوجودها متميزة بشخصيتها . فليس هناك لفظة يمكن أن تتساوى مع لفظة أخرى في محصولها من الشعور . خذ أي كلمتين متشابهتين في المعنى وحاول أن تستجلي ما وراءهما من إحساس فستجد أن لكل منهما مزاجاً مختلفاً وروحاً متباينة . من أجل ذلك قال كورلج : « أن الشعر الرائع هو الذي لا يمكن ترجمته إلى الالفاظ أخرى دون أن يفقد جماله شيئاً » (٩) .

(٦) المرجع السابق ص ٩٦

(٧) المرجع السابق ص ٩٦

(٨) المرجع السابق ص ٩٦

(٩) المرجع السابق ص ٩٦

ولو كانت الكلمة مجرد رمز يشير الى معنى او فكرة فحسب لكان يمكن للكلمتين المترادفتين ان يتساويا لو ان محل الواحدة منهما مكان الاخرى. ولكننا عرفنا ان الكلمة ليست مجرد اشارة باردة لمعنى او فكرة ، وانما هي نسيج متشعب من احساسات . بل ان لكل كلمة تاريخا طويلا مرت به ، وظروفا نشأت فيها ، وارتباطات احاطت بها ، وهذا كله كفيل ان يزيد الكلمة خصباً وحياة ، وان يجعلها شخصية متميزة تماماً وهذا هو ما عنده كولردج بقوله :

« ولا يتضمن معنى اللفظة في رأيي مجرد الموضوع الذي يقابلها ، بل يشمل ايضا جميع الارتباطات التي تبعها اللفظة في اذهاننا . فطبيعة اللغة لا تمكنها من نقل الموضوع فحسب ، وانما تجعلها ايضا قادرة على نقل شخصية المتكلم الذي يعرض الموضوع ونوابه » (١٠) .

يتضح لنا من كل ما سبق ان علاقة اللفظ بالمعنى عند كولردج علاقة حية ، وان ارتباطهما وليمح لا ينفك ان تغير اللفظة او تنقلها من مكانها او تستبدلها الا اذا تغير المعنى .

وابساراً : من النتائج الاخرى الهامة التي تولدت من مفهوم كولردج للشكل والمضمون اعتباره الوزن الموسيقي في الشعر جزءاً لا يتجزأ من التجربة الشعرية ، وعصراً ملتصحا التحاما كلياً بسائر العناصر الاخرى المكونة للقصيدة . بل ان الوزن عنده ثمرة من ثمار الخيال ، يقول :

« انني اعتقد انه من البشائر المرضية جذافي تأليف الشاب الولع بالصوت الفنى العذب حتى وان كان في ذلك افراط معيب . ذلك بالطبع اذا كان من الواضح ان الموسيقى في شعره أصيلة ، وليست نتيجة تقليد آلى سهل ... فالصور الشعرية (حتى ولو كانت مستقاة من الطبيعة ولا سيما حين يكون مصدرها الكتب مثل كتب الاسفار والرحلات وعلم الاحياء) شأنها شأن الاحداث المثيرة ، والاقتار الصادقة والمشاعر الشخصية او العائلية الشيقة . كل هذه الاشياء بالاضافة الى فن جمعها او صياغتها في صورة قصيدة ، قد يستطيع اي فرد موهوب ، وعلى قدر من الاطلاع ان يكتسبها بالجهد المتصل مثلياً يكتسب المرء حرفة من الحرف . اما الاحساس بالمتعة الموسيقية بالاضافة الى القدرة على توليد هذا الاحساس لدى الغير فانما هي هبة الخيال وحده . ومن الممكن تنمية هذا الاحساس وثقافته ، ولكنه يستحيل تعلمه ، مثله في ذلك مثل القدرة على خلق اثر موحد من الكثرة ، وعلى تعديل سلسلة من الافكار بواسطة فكرة واحدة سائدة او انفعال واحد مهيمن . ان هذه هي الاشياء التي يصدق عليها المثل القائل بان المرء يولد شاعراً . ولا يمكنه ان يصبح شاعراً من طريق الصنعة » (١١) .

ومعصد الوزن عند كولردج هو العاطفة او الانفعال بمعنى ان الذي يختار الوزن الشعري انفعال الشاعر نفسه فعندما تنور في نفس الشاعر عاطفة جياشة يلجأ الى الوزن او الى الموسيقى لانهما اقرب الوسائل للتعبير عن العواطف المشبوبة ولانها هي الاخرى بدورها

أكثر الوسائل قدرة على تبليغ العاطفة وإثارتها عند القارئ أو السامع . على أن الوزن السلي هو وليد الانفعال والعاطفة المشبوبة بحاجة إلى أن يفرض عليه الشاعر درجة من التوازن ، وهنا تتدخل الإرادة التي تستطيع أن تحول العاطفة الناتجة المشبوبة عند الشاعر إلى ارتفاع محدد خاضع لنظام ، وليس مجرد تفجر عاطفي غير خاضع لسيطرة الإرادة . ومن ثم لا يتحقق الوزن في الشعر إلا نتيجة لدرجة من التوازن بين العاطفة والإرادة . وفي هذا يقول كولردج :

« وبما أن الوزن نتيجة فعل إرادي لأجل مرج اللذة بالانفعال فإنه يجب أن تكون آثار هذه الإرادة واضحة في سائر اللغة المنظومة حسب تدخل هذه الإرادة » (١٣) .

ويربط كولردج بين الكلام المنظوم ولغته ، وهو يرى أن أي كلام موزون بحاجة إلى لغة خاصة تناسبه ، فلما كان الوزن وليد الانفعال وصادرا عن عاطفة الشاعر فكذلك لغته . هذا بالإضافة إلى أن جزءا هاما من موسيقى الشعر ينبثق من علاقات اللغة وأصواتها ونبراتها ، وما تحمله تلك النبرات والأصوات من مشاعر ، ومن هنا نشأت العلاقات العضوية الحية بين الوزن وغيره من مقومات العمل الفني وعلى الأخص اللغة التي هي مستودع الانفعال والموسيقى والصورة .

أما تأثير الوزن عند كولردج فيرجع إلى ناحيتين : الناحية الأولى ناشئة من تكرار وحدة موسيقية معينة تنتشر في العمل الفني كله ، وتعمل على تشويق القارئ ودفعه للقراءة وإثارة حب الاستطلاع في نفسه . أما الناحية الثانية فهي النغمة غير المتوقعة ، والتي لا تنشأ حين التشابه بين وحدات موسيقية متكررة وإنما تلك التي تنشأ من عنصر المفاجأة أو خيبة الظن كما يحلو لريتشاردز أن يسميها . فالإيقاع عنده لا يتحقق من قانون التوقع وحده وإنما يتوقف على قانون المفاجأة أو خيبة الظن . يقول ريتشاردز :

« والتسبيح الذي يتألف من التوقعات والأشياء أو خيبة الظن أو المفاجآت التي يولدها سياق المقاطع هو الإيقاع . وربما كانت معظم ضرب الإيقاع تتألف من عدد من المفاجآت ، ومشاعر التسويف وخبية الظن لا تقل عن عدد الأشياء البسيطة المباشرة . وهذا يفسر لنا لماذا سرعان ما يصبح الإيقاع المترف في البساطة شيئا متعبا للنفس » (١٤) .

وهذه النغمة الناشئة من عدم التوقع أو المفاجأة هي التي تولد الدهشة وتثيرها لدى القارئ في الكلام المنظوم .

ومجمل القول في الوزن عند كولردج انه جزء لا يتجزأ من التجربة ، يصدر عن درجة عالية من التوازن بين العاطفة المشبوبة والإرادة الواعية ، ويثير في النفس حب الاستطلاع وانتشويق والدهشة . ويتألف الوزن مع مادة القصيدة يمكن للشاعر أن يحقق عملا فنيا رائعا

أما الوزن وحده فلا يمكنه أن يحقق قيمة غنيته ذاتة . من أجل ذلك يشبهه كولردج بالخميرة فيقول :

« أن الوزن إذا ما قصد استعماله لأغراض شعرية أشبه ما يكون بالخميرة ، فالخميرة في ذاتها عديمة القيمة ، بل إنها كريهة المذاق ، ومع ذلك فهي تضاف على الشراب الذي تمتزج به بنسب معقولة روحا وحيوية » .

ومن هذه العبارة الأخيرة يتضح لنا أن قيمة الوزن في الشعر لا تتحقق إلا إذا استطاع أن يتحد ببقية العناصر في القصيدة اتحادا تاما .

الشكل والمضمون عند كروتشه :

ومن أهم من تعرض لقضية الشكل والمضمون في العمل الفني الفيلسوف الإيطالي المعروف بندتو كروتشه وأصح كتاب « علم الجمال » وصاحب مدرسة كبيرة في الدراسات الجمالية والفنية .

ولقد لاحظ كروتشه أن هناك ثلاثة تمييزات خداعة تملأ ساحة فلسفة الفن وتفسر المرء بسهولة وبدايتها الظاهرة ولكنها تتعلق بالشكل والمضمون وأشهر هذه التمييزات هو التمييز بين **المضمون والصورة (١٤)** .

وخطورة هذا التمييز في رأي كروتشه يرجع إلى الناقد سوف يجد نفسه أمام قيمتين اثنتين للعمل الفني لا قبعة واحدة . أحدهما يرجع للشكل والآخرى للمضمون . فيرى أشياع المضمون أن الفن هو العنصر الصوري المجرد ، ويرى أشياع الصورة أن الفن هو العنصر المجرد من المضمون .

ويسخر كروتشه من هؤلاء وهؤلاء ، حين يتبع دراستهم وفلسفاتهم ويجد في نهاية الأمر أن كل ما دار من جدل حول المدرستين لم ينته إلا إلى حقيقة واحدة هي أن أصبح أشياع المضمون ، على غير إرادة منهم ، أشياع للصورة ، أصبح أشياع الصورة على غير إرادة منهم أشياع للمضمون . وهكذا وقعت كل من الطائفتين موقفًا الآخرى ، ولكن على غير استقرار ولاطمئنان ، ثم تعود إلى موقفها على غير اطمئنان ولا استقرار كذلك .

ولكن قضية الشكل والمضمون عند كروتشه قد وجدت الحل تلقائيا في تفسيره للفن وتحديد مفهومه . ولخصرنا أن الفن حدى عند كروتشه . وعرفنا ما يعنيه بكلمة الحدى ، وأدركنا أن تعريفه للفن بأنه حدى قد ميز الفن عن المفاهيم المنطقية والفلسفية والاجتماعية ، كما ميزه عن اللغة والأخلاق ، ولكنه مع تعبيره للفن عن كل المفاهيم فهو لم يقلل من شأن المضمون بل لقد جعله نقطة البدء التي تنفرع منها التجربة والحقيقة التعبيرية أو الفنية . ولكنه مع ذلك لم يجعل للمضمون خصائص فنية سابقة على العمل الفني . فإذا كان للمضمون قيمة فهو لا اكتسبها إلا من خلال العمل ذاته .

وينتهي كروتشه في مناقشته لموضوع التمييز بين المضمون والصورة إلى الحقيقة الآتية ، فيقول :
 « والحقيقة هي أن المضمون والصورة يجب أن يميزا في الفن ، لكن لا يمكن أن يوصف كل منهما على انفراد بأنه فني ، لأن النسبة القائمة بينهما هي وحدها الفنية ، أعني الوحدة ، لا الوحدة المجردة الميتة . بل الوحدة العيانية الحية » (١٥) .

ويقول في موضع آخر :

« فسيان إذن (أو قل إنها وسليتان من وسائل التعبير الموافق) أن نعد الفن مضمونا أو صورة ، شريطة أن يكون المفهوم دائما أن المضمون قد برز في صوره ، وأن الصورة متمثلة بالمضمون ، أي أن الشعور هو الشعور المصور . وأن الصورة هي الصورة المشعور بها » (١٦) .

ويقول كذلك :

« والعاطفة أو الحالة النفسية ليست مضمونا خاصا ، وإنما هي الكون كله منظورا إليه من ناحية الحدس . وليس في وسعنا أن نتصور في خارجها أي مضمون آخر ليس في الوقت نفسه صورة مختلفة عن الصور الحدسية :

لا الأفكار التي هي الكون بأسره منظورا إليه من ناحية العقل ، ولا الموضوعات الفيزيائية والعناصر الرياضية التي هي الكون بأسره منظورا إليه من ناحية الإرادة » (١٧) .

وبهذه العبارات الأخيرة المحددة يحسم كروتشه في القضية كلها عندما يربط بين المضمون والصورة هذا الربط المحكم ، فلا يمكن تصور مضمون مهما يكن شأنه خارجا عن الصورة الحدسية . وما الفكر والعقل ، والتخيل والتجربة ، والإرادة إلا وسائل خادمة للفن ولكنها ليست بذاتها فنا .

أما التمييز الثاني الذي لا يقل عن التمييز الأول خداهما والذي تمتلئ به أيضا ساحة فلسفة الفن فهو التمييز بين **الحدس والتعبير** أو بمعنى آخر التمييز بين الصورة وترجمتها المادية .

فمن الناس من يميز بين التجربة باعتبارها موضوع الانفعال والتصوير وبين ما يستخدمه الفنان من كلمات أو أصوات ألوان للتعبير عنها . ويرى هؤلاء أن الأولى هي باطن الفن والثانية هي ظاهرة . ويعتبرون الأولى هي باطن الفن والثانية هي مادته .

ويرد كروتشه على هؤلاء فيرى أن التفريق بين الباطن والظاهر قد يكون سهلا أمره ولو في القول على الأقل ، ولكننا إذا انتقلنا من صليقة التفريق إلى تقرير النسبة أو التركيب فسوف نصلطم بمواقف تخيب الظن وتحطم الآمال ، وإذا بنا ندرك أن تمييزنا كان خاطئا . يقول :

(١٥) الجميل في فلسفة الفن ص ٥٥

(١٦) الجميل في فلسفة الفن ص ٦٦

(١٧) الجميل في فلسفة الفن ص ٥٦ ، ٥٧

« فاني لشيء خارج عن الداخـل وغريب عنه ان يجتمع الى هذا الداخـل ويعبر عنه ؟ كيف يمكن لصوت أو لون أن يعبر عن صورة مجردة من الصوت واللون ؟ كيف يمكن للجسم أن يعبر عما ليس بجسم ؟ بآية طريقة يمكن أن يساهم في فعل واحد الخيال التلقائي والتفكير والنشاط المادي ؟ متى فرقنا الحدس عن التعبير ، وجعلنا طبيعة الاول مختلفة عن طبيعة الثاني ، لم نجد هناك حدا وسطا يستطيع أن يجمع بينهما ويلحسم أحدهما بالآخر . ولا تستطيع جميع نظريات التداوي والعادة والآلية والنسيان التي ارتقاها علماء النفس أن تحل مسألة الاتصال هذه بين التعبير والصورة . وهذا ما اضطر بعضهم الى افتراض أن في المسألة سرا ... فمنهم من رأى أن هذا السر تراوج عجيب ، وهؤلاء من اصحاب الدوق الشعري ، ومنهم من رأى أنه نوع من الموازنة النفسية الجميلة .

وكان ينبغي قبل أن نلجأ الى السر أن نبحت هل كان تفريق العنصرين صحيحا ، بل هل يمكن أن نتصور حدسا من غير تعبير . وفي رأيي أن ذلك لا يقل امتناعا على التصور عن تصور نفس بلا جسد ... والواقع أننا لا نعرف إلا حدوسا معبرا عنها . فالفكرة لا تكون بالنسبة اليها فكرة الا اذا امكن أن تصاغ بالفاظ ، ولا اللحن الموسيقي يمكن أن يكون لحنا موسيقيا ما لم يتحقق بانغام ، ولا الصورة التجسيمية يمكن أن تكون صورة تجسيمية ما لم تظهر بخطوط والوان . ولست أحتم أن تنطق الالفاظ جهارا ، ولا أن تعزف الموسيقى على آلة ، ولا أن تثبت الصورة على خيش . ولكن من المحقق أنه متى بلغت الفكرة حد التضج واصبحت فكرة حقا دارت الالفاظ في كيائنا كله ، فحركت عضلات الفم ، ورنّت في داخل الاذن . ومتى كانت القطعة الموسيقية قطعة موسيقية حقا رايّتها تترنح على الشفاة ، وتحرك الاصابع حتى لكان الاصابع تلعب على اوتار خيالية » (١٨) .

ويقول كذلك :

« انك لو جردت الشاعر من ابحره والفاظه وقواتيه . لما بقى هناك فكرة شعرية كما يخبيل الى بعضهم . بل لما بقى شيء البتة . فانما نشأ الشعر مع هذه الالفاظ وهذه القوافي وهذه الابحر . وليس في وسعنا كذلك أن نقول ان التعبير أشبه بالبرشة بالنسبة الى الجسم . اللهم الا أن نقول : أن الجسم كله ، في كل خليقة من خلاياه ، وفي كل عنصر من هذه الخلايا . هو في الوقت نفسه برشة » (١٩) .

وهكذا ينتهي كرونتشه في مناقشاته بفكرة الفصل او التمييز بين الحدس والتعبير الى حقيقة هامة مؤداها : أنه لا يمكن تصور الفصل بين الفن وماده طالما كانت العبقرية الإصيلة لدى الفنان هي في الحقيقة كاملة في قدرته الفائقة على استغلال مادة فنه واستثمارها على النحو الذي يبلغ به درجة عالية من الكمال . إذ كيف يمكن لإنسان أن يكون شاعرا عظيما وهو يسوء نظم الشعر أو مصورا كبيرا وهو لا يجيد الملازمة بين الالوان . أو موسيقيا موهوبا وهو لا يحسن تحقيق

(١٨) المرجع السابق ص ٦٠ ، ٦١

(١٩) المرجع السابق ص ٦١

التناغم بين الأصوات . أو يكون فناناً كبيراً وهو لا يحسن التعبير ؟ من أجل ذلك قالوا من روافيد
لو لم يكن له يدان لظل مصوراً عظيماً ، غير أنهم لم يقولوا لو لم يكن له إحساس بالرسم لظل
مصوراً عظيماً . (٢٠)

أما التمييز أو التفريق الثالث الذى ملأ مساحة فلسفة الفن والجمال والذى خدع الناس
طويلاً وما زال يخدمهم ، والذى يحرص كروتشه على أن ينبه الأذهان إليه لخطورته على نظرية
الفن ، وعلى المذاهب النقدية هو موضوع التفريق بين **التعبير والجمال** .

وهؤلاء ، في نظر كروتشه ، يقسمون مفهوم التعبير الفنى الى لحظتين « لحظة التعبير بالمعنى
الخاص للكلمة : يعنى الوصول الى التعبير ، ثم لحظة جمال التعبير : يعنى زخرفة التعبير . وعلى
هذا الاساس صنفوا التعبيرات في زمرة تسين : التعبيرات العارية ، والتعبيرات المزخرفة » (٢١) .

ويرى كروتشه أن هذا الاتجاه في التفريق بين التعبير وزخرفة التعبير منتشر في ميادين الفن
المختلفة ، ولكنه قد نما واتسع في ميدان اللغة بوجه خاص ، بل انه يحمل امعنا مشهوراً هو اسم
البلاغة . ذلك لان البلاغة في اعتقاده هى الميدان الذى تنفصل فيه الصورة البيانية عن التعبير .
فكثيراً ما نرى الدارسين في الميادين البلاغية يعنون عناية خاصة بزخارف التعبير من تشبيه واستعارة
ومجاز ، ويفردونها بالبحث والدراسة ، وكثيراً ما يقفون عند هذه الصور وقات خاصة يتناولونها
منفصلة عن التعبير مما جعل بعض الناس يظنون ان للصور البيانية قيمة مستقلة عن التعبير الذى
وردت فيه .

ويعلق كروتشه على هذا الاتجاه بقوله :

« وقد كان للبلاغة تاريخ طويل منذ بلغاد اليونان الى ايماننا هذه ولا تزال تدرس في المدارس ،
يعني بها في الكتب ، بل في المباحث اللغوية التى تزعم لنفسها انها عملية ، فضلاً عن الافكار العامية
بطبيعية الحال ، ولو انه فقد في ايماننا هذه كثير من قوته الاولى ، وقد قبله اناس من أهل الدكاء
والحصافة لا ادرى امن كسل ام لقوة التقاليد ، ومركوه يعيش قروناً طويلة . ولم تكسح تحاول
الثورات النادرة التى قامت في وجهه ان تشيد ثورتها مذهبا ، وان تنتزع الخطأ من جذوره .
ولم يقتصر شر البلاغة التى تقول بوجود لفظة « مزخرفة » مختلفة عن اللغة العارية وسامية
عليها ، لم يقتصر شرها على ميدان فلسفة الفن ، بل تعداه الى ميدان النقد » (٢٢) .

وليس من شك في أن المنهج البلاغى الذى يرجع مقياس الجمال والجودة في الشعر او في
النثر الى ما فيه من صور بيانية منهج لا ينهض على اساس من فهم صحيح للأدب . ولقد نبه

(٢٠) المرجع السابق ص ٦٢

(٢١) المرجع السابق ص ٦٤

(٢٢) دلائل الإحجاز - عبد القاهر الجرجاني - ص ٧٩

عيد القاهرة الجرجاني الى خطورة هذا المنهج في القرن الخامس الهجري ، وذلك عندما قضى على فكرة التفريق بين التعبيرات العادية والتعبيرات المزخرفة بقوله :

« ان من الاستعارة مالا يمكن بيانه الا من بعد العلم بالنظام والوقوف على حقيقته » ، (٢٣)

وفدكان لناقدنا العربي الكبير منهجه الخاص في دراسة البلاغة وهو منهج يختلف كثيرا عن منهج من استمسكوا بالتقسيمات البلاغية الشكلية من امثال السكاكي والقزويني .

وما نفلن ان هناك اليوم من النقاد المحدثين من يجادل في ان الجمال ليس محصورا في الزخرف او الاستعارة . ومن البديهي ان يخلو بيت من الشعر من الصور البيانية ويعتق قمة الجمال في الجمال في التعبير الفني ، بل ان من الشعر مالا يعدو مجرد التعبير عن حالة نفسية تعبيرا بالغ التأثير قوى الإيحاء ، وهو بهذا وحده قادر على ان يبلغ الجودة لسذاجته وصدقته ، ويقول كروثشه في هذا :

« ان التعبير المناسب اذا كان متناسبا ، كان جيلا كذلك ، لان الجمال ليس الا القيمة المحددة للتعبير وبالتالي للصورة . ولذا كنا نعتي بعبته بالعرى انه يعوزه شيء يجب ان يتوافر فيه . فمعنى ذلك في هذه الحالة انه ليس متناسبا ، او انه ليس تعبيرا ، او لم يصبح بعد تعبيرا . وكذلك التعبير المزخرف ، فانه اذا كان تعبيرا في كل اجزائه لم نستطع ان نعتنه بانه مزخرف ، بل بانه عار كالاول وبانه سليم كالاول كذلك » (٢٤)

ويقول :

« ليس التعبير والجمال مفهوميين اثنين ، فما هما الا مفهوم واحد يمكن ان تدعوه بأحد اللفظين على السواء . ان الخيال الفني لا يكون بدون جسد ، ولكنه ليس بدنيا ، ولباسه من ذاته ، لا يلبس شيئا غيره ، وليس اذن بمزخرف (٢٥) .

وبرى كروثشه ان موضوع التفريق بين التعبيرات العادية والتعبيرات المزخرفة يرجع في الحقيقة الى تأثير المنطق والفكر على دراسي اللغة وعلمائها الذين كثيرا ما دارت بينهم المناقشات حول علاقة الفكر بالخيال والفلسفة بالشعر ، والمنطق بالثمن ، والجدل بالبلاغة . ووجد هؤلاء ان التفريق بين الفكر والخيال يقتضيهم ان يصنفوا اللغة الى لغتين : الاولى لغة الفكر والثانية لغة الشعر . وذهبوا الى ان التعبير العادي او العاري هو المطابق للفكر والفلسفة ، وان التعبير المزخرف هو المطابق للخيال والشعر . واستمسكوا بهذه القسمة النظرية التي ان جاز لها ان تصح في مجال التفريق بين لغتين ، احدهما لغة عملية مازمة تستخدم خارج ميدان الشعر ، والثانية لغة الانفعال التي تستخدم في ميدان الادب والشعر . ان مثل هذه القسمة لا يجوز لها ان تصح ، هذا ، اذا تعسرنا كلامنا على ميدان التعبير الادبي سواءمته المزخرف او غير المزخرف ، وذلك اتنا في مجال

(٢٤) ارجع ص ٦٤

(٢٥) المجلد في فلسفة الفن ص ٦٥

(٢٥) المجلد في فلسفة الفن ص ٦٥

الأدب لن نجد إلا خيالا وشعرا وفنا ، وإن ادخال المنطق أو الفكر الفلسفي المجرد هاجنا ، ظلمنا ، خليف كما يقول كروتشه أن يلقي ظلا خادعا ، حقيقيا بأن يلبس الأمر على العقل ، ويوتعه في الاضطراب ، ويحول بينه وبين رؤية الفن في كامل رحابته وثقافته بدون أن يبره منطقا ولا فكرا . (٢٦)

ثم يزيد كروتشه الأمر توضيحا حين يهاجم النظرية المنطقية إلى اللغة تلك النظرة التي فصلت بين النحو والبلاغة . فقد ظن أصحاب هذه النظرة أنه ما دامت اللغة نحوا فينبغي أن تكون نظرتنا إليها نظرة منطقية . والذي زاد الأمر فظاعة أن هذه النظرة المنطقية للغة قد فرست هي الأخرى سلطانها على منهج البلاغة ودراساتها . وحسين يهاجم كروتشه هذه النظرة المنطقية إلى اللغة إنما يبنيه إلى خطورتها على مناهجنا في دراسة الأدب والبلاغة يقول :

« على أن أسوأ الشرور التي سببها مذهب التعبير «المزخرف» لتصنيف صور الفكر الإنساني تصنيفا نظريا هو ما تعلق بنظرة أصحابه إلى اللغة . فأننا إذا سلمنا بوجود تعبيرات عارية نحوية فحسب ، وبوجود تعبيرات أخرى مزخرفة أو بلاغية لزم من ذلك أن ترجع اللغة إلى تعبيرات العارية وأن ترد إلى النحو . وبالتالي ، (ألا مكان للنحو في البلاغة ولا في الفن) السى المتطسق حيث يستند إليها دور ثانوي . والواقع أن فساد اللغة المنطقى مرتبط ارتباطا وثيقا بالمذهب البلاغى في التعبير ، وهو يتقدم معه جنباً إلى جنب ، فقد نشأ معا في العصر اليونانى القديم ، ومعا يعيشان في إيماننا هذه ، رغم تعارض الأول مع الآخر . وقد كانت الثورات على النظرية المنطقية في اللغة نادرة جدا ، ولم يكن لها نتائج ذات بال ، شأنها شأن الثورات التي قامت في وجه البلاغة .

وظل الأمر على هذا المنوال حتى العهد الرومانطيقى ، فأصبحنا نرى لدى بعض المفكرين أو في بعض المراكز المصطفاه ، شعورا قويا بماتماز به طبيعة اللغة من قوة خيالية أو مجازية ، وبما هنالك من روابط تجعل اللغة أوثق بالشعر منها بالمنطق .

على أن كثيرا من خيرة هؤلاء المفكرين ممن ظلوا يرون في الفن رأيا خارجا عن الفن « كالذهب المقيومى أو المذهب الاخلاقى أو مذهب اللذة » ظلوا كذلك ينفرون نفورا واضحا من التوحيد بين اللغة والشعر . وفي رأينا أن هذا التوحيد محترم وسهل معا ، ما دمنا فهمنا الفن على أنه حدى ، وفهمنا الحدى على أنه تعبير ، ووجدنا بذلك ، ضمنا ، بين التعبير واللغة ، إذا فهمنا اللغة بمعناها الواسع . فما قصرنا تحكميا على ما يدعى باللغة الملوغظة ، ولا حدنا منها ، تحكميا عنصر النبرة والاشارة ، وإذا فهمناها بكامل قوتها ، أى إذا فهمناها قى واقعا ، من حيث هي فعل الكلام نفسه ، فما خلطنا بينها وبين مجردات النحو والمفردات . ولا ظننا - يا للحماقة - أن الإنسان يتحدث وقتا للنحو ووقفا للمفردات . ان الإنسان يتحدث في كل لحظة كما يتحدث الشاعر لأنه كالشاعر ، يعبر من تأثيراته وعواطفه في هذه الصورة التى يسمونها كلامية أو مألوفة ، والى لا تفصلها إية

قوة من سائر العصور التي يسمونها نثرية ، أو نثرية شعرية ، أو قصصية ، أو ملحمية أو حوارية درامية ، أو غنائية أو موسيقية وما إلى ذلك . ولئن كان لا يسىء الإنسان أن يعد كالشاعر (وهو في الحق كذلك ، لكونه إنساناً) فما ينبغي أن يسىء الشاعر أن يجمع إلى عامة الناس ، فإن هذا الجمع يفسر لنا لم كان للشعر الراقي سلطان عظيم على كافة النفوس الإنسانية ، فلو كان الشعر لغة خاصة ، لو كان « لغة الآلهة » لما استطاع البشر أن يفهموه لئن كان الشعر يسمو بالبشر ، فإنه لا يسمو بهم فوق ذواتهم ، بل داخل ذواتهم : وهكذا نرى الديمقراطية الحق والاستقرائية الحق ، في هذه الحالة أيضاً التلقين : فيلتقي الفن باللغة ، وتلتقي فلسفة الفن بفلسفة اللغة حتى يمكن أن تعرف كل منهما بالآخرى ، أى أن تعدا شيئاً واحداً ... وإن هذا التوحيد بين الشئيين يعود على الدراسات الفنية والشعرية بفائدة عظيمة ، فيخلصنا من رواسب النظريات المفهومية والإخلاقية ، ونظريات اللذة التي لا تزال تلاحظ بوفرة عظيمة في النقد الأدبي والنقد الفني . كما أنه يعود بفائدة عظيمة على الدراسات اللغوية التي يحسن أن نخلصها من المناهج الفسيولوجية والنفسية الفسيولوجية التي تجرى الآن مجرى المودة ، وإن تحررها من نظرية الاصل الاصطلاحي هذه النظرية التي ما تفك تتجدد ، والتي تستتبع وراءها المزاوجات الغيبية بين الصورة والإشارة ، لأن اللغة لا تفهم على أنها إشارة ، بل على أنها صورة إشارة . أى على أنها إشارة للصورة ذاتها ، وبالتالي صورة ذات لون موسيقى وغناء . إن الصورة هي نتاج عفوى للخيال ، لأن الإشارة التي يتفاهم بها الإنسان مع الإنسان ، تفترض مفهماً وجود الصورة وبالتالي وجود اللغة (٢٧) .

هذا العرض المتع الذي عرضه علينا كروتشه للنظرة المنطقية للغة ، وما ترتب عليها من آثار في المذاهب البلاغية والنقدية جذير بأن يلقى الضوء على كثير مما التبس على أذهان الدارسين حين يفرون بين لغة الخيال ولغة المنطق ، وحين يفصلون بين اللغة والشعر ، وحين يميزون بين اللغة المعارية واللغة المخزوفة وحين يراوون بين الصورة والإشارة ، وكلها تقسيمات خطيرة تعود على النقد الأدبي والبلاغة بالضرر البالغ ، وتباعد بين الدارسين وبين الفهم الصحيح لطبيعة اللغة الأدب .

ولما كانت هذه الأفكار وثيقة الصلة بدراساتنا البلاغية ومنهج العرب القدماء في درس البلاغة ، وفي تصورهم للغة ، فقد حرصنا كل الحرص على أن نثبت هنا ما قاله كروتشه كاملاً حتى ينتبه مؤرخو البلاغة إلى ما ينهض من مناهج البلاغة على مبدأ سليم ، وما لا ينهض منها إلا على ضيق في النظرة وقساد في الحكم .

الشكل والمضمون ووظيفة الأدب

تؤمن المدارس المثالية في الأدب بأن الإثر الأدبي - أيما كان نوعه - إنما يصدر عن تجربة خيالية أو حسدية لتلمس لادناها ولا تهدف لغاية من وراءها ، اللهم إلا ما في التجربة ذاتها من جمال

أو للذة أو جدة . وبمعنى آخر وعلى حد قول وولتر بائر ، ليست الغاية في الإثر الفني هي ممارسة التجربة بل التجربة ذاتها . وواضح أن أصحاب هذه النظرة لا يعنون في التجربة الشعرية أو الأدبية إلا بقيمتها الجمالية والفنية وحدها ، والفن عند هؤلاء ليس وسيلة للتعبير عن المشاعر الخاصة ، بقدر ما هو وسيلة لخلق صور وأخيلة وإحساسات تبعث على اللذة ، وتنتشر الجمال للجمال وحده . أما ما في العمل الفني من نشاط آخر عقلي أو اجتماعي ، أو فلسفي أو أخلاقي فليس له قيمته ذاتية ، وفي هذه الحالة لا تتوقف قيمة العمل الفني على ما فيه من خير خلقه أو اجتماعي أو فلسفي ، ولا يتوقف معيار صدقه على أي شيء يقع خارج العمل الفني نفسه .

وواضح أن أصحاب هذه النظرة لفهم الإثر الأدبي وطبيعته ووظيفته قد تورطوا في خطأ جوهري ، فهم بهذا الاتجاه إنما يعزلون مادة الفن عن صورته ، ولا يلقون بالأل كل ما يقتضيه الأدب من أمور تتعلق بالجنوع والأخلاق وسائر مقومات الحياة الفكرية العميقة ، وما يتصل بالحياة الإنسانية من مشاكل هي في الحقيقة من صميم تفكير الفنان . فإذا كانت مشكلة الفنان الحقيقية هي في محاولته الربط بين شعوره بفردية الحياة وبين حقيقة العالم حواليه ، فإن الشاعر الذي يبدو في وصفه للعالم مغرقا في الرومانسية والمثالية إنما هو شاعر لم يصب الا قسطا ضئيلا من النجاح ، بل لعله أن يكون في بعض الأحيان عازقا عن محاولة الخوض في موضوعات تحتاج إلى تقمص مشاعر الآخرين ، وإلى قدر من قوة الخيال التي بدونها لا تنوافر للادب أصالته وقدراته . أضف إلى هذا أننا إذا زعمنا أن ليس في دولة الفن إلا عبادة الجمال ، وأن الجمال وحده هو غاية الغايات في دولة مستقلة ذات سيادة ، فقد حجبنا الأدب عن ممارسة الحياة ، بل قل جعلنا الحياة شيئا ساذجا لا يستحق أن يعاش .

وفي هذا يرد عليهم الناقد الماركسي جوزيف فريمان بقوله :

« أن الناقد الليبرالي يطلب منا أن نعتقد أننا حين نكتب عن رياح الخريف وكيف مبيت بشعر فناة ، أو نكتب عن النهود العطشى ، انما نكتب عن تجربة . فان كتبنا عن ثورة أكتوبر أو مشروع السنوات الخمس أو عن شتى الزوج في جنوب الولايات المتحدة أو عن أضراب سان فرانسيسكو ، فهذا الموضوعات لا تسمى تجربة » (٢٨) .

وفي هذا أيضا يقول ستيفن سيندو : « الشعر ليس مجرد تصوير لحظة احمرار وجنتا الحببيين أو رؤية جمال الزهرة أو روعة لونا الغروب ، بل الشعر هو الذي يمتد سلطانه فيشمل الحياة بأسرها ، بل وما بعد الحياة ، وذلك النهر الهائل الذي يروي الحياة كلها ، لا يقتصر الضمير الغض ، وإن كان يتجاهل النافه » (٢٩) .

(٢٨) الاشتراكية والادب ص ٥٢ د . لويس عوض

(٢٩) الحياة والشاعر تاليف ريتشاردز ترجمة د . مصطفى بدوي ص ١٨

هداما وقع فيه المثاليون من خطأ امثاليساريون المتطرفون فخطأهم لا يقل فظاظة عن خطأ المتطرفين من البعثيين . فاذا كان البعثيون قلمبذوا الجمال والفرد وحدهما ، فان الساريين قد اخلوا عبادة الجماعة محل الفرد ، وعبادة المادة محل الجمال ، وجعلوا ظواهر المجتمع بشئى صوره السياسية والاقتصادية غاية بسخر لخدمتها الانسان ، وليست وسيلة تسخر لخدمة الانسان .

وما نظن ان القضية بحاجة بعد هذا التحليل الى ان ينقسم فيها النقاد الى فئتين ، احدهما تقول بوجود ان يكون الادب هادفا ، والاخرى تنادى بضرورة ان يترك الادب حرا من قيود الاهداف ، ذلك ان جذور الخلاف كائنة كما يقول الشاعر الالماني الحديث « اريك نوساك » فى خلط الناس بين مفهومين متميزين : مفهوم « الانسانى » ومفهوم الاجتماعى ولو ادركنا فى وضوح ان « الاجتماعى » وسيلة تحقيق لنا « الانسانى » نالزت عن المشكلة عقدها ، لو ادركنا ان كل ظواهر المجتمع بشئى صورها السياسية والاقتصادية انما جاءت ، او جرىء بها لتخدم الانسان - والانسان لا يكون الا فردا - لادركنا تبعا لذلك ان الادب لابد ان يكون هو الانسان المتعين المتجسد . فاذا شغل الاديب نفسه باحداث عصره ، فانما يشغلها بها من الجانب الذى يصور لنا وثقة الانسان ازاء هذه الاحداث ، بحيث اذالزت الاحداث ، واختلت امازتها ، بقيت صورة الانسان حية فى كل عصر وفى شتى الظروف (٣٠) .

وما دام التوجه الى الانسان هو غاية الادب الحقيقية فى كل عصر وكل زمان ، بغض النظر من اتجاهات الادب ومدارسه ، فان الادب العظيم هو الادب الذى يتأمل العالم والانسان وقوانينه ، ويتساءل لماذا تجرى الامور على هذا النحو ، والادب الباقي هو الذى يستمد قوته من الحياة والجمال معا ، وهو الذى ينظر بعين بظلة الى المجتمع الانسانى ، فيناصر من هذه المجتمعات ما يتعشى مع القيم الانسانية ، وما يساير الحق والعدل والجمال . فالادب الحق يحرص على ان يكون لنظم المجتمعات غاية تعكس ما فى نفوس البشر ، وافراد المجتمع الواحد من هموم وآمال وشعور بالحب والحاجة الى التطور والتقدم .

على ان التوجه الى الانسان - ايا كان محتواه الفكرى او الفلسفى او الاجتماعى - لا يرتقى الى مستوى الفن الا اذا توافرت فيه شروط العمل الفنى ، ذلك اننا نعلم ان الذى يحدد القيمة النهائية لاي عمل فنى هو ما يحتوى عليه من قيم فنية وجمالية . ومهما تكن قيمة المضمون واهميته فلا بد له فى النهاية ان يتحول الى فن ، والعمل الذى لا يقنعنا فنيا بظل قاصرا من بلوغ كماله .

نحو علم جمال عربي

((تصور وتطبيق))

● تمهيد ...

شغلتنى - عبر أعوام طويلة من حياتى - فكرة ظلت تلح علي الحاحاً متواصلاً . وكانت تجسد بين الحين والحين في بعض كتاباتى ، بطريقة نظرية أو تطبيقية . ولقد فجر في نفسى هذه الفكرة ، سؤال اقيقته على نفسى بالمصادفة : لماذا لا يكون لنا « علم جمال عربى » ؟ ووجدتنى أبحث عن تحديد دقيق لهذا المصطلح . وفضلت في البداية ان اکتفى بالتعريفات العامة المبسطة . فعرفت هذا المصطلح بأنه « النسق الفكرى المترابط الذى نبحث من خلاله عملية الإبداع الفنى ، ونختبر على ضوئها طبيعة الأعمال الفنية في اللغة العربية ، وسبكولوجية مبدعها ، والعناصر التى شكلت ذوقه بطريقة فلسفية » .

ويمكن ان نحدد بهذا التعريف بعض التحديد ونعتبر علم الجمال العربى : هو « مجموعة الأسس النظرية والقواعد والنواصير التى ندرس على ضوئها التجربة الجمالية .

ونمتحن من خلالها الخبرة الجمالية ، وتذوق عناصرها الفنية ، وفيها التصويرية والتعبيرية والتشكيلية » . فعلم الجمال العربي - الذب يؤدي الى ادراك ماهية الجمال الفني ، في الأجناس الأدبية والفنية المختلفة .

ورحت افتش عن سبب لاختفاء هذا اللون من ثقافتنا العربية المعاصرة . على الرغم من أنها حفلت بكل الأجناس والأنواع الأدبية ، حتى تلك الأجناس الأدبية - التي قيل أن تراثنا العربي قد خلا منها خلوا تاما ، أو على الأقل ، لم يعرفها بصورتها المتطورة الناضجة - كالرواية والأقصوصة والمسرحية ، عرفتها ثقافتنا العربية الحديثة ، وطورتها ، وأصلتها وأنضجتها ، وتحولت الى أجناس أدبية عربية ، لها أصولها الجمالية وتقاليدها الفنية .

فلماذا خلت ثقافتنا العربية الحديثة من هذا العلم ، مع أنه ضارب بجذوره في حضارتنا العربية ، وتراثنا العربي ؟

من الممكن ان نؤجل الاجابة على هذا السؤال ، حتى نتعرف على بدور هذا العلم وجذوره المتأصلة في تراثنا العربي القديم .

● تاريخ وموازنة ...

ولكي تتضح في أذهاننا الصورة كاملة ، نشير الى نشأة علم الجمال وكيف انتقل الى الحضارة الأوروبية وكيف تطور في الثقافة الغربية ... وبدون الدخول في تفاصيل ، نحب أن تقدم عرضا سريعا بين يدي القارئ لنحدد له طبيعة هذا العلم ونشأته ومسار في الحضارات القديمة والحديثة .

نشأ هذا العلم نشأة طبيعية في حضن الثقافة اليونانية القديمة ، وكان طبيعيا أن يكون فرعا من فروع الفلسفة . وقد اهتم به **سقراط** و**افلاطون** و**أرسطو** ، وبحثوا في ماهيته ووضعوا له الحدود والتقسيمات . ونشر الكتب التي اهتمت بفلسفة الفن وعلم الجمال الى بدور هذا العلم في المحاورة التي جرت بين **سقراط** وتلميذه «**هيباس**» عندما سأل سقراط تلميذه .

— ماذا عسى أن يكون الجمال ؟

— وأجاب (هيباس) أستاذه ، بأن راح يعدد له بعض الأشياء الجميلة .

فلم يجد سقراط بدا من أن بلغت نظرت تلميذه الى أنه لم يكن يسأل عن «**الجزئيات**» التي تنطبق عليها صفة الجمال . وإنما قصد من وراء سؤاله : معرفة ماهية ذلك (المدرك) الكلي الذي نسميه باسم (الجمال) . فليس من شأن فلسفة الجمال أن تبحث في احصاء أنواع الجمال ، وإنما تنحصر مهمتها في تعريف ماهية الجميل « (١) » .

(١) الدكتور زكريا ابراهيم : فلسفة الفن في الفكر المعاصر ص ٦ (مكتبة مصر سنة ١٩٦٦) .

ويحدثنا الدكتور **ذكريا إبراهيم** في كتابه « فلسفة الفن في الفكر المعاصر » أن هذا المفهوم الأفلاطوني الذي اشرنا اليه في المحاور السابقة ، ظل كما هو في الفكر الاوربي الحديث ، وبخاصة عند هؤلاء الفلاسفة المثاليين فهو « بعينه فهم هيجل في القرن التاسع عشر لمهمة (علم الجمال) . ففي كتابه (دروس في علم الجمال) ، أكد : انه لا بد من أن نتخذ نقطة انطلاقنا من (الجمال) بوصفه (فكرة) أو حقيقة كلية لأننا بذلك ، وبذلك فقط نستطيع أن نتجنب الوقوع في الكثير من المأزق التي تسببها لنا كثرة المواضيع الجميلة . أو تعدد مظاهر الجمال في الطبيعة والفن على السواء » (٢) .

ثم تطور هذا العلم بعد ذلك في الثقافة الاوربية تطوراً كبيراً ، وبخاصة في القرنين التاسع عشر والعشرين ، على أيدي الفلاسفة والمفكرين ، وتوعدت اتجاهاته ومدارسه وتصوراته حسب فلسفة كل فيلسوف من فلاسفة هذين القرنين . ويبدو أن ازدهار هذا العلم في أوروبا في هذين القرنين يعود إلى ازدهار فلسفتهم وتطورها الكبير ، وكان من الطبيعي أن يهتم الفلاسفة بفلسفة الفن وعلم الجمال ، لأنها من العناصر التي تدخل في مجالات بحوثهم واهتماماتهم . وكان اهتمامهم بدراسة الظاهرة الجمالية والنفاذ إلى باطن العمل الفني لا يعني وضع معايير للجمال يطبقها منتجو الأعمال الفنية ، بل كان مجرد دراسة نظرية معرفية .

فعالم الجمال « ليس بمأمل تنحصر كل مهمته في الإدراك الحسي ، كما أنه ليس بفنان يصدر في عمله من الهام فني ، وإنما هو باحث تتمثل وظيفته في فهم الظاهرة الجمالية ، والعمل على توضيحها في أذهاننا ... فليس (علم الجمال) علماً معيارياً يبين لنا ما ينبغي أن يكون عليه العمل الفني ، وإنما هو علم وصفي يدرس العمل الفني باعتباره ظاهرة بشرية تدخل في صميم النشاط الروحي للموجود البشري ... وعالم الجمال لا ينصح الفنان بشيء ولا يلزمه بشيء . بل يقتصر على دراسة النشاط الفني ، والنفاذ إلى المعنى الباطني العميق للعمل الفني » (٣) .

ثم أخذت نظره الفلاسفة المحدثين لدراسة علم الجمال تتطور وتأخذ مسارات جديدة . فبعضهم اعتبرها مجرد دراسة تجريبية للدوق الانساني . والبعض الآخر يحولها إلى دراسة لسيكولوجية الإبداع الفني والتذوق الجمالي . والبعض ، من الذين يهتمون بالتفسيرات الاجتماعية ، ربطها بالنشاط الحضاري ، وغدت دراسة معنى البحث في العلاقة بين منتج الفن وجمهوره . وقد كانت هذه التحولات ثمرات من ثمار اهتمام الأدباء وغير الفلاسفة ببحوث علم الجمال . وأن كان من الحق أن تقرر أن الفلاسفة والمهتمين بالدراسات الفلسفية ظلوا على اهتمامهم بدراسة علم الجمال ، والاهتمام بالخبرة الجمالية في حد ذاتها ، باعتبارها نشاطاً إنسانياً يؤكد حرية الفرد وقدرته الإبداعية .

(٢) المصدر السابق والصفحة

(٣) المصدر السابق ٧ - ٨ (بتعرف)

على ان أهم تحول طرأ على دراسة علم الجمال ، هو ما حدث في مطلع القرن العشرين ، أو في ريعه الأول على وجه التحديد ، وعلى أيدي مجموعة من الباحثين الألمان من أمثال « دسوار » و « أوتيس » . وغيرهما ، فقد حولوا « علم الجمال » و فلسفة الفن وبحث الظاهرة الجمالية ، إلى « علم عام للفن » وهجروا بصورة نهائية هذه التسميات السابقة : « علم الجمال » أو « الاستطيقا » لتصورهم ان التسميات الأولى ، غير محدده وغير علمية ، وترتبط في أذهان الناس بالتأمل الفلسفي المجرد . في حين انهم كما يقول الدكتور (زكريا إبراهيم) « قد ازادوا ان يجعلوا من (علم الفن العام) دراسة وصفية تستوحيب شتى مظاهر الخبرة الجمالية دون ان تصطبغ بآية صيغة معيارية » (٤) .

وقد كان هدف هذه الدراسة الوقوف على نشأة الظاهرة الفنية وتقويمها « ومعرفة وظائفها البدائية وبيان علاقتها بما عداها من الظواهر الحضارية الأخرى . وقد كتب (أوتيس) مجلدين شخصيين بعنوان « أسس علم الفن العام » حاول أن يبين - فيهما - ان الفن لا يمثل ظاهرة نوعية مستقلة ... بل هو واقعة من وقائع الحضارة أو الثقافة بمنعها العام ... وليس علم الفن العام مجرد دراسة علمية وصفية ، أو موضوعية للظاهرة الجمالية ، تختفي فيها شتى التأملات الفلسفية حول طبيعة الجمال ، وتندم فيها كل الاحكام التقويمية ، بل هو أيضا دراسة بشرية هامة ، تظهرنا على الوظائف الدينية والقومية والنفسية والوجدانية » (٥) .

وإذا كان هذا الاتجاه في دراسة الظاهرة الجمالية قد حاول ان يحولها الى علم تجريبي وضعى فان الفلاسفة ظلوا يعرضون للخبرة الجمالية على ضوء تأملاتهم الميتافيزيقية ، وتأثيراتهم العميقة التي انتقلت اليهم من التراث اليوناني . وواجهوا « المشكلة الجمالية في ضوء فهمهم العام لطبيعة الوجود البشري ، ولصلة الخبرة الجمالية بما عداها من خبرات بشرية أخرى . ومن هنا فقد ظلت فلسفات الفن في القرن العشرين متأثرة بالتيارات الفكرية التي ظهرت في هذا العصر ، مطبوعة بطابع الاتجاه المذهبي لكل فيلسوف من الفلاسفة على حدة . والأهل يمكننا ان نفهم نظرية برجونسون في الفن ، ان لم تكن على علم بمذهبه العام في (الحدس) ؟ ... وهل يكون في وسعنا ان نقف على جوهر « الخبرة الفنية » عند جون ديوي ان لم تكن على دراية واسعة بنزعتة التجريبية المتطرفة واتجاهه البرجماتي الواضح ؟ ... وهل يتسنى لنا ان نفكر معنى العمل عند (هيدجر) اذا لم تكن على وعى تام ، بنوع اتجاهه الفكري ، وطريقته (الغنومولوجية) في تحليل الظواهر البشرية » (٦)

ومن خلال هذه التيارات والاتجاهات المتعددة في دراسة الظاهرة الجمالية تغيرت المفاهيم التي كانت سائدة قبل القرن العشرين ، على يد مجموعة متنوعة من الفلاسفة ودارسي فلسفة الفن من أمثال « بندتو كروتشه » و « جورج سغيتيانا » و « ديوي » و « آلان » و « مالرو » و « البريكامي » و « ميرلوبونتي » و « سارتر » و « مارتين هيدجر » و « أرنست

(٤ - ٥) المصدر السابق (١٠)

(٦) المصدر السابق (١٠ - ١١) « يتعرف »

كاسير» و «سوزان لانجر» و «هيرت ريد» و «سوربو» و «باير» وغيرهم من الفلاسفة والباحثين الذين تناولهم الدكتور ذكرينا إبراهيم في كتابه القيم «فلسفة الفن في الفكر المعاصر» .

ولم يكتف هؤلاء الباحثون في فلسفة الفن في القرن العشرين بإعادة النظر إلى المفاهيم التي درج علماء الجمال على استخدامها مثل مفهوم (التعبير) ومفهوم « الصورة » ومفهوم (الحدس) ومفهوم (الرمزية) ... بل ربطوا علم الجمال بمباحث أخرى مثل (علم اللغة) و « علم النفس » وغيرهما من العلوم التي تهتم ببحوث الذكاء ، والعقيدة ، والإبداع الفني . تلك هي الصورة العامة لنشأة علم الجمال وتطوره وتأثيره على الفكر الأوروبي الحديث ، اعترف أنها أثرت تأثيرا كبيرا في دراساتها الأدبية والنقد الأدبي ، ولكنها لم تبلور تيارا محددا واضحا من تيارات علوم الجمال كما حدث في البلاد الأوروبية .

وان كانت هناك بعض الجهود الفردية التي قامت بترجمة بعض بحوث علم الجمال من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية . وجهود أخرى قام بها اساتذة في تأليف بعض البحوث القريبة من مباحث علم الجمال ، وان كانت أقرب إلى النقد الأدبي ومناهج التحليل النفسي منها إلى علم الجمال ومن هؤلاء وهؤلاء على سبيل المثال : يوسف مراد وأمين الغزالي والقائد وزكي نجيب محمود ومحمد خلف الله أحمد . ومحمد النويهي ومصطفى ناصف وعز الدين اسماعيل وزكريا إبراهيم وأمير قطر ومصطفى سويف وفؤاد البهي السيد وغيرهم من بعض اساتذة الجامعة الذين قدموا دراسات جامعية في الإبداع الفني .

ولكن كل هذه الجهود العلمية الصادقة المخلصة ، لا تشكل ما يمكن أن نطلق عليه (علم الجمال العربي) وهي في معظمها دراسات متأثرة تأثرا شديدا بعلم الجمال الأوروبي وتياراته والباحثين ، ويمكن أن ندرجها في مجال النقد الأدبي والدراسة الأدبية .

ويبقى السؤال قائما : لماذا لا يكون لنا علم جمال عربي ؟ وهل اختفى هذا العلم من ساحتنا الثقافية الحديثة ، لأن رواد الحضارة العربية القديمة لم يلتفتوا إليه ؟ وهذا التساؤل الأخير لا يمثل الحقيقة ولو رجعنا إلى تراثنا العربي ، فسنجد كثيرا من فلاسفة الإسلام والتكلمين والعلماء والأدباء من أجدادنا ، قد عرفوا هذا العلم معرفة دقيقة ، وهم الذين نقلوا هذا العلم إلى العالمين العرب ، قبل النهضة الأوروبية الحديثة ، فقد ترجموا كثيرا من تراث اليونان والفلسفي والأدبي . وقد تأثروا بهذا التراث . وهم الذين ترجموا كتب «أرسطو» واعتبروا أساسا هاما من أسس علم الجمال ، هما كتاب « الخطابة » و « فن الشعر » ، وهذا الكتاب الأخير ترجمه ولخصه من فلاسفة الإسلام « أبو بشرمى » ويحيى بن عدي و « الكندي » و « الفارابي » و « ابن سينا » و « ابن رشد » ، ولا شك أن هؤلاء المفكرين والفلاسفة ، قد عرفوا أفكار الفلاسفة والشعراء والخطباء اليونان ، ووقفوا على كثير من اتجاهاتهم الأدبية والعلمية . وكان يمكن أن يفيدوا فوائد كبرى في مجال علم الجمال والنقد الأدبي . ولكن اهتمامهم كانت تنحصر في المقام الأول إلى الفلسفة والمطلق وعلم الكلام . وجاءت اهتمامهم الأدبية والجمالية تطلعا هاشم رسائلهم الأساسية وتبعها لها .

ولكن هذا الا يمنع من ان نجد عند هؤلاء ومن تأثر بهم من الكتاب والادباء العرب القدامى بدورا تعتبر اساسا نظريا لعلم الجمال ، ازدهرت على ايدي بعض الفلاسفة المسلمين ، وبعض رجال المعتزلة والاشاعرة . وبعض فلاسفة المتصوفين .

وكان هم هؤلاء جميعا الوصول الى الدروقة التأثير في الناس واقتناعهم بأفكارهم . وكان سبيلهم الى ذلك التأثير والاقناع ، هو الكلمة الواضحة ، او الكلمة الملهمة المؤثرة . ومن هنا جاء اهتمامهم بدراسة عناصر الابداع الفني في الكلام ، ووجه تأثيره والهامة وابعائه . وتحولت نظراتهم في هذا المجال الى تاصيل فكري لعلم الجمال .

ويمكن ان نشير على سبيل المثال الى كاتب موسوعي كبير **كاتب عثمان الجاحظ** ، وهو من فرقة من فرق المعتزلة ، كيف شغل هذا الكاتب الكبير ببعض الموضوعات التي تعتبر على نحو ما ، من بحوث علم الجمال ، ومن امعان النظر في كلامه عن هذه الموضوعات نشعر انه كان يمتلك تصورا فكريا لعملية الابداع الفني ، فهو يرى مثلا ان الموهبة الفنية هي الأساس في كل ابداع فني . وان الكاتب الموهوب يدفع بفطرته الفنية الى ابداع اعمال ادبية مكتملة الاداة قادرة على التأثير في الناس . وميسار جودة العمل الفني عند الجاحظ هو هذا التأثير في نفوس الناس أولا . ثم يأتي بعد ذلك ما في الكلام من سواب ومنفعة . ونستطيع ان نجد دليلا على هذا الكلام في تلك النصيحة التي يسديها الى الناشئين من الادباء ، يقول « فاذا اردت ان تتكلف هذه الصناعة ، وتنسب الى هذا الادب ، فقرضت قصيدة اوجرت خطية . او الفت رسالة ، فايك ان تدعوك فتتك بنفسك او يدعوك عجبك بشمرة عقلك الى ان تنتحلته وتدنيه ، ولكن اعرضه على العلماء في عرض رسائل او اشعار ، او خطب ، فان رأيت الاسماع تصفى له ، والعيون تحدج اليه ، ورأيت من يطلبه ويستحسنه ، فاتحلته . فاذا عاودت امثال ذلك مرارا ، فوجدت الاسماع عنه منصرفة ، والقلوب لاهية ، فخذ في غير هذه الصناعة . واجعل رائدك الذي لا يكذبك ، حرصهم عليه او زعدهم فيه » . (٧)

وحول استبجاح الجفاف العلمي في الشعر وعدم بناء القصيدة على الافكار وحدها ، يقول الجاحظ : « لو ان شعر صالح بن عبد القدوس كان مغرقا في اشعار كثيرة ، لصارت تلك الاشعار ارفع مما في عليه بطيقات ... ولكن القصيدة اذا كانت كلها امثالا لم تسر ، ولم تجر مجرى النواذر ، ومتى لم يخرج السامع من شيء الى شيء ، لم يكن لذلك عنده موقع » . (٨)

ويمكن ان نجد في كتابات الجاحظ افكارا كثيرة حول « الوحدة العضوية » وحول « اللفظ والمعنى » وحول « فكرة التأثير » او « الخيال » وغيرها من الافكار التي تعتبر من مباحث علم الجمال .

(٧) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ، ٢٠١ (تعليق عبد السلام هارون)

(٨) العدد السابق ٢٠٦

لحصول اللفظ والمعنى يقول « والمعاني مطروحة في الطريق يمر منها المعجم والعربى والبدوى والقروى والمدينة، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء . وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعر صياغة ، وشرب من النسيج . وجنس من التصوير » (٩) ، فالجاحظ في هذه العبارات يتحدث كعالم من علماء الجمال اللغافين الذين يرون ان العمل الادبي لا يكتمل الا من خلال البناء الغنى والموهبة التي تلتقط المعاني المطروحة في الطريق فتصوغها وتنسجها في كلمات وتعبيرات شغافة ، تبرز جمالها وتزيد في تأثيرها. ولا اعتقد ان الجاحظ كان يهدف من وراء هذه الأفكار وأمثالها الى تفضيل اللفظ على المعنى ، كما ذهب الى ذلك كثير من دارسينا ، ولكنه كان يؤكد تلك الفكرة الجمالية التي ترى اننا لا نستطيع في مجال الإبداع الغنى ، ان نفصل اللفظ عن المعنى ، او نفصل المعنى عن اللفظ ، فهما مقترنان مترجان، ولعل هذه الفكرة هي التي ألهمت - فيما بعد - **عبد القاهر الجرجاني** في نظريته عن « النظم » التي تعتبر بكل المعايير من مباحث علم الجمال ، وهي تلامس كثيرا من أفكار علماء الجمال الحديثين ، والذين يعاودون النظر في كتابي « اسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر يتأكدون من صحة كلامي هذا .

ويمكن ان نشير الى حكيم آخر من حكماء المعتزلة هو **بشر بن المعتز** ، وقد كانت له نظرات في علم الجمال والنقد الادبي . وصحيفته التي سميت باسمه تحمل تلك الانكسار والنظرات . ويقول في هذه الصحيفة حول قضية اللفظ والمعنى « النوع يسلمك الى التعقيد . والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين الفاظك ، ومن اراد معنى كريما فليستمس له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف للفظ الشريف » (١٠) .

وبعدنا عن مناسبة المعاني للالفاظ بقوله لابد « أن يكون لفظك رشيقا عليا فخما سهلا ، ويكون معنك ظاهرا مكشوفاً وقريباً معروفا ، أما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، وأما عند العامة ان كتبت للعامة اردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكللك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة ، انما ساد الامر على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال » (١١) .

وهناك كثيرون من الفلاسفة والإدباء والباحثين العرب القدامى يمكن ان نستشهد بانوالهم في هذا المجال من امثال (**الأمدي**) و (**قدامة بن جعفر**) و (**ابن طباطبا العلوي**) و (**ابن رشد**) و (**ابن سينا**) و (**الكندي**) و (**الفارابي**) . ولكن المجال لا يتسع لهذا .

(٩) (الجاحظ : الحيوان ج ٢) ١٢١ - ١٢٢

(١٠) (نقلا عن البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٨ - ١٢٩)

(١١) (المصدر السابق)

وكذلك الامر بالنسبة للمتصوفة .. ولكن لابد من ان نقف عند قضيتين هامتين في هذا المجال هما :

قضية اعجاز القرآن

وقضية الرموز الغنية عند فلاسفة المتصوفين

فقد ثارت حول القضية الأولى قضايا كثيرة ، وألفت مباحث متعددة . وكان من الطبيعي ان يهتم أصحاب هذه القضايا والمؤلفات بدراسة الظاهرة الجمالية في التراكيب الأدبية حتى يتمكنوا من فهم المغزى الأدبي والغنى لامعجاز القرآن الكريم .

وقد ألف كثير من علماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة وأهل السنة . كتباً تدور حول اعجاز القرآن ، ويعتبرا هنا بصفة خاصة كتابان بعنوان « اعجاز القرآن » الاول « **لأبي سليمان الخطابي** » والثاني « **لأبي بكر الباقلاني** » .

ولست أقف عند هذين الكتابين لأعرف رأى الخطابي والباقلاني في قضية الاعجاز ، ولكن لآتين موقفهما من فهم الظاهرة الجمالية في نتاج الادباء . ففيهما أفكار وتصورات في الابداع الفني والتشكيل البياني وروعة التجارب الأدبية تحتاج الى تأمل ودراسة ، فالخطابي (مثلاً) له مفهوم عام لأجناس الكلام ودرجات جودتها يحددها عنها بقوله « ان أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في نسبة التبيين متفاوتة ، ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية ، فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل . ومنها الجائر المطلق الرسل . وهذه أقسام الغاضل من الكلام ، فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعها ، والقسم الثاني أوسطه وأقصده . والقسم الثالث أدناه وأقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصه . وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ، فانظمت لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفى الفخامة والعدوية ، وهما على الانفراد في نوعهما كالمضادين ، لأن العدوية نتاج السهولة ، والجزالة والمثانة في الكلام تعالجان نوعاً من العورة ، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد منهما عن الآخر - فضيلة خص بها القرآن » (١٢) .

ويمكن ان نقف عند معنيين هامين في هذا الكلام للخطابي هما « الجمال » و « الجلال » وأثرهما في النفس الانسانية ، وهو يعبر عن الجلال في الاثر الفني بالرصانة والجزالة والفخامة والمثانة وعن الجمال بالعدوية والسهولة والسلاسة .

وسما بلغت النظر في كلام الخطابي حول الابداع الفني : ادراكه العميق للعمق المعناني التي يتحملها مبدع العمل الأدبي وما يجب ان يتوافر له من ثقافة وبراعة وقدرة على تحمّل المعاناة وبصر بمواضع التراكيب ونظمها . وهو يحدثننا عن كل ذلك بقوله « وأمر معاناة المعاني التي

تحملها الألفاظ شديد ، بالغ الشدة ، لأنها نتائج العقول ، ولولاد الأفهام وبنات الأفكار ...
وأما رسوم النظم فالحاجة الى الثقافة والحلق فيها أكثر ، لأنها لجام الألفاظ وزمام المعاني .
وبه يتصل إخلد الكلام ، ويلتئم بعضه ببعض ، فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها
البيان « (١٣) » .

وهذا كلام لا يختلف كثيرا عن نظرات بعض علماء الجمال في الحضارة الأوربية الحديثة ، عن
علاقة المعاني بالألفاظ التى تحملها ودور الثقافة والتقاليد الفنية الخاصة بنظم الكلام .

أما « الباقلانى » فهو عالم من أهم علماء الأشاعرة ، وكتابه (أجزاى القرآن) من أدق
الكتب العلمية المبكرة التى تناولت بالتفصيل هذه القضية ، ولكنه تناول الى جانب ذلك ، كثيرا من
قضايا النقد وعلم الجمال . وتعرض فى معظم صفحات كتابه لدراسة الخيرة الجمالية عند
الشعراء والأدباء ، والموازنة بينهما وبين أساليب القرآن الكريم فى التصوير والتعبير ، وطريقته فى
عملية النظم ، وقد تحول الكتاب الى معرض آتيق للتذوق الشعرى العميق .

ويمتاز الباقلانى عن غيره من المتكلمين ومن كثير من اللغويين والكتاب ، بأنه كان يختار نصا
كاملا يجرى عليه تجاربه فى التذوق الفنى، فوقف عند « معلقة امرئ القيس » . واستشهد بأشعار
كثيرة تناولها فى دراسته ووازن بينها وبين البلاغة القرآنية .

وفكرته عن أسلوب النظم فى الكلام جيدة ، وآراؤه حول اللفظ والمعنى ، وعملية الإبداع
الشعرى، سليمة مستقيمة تدل على ذوق مرهف وحس فنى عميق . وهو يميز تعبيرا كبيرا بين
ذوق العلماء ، وذوق الأدباء والشعراء فى عملية التكوين الشعرى والتذوق الفنى . وله تصور
فنى متكامل لطبيعة التعبير الأدبى والفنى .

فالكلام عنده موضوع للإبانة عن الأغراض فى النفوس . وإذا كان كذلك وجب أن يختير من
اللفظ ما كان أقرب الى الدلالة على المراد، وأوضح فى الإبانه عن المطلوب ، ولم يكن مستكره المطلع
على الأذن ، ولا مستنكر المورد على النفس ، حتى يتأبى بفرايته فى اللفظ عن الأفهام ، أو يمتنع
لعويص معناه عن الإبانه . ويجب أن يتشكل ما كان عامى اللفظ. متبدل العبارة ، ركيك المعنى،
سفسافى الوضع ، مجتلب التأسيس ، على غير أصل مههد ولا طريق موطد « (١٤) » .

يبقى أن أشير فى نهاية هذا العرض السريع لبذور علم الجمال وجذوره فى تراثنا العربى ، الى
قضية الرموز الفنية عند فلاسفة المتصوفين . وهى قضية هامة ومتشعبة تحتاج وحدها الى
دراسة متخصصة وتكاد تكون نظرية مستقلة فى علم الجمال ورائد هذه النظرية بلا مراء ، هو
الشيخ الأكبر « محمى الدين بن عربى » . فقداهتدى هذا الفيلسوف المتصوف ، الى نظام
رمزى كامل ، طبقه على اللغة والفكر ووسل من خلاله الى كشوف فكرية وفنية كبيرة .

(١٣) المصدر السابق ١٧

(١٤) المصدر السابق ١٧٨ .

وقد درس (ابن عربي) هذا النظام الرمزي في موسوعته الكبرى « الفتوحات المكية » . درسه في السفر الأول تحت عنوان « علم الحروف » وعاد إليه في السفر الثاني بالبحث والدرس . ولست بصدد تقويم هذا النظام الرمزي الذي اهتدى إليه ابن عربي ، فهذا الأمر محتاج إلى فترة طويلة للتفرغ الكامل لهذا التسق المعقد الذي استغرق مئات الصفحات في الفتوحات المكية ، ولكن الذي لاشك فيه أن قدرة ابن عربي على التذوق الفني والإدراك الجمالي ، تسلكه في زمرة علماء الجمال ، وإن كان الرجل لم يكن يقصد إلى هذا ولا يسره أن ينال هذا اللقب ، فعد كان همه الأكبر الوصول من خلال هذا كله إلى علم الباطن ، ليكون طريقته إلى الروح الأعظم . وسر الأسرار ، الذي كان الهدف من كل مكابذاته الصوفية ، وإشواقه الروحية .



اذن لماذا اهتمنا كل هذا التراث الوائج ؟.. ولماذا لم تتطور هذه النظرات العميقة في دراسة الخبرة الجمالية ، كما تطورت في الحضارات المختلفة ؟

ولماذا بقينا بلا علم جمال عربي حتى الآن ؟

ولا أريد أن اغامر بالرد على هذا السؤال . فليس يكفي أن نقول أن انقطاع تيار الريادة في مجال الفلسفة الإسلامية والعربية كان وراء هذا الأمر . فلاشك أن عندنا مجموعة من المفكرين والدارسين للفلسفة الإسلامية والمهتمين بالأدب والتذوق الجمالي والفني ، كان من الممكن أن يقوموا بتأصيل نظري حديث لعلم الجمال العربي في ساحتنا الثقافية .

وعلى كل حال فليس المهم أن نجيب على التساؤلات التي تثيرها ، ولكن الأهم أن نفجر المزيد من هذه التساؤلات ، ثم نترك الأجوبة عليها للتطورات الفكرية والروحية واحداث الحياة وتقلباتها ، ومرور الأيام وكر الليالي . فهي كفيلة بأن تحل أعقد المشكلات ، وتجييب على أصعب الاسئلة .

وقد نجيب على السؤال بطريقة أخرى ، وذلك بأن نقوم بمحاولات في سبيل الوصول إلى علم جمال عربي . وقد قمت - على امتداد عشرين عاما - بمحاولتين ، أو بمعنى أدق بمغامرتين في هذا السبيل لا مفر من أن أعرض لهما مادمت أتحدث عن خلو ساحتنا الثقافية من « علم جمال عربي » .

وأتضمن أن نثير حول هاتين المحاولتين مزيداً من الجدل والحوار والنقد والتفنيد حتى يبلور هذه الأفكار وتحدد المصطلحات ، مادمنا نسمي إلى « علم جمال عربي » .

محاولتان :

المحاولة الأولى :

أما المحاولة الأولى فقد عرضت لي وأنا أقوم بدراسة تفصيلية في شعرنا المعاصر سنة ١٩٥٨ وكنت أقف عند شعر الرائد الكبير **محمود حسن إسماعيل** طويلاً ، أعيش بين صوره وأندوق

تجاربته الفنية ، وأحفل طرائفه التعبيرية وقيمه الجمالية . ولكن كنت أحس في شعر محمود حسن اسماعيل بشيء آخر غير كل هذا ، شيء يغمر نفسي ، ويهز وجداني ، ويحرك عقلي . وأحيانا كنت أسمع همسه وأصحا في أذني .. ما طبيعة هذا الشيء ؟ هل هي القدرة اللغوية الفائقة عند الشاعر ؟ هل هي الطاقة الشعرية ؟ هل هو قاموس محمود حسن اسماعيل المنفرد ؟ هل هي طريقتة في تشكيل صورته الفنية ، وتراكيبه وتعبيراته ؟ هل هو مزيج من كل هذا ..)

ووجدتني أبحث عن تصور جديد لاكتشاف هذا الشيء . وبعد معايشة طويلة لمعلم شعر محمود حسن اسماعيل ، ووجدتني أهتف : خالفد وصل هذا الفنان الكبير إلى درجة « الوجد الشعري » وسحرني رنين هاتين الكلمتين ، وفرحتهما فرحا كبيرا فقد مهدا لي الطريق إلى المحاولة الأولى . واكتشفت أن الفنان الموهوب لابد أن يصل في مرحلة من مراحل حياته إلى ذروة النضج الفني ، وكما يصل المتصوفة والسالكون إلى الوجد الصوفي يصل الفنان إلى شيء قريب من هذا ، لابد من الكشف عنه وتحديدده بطريقته موضوعية .

الوجد الفني

وقرت أن أطلق على هذا الشيء اسم « الوجد الفني » .

واعترف أن فكرة (الوجد الفني) هذه ، تراءت لي في الأصل خاطرة صوفية عابرة ، في لحظة من تلك اللحظات المرحفة النافذة العميقة التي تشبه الإشراق الصوفي ، وقد اقتنصت تلك الومضة الخائلة ومزجتها بفلسفة الجمال ، ومصطلحات النقد الأدبي ، واستيقظ طموحي العامم وتذكرت خلو ساحتنا الثقافية من علم جمال عربي ، فحاولت أن أجعل من تلك الومضة العابرة لبنة من لبنات هذا العلم . فاستعرت مصطلح « الوجد » من قاموس التصوف والسالكين وأسندته إلى تجربته الفنية فصار « وجدافنيا » . ورحت أدرس على ضوء هذا الاكتشاف « جهاز الإبداع الفني » وطبيعته وطريقته في إبداع التجربة الفنية وأدوات الإبداع التي يعمل من خلالها هذا الجهاز . وجعلت أسأله هل اللغة وما يحيط بها من إشعاعات وظلال ، وما تفجره من شحنات وصور ورموز ، هي أدوات هذا الجهاز ؟ وكيف يعمل هذا الجهاز من خلال هذه الأدوات والرموز ؟

وما علاقة كل هذا بالعالم الخارجي ، أو عالم الفنان الباطني ؟

ثم فكفت - بعد ذلك - على وضع بعض الأسس الموضوعية لهذا (الوجد الفني) من خلال دراسة التجربة الفنية في مراحلها المختلفة حتى تصل إلى ذروة التوهج والإشراق وتقتل معنى كلمة « الوجد » من قاموس الفلاسفة الإلانيين والمتصوفة وحوّلته إلى مصطلح جمالي يمسور ارتباطا مبدع إذن بتجربته الفنية ارتباطا عضويا حميما متوهجا ، فيه جدة الفن وعمق الشعور ونضج الأداة الفنية . وحددت السمات والخصائص التي تميز الوجد الفني . ومنها :

التنبه الحاد المصحوب بيقظة الحس ورهافة الشعور وعمق الإحساس بالحياة .

جيشان النفس واحتدام العاطفة ، والروح الانساني العميق الذي يحتضن الوجود بما فيه من كائنات .

غزارة الوهية ، وثرائها ، واكمال الاداة الفنية ، مع الاحساس بالدهشة الدالمة من مظاهر الوجود ومرايى الطبيعة .

ووضحت ايضا الروايات المتعددة التي يمكن ان نطل منها على الوجد الفني والتي يمكن ان يتحول اليها :

فقد يكون معيارا فنيا نختبر من خلاله التجربة الفنية ، وندرس ظروف مبدعها وطبيعته

وقد يتحول الى فلسفة جمالية اذا درسنا على ضوءه ، تصور الفنان للجمال ، وادراكه للعلاقات والنسب التي تشكل معمار العمل الفني .

وقد يصبح حالة تلم بالفنان ، فتغير نظره الفنية ، وتصيب ادراكه للاشياء ونظيره للعلاقات الانسانية .

وقد يتحول الى سمة من سمات العمل الفني ، وخصيصة من خصائصه ، ويكون ادراك تلك السمات والخصائص الجمالية ، منهجا تقديريا يمكن ان نقيده منه ونفسر على ضوءه الاعمال الادبية والفنية . على ان هذه التحديدات الصارمة لم تمنعني من القيام بمطالعة متعددة من التدقيق الجمالي من خلال منهج « الوجد الفني » فقامت بدراسة لشعر محمود حسن اسماعيل بعنوان « الوجد الشعري عند محمود حسن اسماعيل » . . . ودرست على ضوءه بعض التجارب الصوفية كاحياء علوم الدين ومشكاة الانوار للغزالي . والرعاية لحقوق الله للمحاسبي والرسالة التفسيرية للقشيري . والفنوحات المكية لمحيى الدين بن عربي .

وقامت بدراسة فكرة الموت على ضوء منهج الوجد الفني . ومن خلال هذا المنهج تلوت القصيدة العينية لابن سينا « هبطت اليك من المحل الارفع » . وهي تجربة عميقة تمتزج فيها الرؤية الفكرية بالرؤية الفنية امتزاجا تاما ، حتى ليصعب علينا ان نفرص فيها بين التفكير والتصوير والتعبير . ولعل ذلك يعود الى ان الشاعر كان قد وصل الى تلك الحالة المتوهجة المشرقة ، التي تلم بين يصلون الى درجة الوجد الفني ، فتحولت الفكرة في وجدانه الى تجربة مشبوبة في اعماقه ، فخرجت القصيدة الى الوجود على هذا النحو المركب الذي تسوده وحدة عضوية ووحدة فنية ووحدة شعورية . وقد تراعت لي اشياء جديدة في اثناء الدراسات التطبيقية التي كنت اقوم بها على ضوء نظرية « الوجد الفني » .

مثلا . وانا ادرس الفنوحات المكية لابن عربي تبين لي انه اصل مجموعة من النظرات الجمالية . ووضع نسقا متكامل للمعرفة بلاء مع افكاره وتصوراته . وتوصل الى مجموعة من الرموز الفنية في الباب الذي سماه « علم الحروف او « علم الاسرار » . واشاع مجموعة من المصطلحات الفنية واللغوية من الممكن ان تكون نواة صلبة لعلم جمال عربي . الى جانب ما تناول

اليه من رموز وإشارات ، واستخدامات للغة :مكنته من إبداع مجموعة من النصوص الأدبية والفنية ، اعتقد أنها تثرى نقدنا العربي الحديث، لو صبرنا على فهمها وسير أغوارها ، وأخضعناها للدوق العصري .

واكتشفت وأنا أدرس (مشكاة الأنوار) لإمام أبي حامد الغزالي ، أنه توصل إلى النور الباطني والظاهري وربط بين اللذين يدركون هذه الأنوار وبين من يتدقون الموسيقى ويدركون طبيعة الألحان ويتدقون الأغاني ويعيزون بين الأوتار وقال « فانظر إلى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس ، وهو نوع إحساس وإدراك . ويحرم منه بعضهم ، حتى لا تتميز عندهم الألحان الموزونة المتزحفة . وانظر كيف عظمت قوة الذوق في طائفة حتى استخرجوا بها الموسيقى والأغاني والأوتار » .

وقد نشرت بعض هذه الدراسات التطبيقية التي قمت بها . ولفت نظري بصفة خاصة ما اناره البعض حول دراسة التراث العربي واستلهامه واستيحاءه على ضوء هذا المنهج ، فقد ظن البعض أن هذه حيلة الجأ إليها لاهبياء التراث العربي ، ولا أدري لماذا نحتال لاهبياء تراثنا ، وهو واجبنا جميعا . ولكن الحقيقة المجردة أن « الوجد الفني » معيار نقدي يصلح لدراسة الأدب المعاصر والأدب القديم على السواء .

فليس طريقا لتلخيص آراء العرب القدماء في علم الجمال وتصورهم لفلسفته .

وليس منهاجاً لإعادة النظر في مدلول كلمة الوجد عند الصوفية على اختلاف مدارسهم وتصوراتهم .

وليس دعوة لتفكيكية لمرح أفكار مختلفة من مدارس علم الجمال في الحضارة الأوروبية ، وخطأها بأفكار مشابهة في تراثنا العربي .

فأوجد الفني معيار نقدي معاصر استلهم في البداية التراث العربي ، ثم تحول بعد ذلك إلى مصطلح جديد له أسسه وخصائصه وسماته التي حددها في هذه الدراسة .

وهذا في نظري ، هو المعنى الحقيقي لاستلهام التراث ، فنحن نعمل عقولنا وذوقنا المعاصر في خامات مشبعة بمقمة من تراثنا ، لنحولها بعد ذلك إلى شيء جديد ، له فزارة الإحياء وبقية التراث في إطار المنهج العلمي الحديث .

ليس معنى ذلك أنني لم استغنى من نظرات العرب القدماء في علم الجمال وتصورهم للعملية النقدية ، أو لم استغنى من معاني الوجد عند الصوفية ، أو من أفكارهم في الدوق والجمال والخير والحب والوهم والخيال ، والإبداع الفني بل الصحيح أن هذه الأشياء كلها ، كانت الأخيرة الأساسية لهذه الفكرة ، اختلطت بهذه العناصر كلها وتغلغل فيها فانجنت هذا الذي نسميه « الوجد الفني » .

واعتقد أنني افدت كثيراً من تطبيق (معيار الوجد الفني) على الأعمال الفنية والأدبية للمتصوفة والسالكين ، لأن أصحاب تلك التجارب وصلوا في معظم الأحيان إلى حالة من الوجد

الصوفي ، وهى وقدة روحية مشحونة بالالوان والمظلال تهز النفس الانسانية وتفجر كل طاقات الابداع ، ومن ثم تكون الاعمال التى يبدونها ، على هذا المستوى المشحون المتوتر المتوقد ، وانتهت من هذا الى ان كل اديب لا يصل الى تلك الوقدة الروحية والشعورية وهو يبدع عمله الفنى ، لا يكون اديبا بالمعنى الحقيقى . فدينتج في غير هذه الحالة اعمالا كثيرة ، ولكنها تظل اعمالا فائرة ، لا تهز الوجدان ، ولا تلذ العقل ، ولا تسر القلب ، ولا تثير الشعور . ولا تلهب الخيال ، ولا توصلنا الى هذه الفيضة الفكرية والجدل الروحي ، الذى نشعر به عادة بعد ان نقرأ الاعمال الادبية الشامخة .

وتبين لى - بعد ان وصلت الى هذا الحد ان « الوجد الفنى » معيار خاص لا يصلح لسير افوار كل التجارب الادبية . فهو يهمل التجارب المتوسطة والجيدة ، وينأى عن التجارب العادية . ويستقط من حسابها كثيرا من الادباء والفنانين الذين لم يصلوا الى تلك الحالة من التوهج والاشراق التى تصاحب عادة من يصلون الى درجة الوجد الفنى . وبذلك يكون معيارا خاصا بالقيم والشواخ والاعمال الادبية والغنية الكبرى .

على اية حال ليس هيبا ان يكون الوجد الفنى معيارا خاصا . وليس عيبا ان يعمل الفنان ومبدع الادب الى تلك الحالة ، من التوهج والاشراق التى نسميها وجدا فنيا ، لانهما عندما يصلان الى تلك المرحلة ، يبدعان اعمالا فنية رفيعة ، تمتزج فيها التجربة الشعورية بادوات الفنان والاديب التعبيرية والتصويرية والتشكيلية وتنصهر في باطنهما التجربة اللغوية بالتجربة الشعورية ، ويخرج العمل الفنى موجدا ، تتلأ في داخله رؤية الفنان معتزجة بادواته اللغوية ، وصورة التعبيرية وندفقه الشعورية .

ولكن هذه الخصوصية في المعيار تستلزم خصوصية فيمن يستخدمه . . . واذا كان مبدع الفن قد وصل الى حالة الوجد الفنى ، فلا بد ان يكون الناقد الذى يتناول عمله ، قد وصل هو الآخر الى تلك الحالة من التوهج والاشراق ، اى قد تربيع على قمة الوجد الفنى .

ولا شك ان تذوق الجمال في الحروف والاصوات والانغام والاشواء والاشكال ، يعطى الناقد مصيدا من التجارب المتعددة والدقيقة والخيرة في استكناه اسرار الجمال في العلاقات بين الاشكال وبعضى الزمن والنضج واكتمال الاداة ، والامعان في دراسة الخبرة الجمالية ، تتحول هذه الخبرة عند الناقد الى « حدس فنى » وبذلك يصل الى درجة التوهج والاشراق والوجد الفنى ، التى يصل اليها مبدع العمل الادبى والفنى . وبذلك يتساوى - حبال معيار الوجد الفنى - الفنان المبدع مع عالم الجمال والناقد الذى يتناول الاعمال الفنية ، ويصح الناقد والدارس للخبرة الجمالية فنانا مبدعا . لا فرق بينه وبين الفنان المبدع الا ان الاول يأخذ تجاربه من الحياة مباشرة . بينما يأخذ الفنان الناقد تجاربه الابداعية من الاعمال الفنية . على اننى اعترف ان معيار (الوجد الفنى) لم يستكمل حفظه من الدراسة ، ولم يتحدد بصورة نهائية . ولعل ذلك يرجع الى اننى عانيت في المقام الاول بالدراسات التطبيقية على ضوء اصول النظرية القليلة التى اهتمت بها . ولم اشأ ان افترغ للتفاصيل النظرية في بداية الامر ، وتركت

الباب مفتوحا أمام الجديد الذي اكتشفه على ضوء الخبرة الجمالية ومن خلال تلذوق الأعمال الأدبية . وظل الأمر على هذا النحو حتى استغرقتني المشاغل ، وانصرفت نهائيا عن « معيار الوجد الفنى » ولم أمد أتناوله في مجال التنظير ، أو في مجال الدراسات التطبيقية .

ولكن يبدو أن فكرة « علم الجمال العربى » ظلت تقبع في اللاشعور ، ولم تغرقنى أبدا . حتى أتبع لها أن تخرج في شكل جديد يختلف عن « معيار الوجد الفنى » وكان ذلك نواة المحاولة الثانية .

المحاولة الثانية :

منهج الرؤية الفنية

ولهذه المحاولة قصة ، فقد اكتشفت أثناء مجال الدراسة الأدبية لأعلام شعرن العربى لا تزال تجتر الأفكار التى اعتدى إليها الرواد في مطلع هذا القرن والعقود الثلاثة التى تلت ذلك ، وقد نستثنى بعض الدراسات القليلة التى حاولت أن تصيف جديدا ، أو تقدم شيئا مبتكرا ، مع أن الدراسة الأدبية تطورت في العالم تطورا كبيرا ، واحتدمت الساحة الثقافية في أوروبا وأمريكا بالنظريات النقدية الكثيرة والحديثة .

ثم رأيت ما طغى على معظم دراساتي الأدبية من وقوع في برائن المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فوقعت في خلل كبير أصاب التذوق الجمالى بتكسة كبرى . ولحوت معظم دراساتي الأدبية وخاصة في الثلث الثانى من القرن العشرين الى وثائق سياسية ونظريات في الاجتماع والاقتصاد .

وعن لى أن أف مع القلة القليلة من الأساتذة الجامعيين الذين لا يزالون يولون القيم الجمالية عناية كبرى . ويحاولون إعادة الدراسة الأدبية الى طبيعتها الأصلية .

وفكرت في القيام بعمل إيجابى يجمع بين امرين . **الإصر الاول :** إعادة دراسة اعلام شعرن العربى من جديد ، حتى هؤلاء الذين درسوا على أيدي الرواد وأعلام النقد العربى الحديث . في محاولة لتقديمهم للأجيال الجديدة من خلال تصور جديد يستلهم ما جد من تطورات على مناهج النقد والدراسة الأدبية في العالم .

والامر الثانى : أن اصطنع منهجا جديدا يتيح لى أن أنفذ من خلاله الى جوهر التجربة الفنية لهؤلاء الشعراء ، وأن أقدم شيئا جديدا ، يحمل بعض النظرات المبتكرة .

واخترت أن أبدا دراساتي هذه ، بتقديم شاعر من اكبر شعراء العربية على امتداد عصورها هو « أبو الطيب المتنبى » وكان السبب في اختيار هذا الشاعر ، وتقديمه في طبيعة هذه الدراسات لونا من العاطلة ، ونوعا من التحدى ، فهذا الشاعر بالذات حظى بدراسات كثيرة والفقت حوله مئات الكتب في التقديم والحديث . والأقبال على دراسته من جديد ، يؤكد للأجيال الجديدة ، أن طبيعة الدراسات الإنسانية تختلف عن طبيعة العلوم ومناهجها ، وأن احدا لا يستطيع أن يقول فيها الراى الاخير ، وأن التجارب الفنية والأدبية مهما قبل حولها ، في حاجة دالمة الى من يقول

فيها رأيا جديدا . واهتديت - بعد معاناته -الى منهج متميز ، تناولت على ضوءه التنبي . وسميته « منهج الرؤية الفنية » . وقمت بتحديد هذا المنهج تحديدا نظريا ، وفصلت قواعده وأساسه العلمية . وان كنت في دراستي لعالم التنبي الشعري لم أشأ ان اقله بتلك التفصيلات النظرية ، وهذه الاسس الفكرية (١٥)

واكتفيت بتقديم بعض الاصول النظرية العامة في مقدمة المقالة الاولى من هذه المقالات التي نشرتها عن التنبي ودخلت فيها عالمه من خلال رؤية فنية . وكنت انثر بين الحين والحين - وفي اثناء الدراسة ، بغض ملامح نظرية لهذا المنهج .

معالم منهج الرؤية الفنية

ويمكن في هذا المجال ان اتناول بصورة قامة معالم منهج الرؤية الفنية ، واحدد سماته المميزة . واشير الى بعض ادواته وبعض مصطلحاته الجمالية .

ولا أريد ان اضع له تعريفا جامعاً مانعاً من الوجهة الاولى ، ولتقتصر على وصفه حتى يتيح له النمو بعد ذلك . وهو على أية حال « منهج ينظر الى العمل الادبي من الناحية الفنية والادبية . وليس مقبدا بصورة سابقة ولا بمنعطف فكري معين ، او مذهب سياسي او اقتصادي او عقيدة من العقائد ، ولكنه يلج مباشرة الى داخل العمل الادبي مجردا من كل الافكار السابقة . ثم يحاكم العمل من خلال مقاييسه الجمالية والفنية ، ويصل الى اهدافه ومرامييه من خلال معايير فنية بحث .

ولكن ليس معنى ذلك ان هذا المنهج يتنكر للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية لمبدع العمل الادبي والفني ، فلا شك ان هذه الظروف تؤثر تأثيرا عميقا بصورة او باخرى على الاعمال الادبية والفنية ، وتشكل طابعها العام ، وملامحها الاساسية ، وتميز تقاليدها الجمالية في عصر من عصر آخر . ولكن هذا التأثير لا يكون بصورة مباشرة فقد يكون بلرة صغيرة تنمو داخل التجربة الادبية والفنية وتحول مسارها وجهات متعددة ، وقد يكون هذا التحول ملأما لطبيعة هذه الظروف ، وقد يكون على النقيض منها ، وقد يكون مزيجا مركبا من هذين النقيضين ، المهم ان الفنان عندما يجسّل تجربته الفنية ، لا يصوغها من جزئيات العالم الخارجي بطريقة مباشرة ، ولكنها تتحول بجوهراتها وعناصرها داخل جهاز ابداعه الفني هذه التحولات المركبة المقعدة . ثم يرداد تعقيدها بما يحيط بها من عناصر الابداع الاخرى غير المنظورة والتي ترجع الى طاقة الفنان وموهبته .

ومن اجل هذا كان على الناقد الذي يتناول عملا ادبيا او فنيا ، ان يطرح كل افكاره السابقة ، ويدخل مباشرة الى داخل العمل الادبي والفني ويتذوقه ويتعرف على عناصره الجمالية والفكرية ، ويعرف طبيعته الفنية وتقاليدته الجمالية . ولشاك ان كل عمل فني له عالم خاص مستقل

(١٥) المقالة - مايو سنة ١٩٧٧ وراجع الاصدار (٤) ٨٤٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ من مجلة الثقافة .

كل الاستقلال عن كل الظروف الخارجية ؛ وله معايير ومقاييس الخاصة به ، وقد يكتشف الناقد أن جزئيات العمل الأدبي والفني الذي يعيش في داخله ، قد تشكلت من بعض عناصر العالم الخارجي ، ومن كل عناصره ، وقد يجد في داخل العمل اصداؤه واضحة للظروف السياسية والاقتصادية والعقائدية التي احاطت به . هنالما يمكن لمنهج الرؤية الفنية ان يتنكر لهذه العناصر التي اكتشفها الناقد من باطن العمل الفني والأدبي .

ولكن منهج الرؤية الفنية يتنكر كل الأفكار، ما شاع في بعض الدراسات الأدبية التي تصطنع المناهج الاجتماعية والعقائدية بما يسمى (بالاحتمية والجدلية) بين ظروف مبدع العمل الأدبي والفني وبين ظروفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية وطبيعة حياته وترباته . لأن الذين يقولون بهذه الحتمية ، مقيدون بمعايير أخرى ، تختلف عن معايير العمل الأدبي والفني ، ثم هم يبدأون دراساتهم من خارج النص الأدبي والفني ، فإذا دخلوا إلى باطن العمل الفني ، فلن يجدوا فيه من السياسة والاقتصاد والاجتماع واصداؤه المذاهب والأفكار ، ويقبضوا على ضوئها شعير الشاعر وعمل الأديب وفن الفنان ، ويبحثوا عن مطابقة هذه الأعمال لتلك الظروف الخارجية ، فإذا طابقتها فهي أعمال أدبية صادقة وممتازة ، وإذا لم تطابقها فهي في نظرهم أعمال غير صادقة أو ضعيفة أو زائفة . وبذلك تتحول الأعمال الأدبية والفنية . عند هؤلاء إلى وثائق سياسية وتاريخية واجتماعية وفي بعض الأحيان إلى وثائق نفسية .

ولكن منهج الرؤية الفنية يتنكر كل الأفكار ، جذريا عن تصور هؤلاء ، يختلف في طبيعة عمله ، وفي تصوره وفي ادواته الفنية . فهو - كما قلت يبدأ من داخل العمل الأدبي والفني نفسه فهذا العمل الأدبي والفني في نظره ، كونه مستقل عن عناصره الأولى وجزئياته التي أسهمت في تشكيله ، كونه خاص له قواعده الموضوعية وتقاليده الجمالية الخاصة به . فشمع المتنبي مثلا عالم لغوي جمالي ، مستقل كل الاستقلال عن عناصره الأولى التي شكلته ، وهي ظروف الشاعر السياسية والاجتماعية وتأثره بأفكار عصره وعقائده مجتمعه ، هو خلق لغوي مستقل ، ولكن يمتد في داخله كل ما يمتد في الحياة من تيارات ، ولكنه ليس الحياة ذاتها ، وقد نصل من خلال هذا العالم الفني إلى أحداث وظروف تطابق أحداث حياة الشاعر وظروف نفسه ، وقد نصل إلى أحداث تناقض الأحداث التي نعرفها عن الشاعر لأن الشاعر عندما يشكل تجربته الشعرية تتفاعل وتتحول إلى خلق لغوي وعالم فني مستقل عن جزئياته التي شكلته ، فظروف الشاعر وأحداث حياته ، قد تكون مجرد مثير للتجربة ، وقد تلهمه تلك الظروف والأحداث صورا عكسية . وقد يعبر الشاعر في تلك الأحداث وقد يضيف إليها أحداثا من عنده يخترعها اختراعا . وقد يطمس كل الأحداث الخارجية طمسا تاما . ولهذا فالربط الحتمي الساذج بين الظروف الخارجية وبين العمل الفني ، عمل تأباه طبيعة (منهج الرؤية الفنية) . وهذا هو الفرق الأساسي الذي يميز هذا المنهج عن بقية مناهج الدراسة الأدبية التي تهتم بالرؤية الاجتماعية .

(الرؤية الفنية) منهج فني يهتم بالعمل الفني وحده ومن دخله يصل الى كل القيم الفكرية والجمالية . وقد تكون هذه القيم من عالم السياسة او من عالم الاجتماع او من طبيعة النفس البشرية ، المهم ان نتوصل اليها من داخل العمل الفني وفي اطاره ، وبهذا يختلف منهج الرؤية الفنية أيضا عن مناهج الدراسة الأدبية ، التي لا تهتم الا بالنواحي الجمالية او تصنع مناهج التحليل النفسي ، او التحليل اللغوي .

انه منهج يجمع في اطار واحد بين جوهر كل تلك المناهج ، ولكنها تتفاعل وتتوحد وتتحول الى معيار واحد هو ما اطلقت عليه « منهج الرؤية الفنية » .

لقد افاد هذا المنهج من كل مناهج النقد الموضوعية والتاريخية والجمالية والاجتماعية والنفسية . ولكنه في النهاية حدد لنفسه نسقاً معيناً يميزه عن كل هذه المناهج ، وجعل له طبيعة مختلفة ووظائف متباينة .

على ان هذا المنهج لم يقتصر في تناوله للأعمال الأدبية والفنية على الادوات المتعارف عليها في مجال الدراسات الأدبية ، ولم يكتشف بمصطلحات البلاغة القديمة ولا مصطلحات النقد السائدة . وانما اصطنع لنفسه مصطلحات جديدة ووسك تعبيرات جمالية جديدة ، ونوع في استخدام الادوات النقدية وافاد في كل ذلك بعلم اللغسة الحديث والدراسات الصوتية . كما افاد من مجالات فنون أخرى كالغنون التشكيلية والموسيقى والتصوير .

ولقد كانت الدراسات التطبيقية مجال الاختيار هذا المعيار الجديد وامتحان المصطلحات الجديدة التي حاولت ان احكمها . لان الاصول النظرية لاي منهج من المناهج ، تظل قيماً جامدة ساكنة ، لا تنبض فيها الحياة الا اذا نزلت الى ساحة الاستعمال التطبيقي . وقد اتاحت لي دراسة شعر المتنبي من خلال منهج « الرؤية الفنية » ان اختير بصورة تطبيقية معظم هذه المصطلحات الجديدة . فاسهمت بشكل جيد في حل كثير من المشكلات التي كانت تواجهني ، وانا اقوم بعملية التدقيق الفني ، قبل ان اهتدي الى هذه المصطلحات . وارجو ان استشهد في غير هذا المجال بنماذج تطبيقية تبين كيف كنت اقلب على هذه المشكلات ، لاني خصصت هذه الدراسة للجانب النظري .

ولست ارجو في استقصاء كل المصطلحات التي حددتها خلال « منهج الرؤية الفنية » وكفى ان اذكر اهم هذه المصطلحات مع التعريف به .

واعلم من اوائل المصطلحات التي احدثت اليها مصطلح « التشكيل اللغوي » « والفنان العظيم يملك الى جانب موهبته الفنية وطاقته الإبداعية موهبة التشكيل اللغوي ، وهي التي تعينه على تشكيل العمل الأدبي والفني من خلال الصور ، او من خلال براعته في استخدام الكلمات وتتابع المقاطع ، والقدرة على استخراج ظلال الالفاظ وايجادها وجرسها ، واكتشاف المعاني المستكنة في باطن الكلمات .

وهناك مصطلح آخر يتصل بفكرة التشكيل اللغوي في الشعر اطلقت عليه « بناء القصيدة على طريقة الوحة » فالشاعر الذي يملك القدرة على هذا التشكيل الفني . يبنى قصيدته بالطريقة

التي يشكل بها الفنان لوحته . فكما يهتم الفنان - وهو يبدع لوحته - بالأضواء والظلال ، والفراغ والنسب في المساحات والألوان ومعالم الاطوار التي يضم كل هذه العناصر ، يهتم الشاعر بكل هذه الاشياء . ولكن في حدود وسائله التعبيرية والتصويرية ؛ فادواته التي يبنى منها قصيدته على طريقة اللوحة : هي الحروف والانفاظ والمقاطع . والشاعر الذي يملك هذه القدرة الفنية ، يستطيع أن يشكل عمله من خلال تنابع الحروف وانتقاء الالفاظ والمقاطع . يستطيع أن يحدث ظلالا وفراغات ومساحات ويفجر فيها الضوء ؛ وقد يستخدم موهبته السمعية والبصرية في مراعاة النسب في القصيدة وادراك التوازن والتباين والتسلسل والإيقاع والتماثل في الاطار العام الذي يشكل فيه القصيدة وذلك لتحول القصيدة الى لوحة تبحث فيها عن كل هذه العناصر التشكيلية . وقد اتاح لى هذا المصطلح ان اسمى قصائد المتنبي لوحات ، وحظ كل هذه العناصر تفصيليه على ضوء هذا المصطلح الجديد ثلاث لوحات من شعر المتنبي . هي اللوحة الأولى وهي قصيدته التي مطلعها

- « ضيف الم براسى غير محتشم
واللوحة الثانية : قصيدته التي مطلعها
« واعر قلباه معن قلبه شيم
واللوحة الثالثة : قصيدته التي مطلعها :
« ليالي بعد المظاعنين شوكوك
طوال وليل العاشقين طويل »

وقد تبين لى بعد تدقيق هذه اللوحات الثلاث ان المتنبي يملك حسا فنيا متفوقا وقدرة باهرة على الاحساس بالألوان والظلال في الكلمات ، ولقد كان يشكل منها لوحاته الفنية تشكيلا اخاذاجذابا لا يتأتى الا لفنان موهوب يملك ناصية اللغة ، ويعرف كل مفرداتها ، ويتفهم دلالاتها المختلفة .

هناك مصطلح آخر اطلقت عليه « الإشعاع الفنى » وهو مترتب على سجية شخصية تكون في الفنان الموهوب . وهي « جاذبية الشخصية » الفنية . والفنان الذي يملك جاذبية الشخصية يتمكن بسهولة من ادراك الانفاظ والتعبيرات والحروف والمقاطع التي تسهم في عملية البناء الفنى وتزويد في حيوية العمل الفنى ، ولكن هذه الجاذبية تتحول الى شيء آخر عند الفنان البديع هو الذى سميت « الإشعاع الفنى » . وهو شيء لا يمكن ان نقف عنده في تعبير او تصوير او تركيب او صورة ، ولكننا نحسه عندما نقرأ العمل الفنى؛ ساريا كالنور يضيء بين اجزائه وفصوله ، ونفكره آتاه بالندى ، متمثلا في تلك النبطة والنشوة والجلل الروحي ، الذى نحس به بعد فراغنا من قراءة عمل فنى ممتاز .

أتنا نحس آثار هذا « الإشعاع الفنى » ونظرب لها ، لا مجرد طرب حسى عابر ، ولكن على صورة جيشان فكري وروحي وفنى ، بلازمناتنا طويلا ونغترنا . وبذلك نصير شيئا آخر غير الذى كنا عليه ، قبل القراءة . . شيئا جديدا يضيء داخلنا ذلك (الإشعاع الفنى) الذى سرى إلينا من العمل الفنى العظيم .



هذه أهم المصطلحات الجديدة التي أضافها (منهج الرؤية الفنية) ، الى مصطلحات النقد الادبي وعلم الجمال .

وهناك مصطلحات أخرى ثانوية وغير دائمة تبقى من داخل العناصر التي تشكل العمل الفني او من الإنكار التي يحتوى عليها العمل .

مثلا « فكرة الزمن » قد تتحول عند فنان موهوب من مجرد فكرة تدل على معنى محدد ، الى مصطلح جمالي يسهم في تشكيل العمل الفني كله ، فتصهر كل الادوات التعبيرية والتصويرية وتؤدي فكرة الزمن في كل جزئية من جزئيات العمل الفني .

ولا اريد ان اتابع الحديث عن هذه المصطلحات الثانوية ويكفي هذا المثال دليلا عليها .

ونعود مرة أخرى الى منهج (الرؤية الفنية) بعد ان عرفنا طبيعته ووظيفته وادواته التي يستخدمها صاحب هذا النهج في تدقيق الاعمال الفنية ، لتسائل . :

هل هذا منهج جديد حقاً ؟ وهل من حق الباحثين والدارسين ان يحاولوا اسطناع مناهج جديدة في النقد الادبي وعلم الجمال ؟

وسأترك الرد على الشك الاول من السؤال للراىء ، الذي عرف هذا المنهج من هذا العرض النظري ، وتابع تطبيقاته التي نشرتها في مجلة الثقافة القاهرية . واتخذت شعر المتنبي مجالاً لتطبيقه ، وتحديد قيمة الفنية . واختبار معايير الجمالية .

أما الرد على الشك الثاني من السؤال . فيتلخص في ان من حق كل باحث او دارس في كل عصر من العصور ان يتدقق العمل الفني بالطريقة التي تروق له ، وان يعيد قراءة الاعمال الفنية القديمة ، قراءة جديدة ، وان يستخرج من تجربة الاديب والفنان ، ملامح جديدة في الابداع والفن ، وان يعيد تحليلها وتركيبها على ضوء قراءته الجديدة من خلال ما يصطلح من مناهج .

وهذا هو العمل الذي يعمل منهج « الرؤية الفنية » والذي حاولت استخدامه .

قراءة جديدة للتجارب الادبية والفنية ، وتحليل مكوناتها الجمالية ، وتفسير لخصائصها الفكرية والروحية ، وتركيب جديد - على ضوء هذا التحليل والتفسير - حول التجربة الفنية والحديث عنها ، الى شيء جديد . وبهذا يتحول العمل النقدي الى عمل فني ابداعي ، يثير من الامتناع والذلة العقلية والفنية ، ما تثيره التجربة الاصيلية من متعة جمالية وروحية . وتتحول - بذلك - التجارب النقدية الى تجارب فنية . وبقدر ما تعدد الاعمال الفنية ، يجب ان تعدد الاعمال النقدية التي من هذا الطراز الفني ، بل يمكن ان تعدد الاعمال النقدية تعددا كبيرا حول عمل فني واحد . فالعمل الفني لا يسبح بكل اسراره لناقد واحد مهما كانت مواهبه وقدراته واكتمال ادواته . وسيظل لكل ناقد جديد سعده - سر جديد يبوح له به دون غيره ، ومن الممكن ان يظل العمل الفني محتفظا بأعظم خصائصه واجمل سماته واكبر اسراره لناقد معين قد لا يبقى الا بعد ألف عام او اكثر .

ولعل هذا ما يغسر لنا ما نراه الآن من جدة وطراجة وإبتكار في دراسات نقدية جديدة .
نعرض لأعمال جاهلية وعباسية وأموية . كما نجد في دراسات الدكتور مصطفى ناصف عن الشعر
العربي ودراسات الدكتور عبد القادر القط عن الأدب الإسلامي والأموي ودراسات الدكتور محمد
النويهي عن الشعر الجاهلي ، ودراسات الدكتور إبراهيم عبد الرحمن . وغيرها من الدراسات
التي تتناول جوانب الأدب القديم .

لكن يبقى ان اطرح على نفسي سؤالاً ، هل هاتان المحاولتان اللتان قدمت لهما تأصيلاً نظرياً
هذه الدراسة يمكن ان تكونا نواة لعلم جمال عربي ؟

✽ وهل تصلحان أساساً نظرياً لمزيد من الدراسات التطبيقية ؟

✽ وهل تصمدان للنقد والتحقيق ؟

✽ وهل حقاً هما محاولتان جديدتان ؟

وداع الإجابة على كل هذه الاسئلة للمتخصصين في الفلسفة والنقد الأدبي وعلم
الجمال وعلوم اللغة ، ولا شك اني سأفيد من توجيهاتهم فائدة كبرى .

ولكن ردي على السؤال بصفة مبدئية انني لم انظر الى هذين المنهجين الا على انهما محاولتان .
وهذا وحده يؤكد انني لا ازال في مجال المحاولة والتجريب . وقد اصل في يوم ما الى اساس
نظري متكامل يصلح ان نقول عليه : هذا هو « علم الجمال العربي » ولكن هاتين المحاولتين ــ
وحدهما ــ لا تصلحان أساساً لهذا العلم الذي نهضوا اليه ، ونسعى الى تأصيله في ساحتنا
الثقافية ، ولكنهما بالتأكيد خطوة نحو علم جمال عربي .

تقديم المحاولتين

واذا كان لي في نهاية هذه الدراسة ، ان أقوم بنقد هاتين المحاولتين ، فاني اعترف اولاً
بالعيب الاساسي ، الذي تسلل اليهما ، على الرغم من محاولتي الشديدة تجنب الوقوع فيه ،
وهو الاختلاط وعدم التحديد الدقيق للمصطلحات ، وان كان هذا الامر في النهاية
سيجيب لي ان امعن النظر طويلاً حتى انتهى الى التحديد الدقيق للمصطلحات ، والتعريف الجامع
الماتع لها .

وهناك مشكلة تتور حول هذين المنهجين ، ومن الممكن ان تكون عيباً ، ما لم نحاول العمل
على تحديد حجمها وتوضيح ما تثيره من اختلاط .

وهذه المشكلة تلخص في ان هذين المنهجين يشابهان مع مدلول « النقد الأدبي » بشقيه
النظري والتطبيقي .

وفي رأيي ان النقد الأدبي يثقف على ارض مشتركة مع « علم الجمال » وهناك مساحات
كبيرة يتجولان عليها معا .

على أن علم الجمال ظل لفترة طويلة فرعاً من فروع الفلسفة ، وعندما انفصل عنها احتضنه النقد الأدبي ، وظل رافداً من روافده حتى الآن ، والنقد الأدبي نفسه ظل معترجاً لغترات طويلة بالدراسات الأدبية والأدب المقارن وتاريخ الأدب والنظريات الأدبية . ولم يستقل كل علم منهما استقلالاً تاماً إلا بعد تقدم الدراسات العلمية وقيام المتخصصين بتحديد دقيق صام لكل نوع من هذه الأنواع .

ولهذا لن انزع كثيراً إذا وجدت هاتين المحاولتين تتدخلان على نحو ما في مجال النقد الأدبي .

وإن كنت اعتقد أنهما أقرب إلى علم الجمال منهما إلى النقد الأدبي . لأنهما تحاولان أساساً البحث في ماهية الجمال . والخبرة الجمالية في الأدب والفن .

و (معيار الوجد الفني) موغل في القرب من علم الجمال ، لأنه يقوم في البداية على أساس فكرة فلسفية ، اقتبسها من قاموس فلاسفة التصوفة . ولأن الأسس التي يقوم عليها أقرب إلى التنظير الفلسفي ، وهو من هذه الناحية يكاد يكون علماً « معيارياً » وإن كانت له جوانب أخرى تمثل في الأدوات الفنية التي يستخدمها لدراسة الخبرة الجمالية ، وتذوق النصوص الأدبية والفنية . وهذا الجانب يقرب من النقد الأدبي ويجعل « الوجد الفني » يلامس مناهج العلوم الوصفية .

أما منهج « الرؤية الفنية » فعلى العكس من (منهج الوجد الفني) جانبه الأهم ، موغل في القرب من النقد الأدبي وهو الجانب الذي يهتم بتذوق العمل الفني من خلال أدوات النقد الأدبي ، ولكن يفتقر إليه من ناحية أخرى الاهتمام بدراسة الظاهرة الجمالية وتحديداتها وتحديدها علمياً كلون من ألوان المعرفة الفلسفية . وهو صميم علم الجمال .

وهناك عيب أعترف به في نهاية هذا التقديم وهو الحماس الشديد الذي غلب على بعض أجزاء الدراسة في هاتين المحاولتين . وقد كان هذا الحماس ناشئاً عن إحساسي بأنني لا بد أن أتي بشيء جديد . ولعل هذا الإحساس هو السبب الرئيسي في كل العيوب التي لحقت بالتهجين .

ولكن حسبي - في هاتين المحاولتين ، التي بذلت جهدي ، واستنفذت ، في البحث والتذوق طائفتي ، فإن أخطأت فلي اجر المحاولة ، وإن أصحبت فلي اجران ، كما يقول العلماء . والله من وراء القصد . وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنبت ، ، .

يحيى حتى بين المصرية والتركية

لا جدال في أن دراسة فن يحيى حتى الأدبي يستلزم التعرف على نشأته وأساليب تربيته : خاصة وأنه نشأ وتربى في أسرة ذات أصول تركية تعرضت في أحضان المجتمع المصري ، وتعرض بذلك لكثير من الصراع بين المصرية والتركية ، كما تراوحت حياته بين الانتماءات الصوفية الإسلامية والبهيمية الرومانسية .. وأساليب التفكير الشرقي والحياة الغربية الحديثة . ثم محاولاته للنجاة من تلك المتناقضات في رحاب حرية الفنان . . ومع ذلك فإذا كان هذا البحث يركز على مشكلة صراع يحيى حتى بين تربيته الموروثة ومصريته التي يحيها فان الهدف الأخير منه هو أن يبين كيف انتصر يحيى حتى على ذاته ووصل الى نوع من السلامة النفسية التي شق على الكثيرين من أقرانه الوصول إليها . وقد حقق له ذلك الكثير من وضوح الرؤية ونفاذ البصيرة مما جنبه التخييل والضياع . وعاونته على ممارسة الفن وهو متحرر من مختلف العقد الموروثة والمكتسبة . . .

- ١ -

أن جلودر يحيى حتى ليست مصرية صميمية، فقد نشأ جده « إبراهيم حتى » في بلاد المورة بجنوب اليونان ، في حين كانت تنتشر أصول العائلة في ربوع تركيا وفسروع منها في مصر .

وشاهد ابراهيم حتى من قرب بعض نواحي النهضة الاوربية الحديثة الى أن بدأت أوروبا تضيق الخناق على العناصر التركية في حركة مناهضة الحكم العثماني بقصد تحرير بلاد اليونان ، وصاحب ذلك هجرة الكثيرين من الأتراك من أوروبا الى تركيا وغيرها من اقطار الدولة العثمانية ، وبذلك رحل ابراهيم الى مصر بعد أن توسطت له خالته السيدة « حفظة هانم » خازندارة قصور الخديو اسماعيل ، ونجحت في تعيينه في خدمة الحكومة المصرية التي كانت تعاني نقصا في مختلف الوظائف الحكومية ، التي لا يشغل كوادرها العليا في غالب الأحيان الا من له صلة قرابة بالعناصر المصرية التركية الاصل ...

وهكذا حضر ابراهيم حتى التركي المقيم في بلاد اليونان .. والجامع بين الحضارة الاسلامية وحضارة الغرب الحديثة - الى مصر في عهد الخديو اسماعيل طلبا للدخول المستقر ورفيعة في الامن ... واستلم مهام وظيفته ببلده دمياط ، واخذ يتدرج في وظائف الحكومة حتى أصبح مدير مصلحة في بندر الحمودية بالبحيرة (١) في ظروف سياسية معقدة تتشابك فيها الصراعات بين العناصر التركية والمواطنين المصريين ...

وعاصر ابراهيم أحداث الثورة العربية ، وعاش كل ما تعرضت له العناصر التركية من انفعالات ومشاعر ، وانساق في من أعمال وتصرفات نتيجة للثورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمر بها مصر في ذلك الحين .. ومع ذلك استقر فكر ابراهيم حتى على البقاء في مصر ، وتزوج من سيدة تركية تعيش في مصر ، انجب منها ثلاثة من الأبناء اكبرهم محمد والد يحيى حتى ، والثاني محمود طاهر الذي لهبت مشاعره الغيبة وهو في فترة الشباب «مذبذبة دنشواي» فانفعل باحداها وخرج علينا برواية « عذراء دنشواي » ، وهي أول رواية فيها مشاركة وجدانية وطنية من العناصر التركية للمواطنين المصريين . اما الابن الثالث فهو « كامل » ولا يكاد يذكر عنه يحيى حتى شيئا ..

والذي يهمنا هنا هو الابن الأكبر محمد حتى ... ولقد ولد محمد حتى في مصر ، وحاول والده ان ينشئه في أول الامر تنشئة اسلامية صرفة ، فالتحق بأحد المعاهد الازهرية حيث حصل على نصيب من الثقافة الاسلامية العربية قبل ان يلتحق بإحدى المدارس الفرنسية ، ولكنه لم يلبث ان قطع تعليمه عندما أدرك أن ظروف أسرته المتوسطة الدخل لا تقوى على تكاليف المدارس الفرنسية ، ورضى بوظيفته في وزارة الأوقاف .. ولكن صلته بالثقافة والعلم لم تتوقف ، وحدها طموحه الثقافي الى قراءة عيون الكتب العربية كديوان المتنبي وكتب الغزالي ومقامات الحريري، استجابة لنزعات ادبية وميول فنية ساعدته على حفظ روائع الشعر العربي ، فالتسبب فصاحة في اللسان وقدره على البيان ، وتزوج محمد حتى أيضا من سيدة البالية الأم تركية الأب تعيش مع أسرتها في بندر الحمودية حيث كان والدها يعمل دليل مكتب البريد .. وكانت السيدة/سيدة السيد حسين تجيد القراءة والكتابة ، كما كانت شديدة التدبير تقبل على قراءة

(١) يحيى حتى : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .. مجلة «عالم الفكر» المجلد الخامس - العدد الثالث : أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٤ - الكويت .

القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف والسيرة النبوية العطرة ، كما المث كذلك بكتب الادب العربى القديم ... وهكذا شب يحيى حتى بين والديس يمشقان الادب ويميلان للقرامات الاسلامية ..

ولقد انجب محمد سبعة من البنين والبنات من البنات ، وكون أسرة كبيرة العدد تحملت الأمشى المسئوليات وكثيرا ما اشاد يحيى حتى بتضحيات والدته ودورها الفعال في حسن تربيته هو واخوه واخوانه فقال : « ربنا بيدها تطبخ وتطعمنا متكلفة في ذلك اشد العناء متعائلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر ... ربنا بلسانها تحتبغير الحاج على الاستقامة والجد والمذاكرة كسوط صاحب الجواد الاصيل له دفع وليس له لسع ... وبننا بنظر انا اذا كنا في تجمع من الناس نحوط علينا وتعلمنا كيف ينبغي ان نجلس وكيف ينبغي ان يكون الكلام المهلب ، تقيد علينا كل زلة لسان وان كانت بريئة ، وتنبهنا اليها اذا انفض الجمع ... بل من عادة أمسى ان لاتنام الا ان اطاعت انا عدنا جميعا » (٢)

ولد يحيى - وهو الثالث في تسلسل قائمة الإبناء - في السابع من يناير - الموافق - يوم عيد ميلاد السيد المسيح عند اقباط مصر - عام ١٩٠٥ - وقت ان كانت حركة مصطفى كامل الوطنية على اشدها ، في بيت ضئيل من بيوت الأوقاف بحارة الميضاة وراء مقام السيدة زينب المتفرع من شارع الصليبية يحيى قيسون المعروف حاليا بقسم الخليفة ، وهو حى من الاحياء الشعبية الصميعة . . . شب يحيى حتى في الاجواء الشعبية القاهرية ، وشاهد منذ الصغر « ابن البلد » من قرب شتى احواله : في جده ودعابته ، في حرماته وسخريته ، في ذكائه وقناعاته ، في ايمانه وانحرافاته ، فنما في قلبه وهو مازال سبيباحب ابن البلد وميل التردد على الاحياء الشعبية خاصة بعد ان ترك حى قيسون وسكن بعيدا . . . بل ان اول ما عرف قلبه الحب تعلق بحب بنت من بنات البلد رغم انه كان يعيش في أسرة تنتمى الى مجتمع مهاجر يميل لنوع من العزلة الانطوائية ، يرقب المجتمعات من بعد دون اندماج ويشعر بأن مستواه الحضارى ارقى من المستويات المصرية ، وان جمعة بين الثقافة الاسلامية والحضارة الغربية اعطاه ميزات لا تتوفر في كثير من جماعات عامة الشعب . . . ولكنه مع ذلك حرص على الا يظهر باى مظهر من مظاهر الاستعلاء ، مما يدعوه السر تصنع ضروب من التواضع لا تخلو من تكلف يكشف عن معالم التعالى الكامن . . . ومع انه كان لا يتكلم الا باللغة العربية فان الكلمات التركية كانت تظهر عادة في حالات الانفعالات الشغب والضييق التى تتحرر من التصنع والتكلف . . . وحتى حين كانت تقوم علاقات مع بعض الافراد من عامة الشعب فانها كانت مجرد علاقات سطحية تهتم بتوثيق الروابط مع من يتعاملون معه ، ويقدم لهم خدمات يومية لا يستغنى عنها احد . . . ويؤكد يحيى حتى ذلك حين يذكر ان « اسرسى كان يشملها منذ وعيت وروح من الدبوقراطية الشعبية . . . لا ادرى من اين جاءتها . . . ؟ هي طبع وخلق

(٢) يحيى حتى - خليها على الله : المؤسسة العربية العامة للتاليف والنشر - دار الكتاب العربى للطباعة والنشر - القاهرة - بدون تاريخ .

لا نعمة علم واقتناع ... فما دخل بيتنا خادم والإخالطنا مخالطة الازل .. ولم ننظر بأنفة الى القصاب والبقال وبئمة الجبن والصايون .. ولكننى اظنها ديمقراطية معاملة فحسب ، (٣) .

هكذا كانت تعيش الاسر المصرية ذات الجذور التركية سواء من الناحية النفسية او الاجتماعية اصة منذ قيام الثورة العربية .. ونشأ يحيى حتى وتربى وتعلم وهو يعايش شتى محاولات المماناة التى كانت تقاسى منها المجتمعات المصرية ذات الاصلاب التركية فى جهودها للمواصلة بين بواضت الانجاهات التركية واغراض الاستقرار فى مصر ... ويبدو أن يحيى حتى لم يستطع ان يتخطى الحاجز الاسرى وأن يتدمج فى الحياة المصرية التى لم يشهد غيرها الا خسل واقعية روحية بمواطنه وعقله جميعا بعد ان عايشها بكل كيانه وارتضاها طوامية حتى استمد منها رغبته وآماله واحلامه وأوهامه ويعكس عليها كل ما يتفعل داخله من مشاعر وأفكار وخيالات وهواجس .. لم يحس اطلاقا فى قرارة نفسه بأن هذا التباين الذى يوجد بين حياته المتولبة بتأليدها التركية وحياته العامة فى مختلف مجالات المجتمع المصرى تدعو الى أى نوع من الانفعال ترغمه الى ان يستقل بحياة اسرية بعيدة عن مجتمع القاهرة .. ولذلك لا تكاد نلمح أى احساس بجعلنا نذكر أنه يشعر بأى نوع من التغاير او الاختلاف بينه وبين أى مواطن آخر يزامله الحياة فى المدرسة او فى العمل او فى اللهو رغم معرفته الاكيدة بأصله التركى ... بل يلاحظ عليه أحيانا علامات من الضيق والتأفف اذا ما نبهه احد عرَّضَ بطريقته وأخرى من قرب أو بعيد الى أصل عائلته الالبانى خاصة اذا ما كان يحاول ان يشكك فى اصاله لانفعاله المصرية وعميق تجاوبها مع الحياة المصرية ..

واذا كانت أحداث الحرب الالبانية أثارت وجدانه عام ١٩١٢ والبهت مشاعره التركية وهو ما زال صبيًا فى السابعة من عمره ، وحنته على قول الشعر ليعلم السخط على الاستعمار الأوروى الذى يهدد كيان الدولة العثمانية ويعرض مسقط رأس أجداده للخطر ، فان فطائع دنشواى - التى اطلع على أحداثها عام ١٩١٤ فى قصة « عذراء دنشواى » التى كتبها عمه محمود طاهر حتى - زادت من سخطه على طغيان الاستعمار البريطانى فتعلق قلبه بجهد الزعيم مصطفى كامل الذى يدعو باستمرار الى ضرورة جلاء الانجليز عن مصر دون شروط مسبقة .

ولقد سحر مصطفى كامل العناصر التركية ببلافته الكلامية فى الخطب والمقالات التى اخذت تتصاعد لهجتها وتشنج وتقوى حتى بلغت الذروة حين أعلن حربا لا هوادة فيها ضد أحكام الإعدام الظالمة فى حادثة دنشواى . واذا بالعناصر التركية يجرفها تيارات المشاعر الوطنية وتجد نفسها تعيش هذه المشاعر بكل وجدانها ، واذا بها تحس بأنها أكثر التصاقا بأرض مصر مما تظن . ويكاد محمود طاهر ينفردهم هذه المشاعر فى رواية « عذراء دنشواى » ويرجع يحيى حتى حماس هذه الانفعالات الفنية الى أنه قد تم « التحام كامل بين محمود طاهر

(٣) يحيى حتى : دمة .. فانتسامة . روز اليوسف - القاهرة . ديسمبر - ١٩٦٥ .

حتى وشعب مصر .. وأصبح ابن بلد مصفى جلوره الحديشة نزلت الى الطمي السفلى التخلف من أيام الفراغة هيهات ليد أن تقتلها ، أو للمبلد آخر أن يهبها الحياة .. وقد ظهر هذا الالتحام في رواية عدراء دنشواي (٤) .. ولأشك أن رواية عدراء دنشواي نجحت في تقريب المصريين الأتراك من المصريين الفلاحين أكثر فأكثر .. حتى أنه لم يظهر من بين الأسر التركية من قبل أن يتراجع ضد الفلاحين المتهمين في حادثة دنشواي بخلاف إبراهيم الهلباوي المصري الصميم الذي ارتضى أن يجرب بلاغته ضدهم .. ويجنى على مواطنين إبراهيم من بني جنسه ويسوقهم إلى ساحة الإعدام متملصا من وطنيته .. ولكن بلاغة الهلباوي حفرت له قبره اذ ظلت مراقبته في دنشواي سحابة سوداء تظل على كسل عميل يصدر عنه وشوه إخلاصه وتعرض مستقبل حياته العامة .. حتى فشل في الحصول على الغفران عندما حاول الدفاع عن إبراهيم ناصف الورداني بعد أن اغتال بطرس غالي الذي كان رئيسا لمحكمة دنشواي .

ولقد تصدى الكتاب الاتراك الى هذه النزعات فكتب « ولي الدين يكن » في مقال الشقاق (٥) : « أنا تركي .. وأبغض عباد الله الى تركي يعتدي .. أحب العناصر العثمانية كلها وأخذ بناصر المستضعف منها .. ثم أحب العرب حبا خالط الروح وجرى مجرى الدم في العروق .. وأنا عربي الأدب والقلم ، عربي النزعة ، ومن أبغض العرب فأنا مبغضه .. » ولكن اذا به يعود ويقول بعد اغتيال بطرس غالي في مقال رومانسي الإنكار والعواطف صوانه « بطرس غالي موكبه الأخير » (٦) قال القضاة : قتل أحد الباقين بطرس باشا غالي قتل مصر .. كل قطرة من ذلك الدم البريء عند الله أجراها وعلى الإنسانية والعصر العشرين عارها .. ماذا جنى هذا العقيد المظلم .. ؟ صاح أكثركم مذكرا بحادث دنشواي ، وتشدد آخرون باتفاق أكثرنا ومصر على السودان ، وشكوا غيرهم من قانون المطبوعات ..

ولقد تصدى كذلك عبد الخالق ثروت باعتباره النائب العام مهمة التحقيق في الاعتداء بنفسه ، ثم قام بالرافعة في الدعوى ضد إبراهيم ناصف الورداني .. وانسمت كلمته بالاعتدال وإن استنكرت اغتيال الأكفاء المخلصين « نحن أول من يحل الاشتغال بالمسائل العامة ، ونرى أن السعي بالطريق المشروعة فيما ترقى به البلاد وأهلها من فروض العين على المصري ، وإن كل مصري مطالب بتضحية شيء من وقته وماله وجهته في خدمة بلاده .. نحن أول من يرحب بتسمية الوطنية ورياضة النفوس على احتمال الشقاق في اعلاء كلمة مصر وبلادة شرفها ورفعتها ، وكذلك نرى من مرقبات الأمم الدارجة في رقبها النظر في أصناف القابضين على أزمة الأمور فيها وتقدها ... ولكننا لا نسلم بحال من الأحوال أن يتطلع الى مقام ناقد الحكام الى رجل

(٤) يحيى حتى : عطر الأحباب : دار الكتاب الجديد ، القاهرة ١٩٧١ .

(٥) الكتاب الثلاثة : ولي الدين .. التناطوطي .. العقاد . جمعه محمد زكي الدين . النشر حسن حسني .. القاهرة بدون تاريخ .

(٦) الكتاب الثلاثة : ولي الدين .. التناطوطي .. العقاد . جمعه محمد زكي الدين الناشر حسن حسني .. القاهرة بدون تاريخ .

جمع الى العلم الغزير والحكمة البالغة الاتزان في القول والفعل حتى يقدر الاعمال حق قدرها وينظر الى الامور بفكر صحيح فلا يتعدى حدها المشروعية والا انقلابت الخدمة العامة وبالا، واردة الخير شراً... (٧)

لاشك في ان استنكار الكتاب ، خاصة الاثر كونه منهم حادث اغتيال بطرس غالى وتولى العناصر التركية مهمة توجيه الانهزام الى الورداني اثار الريب في نفوس الشباب المثقف في مصر بينما كسب الورداني عطف الكثيرين منهم .. فاذا نال ثروت بكلمته الحكمة المعنوية اعجاب المسؤولين وتقديرهم ، الا انها بعثت الضيق والسخط بين الشباب رغم اعجابه بكفاءته وحسن بيانه كالمسولين سواء .. ولكن الحكم باعدام الورداني حركه ماخيا في النفوس من مشاعر التلمز والاحساس بالقهر ، والاستبداد جدت اللوعة من قوة احكام الاعدام الظالمة في حادثة ونشوى .. وسرهان ما اجتاحت البلاد حركة اغتيالات اخرى تولى تنفيذها أجهزة سرية اشترك فيها الوطنيون من المصريين والعناصر ذات الجدور التركية على حد سواء .. واذا بها تخطط من اجل التخلص من الخونة على اختلاف اجناسهم ودياناتهم مناصبهم ، ومن الانجليز الذين يتقيدون الحريات في مصر ..

الا ان المحتل البريطاني لم يدع الوحدة الوطنية تسير في طريقها الطبيعي وتحقيق ما تصبو اليه النفوس من قوة وترايط . وابق بين كافة المصريين ، واخذ يضرب على وتر فرق تسد .. ولذلك كثيرا ما حاول ان يستغل اى خلاف ظاهري ويشتر ضروريا من التنافس ، خاصة بين اعيان المصريين وقادة العناصر التركية حول السلطة خلفت صراعات انحرفت عن طريق الوحدة الوطنية واثارت الشكوك بين الجميع ، حتى ارتابت كل فئة في نوايا الغايات الاخرى ... ولقد نجح الانجليز بالمعااملة المعلقة في تفجير حدة الخلافات بين سعد زغلول الممثل الشعبى لكافة المصريين وبين عدلى يكن صهر اسرة محمد على الذى زوج ابنته لشريف صبرى شقيق نازلى زوجة السلطان احمد فؤاد باثارة الاشاعات حول عرض الانجليز العرش على سعد زغلول شريطة قبول الحماية البريطانية وفضل السودان عن مصر مما اشعل مخاوف السلطان فؤاد من اطماع سعد زغلول .. الا ان عدلى يكن ، والحق يقال كان في موقف صعب ، فهو لا يستطيع ان يقف في جانب السلطان والانجليز ويعادى الشعب الذى يمثل سعد زغلول ، وفي الوقت نفسه لا يستطيع ان يجارى الشعب في اندفاعه الوطنية التى لا يقبل الانجليز الخضوع لها ، فلم يجد امامه الا ان يقف موقفا وسطا ، وحاول ان يوفق بين مبادئ سعد زغلول في الوطنية التى تمتسك بالاستقلال التام وجلاء القوات البريطانية وسيادة الشعب المصرى على اقداره وبين حرص الانجليز على البقاء في مصر بصورة او اخرى يرضى عنها جميع الاطراف المعنية ... واستطاع عدلى بموقفه الوسط المرن ان يكسب ثقة السلطان فؤاد وتعاون الانجليز وان يتوصل بمجهوداته

(٧) الدكتور محمد حسين هيكل : شخصيات معربة وغريبة.. كتاب روز اليوسف رقم ٢ القاهرة يناير - ١٩٥٤ .

الخاصة إلى أن يقنع بعض الأعيان الإقطاعيين من المصريين داخل حزب الوفد نفسه وبكسب تأييدهم لسياسته التي تقبل أن تقابل الإنجليز في منتصف الطريق (٨) .

واحسب إن أسرة حقي ، رغم أنها أسرة مرفهين يغلب عليها الحياء والانطوائية ، لم تكن في منأى عن الأحداث سواء التي تقع في تركيا أو مصر ... فكانت تتعاطف مع كل ما يدور حول الدولة العثمانية . فما أن نشرت قصيدة أحمد شوقي في البكاء على خلع السلطان عبد الحميد في الصفحة الأولى من جريدة الأهرام حتى « كان البيت كله يقف على رجل .. كنا نقرأها بصوت عال . ونحفظها ونقل نردها في مختلف المناسبات (٩) » وتعاطف أيضا مع اتجاهات مصطفى كامل التي تتمسك بجلاء القوات البريطانية ولا تعادي الخديو عباس الثاني، وتستمدى الدولة الفرنسية على الإنجليز .. ولذلك كانت جريدة اللواء لسان حال الحرب الوطني هي جريدة الأسرة المفضلة .. ومع ذلك « لم يمتعنا ذلك من التعلق بسعد زغلول ومتابعة أحداث ثورة ١٩١٩ بحماسة شديدة .. في أكثر ما كنت أصحبا إلى وشقيقى إبراهيم وإسماعيل إلى الأهرام أو بيت الأمة أو شادر مقام في ساحة فسيحة لاستمع إلى خطباء الثورة ... وأحيانا كان الإنجليز يسدون الطرق المؤدية للأهرام ليمنعوا الجماهير من حضور اجتماعات الثورة .. تكت أسر مع ابن وأخوى في طرق ملوثة وأزقة ضيقة حتى نصل إلى الأهرام ونستمع إلى خطباء الثورة ونردد مع الجموع أناشيدها ... وكان أفراد الأسرة يتخاطفون بلهفة شديدة ما يصل إلى أيدينا من منشورات الثورة ... وقد سررت في بعض المظاهرات الصاخبة التي كانت تكتسح شوارع القاهرة .. وحين كان الإنجليز يطلقون علينا النار كنت أجرى مع الجارين ... وفي تلك الأيام قرأت كل ما وقع في يدي من كتابات عبد الله النديم ومصطفى كامل .. وكل ما نشر عن حادثة دنشواي ... وهكذا التحقت بـ مدرسة الحقوق وقد تشبع وجداني حتى الثمالة بحب مصر » (١٠) ولكن لما دب النزاع بين سعد زغلول وابن الفلاح المصري وبين عدلى يكن ذى الأصل التركي « اجتاحت بيتنا موجة عارمة من الكآبة وخيبة الأمل لفرقة الصنف الوطنى » (١١)



لأشك في أن ثورة ١٩١٩ ضد المحتل البريطاني الذي يماطل في خروج قواته من أرض مصر صهرت كثيرا مما تبقى من مشاعر الغربة التي كانت تعاني منها العناصر التركية المصرية في بوتقة الوحدة الوطنية ، واقتربت من التخلص النهائي من نزعات تعدد الولاء لأكثر من وطن ، خاصة بعد انحصار الدولة العثمانية في نطاق الأراضي التركية فقط .

(٨) محمد كامل سليم : أزمة الولاء الكبرى : سعد وعدلى : كتاب اليوم براقم ١٠٧ ، مؤسسة الحجاب اليوم - القاهرة - مارس ١٩٧٦ .

(٩) يحيى حقي : أشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(١٠) يحيى حقي : أشجان عضو منتسب .. سيرة ذاتية .. مجلة عالم الفكر ١٩٧٤ .

(١١) نفس المرجع .

وإذا ما انتقلنا من المجالات السياسية والمواطف الوطنية الى المجالات والمواطف الإنسانية نجد انه ، لكل مستقيم الحياة للعناصر التركية في مصر ، ينبغي ان يبلغ جهم للمصريين نفس قوة جهم لأرض مصر ووظائف مصر .. ولا يتأتى ذلك الا اذا اتسع حب الوطن بشفاقية الحب الانساني وودعة الحب الاجتماعي الذي لا يهدف الى أى نوع من السيطرة العسكرية أو التفوق الاقتصادي أو السيادة السياسية ، ويتجنب بقدر الامكان إثارة التنافس على مراكز القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية ويعتمد أكثر ما يعتمد على اصول الحضارة العصرية من فكر وفن وأدب ، ومن علم وثقافة ، ليحتفظ بدرجة عالية من الرقى الاجتماعي والتفوق الحضارى .. فأقبل أبناء الاسر التركية المصرية على دراسة القانون والهندسة ، لان معرفة القانون تسمح بتولى مناصب القضاء ، والنيابة لخطر المناصب وأكثرها رهبة بين عامة الناس .. بينما تسمح دراسة العلوم الهندسية بالتغفل في شتى شئون المرافق العامة المصرية في المدن وفي القرى ، نظرا لشدة حاجة الجميع للخدمات الهندسية ... وكثير من أبناء الاسر التركية لم يبقوا عند حد التعليم العالي في مصر بل اهتموا بطلب المزيد من العلم والثقافة والحضارة في أوروبا .. ولذلك كان هناك تنافس مثير على التفوق للعراسى للفوز بالبعثات المجانية الى الخارج خاصة بين النابهين غير القادرين على تحمل تكاليف العلم في أوروبا . وبذلك فقد اتاحت للكثيرين منهم فرص الاتصال الوثيق بالتطور الفكرى والثقافى والاقتصادى والاجتماعى في العالم الحديث .

ولا تعجب اذا ما شعرت العناصر التركية بانها أكثر قدرة على خدمة مصر حضاريا من المصريين الاصليين ، لانها تشعر بان لها خبرات أوسع في المجالات الحضارية الحديثة .. ولقد كان لها بالفعل الاسبقية والفاعلية في تنشيط كثير من مجالات الحياة الثقافية والاجتماعية في مصر .. فلم تقف هذه العناصر عند حد التمتع بأن تصل مصر الى ما وصلت اليه أوروبا من نهضة وازدهار ، أوكتفى بأن تشيد بذكر حضاراتها السابقة .. بل اخذت تسهم اسهاما جديا في مختلف مجالات الإصلاح تحت احساس بانهم على مستوى حضارى متقدم يسمح لهم بسرعة استيعاب الحضارات الغربية .. مما يعطيهم امكانيات ثقافية تضعهم على رأس قادة الفكر والادب والإصلاح الاجتماعى في مصر .. وإذا بهم يكونون شتى الجمعيات التقدمية الثقافية والاجتماعية ، ويظهرون كثيرا من النشاط الجاد الصادق لبعث نهضة فكرية مصرية تطور المجتمع المصرى وترفع من مستواه الحضارى . ولقد تنافس كل من احمد شوقي - وهو من اصل تركى - وحافظ ابراهيم - وهو من أم تركية ورباه خاله المهندس زميل والده - على التزم بأشعار تسبح بحمد مصر ، وتشيد بمجد هذا الخالد وتظهر الحب العظيم الخاص لمصر ، وتشدد بالوطنية المصرية وقلبيها على كل وطنية وقومية .. بينما اعطى محمد تيمور ومحمود طاهر لاشين ومحمود طاهر حقى - وكلهم من اصل تركى - اهتماما زائدة لواقع الحياة المصرية في المدن والقرى . وكتب كل منهم قصصا تناول احوال الفلاحين في الريف ، وتعرض ميل

ابن البلد في المدن للفكاهة والدعابة ، وتعلمه الزائد بالنكتة الساخرة ، وتمسكة بروح الشهامة التى تظهر في كثير من تصرفاته الانسانية ... كما برز من بين العناصر التركىة قاسم امين على راس الداعمين لقضية تحرير المرأة المصرىة ورفع الحجاب حتى تستطيع ان تكون اكثر حركة وقدرة على الاسهام في تحرير الوطن وتقدم المجتمع المصرى .

ولكن كيف يمكن لهذه العناصر التركىة التى تكاد تعيش في الواقع في شبه عوله اجتماعىة وتعودت على ان تتوقع داخل نطاق الاسر التركىة وتبتعد بقدر ما تستطيع من كل ما يجعلها من مشاكل يومية ان تفهم واقع الحىاة المصرىة في الصميم في الريف وفي المدينة ، وعلى ما يدور في خلجاتها الداخلية وهى لا تنتظر الساهل الريف وسكان المدن الا من علو الفكر ؟ ان الحنين للوطن الاصلى لا يمنحى من الوعى مهماتال الزمن .. وان اختفى من الوعى الظاهر فلا بد ان يكون كامنا في الوعى الباطن يؤثر في الفكر وفي الوجدان وفي التصرفات .

ولبحى حتى رأى خاص بفسر به نجاح العناصر التركىة في تناول الحىاة المصرىة في قصص ومسرحيات .. فزعم ان محمد تيمور وجد « ان المجتمع المصرى في المدن والريف قادر على ان يعد الكاتب بقصص فنى مما يشهد على ان نزعته الادبىة مبعثها حب صادق لمصر واهلها وليس من الغريب كما يظن لاول وهلة ان الذى يفسر هذا الحب كله ويحمل لواء المناداة بالادب المصرى الصميم فنى لا تجرى في عروقه دماء مصرىة بل دماء خليط من التركىة والكردىة والاغريقىة . هذه ظاهرة طبيعىة مألوفة عند الآخرين ، كما عندنا في ان العرق الحديث اشد العروقى اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباهه النضاله وجماله .. ولذلك نرى محمد تيمور ، ومن بعده محمود حريصين اشد الحرص على تأكيد خبرتها بعامة الشعب من الفلاحين وفقراء المدن . وليست العبرة ان يولد الكاتب في احضان هذه الطبقات بل في قدرته على الاحساس بها وفهمها بفضل حب وتجارب روحى . » (١٢) ولكن بحى حتى يعود ويتسائل « لا ادري لماذا استشف في كتابات محمد تيمور - رغم خفة دمها وميلها للدعابة نفمة حزن دفين » (١٣) كانه يريد ان يقول ان آثار مشاعر الغربة الاليمىة رغم كل ذلك الحب لمصر وللمصريين قد اظهرها الوعى الباطن في تلك النفمة التى تئن بحزن دفين .. !!

الا ان تردد كثير من الافراد من بين العناصر التركىة على اوروبا واحتكاكهم المستمر باوربيين اتاح لهم فرص الاطلاع على الدراسات العلمىة الغربىة في الشؤون الاجتماعىة والاتجاهات الاقتصادية والمذاهب السياسىة التى تتصارع في مختلف مجالات الحىاة الاوروبىة .. وتكاد هذه الدراسات تتفق جميعا في ضرورة تحقيق نوع من العدالة الاجتماعىة ومن المستوى الاقتصادي اللائق بكرامة الانسان ، ومن الحرية التى تساوى الكل في الحقوق والواجبات ..

(١٢) بحى حتى : فجر القصة المصرىة .. الكتبة الثقافية رقم ٦ - القاهرة .

(١٣) نفس المرجع السابق .

مما حدا ببعض الأفراد من هذه العناصر الى الاهتمام بأحوال الفلاح المصرى وقراء المدن ..
ومما يثير الدهشة حقا هو الحاح قوم من الاستقراط فى الدعوة لرفع مستوى حياة
الفلاحين وعامة الفقراء . !! هل قامت هذه الدعوة تحت تأثير مشاعر من القلق لم ترتفع
لاوضاع اجتماعية تقسو على اناس وتحرمهم من كثير من ضروريات الحياة وتهدر كرامة
آدميتهم ؟ ام ترجع لجرد بواعث انسانية صرفة بعثت فى النفوس الاحتكاك بالحياة الغريبة
ويسندها فكر متعال لا يقبل ان يكون اتباعه على هذا الوضع الميّن المخجل .. ؟ ولكن
كيف تحولت نظرة التعاطى الى مشاعر من العطف والرحمة والحنان . ؟ هل
الاحساس بسوء معاملة الفلاح واستغلاله من قبل الحكام الاتراك وحاشيتهم حركة عقد اللذب
وحملهم الشعور بالام مسئولية عما انتهى اليه الفلاح من حالات يؤس وشقاء وتخلف .. ؟ هل
استيقظ فيهم الضمير الحضارى وحثهم الاحساس بالواجب على بدل اقصى ما يستطيعون
بذلك من فكر من صيانة انسانية هذا الفلاح وتعويضه عما ضاع عليه من فرص الحياة الكريمة
وتخليصه من الهوان الاجتماعى الذى يعانيه حتى يستطيع ان يرفع راسه ويشعر بتمام
المساواة مع جميع الناس .. ؟ ..

لا ريب ان الدعوة الى الإصلاح الاجتماعى لا تعدو وان تكون مجرد عملية تطهير ذاتية ،
قصد بها ممارسة عمل فكرى نبيل يعطى نوعان الامان الذاتى والاطمئنان الروحى ، تمنع
من السيادة الفكرية والقيادة الانسانية والنفوذ المعنوى ما يعوض العناصر التركية عما فقدته
من جاه سياسى وسلطان اقتصادى وزعامة عسكرية ، قد تحقق نوعا من الشعبية تعزز من
صدق المشاعر الوطنية ، وتدعو الى مزيد من الالتصاق بعصر وشعب مصر ، يساعد على
تحطيم دعائم العزلة الاجتماعية التى تحاصر الاسر التركية المصرية ، وتيسر الاندماج افرادها
فى شتى ثنابا المجتمع المصرى دون عقد ، وتقاوم كل ما يعترض الاندماج الكامل فى الحياة المصرية .

ولذا فان جيل الشباب من العناصر التركى فى اوائل القرن العشرين اثناء حركة مصطفى
كامل الوطنية وثورة سنة ١٩١٩ الشعبية تعرض لهزات نفسية أوقعته فى ازمات فكرية ،
فاذا به يعانى مرارة حيرة الالباء بين الولاء للدولة العثمانية من جهة وتعلقهم بالقطر الذى ولدوا
على ارضه ثم هاجروا منه من جهة ثانية ... بينما يعانون هم انفسهم من تضارب العواطف
وتناقض التصرفات ، ولا يدرون كيف يوفقون بين التعالى العالى على عمالة المصريين وبين
التواضع الاجتماعى فى المعاملات اليومية مع عامة الناس ، والتعاطف الفكرى والمشاركة
الوجدانية التى تجارى المصريين فى تطاعنهم وآلامهم . !! ولا يعرفون كيف يجمعون بين
التمسك بالتقاليد التركية داخل البيت وبين مجاراة العادات المصرية خارج البيت ...
ويتأملون كيف داخ الجميع من محاولات المرجبين الدعوة للوحدة الاسلامية التى تحت على
تكتل الدول الاسلامية فى جانب تركيا ضد الاستعمار الاوروبى ، وبين ضرورة الارتباط
بالوطنية المصرية التى تلزم جميع العناصر والطبقات بالتكتل من أجل مصر ضد اى تدخل
اجنبى .

لا شك في أن شباب هذا الجبل وجد صعوبة ما بعدها صعوبة في حفظ التوازن النفسي والتماسك الفكرى واليقين الروحى ، الذى يدعو الى التصرف الحكيم السليم في خضم هذه المتناقضات الاجتماعية والثقافية والقومية. ولم يكن امامهم لتحقيق مثل هذا التوازن الا اتخاذ ضروب من التظاهر بدمائة الخلق واذب الحديث ورقة المعاملة ، لاختفاء معالم التعالى الذى لا يرتاح اليه عامة المصريين .. ويبدون اعجابهم باخلاقيات ابن البلد . ولا يتورعون عن محاكاته في دعائياته وفكاهاته الى حد الرغبة في تقمص هذه الشخصية او اظهار البراعة في تصويرها في افعال فنية او التخلق بمثالياته في الحياة العملية .. كانهم يحاولون بكل الطرق تعميق احساساتهم المصرية الصعبة، والتخلص نهائيا من التناقض الرهيب الذى يعيشون فيه، وتحقيق نوع من الانضباط السلوكى لا يثير ضيق المواطنين من التصرفات المتعالية . وكل ذلك اكسبهم قدرة على المواءمة بين الشخصية التركية والشخصية المصرية ، بحيث نجحوا في تجنب غضب العناصر التركية المتزمنة من ناحية والابتعاد عن اثارة حفيظة المواطنين المصريين من ناحية اخرى . الا ان كل ذلك لم يغب عن عامة المصريين وخاصتهم ، وكثيرا ما يلقون عليهم نظرات لئيم في تمام اخلاصهم للمصريين .. الا ان هذه النظرات تسبب كثيرا من الالام القاسية ، خاصة لشباب ذلك الجيل الذى ولد ونشأ وتربى في ارض مصر ، ولم يعاش غير المصريين ولم يتحس غير مشاكلهم ، وشب على مشاعر وطنية لا تحب سوى الوطن المصرى .. ولذلك لتحفظ كيف يبدو الالم على وجه يحيى حتى عندما يحس بأنه ما زال يوجد هناك من المعارف من يعتبره دخيلا على المصريين ، ولا ينظر اليه على انه مصرى صميم الا بنوع من الجمالة .. وكثير من شباب الاسر التركية المنبت يحاول ان يتحاشى ذكر اصله التركى ، حتى يتناساه ويغفل عنه الجميع ويبعد شبحه الى الابد ، حتى لا يتعرض لشبهة الاتهام بأنه مواطن غريب دخيل على المصريين .. ولعل مساهمة هذا الجيل اسهاما ايجابيا في ثورة سنة ١٩١٩ عن صدق واخلاص بوريثين من كل غرض وطدفيه نوعا من الامان النفسى ، حرره كثيرا من قلق الشكوك ولبلة الرعب التى تراكمت داخله على مر الاجيال ، فانطلقت آماله من جديد واخذ يوسع من دائرة طموحه ، وبعد ان كان يقيم نشاطه على مجالات النقد الاجتماعى والاشغال بالاداب والفنون والحرص على تولى وظائف الاداب والفنون والحرص على تولى وظائف النيابة والقضاء والاشغال الهندسية اذا به لا يلتحق بمدرسة الحقوق الا لانها توصله الى مناصب الوزراء او الشك الدبلوماسى ، ولا يتردد في فصول المدارس العسكرية رغبة في بلوغ مناصب قيادية في الجيش .. وكاد يخفى ذلك التزمت الذى يقف احيانا في سبيل مصاهرة العائلات المصرية .. وهكذا نجح هذا الجيل في تحقيق خطوات اوسع نحو ضرب من الانتماء يقترب شيئا فشيئا من الاندماج الكامل ، ويبدوانه تخلص نهائيا من مشاعر الغربة ، واصبح لا يستولى عليه سوى وطنية صادقة خالصة لمصر وشعب مصر .

ولعل المحاولات التى بذلتها هذه العناصر من اجل التوفيق بين الحياة الخاصة للعائلات التركية داخل البيوت والحياة العامة في خضم المجتمع المصرى خارج البيوت .. وكذلك

الجهود التي صرفت للمواصلة بين اتجاهات الشخصية المصرية ونزعات الشخصية التركية اكتسبت افراد الاسر المصرية التركية نوعا من المرونة النفسية، رسبت خبرات وقدرات ومهارات تساعد على وضع الحلول الوسط، وتحقيق نمط من التوازن بين كثير من الاختلافات المتضاربة يرضى عنها الجميع رغم الصراعات التي بينهم .. واذا بالظروف تكاد تلزمهم بان يلتزموا على الدوام بالمواقف الوسط في المنازعات السياسية التي غالباً ما تنشأ بين المصريين والانجليز حول الجلاء والحرية والاستقلال .. ولذلك ارتاح لهم الانجليز، واستغلوا وساطتهم في اخضاع المصريين لمطالبهم، واطمان اليهم القصر السلطاني واعتمد عليهم في المفاوضات مع الانجليز، بل قدر عامة الشعب وخاصته كذلك مجهوداتهم في تخفيف حدة التوترات السياسية .. ولا تعجب اذا مالجا اليهم الجميع على اختلاف مواقفهم عندما تستبد بالبلاد الازمات السياسية .. واحيانا كانوا ينجحون في تخفيف حدة الشقاق وتجنب البلاد مخاطر التطرف في أي نزاع، مما مكثهم من أن يلعبوا على الدوام دوراً إيجابياً في تحقيق ضرب من الوحدة الوطنية تمتص خلافات كل العناصر المتنافرة، فترضى مواقفهم الوسط جميع الأطراف المتنازعة، على اساس الاعتقاد بأن الوحدة الوطنية كقيلة بأن تعدى شتى العقبات، وقادرة على ان توصل الى الاماني المنشودة، وتخص بالذكر موقف عدلي يكن الذي حاول ان يوفق بين خداع الانجليز وتمسكهم بالبقاء، وبين صراحة سعد زغلول ومواجهته للانجليز وتبنيته بتحقيق المطالب الوطنية في الجلاء والحرية والاستقلال ... ورغم حسن نوايا عدلي يكن الوطنية، ورفيته الاكيدة في تحقيق استقلال مصر فان محاولاته في لقاء الانجليز في منتصف الطريق، واتباع سياسة الخطوة خطوة، وتحقيق الاستقلال على مراحل افسد عليه كل شيء وتعرض لمقاومة سعد زغلول الذي رفض في النهاية التعامل معه، واثار ضده غضب الشعب الذي اسقطه في الانتخابات وهو رئيس الوزراء فانسحب من الحياة العامة ويرجع كل ذلك الى ان جيل العناصر التركية في هذه الايام رغم قوة نزعاته الوطنية ما زال يعاني من ميول استقرائية لم تعارض المشكلات الشعبية معاشة واقعية، ولم تسمح له بالاندماج فيها اندماجاً متكاملاً، وإنما سمحت له بالاندماج محدود يتألمها من علو الفكر دون ممارسة شاملة .. ولذلك خلا هذا الفكر من يقين المعاشة ووضوح التجربة .. بل عاشر في استرخاء يحتل بعض المناصب القيادية والرئيسية لتعدد قدراته وكفاءاته وخبراته، واستعداده لتحمل شتى المسؤوليات، وتفوقه في الثقافة من علم وفن وادب يحده حماس متدفق يرضى النزعات الانسانية الاصلاحية، دفعته للاشراف على الجمعيات الخيرية التي توزع المساعدة والعون لكل من يستطيع ان يصل اليها بطريق او آخر او لكل من نريد ان نصل اليه لسبب او لآخر .. وحته كذلك على تنفيذ بعض المشروعات الاقتصادية التي لا تعود مكاسبها الا على فئات معينة دون بقية الفئات الاخرى .. وتعتمد اكثر ما تعتمد في السيطرة على جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على نقص الخبرات المصرية وضعف وعيها الحضاري من ناحية، وإتهاز فرصة

انحسار النفوذ الاجنبى تدريجيا بسبب المقاومة الوطنية لتتسرب بسرعة ، وتستولى على المواقع التى تركها الاجانب قبل ان ينتبه الى خطورتها المواطنون المصريون من ناحية اخرى .. وكل ذلك يتم عن ان هنالك نوعا من الانانية كانت تتحكم في تصرفات العناصر التركية ، افقدتها القدرة على الرؤية عن بعد ، والتصور السليم ، لتطور المواقف المصرية الصعبة ، وقدرتها على مواجهة مختلف الصعاب واسترجاع شتى حقوقها المكتسبة .

ولذلك كانت مفاجأة ثورة ٢٣ يولييه التى لم تصدم القوى العالمية والنفوذ الاجنبى وسلطان الاقطاع فقط ، وانما صدمت كذلك العناصر ذات الاصول التركية صدمة مفاجئة ، وجدت في نفوسهم كل ما كانت تثيره الثورة العربية من مخاوف ومواجع وهديدات .. واذا بهم يرون احمد عرابى جديدا يعود في ثوب جمال عبد الناصر ، وما لم يستطع احمد عرابى تحقيقه في المجالات الداخلية استطاع جمال عبدالناصر ان يحققه فلقد اطاح بالنظام الملكى من اساسه ، وازال القصر ومن كان يدور في فلكه من امراء وحاشية واتباع دون تعييز بين مختلف العناصر ، سواء اكانت من اصلا ب تركية او مصرية صعيمة او اجنبية ، دون نظر لخبراتها وامكانياتها الحضارية وسرعان ما الفيت الانقلاب المخزبة واخفى ما تثيره من حسابيات التعالى التى تباعد بين طبقات الشعب ، وضاع كل ما تحاط به من هبة مفتعلة واصبحت مقامات الجميع على قدم المساواة .. ولعل قوانين تحديد ملكية الاراضي الزراعية وتاميم الشركات والمصانع والمصارف وتأسيس القطاع العام كانت من اشد الضربات التى اثرتها الثورة الناصرية باقتصاديات الاسر ذات الاصول التركية وافقدتها كل ما اكتسبته على مر الاجيال من مميزات اجتماعية وسياسية واقتصادية ... ولا غرابة اذا ما اخلت المخاوف القديمة على المستقبل الامن تعاد الاسرة المصرية التركية من جديد بعد ان عاشت امنة مستقرة فترة طويلة ...

ولكن ما ان اطمانت ثورة ٢٣ يولييه الى امكانية السير في الخط الاشتراكي دون موعات خطيرة حتى اهتمت بتعزيز الخط الديقراطي الذى ضحت به بعض الوقت من اجل تدعيم الاصول الاشتراكية في العقول والنفوس .. وما ان اطلقت الحريات في حدود القانون ، واعيدت الحقوق التى تحفظ عليها التحول الاشتراكي ، واستعانت بأهل الخبرة بعد ان شربوا من مناهل الاشتراكية ، حتى عم اقتناع عام بأهميتها في حل مشاكل الجماهير وازال كثيرا من القلق الذى راود البعض خوفا على المستقبل الامن للإنشاء ، ويرد الشكوك التى حثت البعض على الهروب ، واخذ الفارون يرجعون تباعا الى ارض الوطن وهم اكثر اطمئنانا ، لا ييخلون باسهامهم في حل مشاكل الجماهير .. وهكذا قبلت اخيرا العناصر التركية نمطا من الدوبان في المجتمع المصرى لم يسبق لهان قبلته في اى عهد من العهود ... II

- ٢ -

هذه صورة سريعة لتطورات الاسرة المصرية التركية من النواحي التقنية والاجتماعية والاقتصادية منذ الثورة العربية حتى الثورة الناصرية ... وفي معمة هذه التطورات ولد بعض حقى ونشأ وتربى وتعلم وتوظف ومارس الادب والفكر والفن وهو يعيش شتى محاولات

المواطنة بين الطبع التركي وتطلعاته في تحقيق المستقبل الآمن وبين اهتماماته بالاستقرار في مصر كإنسانها الأصليين ... وشاهد يحيى حتى كيف بدأت دعائم الوحدة الوطنية تتوطد بفضل جهاد مصطفى كامل ونورية سعد زغلول ... وثقف على أيدي أجيال اهتمت بتدعيم التقارب بين مختلف جماعات الشعب المصري ، رغم اختلافاتها العنصرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية والدينية .. وتقلب بين جنبات الطبقة الوسطى الحديثة التكوين من جماع المثقفين والاعيان من شتى الفئات ، وسائرهما هي : ناضل من أجل تحقيق نوع من التناسق بين اتجاهات الحياة المصرية الحديثة وقاسيس وحدة وطنية ومصرية تصرف جهودها نحو بناء مصر المعاصرة ..

نعمند البداية شب يحيى حتى في حى شعبي ، وأحب ابن البلد ولفته العامة المميزة .. ولكن على قدر ما أحب الحى الشعبى وابن البلد كره المدرسة المصرية والمدرسين المصريين .. اذ ما أن بلغ السن الذى يسمح له بثلثي العلم حتى بدا تعليمه في كتاب السيدة زينب .. ثم التحق بمدرسة ابتدائية مجانية لا يدخلها عادة الا أولاد الفقراء عانى فيها من قسوة ضرب عصا المدرسين ما جعل الدنيا تظلم في عينيه بجبر نفسه أجبارا ويعذبها عذابا شديدا حتى تقوى على حشر دماغه بمعلومات لا يكاد يفهم منها شيئا ولا يدري لماذا يتعلمها ، وذلك لكي لا يتكرر رسوبه كما حدث في السنة الاولى الابتدائية ، ويطلق سراحه من جحيم المدرسة الابتدائية ويرضى امه التي تفضب وتحسر على خيبة ألمها في اولادها اذا ما رسب احدهم (١٤) .. وظن انه قد يجد تعليمًا أفضل في المدرسة الثانوية ، الا انه عانى فيها حرمانا في تربية الخلق ، وخاذلا في انماء الشخصية ، وتقصيرا في الكشف عن المواهب والاستعدادات والقدرات تكفى بحشو الرأس بالقشور وبالعلم النظري دون ان تعتنى بالدراسات العقلية والتجارب العملية .. تخلو الكتب الدراسية ومناهج التعليم من كل ما يتصل بالموسيقى من قريب او بعيد رغم انها غذاء الروح . وتخلو ايضا من الفنون وهي مهذبة للحس والدوق ومن التربية الدينية السليمة ، ويقتصر التعليم الديني على استظهار بعض الآيات القرآنية ... الا أن يحيى حتى عوض كثيرا مما حرم منه في المدرسة المصرية بماللقاه من مدرسة الأم التركية .. اذ كانت على قدر من الثقافة الادبية والدينية ، تعطي اهتماما بالاحتفالات الدينية والاعياد الاسلامية خاصة مولد النبي الشريف ... ولذلك فان أول هز قروحية خبرها يحيى حتى في حياته كانت إيام الطفولة اثناء حفلة مولد النبوى الشريف ، التي كانت تهتم الأم باقامتها بالبيت في مياعها من كل عام ، كما عودته منذ الصغر على زيارة المساجد ، خاصة تلك المساجد التي تقام بها الموالد . ولذلك عشق حضورا احتفالات مولد سيدنا الحسين ليتمتع برؤية ما يستعرض فيها من مشاهد السيرك من ألعاب الحيوانات ومن تمثيليات بسيطة ومن الاغاني الدينية .. (١٥)

(١٤) يحيى حتى : خليها على الله .

(١٥) يحيى حتى : دعمة فانتسامة .

وما كاد يحصل يحيى حتى على شهادة الكفاءة حتى وقع في حيرة . اذ كان عليه ان يختار بين القسم العلمى والقسم الادبى .. لقد كان يتعنى في صباه ان يكون طبيباً لان الطب مهنة حرة تهتم بدراسة جسم الانسان ؛ وتكشف عن اسباب علله وامراضه ، فكان عليه ان يختار القسم العلمى ولكنه فضل القسم الادبى خشية ان يرهب سنة او اكثر من ناحية ؛ وان يحمل الاسرة مزيداً من الابعاء والمصروفات من ناحية اخرى .. فلما كاد يحصل على شهادة البكالوريا عام ١٩٢١ حتى التحق بمدرسة الحقوق العليا التي كانت تشمل ثمة التعليم العالي في ذلك الوقت ، ولا يدخلها الا المحظوظون من الاولاد ، ولذلك اعتبر التحاقه بمدرسة الحقوق شرفاً عظيماً لا يتاله من يدخل مدرسة التجارة العليا او مدرسة المعلمين العليا .. الا انه لم يجد في اساليب الدراسة في مدرسة الحقوق ما يجعلها تفضل عن المدرسة الابتدائية او المدرسة الثانوية ... لقد افتقد فيها علاقات التراحم والانصاف والمساواة بين الاساتذة والطلبة ، ورأى حدة الصراع بين الاساتذة القدامى والاستاذة الجدد . ومع ان منصب الاستاذ لا يعلوه منصب آخر فان اغلب الاساتذة قرب الى التجار الجشعين وابتعد ما يكونون عن حملة العلم .. ووجد الطلبة في زحمة الامتحانات في سباق مروع من اجل الظفر بالاولوية دون مرشد يذلهم على احسن المراجع وادقها . في حين يجامل بعض الاساتذة ابناء الوزراء وكبار موظفي الحقانية التي تتبعهم مدرسة الحقوق .. ويسرقون وقت الطلبة بالعبث والمماحكة حتى اصبح التعليم « كسلق البيض » ومجرد حشو للدماغ ، حتى يكاد ينجر بالتفاصيل والقشور دون ان يتاح لطالب واحد فرصة ليقف ويتكلم امام جمع من الناس وهو حاضر الدهن مالكا لشخصيته واعصابه ، حتى لا يبارس المحاماة الا وهو مدرب على صنعة الكلام وحسن الخطابة بعد معرفة القانون واجراءاته .. (١٦)

وهكذا كان مجتمع مدرسة الحقوق صورة مصغرة من المجتمع المصرى ككل شاهد فيه يحيى حتى صراعات غير مفهومة بين الاساتذة المصريين على الربح والمنصب ، ومنازعات بين الاساتذة الانجليز والفرنسيين من اجل توجيه الدراسة في المجالات التي تراه مصالح بلادهم ، وتنافساً بين الطلبة على الاولوية عن طريق التنسوق في الامتحانات او الوساطة والمحاباة والمجاملة .. ولقد اکتوى يحيى حتى بنار هذه الصراعات والمنازعات والتنافس التي كانت تثير في داخله تيارات مريرة من القلق والشك وعدم الاطمئنان ...

وانتهت مرحلة الدراسة بمدرسة الحقوق العليا بنجاحه في امتحان اليلسانس عام ١٩٢٥ وجاء ترتيبه الرابع عشر ... فبعد ان كان قبل ظهور النتيجة يعنى فقط مجرد النجاح ولو جاء اسمه في ذيل قائمة الناجحين حتى لا يغضب امه او يجرعها مغبة خيبة الامل . وحتى لا تنمى ضياع جهادها من اجل اولادها او تندب سوء حظها معهم . فاذا به يتطلع ان يكون من بين الاربعة الاولاد الذين سترسلهم مدرسة الحقوق في بعثات الى جامعات اوربا لاعدادهم لشغل

مناصب الاساتذة لتلميحا لحركة تصير مدرسة الحقوق ، واحلال الاساتذة المصريين مكانا الاساتذة الاجانب من انجليز وفرنسيين ... واخذت تراود يحيى حتى آمال تؤكد لها تجربته في المدارس المصرية ، واشعرته بان لا مجال للتنقيف الحقيقي الا في الخارج ولافرصة له في اثنان لغة اجنبية الا بالسفر الى بلادها حيث تتوفر مناسبات لمشاهدة ظروف من الفن الرفيع على مسارح الباليه والوبرا والكونسير...وكم آله ان يرسم في الكشف الطبي ويخرج من دائرة المرشحين الاصليين وينزل الى مرتبة المرشح الاحتياطي .. وتحصر على ضيق فرصة كان يأمل ان عموضه من كل ما افتقده في المدارس المصرية ، وينعم بالجو العلمى الصحيح ، ويعيش في اجواء ثقافية تنمى عقله وترهف حسه وتندب ذوقه وتسمح له بالتمتع بمختلف ظروف الفن الرفيع ...

ولم يكن هناك بد من ان يقف يحيى حتى في طابور الطالبين للوظيفة . مثله في ذلك مثل جميع افراد أسرته الذين لا يوجد احد منهم من تجرا واشتغل بالهن الحرة ... واصبح امله ان يعينه ترتيبه المتقدم للحصول على وظيفة في قلم قضايا الحكومة .. وحيث انه كان يعلم ان وظائف النيابة المختلطة كانت وفقا على اولاد الدلاوت وعلى من يجيد الحديث باللغة الفرنسية اضطر ان يقدم طلبا للنيابة الاهلية ، فوضع تحت التمرين في مكتب نيابة الخليفة لقربه من سكنه .. وبدا عملا اصدق وصف له هو « صبي وكيل نيابة » كل مهمته ان يجلس بجوار وكيل النيابة ويراقبه .. قد يسمح له بقراءة محضر التحقيق وابداء الراى فيه شفويا .. ولكن لا يحمل مسئولية تولى التحقيق ذاته او ابداء الراى فيه كتابة . ولم يجد من يحاسبه على الحضور والانصراف فلم يريج لئلا هذا العمل ، وشغل نفسه في الفترة ببعض الدراسات القانونية من الاحداث والقام بعض المحاضرات عنها .. كان يطمع من طريقها ان يتولى وظيفة تسمح له بالاشراف على ملابجء الاحداث ومواصلة ابحاثه في كل ما يتعلق بمشاكل الحدث . ولكنه وجد السبل مسدودة لئلا هذه الوظيفة . فحاول ان يجرب حظه في المحاماة وهى عمل حر غريب عن أسرته يتطلب اتصالات متنوعة بمختلف فئات المجتمع .. بينما أسرته قليلة العدد منطوية على نفسها في شبه عزلة اجتماعية .. كل رجالها موظفون ، ليس لهم معاملات مع الناس تدعو الى الدخول في خلافات مدنية او منازعات جنائية او حتى مشاحنات عائلية تستدعى خصومات شرعية . فلم يجد يحيى حتى من يسنده في القاهرة ، وهى بلد كبير يحتاج فيه المحامى الناشئ الى اتصالات ومعارف واصدقاء لكى يستطيع ان يجد لنفسه مكانا بين كبار المحامين الذين يسيطرون على مختلف القضايا .. (١٧) فاذا به يركب الصعب ويقتل الذهب السى الاسكندرية وينزل ضيفا عند خال له يعمل بالجمارك ليمارس المحاماة في بلد تكاد تخلو من كبار المحامين الاهليين ، ويكثر بها المحامون الاجانب الذين يسيطرون على سوق محكمة الاستئناف المختلطة . فاشتغل اول الامر في مكتب محامى يهودى وجد فيه كثيرا من مظاهر التقدم الثقافى ومن علامات الرقى الحضارى .. ولكن سرعان ما تركه عندما لم يف المحامى

اليهودى بوعده ويدفع له المكافأة في أول الشهر .. واشتغل في مكتب محام مصرى وعده بمكافأة شهرية أكبر .. ويبدو أنه لم يجد الأمان كذلك عند المحامى المصرى وإذا به ينتقل الى دمنهور وينزل عند أحد انسيائه البعيدين ويعمل في مكتب محاماة أتابه صاحب المكتب في تولي أمر الدفاع في بعض القضايا الصغيرة .. دعتة الى التنقل بين مراكز دمنهور لحضور جلسات محاكمها .. وفي دمنهور تعرف على طباع أهالى البحيرة من خلال خلافتهم التى تعرضها أمامه ملفات القضايا التى وكلت إليه دون أن يخالف الأهالى مخالطة تعرفه بهم عن مائة وتجربة .. إلا أنه فرع من قضايا النصب وما تنطوى عليه من غفلة وبرادة متناهية ، ومن لؤم وخسنة وذناة وطمع وجشع من ناحية أخرى .. وأعجب من كثرة ضحايا الخلافات بين الرجل والمرأة ، وما تدعو اليه من خيانات تمس العفة والشرف حتى أحس بأن الأمانة في هذه الدنيا امر مستحيل .. ولينته وجد أى نوع من الراحة وهو يبدل أقصى ما يستطيع من جهد لظهور الحق ودفع الظلم عن موكله ، ولكنه تعرض لخدايع سماسرة القضايا الذين يعملون كوسطاء بين المحامين والمتقاضين .. كما لم يرتج الى كفالة العدالة بسبب العجلة التى تدار بها جلسان الحكمة وسرعه اصدار الاحكام .. فساد كل ذلك على ظهور عقدة التزكى في مصر التى افقدته الاحساس بالامن والاستقرار ، واغرقته في مشاعر الغربة والخوف من المستقبل . فلم يستطع مقاومة ضغط التخويف العائلي من مغبة الاستمرار في عمل حر غير مضمون الجانب، خاصة بعد وفاة والده في ١٩٢٦/١٠/٢٦ . وقلق أهله بعد مرور ثمانية شهور على اشتغاله بالمحاماة .. دون فائدة تذكر فوجد نفسه في النهاية يستسلم لاساليب الإنزال في الوساطة والشغاعة لنيل وظيفة ، وان كانت أقل كرامة مما كان يمتنى .. وإذا به يقول : « تعرضت لضغط شديد .. خوفت فيه أشد الخوف من المستقبل المجهول .. من أجل أن أراضى بوظيفة في الحكومة ... لم يجدوا لي بعد الوساطات والشغاعات الا وظيفة معاون إدارة ... ان هذه الوظيفة أقل كرامة من وظيفة النيابة .. فلم أقبل لنصب الا صاغرا مستسلما » (١٨) .

ولكن ما ان علم أنه عين معاون إدارة بمنفلوط حتى أحس بأن سفره الى مقر عمله هذه المرة لا بمائل بيغرياته الى الاسكندرية ودمنهور حيث نزل عند الاقارب .. وإذا به يتهيب السفر الى الصعيد ، ويتوهم أنه مهاجر يقيم منفردا في بلد غريب بعيدا عن الأهل ، ويتوهم خيفة من انقطاع سبلته بعائلته ، ويضطر ان يعيش وحيداً في بلاد تنتشر فيها جرائم القتل والإخاء بالثار ، محرومة من وسائل التقدم الحضاري من ماء نقي ونور كهربائي ومجاري .. ترحف فيها العقارب في كل مكان .. كلها حياة خسنة صارمة لا تعرف الزينة ولا تجيز دلع القاهري في طعامه وملبسه وتكاته ونزعاته .. ليلها سجان له يد سوداء تعلق الأبواب عند غروب الشمس على الانسان والحيوان ... فأخذ يحيى حتى يردد اقوالا لا تخلو من رعشة « لا أستطيع أن أبين شعوري حين علمت أنني مهاجر لاقيم منفردا بالصعيد .. هل هو تهيب من المجهول .. أو هو خوف من

الانقطاع والوحدة .. ؟ لم يسبق لي قط ان سافرت للصعيد او خالطت اهله .. صورته المنبغية في ذهني رسمتها لي اقوييل تضاربتهاول الاشاعات عن جرائم القتل والاخذ بالثأر .. « (١٩) ومع ذلك سافر يحيى حتى الى منفوط وتسلم عمله كمعاون ادارة في اول يناير سنة ١٩٢٧ . تحدوه مشاعر « بسعادة الانطلاق .. الى عالم غامض احس بسحره وعطره .. كنت اشتاق اليه من قديم .. وادرك ان مصريتي ومحيتي بلدي لا تمنان الا اذا اقتسلت في حوضه » (٢٠).

لا جدال في ان الشيء الجديد على حياة يحيى حتى في منفوط هو معيشته وحيدا بعيدا عن الاسرة ، دون تدخل من والدته التي يبدوا انها كانت ذات شخصية مسيطرة يعمل لها الجميع الف حساب ... ولقد سكن بمفرده لأول مرة ، اذ لم يكن هناك اقارب ينزل عندهم كما كان الحال في الاسكندرية ودمهور .. يدخل البيت ويخرج منه بلا رفيق ، لا يحاسبه احد وقت الخروج ولا يجد من يسأله متى عاد .. اذ كانت والداته تحرص على ان تتم على اولادها جميعا قبل ان تنام ، ولا يأتي لها نوم الا بعد ان يدخل كل منهم فراشه .. وكل هذه الحرية اتاح له الفرصة الكاملة لكي يتخلص من تأثير كثير من تقاليد اسرته التركية ، ويقترب اكثر فاكتر من صميم الحياة المصرية بعيدا عن كل التدخلات الخارجية .. يعيش في معمة المجتمع المصري صباح مساء ، تحيط به مختلف مظاهر الحياة المصرية من كل جانب .. يستمتع بأهل منفوط ويعتمد عليهم كل الاعتماد في مواجهة شتى الحاجات اليومية الضرورية ... وان ظروف عمله كمعاون ادارة حصرته اتصاله بالفلاحين الى حد كبير ودفعته لمعرفة طباعهم وعاداتهم في مواقعها الاصلية .. بينما التنقل بين المراكز والقرى لتلبية الواجب الوظيفي جعله يشاهد عن قرب الطبيعة المصرية ويتصل بها اتصالا مباشرا حين يخرق الحقول ويتأمل النباتات ورفاق الحيوان .

وبذلك تكون اقامة يحيى حتى منفردا في منفوط مدة عامين مباشرة مهام عمله قد ادت الى احتكاكه الفعال بالانسان المصري والمجتمع المصري والطبيعة المصرية ، مما ساعد على تنمية شخصيته المصرية في ظروف لا تسمح بتسرب نفوذ التقاليد التركية ونزعاتها ، وتدعو الى تغليب التقاليد المصرية وتعميق نزعاتها في مختلف تصرفاته .. واذا بالحياة الجديدة تستغرق كل وعيه واهتماماته ، ولا تكاد تغفل منه لحظة من لحاحات الربيف في الصعيد .. فانتبه الى انماط من الانسان الساذج التخلف .. روعه الدجال الذي يتظاهر بالقوى وبليس العمامة الخضراء ليستغل بساطة الفلاحين .. ويبعث الرعب في قلوبهم ويسلبهم اموالهم ويستندرج نساءهم ... وشغله المحتال الذي يلجأ الى كشف الطالع وادعاء القدرة على شفاء الامراض المستعصية .. فهاله ان ينهزم العقل امام الدجل والاحتيال الذي يورم بامكانية الكشف عن كنوز مخفية واظهار الغائب البعيد ... ويهزه نفوذ دجال الدين على الفلاحين .. ليس فقط في

(١٩) نفس المرجع السابق .

(٢٠) المرجع السابق .

حلفات الذكر وصلوات الجماعة بل على الخصوص رضى الحزازات وإبطال الاخلا بالثار ، والتقريب بين القلوب وتطهيرها وتقديم النعائح الاخوية التي تمنع الجرائم وتحض على مصالحمة المتخاصمين ورد المطلقين ، والسماح بتأجيل سداد الديون .. ولقد ادهشه كيف يعم السلام في اقرية طوال اقامة الشيخ بين ربوعها ينتقل من ضيافة الى ضيافة اسابيع وشهورا ، وكيف يتوجس الاهالي خيفة اذا ما عزم على ترك قريتهم ليتوجه الى قرية اخرى .. !! الا انه يلحظ ان قوة هؤلاء الشيوخ لا تتناسب مع ثقافتهم وشخصياتهم بأنه لا يوجد عندهم علم يهر ولا قوة روحية خارقة ، وان ولايتهم ليست الا مجرد مهنة متوارثة لكسب العيش بطريق شريف يفيد الاهالي ، ويقوم بدور فعال في تطهير المجتمع من كثير من الشوائب الخلقية والاجتماعية .. !! ولذلك كانت العلاقة بين هؤلاء الشيوخ والفلاحين علاقة مثالية تتسم بالنبل ، ليس فيها استغلال أو خداع بل فيها تبادل المحبة والاحترام والثقة والرغبة في تعميم الخير ونشر السعادة والامان والاطمئنان بين الجميع . وذلك بخلاف العلاقة السائدة بين الفلاحين وموظفي الحكومة الذين استقروا في بلادهم ليقدموا لهم مختلف الخدمات ...

لقد كانت علاقة الموظفين بالفلاحين تفتقر على الدوام الى الثقة المتبادلة ، مما دعا يحيى حتى لان يشعر بالاسى والاسف لوجود « هوة كبيرة بين الفلاح والحكومة » ولذلك فان « معظم اشغال الحكومة ، رغم حسن نيتها ، يساء فهمها .. وتعرقل وتهدم .. » (٢١) وحاول يحيى حتى بكل قواه ان يستلثن الفلاح حتى يثق به كموظف حكومي فلم يفلح .. !! اذ اصبح في ذهن الفلاح اعتقاد راسخ بان الحكومة لانفعمه .. هو في واد وموظفو الحكومة في واد .. ينظر الى هؤلاء الموظفين على انهم اغراب اجراء ، لا يهتمهم الا قبض مرتباتهم ، وقلوبهم ليست مع .. حتى دب في قلب الفلاح رغبة متأسلة من الغرياء ، ورغبة أشد اذا كان الغريب من طبقة الاندبية الموظفين ، الذين يعتقدون انه راقده على كنز ، وان خيرات ارضه موفورة ينبغي ان يكون لهم نصيب فيها .. فلا تعجب اذا ما اخذ الفلاح حذرته حتى لا يظهر عليه دلائل النعمة فلا يطمع فيه « الشبابون » من الموظفين الذين يتوهمون ان تقدير مهابة وظيفتهم تقاس بما يلقونه من اكرام ، ويقدم اليهم من مأكولات حين ينزلون على الفلاحين لظروف العمل وبسطر العمدة لاستضافتهم ... الا ان « فراغة عين الموظف » ليست السبب الوحيد لعدم ثقة الفلاح فيه .. انما لا تهتز صورته كذلك امام عينيه ، ما ينشعب بين الموظفين من خلافات وخصومات تصل الى حد العداء السافر وكتابة العرائض الكيدية ، فكيف تؤمن جانبه .. ! لقد تلقى الفلاح الموظف الجديد بالترحاب عند قدومه لأول مرة ، ويتقبل ان يدخل معه في علاقات طاملا انها تعود عليه بالفائدة .. لانه يعلم ان هذا الموظف لم يأت اليهم « حيا في سواد عيونهم » بل تادية لواجب مغروض عليه ربما يراه كرهيا فاذا ما فرغ منه يسرع فيولي ظهره وينفض يديه منهم ... ومن خلال هذه المشاعر كانت تصرفات الفلاح تتذبذب بين عواطف الوفاء وتكران الجليل

... وبين التودد والنفاق .. مما جعل الموظف بالتالي ، يشعر بأن الفلاح رجل لا يوفق به ، عنيد لا يتحول عن طبيعته، وأن معاملته باللين والانسانية عبث ضائع .. ولكن عدم الثقة المتبادلة وريبة كل منهما في الآخر تفسد كثيرا من مشروعات الحكومة ، خصوصا تلك المشروعات التي لا تراعى أحوال الفلاح المصري الاجتماعية والثقافية ولم يسبقها اعداد الموظف المناسب لحياة الريف المصري ... !!

وفقد الثقة بين الفلاح والموظف ليست المظهر القبيح الوحيد في ريف الصعيد .. فان هناك مشاهد اخرى اشد قبحا تستلقت النظر وتدعو الى التأمل .. فان الفلاح المصري الذي لا يثق في الموظف يتعرض يوميا لضروب مختلفة من الضغط في شتى مجالات حياته العادية : يستغله الموظفون من اكبرهم لاصغرهم .. فان المأمور يفرض نفسه على العمدة لكي يعد له وجبة فاخرة اذا ما نزل عليه لسبب من الاسباب يستدعي البقاء في بلدته مدة طويلة ... فيضطر العمدة ان يستولى على دجاجة فلاحه فقشرة لكي يقدم للمأمور الوجبة الشهية التي ينتظرها، ويرضيه على حساب « فلاحه غليظة » في اشد الحاجة الى العون والمساعدة . . بينما يعامل الطبيب الفلاحين بأساليب تخلو من الانسانية ، وتسم بالاستعلاء والغلظة والاستقلال . . . فطبيب القرية لا يتورع عن تشريع جنة قتييل في مقر داره امام اهله ، ولا يبالي بحرمة الميت ولا يحترم مشاعر الجماهير ويقطع في جثة الفريق على الجسر امام المارة ... ولا يستنكف من ان يسخر من شباب القرية وهو يكشف عليهم عرايا بوقاحة يوم قرز القرعة ... فلو كان يفحص كلبا جريا لكانت يده احن عليه من على هؤلاء الفلاحين ... يعيش في قصر جميل ، معتزلا القرية ، كانه اقامه وسط غابة واحاطه بالمتاريس، ولا يتسع الا له ولاسرته ويخرج منه يوميسا للادغال لصيد الوحوش ثم يعود ليتمتع دون بقية اهل القرية بكل مزايا المدينة المادية والعنوية. ... يحيا في قصر يسوده السلام والدعة والرفقة والنظافة والابهة والرفاهية ولا يمكن ان يتصور ان هذا الطبيب المهذب النبيل داخل بيته هونفسه الذي يعامل الفلاحين بغلظة وقحة لا اخلاقية ... فيشترط دفع الاجر قبل تقديم العلاج المطلوب او قبل اجراء عملية ، لا هم له الا الالراء العاجل بأى ثمن بالطرق المشروعة او غير المشروعة على حد سواء دون تمييز بين الخير والشر او الحق والباطل « (٢٢) . هذا فضلا عن ان الفلاح كثيرا ما يتعرض للغلظة المعتمدة بل وظلمه واستغلاله أحيانا لتختبئ مآرب شخصية ، أو ليظهر مدى سطوته على الفلاحين حتى يرضى عنه الحكام ... فيعيش الفلاح بين مطرقة العمدة وسندان شيخ البلد ، يحاول ان يكسب ود الطرفين المتنافسين دون جدوى .. فلا تعجب اذا ما سرت الغلظة والقسوة في مختلف نواحي الحياة في ريف الصعيد فلانكاد «موت زوجة الفلاح حتى يتزوج بأخسرى مهما كان عدد اولاده ومهما بلغ من الكبر . وسرعان ما يتأمر الاولاد على الاب ويقتلونه . واذا ما فرطت بنت في عرضها فلا يتردد أى فرد من افراد العائلة عن قتلها حفاظا على الشرف

.. ولا سبيل لحل الخلافات على حدود الأرض ويرى الغيطان سوى تبادل إطلاق النار وسقوط الضحايا من هنا وهناك ، صونا للكرامة ودفاعا عن حرمة الأرض ... بل إن الفلاح منذ ولادته محروم من حياة الطفولة يقاسي منذ الصغرى ويلات العمل في الحقول ، وسرعان ما يصاب بأمراض البهارسيا والملاريا التي ترهق بدنه وتقتال حيويته وتسرع به إلى شيخوخة عاجزة ، في حين لا تعرف الفلاحة الراقية ، فماتكاد تزوج حتى تنجب ، ولا تمنعها كثرة الخلفة ومتاعب الواجبات المنزلية أمام القرن وتقرص الجلة من مشاركة زوجها في القبط .. وهكذا تستمر في عمل يومي شاق دون توقف منذ الصبا إلى الشيخوخة حتى يصعب التمييز بين الشابة والعجوز من نساء القرية « فليس في قبضة الفقر والشقاء إلا عمر واحد » . (٢٣) يجد الفلاح نفسه مضطرا لأن يهتم بحيواناته إلى درجة تفوق اهتماماته بأولاده ووجهه .. فإذا ماتت الجاموسة ذرف عليها الدموع ولطمت النساء الخدود ، وأقيمت مناحة كبيرة يتقبل فيها الغداء من الأهل والجيران .. ولذلك فليس هناك أشد قسوة في الانتقام من دس السم للبقير والجاموس .. وإن الترف الوحيد الذي يعرفه فلاح الصعيد الحافي القدمين المرتدى الجلباب الأزرق البالي هو القتل عند الإخذ بالثأر . (٢٤) بينما تكاد تخلو حياة الفلاح الخاصة من اللهو والمرح ، ولا يسرى منه إلا نزول السميرك إلى مولد السيد عبد الرحيم القتائي .. فيستأيق الفلاحون الوافدون من جميع أنحاء المركز على مشاهدة الألعاب البهلوانية وعروض التمثيل ومشاهد الغناء والرقص في نشوة ما بعدها نشوة لا تتكرر إلا نادرا .. إلا أن الفلاح لا يعرف شيئا عن بهجة الأنثى حتى أن الغواني - وهن قليلات - يرقصن في لباس يغطي أجسادهن إلى الكعيعين في بيوت من القش والطين .. ومع ذلك فإن الحياة الجنسية تلعب دورا هاما في تحريك الحياة في الصعيد وتثير متناقضاتها الاهتمام .. !! إذ كيف تصبح شريفة - التي كانت في شبابها غانية من الغواني - وليست من وليات الله ويشيد لها مقام يزار ويشترك به .. بسبب ما أظهرته من كرم وتوبة وتبذل في أواخر حياتها .. ومع أن التقاليد لا تمنع للمرأة التي تفرد في عرضها فرصة للتوبة وتقتص بها فوراً بالانعدام .. كما أنها سمحت بوجود تقعة للدعارة الرسمية .. فلم يعترض أحد من الأهالي على احتراف الفحشاء أو يتحسنا لاجبار المومسات على مغادرة البلاد .. بل لم يتأفف فرد منهم من سوق الشرطة لهن لاستقبال قطار الرحلة الملكية وإطلاق الزغاريد التي يمنح أحرار نساء الصعيد من إطلاقها علنا .. ! وكذلك يعرف العمدة وشيخ البلد كل امرأة تمارس الجنس سرا ولا يحاول أحدهما أن يمنع واحدة من باعها الهوى عن التردد على بيوت الإغندية في المساكن النائية في الخفاء تحت ستار الليل .. بل لا يتورع العدة أو شيخ البلد عن أن يدفع بامرأة بحراوية بعد أن يأخذ ماريه منها ليأكل بها الوطئ الذي يتفردون من قدادة المومسات الرسميات اللاتي يكشف عليهن كسفطيا شكليا وإن كان دويوا ..

(٢٣) يحيى حلى : أم المواجه : قصة إزالة راحة ، الكتاب الخامس العدد ٢٩ السطس ١٩٥٥ ، القاهرة .

(٢٤) نفس المرجع السابق .

يهدف إبعاد خطر استهواء الشبان من الموظفين لبنات القرية ونسائها .. حتى لا يتعرض لمصرع اليم .. مع أن الرعب من القتل يكاد يحد من انحراف النساء الصعديات .. فإذا ما طاش سلوك واحدة منهن غالباً ما تكون من نوعية معينة كأن تكون ابنة تاجر ثرى مشغول بتجارته .. في حياته يسر ، يتمتع بقسط من التحرر يخفف من شدة الرقابة . (٢٥) أو تكون بنت مدارس دخلت في علاقات اجتماعية لم تنشأ عليها . أو تكون من أسرة مسيحية يلتحق بناتها بمدارس التبشير التى تسمح بنوع من الاختلاط مع الجنس الآخر (٢٦) وفي جميع هذه الأحوال تنتهى حياة البنت التى لا تحرس على شرفها لسبب أو لآخر وان كل ما ينسب الى الصعيد من انحرافات جنسية ينصب في الغالب على نساء بحراويات اثنين من خارج الصعيد (٢٧) أو الى الفوائى اللاتي ينشأن على حياة حرة طليقة لا تحافظ على حرمة الجنس وصيانة العرض ، ومستعدة لأن تبذل كل شيء في سبيل المصلحة والنفع والمادة (٢٨) .. وهكذا اهتم بحى حتى بأن يعرض مناقضات القيم الجنسية في الصعيد ويبين كيف أنه يحق للرجل الصعيدى أن يمارس الجنس في حرية مطلقة دون قيد اخلاقى أو شرط دينى ، ولا يلام إذا ما أشبع نزواته الجنسية بأساليب داعرة رغم تعدد زوجاته . ولا يشعر بالعار إذا ما رأى النعارة تطوف من حوله ، ولا يجد داعياً لأن يحرك ساكناً طالما انها لا تمس اهله ، بخلاف إذا ما سمحت امرأة من الصعيد لنفسها بممارسة الجنس في غير النطاق الذى وضعه الشرع وتسير عليه التقاليد فأنها تلقى مصرها من غير تردد أو تفاض .. ! !



الا أن ريف الصعيد ليس كله قبحاً فان الطبيعة وهبته من الجمال الشيء الكثير ، ما اجبر بحى حتى على ان يصف روعة تدفق ميساء الفيضان مع احتفال الفلاحين بوفاء النيل ، ويعرض مناظر حقول القطن والبرسيم في لوحات خلابة ، ويتأمل حيوانات الفيت عن قرب ، خاصة الحمار الذى زامله مدة اقامته بمشغولوط ، ويحاول أن يستشف كنه كل حيوان من خلال عينيه « للبقرة عين غارقة في أحلام لليلة .. للجمال عين ترقب الدنيا من عل بتوجس وغضب مكتوم ، كأنما يخشى أن تلحق بكبريائه اهانة على يد حقراء .. وللحصان عين تنم عن الخيلاء والتلب والذكاء تمكس الضوء بالليل فتتقد كالباقوة الحرة .. ولليس عين فيها العناد كله ، وحتمًا الحبث والقوامرات .. وللجاموسة عين متطفلة لا تنبعت منها حياة أو ارادة الا وهي ترضع طفلها فينعتد سبابها على الحنان .. اما الحمار فان عينيه ذليلة حزينة تكاد تترقق فيها الدموع ، بل يخيل

(٢٥) نفس المرجع السابق .

(٢٦) بحى حتى : دماء وطن : قصة البوسطنجى .. مجموعة (١) . دار المعارف . العدد ١٥٢ . عام ١٩٥٥ . القاهرة .

(٢٧) بحى حتى : دماء وطن : قصة « أبو فودة » .

(٢٨) بحى حتى : دماء وطن : قصة : قصة في سجن .

الى في بعض الاحيان انها معمعة كميون الاطفال بعد بكاء .. اهكذا هو سر نهيفه .. ليس في صوت حيوان آخر مثل هذه الحرقة والتفجع والمرارة ، انها صرخة عذاب واستغاثة واشهاد الناس في نوبة متفجرة من بكاء بلا دموع تمزق الهواء لم تذوب كأنها لم تكن .. (٢٩)

لا شك في ان الفترة التي قضاهها يحيى حتى في ريف الصعيد - رغم قصرها اذ لم تتجاوز العامين - قد عمقت مصرته الى ابعاد ما كان يستطيع ان يصل اليها لو بقي في القاهرة بصفة مستمرة ولم يتركها الى الصعيد .. فلقد يستر عليه نهم كثير من اتجاهات الحياة المصرية ونجح في تصويرها تصويرا واقعيا صادقا في كتابه «**خليها على الله**» .. والهمته بأروع قسمسه الاولى في «**دماء وطن**» و «**أم الموجز**» كانت صدى لتجارب حية ظلت تتفاعل في داخله وتوحى اليه بمواطف ومشاعر وإفكار وحكمة وموعظة وصور وخيالات ، شغلت وجدانه وحركت عقله لمدة طويلة حتى وهو بعيد من ارض مصر متنقلًا بين بلدان اوروبا .. وعلقت قلبه بالفلاح المصري رغم قذارة ملابسه وبيته وضالة طموحه وسرعة وقومه في الجريمة والانحراف .. فسخر فنه القصصى ليكشف عن اسرار طبيعة شخصيته ، ويدعو الى النهوض به نهضة انسانية وتقانية حتى يرتفع مستواه الحضارى ... الا ان يحيى حتى نظر للفلاح نظرة اهل الحضرة وسكان المدن التي لا تستسيغ الاوضاع المتهاكلة التي عليها اهل القرى وسكان الريف ، فكان هدفه من وصف المجتمع الصعيدى الوصول الى نوع من التقدو والتوعية بقصد ، اولا وقبل كل شيء ، اصلاح حال الفلاح المصري في ضوء المفاهيم الحضارية الحديثة .. ولكن اوصاف يحيى حتى للفلاح والحيوان والحقول تقف عند حد القطاعات التي سمحت ظروف حياته بان يتصل بها اتصالات مباشرة او يدخل معها في علاقات عمل او لهو وانقلت فكره ووجدانه .. ولا غرابة في ذلك فلقد نشأ يحيى حتى وترى في القاهرة ، وترجع معرته بالريف ، قبل ان يذهب الى منفوط ، الى مجرد رؤية بعض القرويين الذين يدخلون بيته لتقديم حساب المحاصيل واجرة الارض ، او لقضاء عمل من الاعمال المنزلية .. واغلب تعسوراته عن الريف استقاها عن بعض التهاويل والاشاعات التي استمع اليها من هنا وهناك .. ولما ذهب الى اعماق الريف الصعيدى لم يخالف اهله او يعاشرهم ، انما كانت اغلب اتصالاته مع اندادهم الموظفين وبذلك لم يختبر حياة الفلاحين في احضان الريف ، لانه لم يقم في بيوت من الطوب اللبن ويرقد على الارض بجوار الحيوان .. ولم يأكل اكلمهم صباح مساء او يشرب من مجارى الانهار ويرتدى زيهم الفضفاض .. ولم يشاركهم في جد هم وعيهم ، يستهويه ما يستهويهم وينفرهم ينفرون ، يخطط معهم للاخذ بالثأر او يجد نفسه بلا ارادة مندفعًا في معركة من معاركهم دفنا عن الكرامة او الارض .. ولذلك اذا اطلع يحيى حتى على بعض اسرار الريف في الصعيد وراها عن كتب فلم تنجح له الفرض الكاملة لأن يتدمج في عائلة من العائلات الصعيدية اندماجا شاملا يسمح له بالامتزاج التام في خضم حياة

الفلاحين ليتعرف على أبسط دخائلم اليومية التي لا يمكن أن يلحها القريب مهما بلغ من الوعي والثقافة ودقة الملاحظة .. أو يستجيب لكل ما يشغل وجدانهم ويثر اهتماماتهم ، ويتجاوب مع كل ما يفعل في قلوبهم من هموم ومخاوف وآمال وتمنيات .. ولذلك لا يكفي أن يحس الفنان بالمشكلة لكي يتفعل بها ويعايش إبعادها معايشة حيوية ليستطيع أن يعبر عنها تعبيراً صادقا ، وإنما يجب أن يعيش هذه المشكلة بكل جوانبها ويندمج فيها اندماجا شاملا في تجربة كاملة لا تقف عند مجرد الانفعال والمعايشة ، معتمدة على نفاذ البصيرة وشفافية الرؤية . . .

اذ لا جدال في أن من يعيش التجربة أكثر صدقا وبلغ دقة وأكثر قدرة على التعبير عنها من الذي يتفعل بها أو يعايشها لفترة من الزمن مبهما طال . . . اذ سرعان ما يستولى عليه الملل ويفقد الانفعال حيويته ، وتصبح المعايشة عبئا ثقيلا قد تنقلب الى ضيق وتذمر يمتنئى الخلاص من حياة لم يعتدها . . . واذا حاول يحيى حتى أن يوهم نفسه قبل أن يوهما بأنه بلغ اقوار شخصية الفلاح المصرى ، وأنه كان في موقع يسمح له بأن يفسر احوال هذه الشخصية تفسيراً سليماً فإن نظرتة الى هذه الشخصية لم تكن نظرة موضوعية خالصة ، إنما كانت نظرة اثر فيها منطق أهلى المدن ، حتى يمكن أن يقال أن نظرة يحيى حتى الى أهل الصعيد أقرب ما تكون الى نظرة هؤلاء المستشرقين اصحاب القلوب الكبيرة العامرة بحب الانسانية التي تقبل طواعية أن تعيش في المجتمعات البدائية اطول مدة ممكنة ، بهدف انقاذ الانسان المتخلف ورفع مستوى حياته وحمايته من الجهل والاستغلال . . . الا ان يحيى حتى يمتاز على هؤلاء المستشرقين بأن بواعثه في الحذب على هؤلاء الفلاحين لا تقف عند حد الاشفاق والعطف خلال لفحة الانسانية ، إنما تستند كذلك الى نوع من الغيرة الوطنية يحزنها ان ترى المواطنين على ما هم عليه من تخلف وشفاء ..

وهكذا اكتفى يحيى حتى بأن يتفعل في أعماق الريف المصرى محاولا أن يتسرب الى وجدان الفلاح المصرى من خلال تصرفاته الخارجية التي يراها امامه ولا يقبلها منطق أهل المدن ليفسرهما من خلال علاقاته المتضاربة بين الفلاحين أنفسهم من ناحية ، وبين الموظفين من ناحية أخرى ناشدا فهم خبايا الريف وأسرار شخصية الفلاح المصرى . . . ولكن هذا الفهم كان مفيدا كما ذكرنا بحدود امكانيات نشاته القاهرية في نطاق أسرة ذات اصلا بتركية . .

ولا تعجب اذا ما اخذ يحيى حتى يشكو من مرارات الحياة في ريف الصعيد ، ويشن من نقوة عمله صارخا « طالما أرحقنى وإذا قننى عذاب الجسد والروح أشكالا والوانا ، ثم يستدرك زاعما أنه لولا معاناة مثل هذا النوع من الحياة ، وممارسة مثل ذلك النمط من العمل ما عرف بلوى أهله ومشاكله وشدة حاجته لمن يأخذ بيده من إبنائه ، يتربن بلهجه وطنية ناشدا ان هذا الشعور قد أتقده من (الضياع) حتى وجد في اقامته بمنقولوط (السلامة وراحة القلب يتدر ما في الدنيا من سلامة وراحة قلب (٣٠) . . . الا انه كثيرا ما كانت تسنولى عليه مشاعر

يحيى حتى .. بين العربة والتركية

التفوق والرهق ، تصور له تلك البلدة على أنها راقدة بين الفيضان والتخيل .. حيوان مشوه .. جسم رايش على الأرض لا فكر له .. عيناه واسعتان ولكنه اعمى .. يتنفس وبحيا ويجد سبيله في الحياة بغضل غريزة قوية .. نوم موجود .. استيقاظه تحفز .. سكوت بين هذا وذاك .. مخاوفه . (٣١) وكمر روعه ذلك الفلاح العدم الذى يعوى القتل تحت يواثى الاخسد بالثار ، وكثرا ما كان يتحسر لعجزه في التمييز بين الشابة والعجوز من النساء في مجتمع ينسدر ان تظهر فيه المرأة ... واذا بالملل يستبد به في النهاية ويشعر بان يعيش حياة رمية كئيبة لا تسرى عنه سوى الجلسة المشابهة كل يوم في القهوة مع الاصدقاء ذاتهم يتحدث معهم في نفس الاحاديث التى لا تنفجر ، وعادة تدور حول خباياها لآلات الزملاء من الموظفين وخاصة حول تصرفات بعض الزوجات المنحرفات (٣٢) فأخذ يتشوق لعمل ينقله من تلك الحياة القاسية الكئيبة ، واذا بالآمال تراوده في البحث عن مستقبل آخر يبعده عن هذا المكان بحرره من أسر الريف ، ويطلقه في عالم اكثر رحابة الى ان صادفه ذات مساء اعلان في صحيفة يومية .. فبينما (كنت راقدا بعد العشاء على السرير بعد نهار أنفك روي وان له جسدي .. اقلب ولا اقرأ صحيفة يومية واذا بنظري يقع على اعلان لوزارة الخارجية بانتهاء مسابقة تعيين الفائزين فيها بوظائف امناء الحفوفات اى سكرتيرين في القنصليات والمفوضيات » (٣٣) فتنبهت فيه كل الرغبات السابقة التى كثيرا ما شوقته للحياة في الخارج حيث تتوافر مختلف المتع الفكرية والثقافية والفنية وكذلك الحياة المتحضرة الراقية التى للمرأة فيه دور بارز وسريعان ما (تقدمت للسابقة ... ونجحت .. وان جاء اسمي في ذيل قائمة الفائزين .. صدر امر تعييني اميننا لحفوفات القنصلية المصرية في جدة باعتبارها سوا المناصب الشاغرة وقتذاك) (٣٤) ..

وعكذا حدث الانقلاب الخطير الثانى في حياة يحيى حتى بعد حدث هجره له من القاهرة للصعيد

بعاميين من الزمان .. فانتقل من حياة يفيض فيها العمل الرهق عن الزمن المحدود الى حياة يفيض فيها الزمن عن عمل موهوم .. (٣٥) فلم يتأخر يحيى حتى في تسلّم المنصب الجديد رغم أنه لم يحقق كل طموحه ويرضى تطلعاته ، الا أنه عبس عن رضاه بالعمل في جدة بقوله : سآزور الحجاز .. وادرس المذهب الوهابى .. واعرف مشاكل الحج والكورنتينات ... وارى جميع الشعوب الاسلامية .. وبعض كبار المستشرقين .. (٣٦)

(٣١) يحيى حتى : ام العواجز : قصة : الزاوة دحية .

(٣٢) يحيى حتى : خليها على الله .

(٣٣) المرجع السابق .

(٣٤) يحيى حتى : اشجان فغو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٥) يحيى حتى : خليها على الله ..

(٣٦) المرجع السابق ..

- ٣ -

ويبدو أن حياته في جدة وهي تمتد من عام ١٩٢٩ الى عام ١٩٣٠ لم تكن أسعد حالا من حياته في منفوط . فلقد كتب لي اخيرا رسالة خاصة ذكر فيها شيئا عن حياته في ذلك الوقت يقول « فقد عشت في جدة وعمرى ٢٤ سنة قرايه سنتين ... في جو حار رطب خائق ... بعوض وعرق .. كنت اتعاطى حيوب الكينيسايوميا .. اناام على مرتبة ساخنة داخل ناموسية .. استحم في طشت بماء من صفيحة .. اشتغل بالليل على كلوب اثلث عيني .. ومع ذلك قرأت مكتبة القنصلية كلها .. وتعرفت لأول مرة الى الجبرتي ، وكتبت عدة مقالات وقصص لا اذكرها » .. اذ (في تلك الآونة كان النشاط الدبلوماسي قليلا فرحت اقضى وقت فراغى في مكتبة القنصلية حتى قراتها من آخرها - وفيها اكتشفت تاريخ الجبرتي لأول مرة وفنت به اشد الافتنان .. فلم اعرف كاتبها او مؤرخا استطاع ان يصور روح الشعب المصرى مثله « (٣٧) فلم يتوقف يحيى حتى وهو في جدة عن السعى من اجل تعميق مصريته . فاذا به يعيش مع الجبرتي يحسوم حول الروح المصرية ويكتب مجموعة من المقالات في **جريدة البلاغ تحت عنوان « الفكاهة في المجتمع المصرى »** ونمما باسم « **عبد الرحمن بن حسن** » وهو اسم الجبرتي نفسه . لخص فيها كل ما ورد في تاريخ الجبرتي من فكاهة . بعد ان حمصها ووبوها وارجمها الى اصولها النفسية ، محاولا الكشف عن بعض نواحي الشخصية المصرية .

ولعل اهتماماته بالشخصية المصرية وتعزيز معرفته بها في تلك الفترة هي التي شغلته عما ينور في بلاد الحجاز من حياة .. فلم ير هناك سوى « المسلمين يأتون للحج من جميع ارجاء العالم ، فيكونون لوحة شاسعة كان لها اقوى الابر في نفسى » (٣٨) ومع ذلك لا نكاد نغسر له عن أى نوع من الكتابات الوصفية التأثرية الغنية التي عرف بها - تعطى لنا لوحة قلمية حول التكية الشريفة او الحرم النبوى الكريم رغم شغفه الزائد بوصف كثير من الآثار الاسلامية في القاهرة واستنبول « وان كل ما ظهر له من انعكاسات حياته في جدة لم يتعد كتابة بعض المقالات عن المذهب الوهابى ومشكلات الحج والكورتينيات في مجلة الرابطة الشرقية ، وهو في هذه المقالات يكاد يسير على هداية هؤلاء المستشرقين الذين التقى بهم خلال العمل الدبلوماسى واعجب بعقليتهم الغربية المنظمة » ..

وهكذا نجد يحيى حتى في جدة مشغولاً في مكتبة القنصلية بعيداً عن المجتمع الحجازى .. **يقرا ويقرأ محاولاً ان يجتهد مدى ما توصل اليه من مصرية ..** وان ذهب لمشاهدة المسلمين في ساحات الحج الا ان بواعثه كانت بواعث فضول - وما أقبل على دراسة المذهب الوهابى الا بدافع نقاقى يريد ان يتلمس مدى قدرة هذا المذهب على تطوير الفكر الاسلامى في الدين .

(٣٧) يحيى حتى : اشجان عضو منتسب : سيرة ذاتية .

(٣٨) الرجوع السابق .

وما أن تم نقل يحيى حقى من جدة الى استانبول في عام ١٩٣٠ حتى اتاه الفرج .. فإذا كان قد حبس نفسه في جدة بمكتبة القنصلية فإنه في استانبول خرج الى المجتمع التركي يتصل بالعائلات ، خاصة تلك العائلات التي تمت له بصلة قرابة ، ويזור الاحياء الشعبية ويتردد على مقاهيها وملاهيها ، ويصف آثارها الاسلامية ويعايش الحركة الكمالية .. لا شك في أن خروج يحيى حقى من جدة الى استانبول اعاد اليه بعض حيويته .. فان قلب يحيى حقى لم يفض بفكر جديد وهو في جدة ، وان عقلاه لم يشغل بحياة أهل جدة ، وعاش على هامش المجتمع الحجازي يتصل اكثر ما يتصل بالمستشرقين الاجانب ، واقتصرت تحركاته على نطاق الاعمال الدبلوماسية .. ولعل ذلك يرجع الى ضرب من الحذر الذي شب عليه يحيى حقى في معاملاته مع كل من لا يجرى في عروقه دماء تركية ، خاصة من هم من اصل عربى صرف ، الذين دخلوا معهم خلال التاريخ في صراع مرير على السلطة استمر اجيالاً ، فتخوف من ان تظهر العقد القديمة اذا ما دخل في علاقات وطيدة مع الحجازيين ، او اذا ما حاول ان يتعمق في فهم المجتمع الحجازي ويتبين ايجابياته وسلباته ، وفضل ان يكتسب انفاس فكره ويضيق الخناق على نبضات عقله حتى لا يتعرض لانهامات التحيز .. ولكن بمجرد ان استقر يحيى حقى في استانبول حتى شعر انه يعيش في موطن اجداده الاول ، وانه عاد من المهجر الى بلد له فيه عدد عديد من الذين لهم به صلة رحم .. فلم يعد يحس بأن هناك ما يدعو الى الحذر ، وانطلقت تعرفاته في شتى المجالات يدخل بيوت الاقارب وغير الاقارب من الاصدقاء والمعارف ، ويזור المساجد ويتردد على الآثار الاسلامية .. ويحاول ان يصادق بعض المبرزين المقيمين في استانبول ويدخل معهم في علاقات .. يندمج في المجتمع الدبلوماسي ويشاركه في كثير من تحركاته الاجتماعية .. ينغل بصورة كمال اتاتورك ولا يتردد في تقويمها .. يقبل على تعلم اللغة التركية لان معرفته باللغة التركية لم تكن تسعفه في التفاهم مع اهله اذ « لم تكن اللغة التركية تستخدم في بيتنا الا للسباب في لحظات الغضب » ، (٣٩) وقد استطاع ان يتقن تلك اللغة للدرجة انه تمكن من تدقيق الشعر التركي وان يتصل بشعراء تركيا ويتعرف عليهم .. وينابع بوجه خاص تطورات الحركة الكمالية في عنقوانها يرقب محاولات كمال اتاتورك في تحويل تركيا من دولة شرقية اسلامية الى دولة علمانية حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة . ويشهد مظاهرها تحول حكومة شعب مسلم متدين الى دولة تتجاهل دينه وتعاديه وتعتقد ان التمسك بالدين هو سرائر الشعوب ، وتحاول ان تزيل كل ما يمت للدين بصلة ... ويقرأ كل ما كتب عن كمال اتاتورك فاستطاع ان يصاحبه يوماً بيوم يشاهده وهو يخطب ويحاسبه عندما زار السفارة المصرية في انقرة ليسترضى المصريين بعد حادثة اهانة الطربوش .. واذا كانت شخصية مصطفى كمال قد بهرت الا انه اخذ عليه دكتاتوريته ومصادرته للحريات الدينية ومعاداة لرجال الدين وتعطيله اداء فرائض الاسلام ومحاولته اعادة مسجد اياصوفيا الى الكنيسة التي كان عليها اول الامر . ولكنه رضي بحل وسط بأن يكون البناء مجسرد

متحف لا هو مسجد ولا هو كنيسة تظل فيه الصلوات الخمس ولا تعود اليه ترائيم الصلوات المسيحية .. (٤٠) ولعل محاولات مصطفى كمال لقطع صلة تركيا بالدين الاسلامي - رمز الحضارة العربية الاولى - تهدف الى ازالة كل ما اخذه الاتراك من العرب .. ولذلك اتخذ خطوات ايجابية من اجل تطهير اللغة التركية من الالفاظ العربية وهي تكاد تصل الى ثلث مفرداتها .. والزواجعة الشعب التركي بكتابة اللغة التركية بالاحرف اللاتينية بدلا من الحروف العربية ، بل امر بكتابة القرآن الكريم ذاته والاذان بالحروف اللاتينية كذلك .. وفضل ان يرتدى في احضان الحضارة الغربية املا في التطور والاصلاح والتقدم على ان يظل راكدا جامدا في تكايا حضارة العرب وثقافتهم المتكاسلة ، رغم انه حارب بشراسة الاحتلال الغربي في بلاده حتى طهرها من التدخل الاجنبى.

ولقد تصور يحيى حتى ان مصطفى كمال كره العرب وحضارتهم وثقافتهم كرها لم يعرف له مثيلا بلغ الحماقة ، اذ ليس هناك « احق من رجل يهاجم في العصر الحديث دين رجل آخر ، فما بالك بحماقة من يفعل ذلك بامته على بكرة ابنيها » (٤١) واذا لم يثر الشعب التركي ضد مصطفى كمال بسبب نزعتة المعادية لدين الاسلام فليس ذلك « خوفا من بطقه انما اكراما له لانه اتقاه من التمرق والعبودية واستلاب الاجنبى لارضه . » (٤٢) واذا استجاب الشعب التركي لاوامر مصطفى كمال بهذا الصدد ، فان قلبه ظل يخفق بدين الاسلام وايمانه به لم يتزعزع وان كانت تصرفاته تجامل تعليمات الحاكم ... واذا تحسر يحيى حتى على عداء مصطفى كمال للدين الاسلامي وحرمان الشعب التركي من الحرية الدينية فانه تضايق الى حد القضب لانه نوعا من العداء للعرب يبدو في اعماله لحضارتهم واعطاء ظهره لثقافتهم ، رغم ان تركيا ما استطاعت ان تحكم العالم العربى وتقبل العرب الخضوع لسلطانهم زمنا طويلا الا بفضل تمسكها بالدين الاسلامي ، حين اهتم سلاطين الدولة العثمانية بان يتولوا الخلافة الاسلامية ، لان سلطات الخلافة الاسلامية تعطى لهم من النفوذ والتاثير الروحى ما يضمن ولاء الاقطار العربية للدولة العثمانية .. ولقد كان الدين الاسلامي دوامامن اهم العوامل التى قربت العناصر التركية في مصر من عامة المصريين ، ودعت المصريين الى حسن استقبال الاتراك كلما نزلوا بديارهم حتى لو بغرض الاستعمار والاستغلال .. ولقد شحى مصطفى كمال بكل هذه الجذور التاريخية في سبيل اعتقاده بان حضارة الغرب هي حضارة المستقبل ، وان حضارة العرب آخذة في الذبول ولا حاجة لتركيا فيها وضررها يفوق نفعها ..

ولكن ما هو الباحث الحقيقي لهذه الغيرة الدينية عند يحيى حتى ... ؟ هل هو باحث روجى صرف ، او هو باحث يحركه نوع من القلق يخشى انكسار الارتباط الروحى بين تركيا

(٤٠) يحيى حتى : نعمة .. فابستامة .

(٤١) المرجع السابق .

(٤٢) نفس المرجع السابق .

ومصر ؟ أن هذا الحرص على الدين لم يترنم به يحيى حتى وهو في الحجاز مستقط رأس الديانة الإسلامية حيث ولد رسول المسلمين عليه الصلاة والسلام .. وانطلقت منه دعوته الى العالم الخارجى .. وحيث الكعبة الشريفة أقدس المقدسات الإسلامية .. وحيث قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومقابر آل محمد والصحابه وشهداء الاسلام الاول .. فان كل هذه المواقع المقدسة لم تدغدغ حواس يحيى حتى الروحية كما دغدغ وجدانه مسجد إياصوفيا ومسجد الانصارى الصحابى باستانبول .. وإذا كان الزحام ساحات الكعبة الشريفة بالحججاج قد بهره واثاره الا ان ذلك لم يدفعه الى كتابات اشبه بكتاباتهن عن ازدحام مسجد إياصوفيا بالمصلين في ليلة القدر .. **فالفيرة الدينية هنا تكاد تكون غيرة ارتباط .. لا شك في أن يحيى حتى يعشق مصر عشقا مابعد عشق ، ولكنه يود كذلك لو تظل هناك علاقات وطيدة بين مصر وتركيا وخاصة العلاقات الروحية ..** **وان الدين الإسلامى كان على الدوام من اهم العوامل التى توثق الروابط بين الشعوب وتجدد حيويتها** كلما اعترأها فنور بين المصريين والأتراك .. فإذا ما تخلت تركيا عن الدين الإسلامى وأزمنت في أحضان الحضارة الغربية فان الذى يلقى يحيى حتى في المقام الاول ان هذا التخلي يقضى على ما تبقى من روابط الوصال بين مصر وتركيا والعرب والأتراك .. ويعز على المصريين الذين تجرى في عروقهم دماء تركية ان يشهدوا المرع الاخير لعلاقات تاريخية قاومت القرون ، وان يستشهدوا على فسور الروابط بين المصريين والأتراك الى حد الندم .. وكل ذلك يضعف من اتصالات المصريين بأقربائهم في تركيا ويمهد لقطع العروة الوثقى بوطن اجدادهم ... ولهذا السبب بالدلات كان يحيى حتى ضد سياسة مصطفى كمال في معاداة الاسلام وكراهية العرب ... !!



الا ان اقامة يحيى حتى الطويلة بين الشعب التركي خلال فترة عنفوان الحركة الكمالية ، وما اثارته من تقلبات فكرية ونفسية ، وما خاضته من تجارب اجتماعية وثقافية اناحت لعن الغرض ما مكنه من ان يدرس جوانب كثيرة من اتجاهات الشخصية التركية السلوكية والاجتماعية ، بينما يشاهد تصرفات الأتراك وانفعالاتهم وميولهم فتكشف له من المفارقات ما لفت انتباهه . ولعل اهتمامه الزائد بتحليل الشخصية التركية يوجع الى حد بعيد لرغبته في فهم بعض اتجاهاته الداخلية .. ولعل نجاحه في فهم هذه الشخصية يعينه اولا وقبل كل شيء على فهم ذاته فهما يعرفه بنفسه ... فوجد ان الشعب التركى « شعب غريب يجمع بين المتناقضات » تتسم شخصيته بسمات متعارضة تجمع بين « القوة والرفة » ورأى في الأفراد « عيون بعد ان تبرق بلعب نظرة النمر الجائع تترقق فيها الساحة وجوب الدعاية ... فرض الاعتداد بالنفس يغلو في مواسم التآدب الاغواى .. شعب يتوه في الخيال وترفعه الموسيقى الى السماء ثم لا بعيد في نظره عن الواقع العلى والمنفعة المادية ... شعب تنضج في اغانيه الشعبية بدعوى البكا على الشهداء الذين سقطوا في ميدان الجهاد ضد روسيا وضد اليونان .. وأشدها حزنا البكا على الشهداء

في حرب البلقار .. ثم هو في الوقت ذاته يزدري الموتى والقبور أزدراء شديدا . . لم أشهد طوال اقامتي أربع سنوات في استانبول جنازة واحدة .. تتم المراسم كلها في المسجد .. يتقبل العزاء ثم التصراف كل حى لسبيله (٤٣) ورغم أنه شعب فشا فيه التصوف وكثرت التكايا وتمددت الطرق الصوفية .. ومع ذلك فليس في استانبول قبر لولى من هذا الشعب يزار وتنسب له كرامة » ولذلك فلا نعجب اذا ما تقبل الشعب التركي الفاء التكايا . . وجد يحيى حقى « بين الكتب الرائجة في استانبول تندر برىاء الدرويش الذى يزعم انه يلتزم المسجد واذا سُئل عنه وجدوه في الخمار » وكان ذلك من بين الدواعى التى تحت الحكومة على حل الطرق الصوفية ومطاردة « المتعدين اليها مطاردها للمجرمين المستحقين للشنق » وكذلك شجعت عامة الشعب على الاستهزاء بالدرويش والوعاظ « وما اكثر هزه تكالهم الشعبية بالوعاظ ودعاة الفضيلة والكرم وبالوعود المحمولة على الفد لا اليوم » بل ان « مساجد استانبول كلها كانت لا تنطق بشيء عما تنطق به أحجارها .. كلها روائع معمارية نحسب .. مقامة على مقابر العظماء من سلاطين آل عثمان .. لا توحى بأية شحنة روحية .. ورغم ذلك لم أر مثيلا للشعب التركي في تبجيله وتحيته واعزازه لشخص الرسول بشرا لانبياء نحسب » (٤٤) .. **واذا انتقل يحيى حقى من واقع الحياة الدينية الى عالم الرجل والمرأة وجد ان « استعلاء الرجل على المرأة » في تركيا لا يتمثل الا في اختطاف لفتاة من قريته والهرب بها الى الجبال ونوالها عنوة .. فهذا الاختطاف هو عنده البرهان الوحيد على الرجولة .. » (٤٥)** وشد انتباهه كماداته احوال بالعات الهوى فيقول « لم أر مثل البغى التركية في إيمانها بأنها ضحية مجتمع الرجال الذى لا يرحم .. » وتصور حين شاهد « في تلك المقامى الشعبية الصغيرة في استانبول بين ربهى التلال المخضرة المشرقة على البسفور أو مرمرية اعزازا وتصفيقا لفتاة لم تبلغ سن الرشد .. ولكن خدوها مداس للجميع » ثم روى لظروفها القاسية عارضا لآحوالها المتضاربة « لم أر انسانا ضعيفا مثلها يجمع بين الإبتسام والرعب وبين الصلف والمسكنة .. بين الافصاح والاختناق .. بين الطرب والأتين » وكم اغاظه مجتمع الرجال لانهم « تقننوا في تفصيل ثوب لها .. ثوب فنتورية اسمه اللل .. » (٤٦)

هذه هى الملامح الاساسية للشخصية التركية كما تكشفنا ليحيى حقى في ضوء تجاربه في استانبول .. ولا شك في أن اقامته الطويلة في تركيا التى بلغت ست سنوات على فترتين متتابعتين في استانبول وفى انقره قد مكنته من أن يتعرف على مدى التفاوت بين الشخصية

(٤٣) يحيى حقى : دمة .. فابتسامه .

(٤٤) الرجوع السابق .

(٤٥) الرجوع السابق .

(٤٦) نفس الرجوع .

المصرية والشخصية التركية .. كيف أن تعميق معرفته بالشخصية التركية يعينه على حسن التصرف خلال شخصيته المصرية ، ويكشف له بعض ما خفى عليه من جوانب ذاته الموروثة من الأصول التركية ، فيتمكن من أن يتحرر من ازدواجية الاتجاهات وتضارب الانتماءات وتصادم القيم المصرية والتركية ، ويحقق شخصية واحدة متجانسة تترشح لكل ما هو مصرى ولو رفضها طبعه التركى لسبب من الاسباب .. وأن طول إقامته بين أهل إجداده لم يحدث فيه أية رجعة نفسية ارتدت به عن مصر .. بل لم تفارقه احساسات الغربة وهو بعيد عن مصر .. فان انضحت له جذور مقوماته التركية فان ذلك لم يمنعه من أن يتعمق في فهم روحه المصرية في نفس الوقت الذى يتأسس فيه على هؤلاء المصريين الذين يتعرفون عن طريق التفكير المصرى الاصيل السليم .. !!

- ٤ -

ولقد قرأ يحيى حتى قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم فإذا بالحنين الى مصر وشعب مصر يعاوده ، وإذا به يبحث بمقال عنوانه « توفيق الحكيم .. بين الغشبية والرجاء » لمجلة « الحديث » بحلب في آخر سنة له في استانبول عام ١٩٣٤ . وكانت من أولى مقالاته التى حاول فيها ان يحدد المسار الذى يتبعه أن يسر فيه الأدب المصرى حتى يصبح المعبر الحقيقى عن كل ما يختلج داخله من انفعالات وآمال .. فاستهل مقاله بأنه « لعل الافتراق هو وحده الذى حفزنى الى كتابة هذا المقال » (٤٧) وعاب فيه اتجاهات الأدب المصرى التى تغلب عليها الميول الفردية من دون الميول العامة التى تعبّر عن روح كلية هى روح الشعب المصرى بأجمعه .. ولذلك كانت أغلب الكتابات الأدبية في ذلك الوقت مجرد صرخات شخصية تدور في واد لا تجد لها من صدق بين عامة النفوس ... ولقد ذهب توفيق الحكيم باتجاهاته الصوفية في مسرحية أهل الكهف يشيد بأن كل موجود هو من الله .. والله دائم .. فكل ما هو موجود دائم .. وينتوهم الى أن الزمن هو احدى خصائص عقل الانسان الذى لا يدرك الا بثلاثة مقاييس .. وبذلك حاول ان يعزج بين المواقف الصوفية والنظرات العلمية .. الا ان هذه المسرحية بعلمها الصوفى العلمى لا تكاد تعبر عن قريب او بعيد عن مشاعر الجماهير ولذلك لم يكن لها اى صدق لدى عامة الناس ؛ ولم يتجاوب معها الشعب المصرى ككل ، ذلك الشعب الذى كان يمر بمرحلة نضال سياسى واجتماعى واقتصادى يحتاج اكثر ما يحتاج الى عوامل تقوى فيه نزعات الجهاد حتى يستطيع ان يغلب على مختلف انواع المصاعب التى يضعها الاستعمار لعرقلة نهضته .. وليس في حاجة على الإطلاق لتقوية النزعات الصوفية التى تدفعه الى نوع من الاسترخاء ، يستمرىء الكسل والخمول ، وينتهر من المسؤولية الوطنية بدافع من الانانية التى تحت على قطع صلة الفرد بكل ما حوله طلباً للظهور والخلاص ، في ظل وهم نظرية صوفية سطحية .. ولذلك اعتبر يحيى

(٢٧) يحيى حتى : خطوات في النقد . مكتبة دار العروبة القاهرة - بدون تدقيق .

حتى مسرحية « أهل الكهف » من المسرحيات الخطرة على شباب مصر ، إذ قد تستهوية باليول الصوفية، على حين أنه لا خلاص لمصر من الاستعمار ولا نهضة للشعب المصرى من الفقر والتخلف الا على يد جهود شباب مصر الذى يجب أن يبذل كل فرد منه في تعاون ويشترك اقصى ما يستطيع من جهد ، دون نظر لاي نوعية من المنافع الفردية سواء أكانت مادية أو روحية .. ولذلك فإذا كانت مسرحية أهل الكهف بمثابة نجاح كبير لتوفيق الحكيم كفنان في عالم الادب فإنه لا يكاد يكون لها أى دور ايجابي في المجالات التى تدعم مقومات الشعب المصرى .. ولا نحتاج اذا ما شك يحى حتى في قيمة مسرحية أهل الكهف بالنسبة لشعب مصر .

وأحسب ان يحيى حتى هنا يكاد يكون متأثرا بالحركة الكمالية من جهة ، وبالنزعات التركبة العملية من جهة اخرى .. فان مصطفى كمال قد قاوم التصوف بكل صوره ليصرف جهود عامة الجماهير ويركزها في خدمة تركيا .. ويبدو أن يحيى حتى كان يتمتع في ذلك الوقت أن يظهر في مصر شخصية قيادية مثل مصطفى كمال تعطى لشعب مصر من الكرامة والحوافز المادية والمعنوية ما يلهب القوى الكامنة لتعمل على رفع قيمة الانسان المصرى .. دون أن تستغرقها قيم غيبية لا تساعد على رؤية أفصاح الحقائق التى يعيش في قلبها المصريون ..

الا أن يحيى حتى تنبه الى أن نزعة التصوف التى تشوب قصة « عودة الروح » لتوفيق الحكيم تنسم بالخلية خلاف نزعة التصوف العالمية التى تنسم بها مسرحية « أهل الكهف » وهى قصة تقوم على ديانة الفرائنة تستوحى اسطورة أوزوديس وأيزيس ، وتتخذ من ثورة ١٩١٩ الشرارة التى أوقدت الحياة في اشلاء مصر المنقطعة الاوصال المتفرقة المعزقة الجوانب ، وأعدت اليها الروح التى وحدت جميع الصوف وشملت تحت راية مصرية واحدة .. وعرضت هذه الافكار تصرفات عائلة مصرية صميعة .. رغم أنها كثيرة الافراد . فلقد كان يجمعهم اتحاد ووصال وود .. ولكنهم وقعوا جميعا في حبة فتاة متلاعبة تسكن بجوارهم حاول كل منهم أن يتقرب اليها على غفلة من اخوانه .. فتوشك المصلحة المتضاربة أن تباعد بينهم .. وإذا بالثورة المصرية تعصفهم جميعا وتكتسح بهم التافة ، وتجمعهم على الوفاق من جديد داخل حب كبير هو حب مصر .. فعادت الروح الى مصر التى ظن الجميع انها ماتت ، حتى ان عودة الحياة الى هذه الروح لفتت انتباه اجنبى فرنسى .. ويرى يحيى حتى في هذه القصة صورة صادقة للمجتمع المصرى سواء في القاهرة او في الريف ، ولذلك لها قبيلة واقعية يمكن ان تعود بشيء من النفع . لانها استمدت اصلا من التراث المصرى القديم من ناحية ، واتخذت من الحياة العالمية الحديثة سبيلا للتعبير عن عظمة الماضي وحيوية الحاضر .. الا أن يحيى حتى لم يجد في قصة « عودة الروح » ما يشفي غليله الوطني ويشع اتجاهاته المصرية الصاعدة اشباعا قويا . فان القصة تريد بصدق وإيمان الجمع بين الروح والجسد .. بين المعنى والرمز .. بين السر والتعريف .. بل وتريد كذلك ان تبين لنا كيف تسري الحياة من جديد في جسد مصر .. ولكن القصة لم توضح كيف اسهم كل فرد من أفراد الأسرة في الجهاد الثورى .. كما جاءت الخاتمة

باردة ناهية ليس فيها حرارة الباطن ولا عظمته. فكانت صورة الثورة باهتة مقتضبة كما لو كانت دخيلة على القصة وثنائية بالنسبة لموضوعها .. لم تجد معربا واحدا يلقي بأن تعلق على لسانه بأن مصر التي خال الجميع أنها ماتت قد عادت إليها الروح وأختارت اجنيتها فرنسية لكي يشهد على هذا التحول .. بينما جعلت جميع افراد الأسرة بصريهم المرض ، وتنتهى القصة وهم اشبه بالوتى ، كل منهم لالذ بفراشه .. ورغم ان القصة توحى بأن مصر لا يمكن ان تحيا الا بطلمس القرائنة . فلا شك في ان استلهام مجد القرائنة يثير كثيرا من الاحلام الجميلة .. الا ان اسطورة اوزوريس ما زالت بعيدة عن الوعي المصري العام ، وبذلك لا تستطيع ان تستفز روح مصر الحديثة استفوازا قويا فعلا ، مما اصاب القصة بنوع من عدم التوازن بين الباطن والفروغنى المكتسب والظاهر المصري المستمد من الواقع . فاذا كان الباطن عظيما فان الظاهر لا يوجه اليه العناية الكافية ، وتغلب عليه الوقائع الصبغانية التي لا تخلو من تصنع واستطراء .. فان الادب المناسب لشباب مصر في هذه الايام ينبغي ان يكون ادب كتاب اقوياء يعطو فيهم حرارة اليقين الذي لا يسلم من وسواس الخشية .. وتكون روحهم مزيجا من الكبرياء والتواضع وخليطا من الحلم بالآمال والشعور بالواقع الملموس .. ينظرون الى السماء ولا ينسون ان ارجلهم على الارض .. (٤٨)



وهكذا أصبحت المصرية تشغل يحيى حتى أكثر من أى شيء آخر ، ويكاد يغلب المصرية على التركية بينما هو يعيش في تركيا الوطن الأول لأجداده ، اذ لم تستطع الحياة التركية بسيرها الحثيث نحو الاستقلال والتقدم ان تستهويه استهواء يجعله يتأفف من مصيرته . بل أعطته دوافع قوية لكي لا يالو جهدا في سبيل ان يصل بالمصرية الى درجة من الشغافية والوضوح . حتى تهدأ روحه العاشقة لمر .. ولقد ظهرت قوة حاسته المصرية **درجة قوية من البصيرة الصادقة حين حاول ان يكشف الخلل في مصرية الكثيرين من المصريين خاصة اذا كانوا من بين المصريين المهاجرين ويشغلون بمسائل عامة تهم كافة المصريين .. فانه من المعروف عن نجيب الريحاني ان فنه مصرى خالص صادق قد اتبع من قلب مصر ودل عليها وتوحم عنها وأدخ لها .. وان الريحاني هو مصر ، ومصر هي الريحاني** .. (٤٩) الا ان ازدواج شخصيته وجمعها وبين الاصل العراقي والنامى والمصرى يراه يحيى حتى ، مفتاح الفاز حياته وتفسير شخصيته .. عاش الريحاني طفلة حياته يشعر بفارق مكتوم بينه وبين المصريين .. وهذا سر وحده المحوطة في حياته العامة والخاصة .. (٥٠) . ولن كان

(٤٨) الرجوع السابق .

(٤٩) نفس الرجوع السابق .

(٥٠) نفس الرجوع السابق .

الريحاني من اوفى طبقات المهاجرين الى الشعب المصري وأكثرهم فهما لعاداته وعجائب طبعه فاقه لم يسلك الطريق السوى الذى يخدم الفن المسرحى خدمة مصرية خالصة .. ونأثر حد كبير بطرف مصر السياسية والاجتماعية دون أن يؤثر فيها ، وجارها دون أن يطورها .. عالج ميوبها معالجة سطحية لم تنفذ الى الاعماق وتقتلها من جذورها .. فلما فكر الريحاني في تكوين فرقة مسرحية هولية كانت فرقته تستمد موضوعاتها من هامش الحياة المصرية . ومسرحياتها الاستعراضية لا تكاد تخرج من أنها مجرد مسرحيات « فرانكو آراب » تعتمد على روادى اللبغانتين الأجانب ومن انصاف المتعلمين من المصريين الذين سحرهم الثقافة الغربية .. ويرددون بين الشرق والغرب وهم لا مصريون وا اجانب .. ولما حاول الريحاني ان يفسر مسرحه ويعطيه صبغة اكثر مصرية لجأ الى شخصية « كشكش بك » « عدة كفر البلاحي الحديث التراء بسبب ارتفاع اسعار القطن المفاجيء فاصاب انفاقه ضروبا من الاضطراب ، فاخذ يصرف أمواله بسخاء على اللهو والمتعة ، مما جعله موضع سخيرة سمسرة القطن واشباههم واستغلال الراقصات والفانيات .. فانخذل منه الريحاني موضوع تسلية على المسرح يهزأ من تصرفاته وهو يعيث بين بالعات الهوى ينفق هليهن كل ماله بلا مبالاة ، دون ان يحصل منهى على شيء .. لكى يسرى على رواد المسرح ، واظهرهم من الطبقة الوسطى ، سواء من المصريين او الاجانب القيمين في مصر .. ولكن سرعان ما مل الجمهور شخصية « كشكش بك » لرتابة الموضوعات والحركات والكلمات ، فاضطرا نغير من الشخصية الاولى لمسرحياته ويجارى التطورات الاجتماعية ، فانخذل من شخصية « الافندى » - التى اعدت دلولب في المدارس المصرية واسلم اليه الانجليز شئون مصر الداخلية ، واخذ يكون طبقة وسطى نامية ينتهى اليها في الغالب موظفو الحكومة واشباههم ليكسب جمهورا عريضا متزايدا من المصريين ، وحيث ان هذا الافندي لم يالف بعد ليس البذلة او رباط العنق .. موق بين الشرق والغرب .. دخله متواضع لا يكاد يكتفى مطالب الحياة الحديثة .. يعيش بين دسائس الديوان وتحكم الرؤساء وانتشار الوساطة .. فانخذل الريحاني يعبر عن مشاكل هذه الطبقة حتى يبدو اكثر مصرية واكثر تطورا في معالجة حياة مصر الحديثة . تصور مسرحياته ، القتبسة من المسرح الفرنسى الرخيص ، هذا الافندي الى أنه انسان طيب القلب حسن النية وان كان لا يخلو من مكر ودهاء .. لا يريد من الحياة الا السلامة ، ولكنه قادر على الدس والظعن دافعا عن النفس .. عواطفه حائرة بين حب الفتاة العفيفة المتخلفة والفتاة الحديثة المشكوك في اخلاصها .. ولا يجد ما يتسلى به الا التكتل التى تسخر من خداع الناس ونفاقهم وتكشف خبيثهم الاجتماعى .. ومع ذلك لا يتخلل من خلفه الشرقى الصميم الذى يسلم بالقدر والرضاء بما قسم الله .. الا انه عز على يحيى حتى ان يستمد الريحاني مواصفات هذه الشخصية من مسرحيات غير مصرية اعتمدت اكثر ما اعتمدت على المسرح الفرنسى الهابط واقتبست منها اكسد بضاعة بعد ان زوقت بلغاائف من التديليس والخداع لا تكاد تخرجها عن اعمال الفس التجارى ، واستوردت لشعب مصر لكى تجسفى نطق هذا الفن المسروق وتعرض عليه ان

يحيى حتى .. بين المصرية والتركية

يعيش فقط في متاعب طبقة واحدة هي طبقة الافندية .. « ولولا غلبة هذه الطبقة على المصرى ما توفرت اسباب هذا النجاح السطحى للريحاني . » (٥١)

ولذلك كم ألم يحيى حتى ان يقتصر مسرح الريحاني على شخصيات منحرفة غير سوية .. لا تصور الا ما في المجتمع من تفكك وضعف وتخاذل وقراض .. تنحصر في شخصيات .. ابن الدروات التالف .. والفنى العبيط ... والخادمة الشرشوحة .. والبنت الدلوحة .. والمعلم لايس الملاسة .. والافندى المعجوز الخبيث .. وامراة تركية عجوز لافضاحك الجمهور على رطانتها العربية تشبها باضحاك الاثراك على شخصية باشا مصرى يقسم بالله بين كلمة واخرى .. ورغم ان هذه الشخصيات هي شخصيات مجتمع السنوات الاولى من عشرين القرن العشرين الا انه حز في نفس يحيى حتى ان لا ترى مسرحيات الريحاني في المصريين الا اشخاصا طبيعتهم بلاهة ، وفزلهم تلعب حواجب ، غضبهم سريع وأعصابهم مقلونه .. يشورون للثافة من الامور . يستسلعون للحكم والمواظف الفارغة .. يميلون للروح والتشويق . اذ ان عرض الشعب المصرى يمثل هذه الصورة البشعة التي تبعت على اليأس من قدرة المصرى على النهوض والتطور والتقدم لا يمكن ان تكون الا خلال نظرة خاطفة متلعجة لاجنبى تخدمه بعض المظاهر فينساق في الترويج لها والاحراج عليها على انها هي كل شيء في الشعب المصرى شأنه في ذلك شأن الزائر الطارىء او القيم الذى لم يندمج فلم تتح له فرص فهم بواطن الامور في الشخصية المصرية .. فعاقت مسرحياته الشعب المصرى عن فهم امكانياته فهما صحيحا: ولبلت كثيرا من المعاني والقيم ، مما عرقل تطوره بما تبثه من ضعف وعجز ويأس ، ومن تشويه للواقع وتشهير بالحقائق .. وبذلك لم يقدم مسرح الريحاني خدمة تذكر للحياة المصرية ، ولا شك في ان ضرره تعدى كل ما سببه من ضحك وقهقهة .. واذا كان الريحاني فنانا عظيما لم يؤد خدمة عظيمة لمصر . وهذا هو عيبه الكبير الذى لا يمكن ان تغفره له الجمعية المصرية ، ولا يرضى ان يسكت عنه كل من يعشق مصر ، ولا يفكر الا في دفع المصرية في المسار السوى الصعيم .

- ٥ -

واذا لم يرض يحيى حتى عن اتجاهات الانكار الاجتماعية في مسرحية اهل الكهف : ونضايق من ضالة العواطف الوطنية في قصة « عودة الروح » .. كما عز عليه ان يشوه الريحاني ملاح الشعب المصرى ليسلى الاجانب تارة وانصاف المتعلمين من الطبقة الوسطى تارة اخرى .. فانه ايضا لم يغفل عن هؤلاء الاثراك الذين جرى في قلوبهم حب مصر ، ثم لم تستقم لهم الحياة بين المصريين لسبب او لآخر ، فتأوه اشد التأوه من المصائب التي نزلت

(٥١) المرجع السابق .

بالإسرات التركية المصرية التي ارتاحت الى العزلة والانزالية ، واتخذت مواقف سلبية
انانية من الحياة العامة في مصر ..

ولقد صور لنا يحيى حتى أربع تصوير كثيرا من الشخصيات القلقة التي تعاني من عقدة
الصراع بين المصرية والتركية في كتابه « **دعمة .. فانتسامة** » وفي كتابه « **ناس في الليل** » ولعل
تحليله لشخصية « علي بك فوزي » تعد من اروع التحليلات واشملها لذلك المصري الذي يشمر
بحتين ضائع لوطن يشعر في اعماقه أنه اصبح غريبا عنه ... لقد سيطر الصراع بين المصرية
والتركية على نفسية « علي بك فوزي » فلم يعرف الاستقرار او الراحة ، وظل يقاسي من القلق
حتى غاب عنه الهدف الرئيسي الذي ينشده من الحياة . واستولى عليه نوع من الضياع
الروحي لم يسمح لمصرته ان تستفرقه استفرقا تاما ولم يمكنه في الوقت ذاته من ان يستعيد
تركيبته الاولى في صورتها النقية .. وعرض يحيى حتى كل ذلك في كتابه « ناس في الظل » في لوحة
انتقادية رائعة حاول ان يحلل فيها احوال ذلك المصري الذي تجرى في عروقه دماء تركية، ويعاني
من اضطرابات ترجع لضرب من ازدواجية في الميول والرغبات والنزعات والموافق والافتكار
والثقل ... وبين كيف ان على بك فوزي خاب في أن يوفق بين النزعات التركية ودوافع الحياة
المصرية ، وبالتالي عجز عن الوصول الى تلك الموازنة التي تحقق له السلامة النفسية والاتزان
العاطفي والانسجام الفكري ، الذي لا يشعُر من قبول الواقع المصري على ما هو عليه والاندماج
فيه قلبا وقالباً ، مشاركا الناس مشاركة فعالة ايجابية في كل ما يخطر على وجدانهم من آمال
وأمانى ، وكل ما ينزل بهم من آلام ومصائب ، ولا يدع الاسى على فقدان الجاه والسلطان يشل
ارادته ويدفعه لمولة لا تقدم ولا تؤخر ، تمرقل نشاطه وتجعله يجترأ اوهاما بالذة لا تنتهي ، ولن
يعود عليه الا بأن تمنعه من ان يتطور مع تطور الأحداث الجارية ، فاذا به يقف عند حد التأفف
من كل سلوك هابط .. والضيق من تبجح الفباء وغلظة الحس وتبلد الشعور ، والتبرم من
الكلمة النابية والنكتة الباردة ، وكراهية الجلف والمفرور الذي يدوس على اقدام جلسائه دون
أن يدرى أو يبالي .. وهكذا لم يتقبل علي بك فوزي كثيرا من الأوضاع الاجتماعية السائدة بين
هامة الناس ، ولم يرتح اليها على اعتقاد أنها تنافي مع المستوى الحضاري الرفيع المتمسك
والخلق الكريم الفاضل .. فوسع هذا الاعتقاد هذه التناقض بين الاتجاهات التركية والواقع
المصري ، وادى الى نوع من الانقسام يفصل الفرد عن المجتمع ...

لقد تخرج علي بك فوزي في مدرسة المعلمين العليا التي كانت تعتبره في ذلك الوقت أقل المعاهد
العليا شأنًا ، خاصة بين الطبقات الشريفة التي ينتمي اليها ، على اعتبار انه من سلالة المايك
ولما جاء تربيته الاول بين المتخرجين ارسل الى بعثة لانجلترا على نفقة حكومة مصر ، ليكمل
مدرسة اكستر التي لا تصل الى مستوى جامعات كمبريدج واكسفورد التي لا يدخلها الا ابناء القادرين
من الاعيان المصريين على نفقتهم الخاصة .. وكل هذا امتهان وظلم لابن من ابناء الانساب العريقة

التي كان لها الحكم والسيادة في يوم من الأيام ... وما إن عاد من البعثة إلى مصر واشتغل بالتدريس حتى اصطدم بتحكم « مستر دنلوب » الإنجليزي مستشار وزارة المعارف والمهيمن عليها هيمنة تامة ... وتحركت في داخله كوامن السخط على الاحتلال البريطاني الذي أزال كثيرا من نفوذ العناصر التركية ونافسها منافسة خطيرة تهدد مستقبلها ، فأحس بأنه يقع تحت وطأة الظلم الاستعماري الذي أضاع هيبة العناصر التركية وأضعف مكانتها بين المصريين .. في حين أن على بك فوزي رجل رفيع مهذب شديد الحساسية متعدد يتبع أساليب الحضارة .. ذكي الفؤاد غترف من الثقافات الغربية والعربية .. صاحب ذوق فني وأدبي يمشق الطليعة ويتحسس جمال الانفاذ .. وقف علمه وثقافته ومواهبه في أول الأمر على تعليم تلاميذه لا المنهج نجس ، بل كذلك معنى النخوة والرجولة والشهامة والاعتزاز بالوطن وإمجاده .. ومعنى التبري من التعصب والغرور والصلف والكبر الفسارغ .. ومعنى الاستمسك بالعدل وكرامية الظلم حتى قدره لتلاميذه تقديرا عظيما واخصوا له الود والحب .. الا أنه لم يشعر بالسعادة لئلا هذا التقدير وذلك الحب ، لانه كان يحس على الدوام أنه مغلوب على أمره يعمل تحت ظل الاستعمار الذي تشخص أمامه في شخصية مستر دنلوب الكريهة، وإن رضاه بالسكوت من استبداده دون مواجهة يناقش الدروس الاخلاقية التي يلقيها للطلبة ، فهرب من مهنة التعليم ودخل في مهمة الوظائف الادارية حتى بلغ منصب السكرتير العام لوزارة الزراعة وحصل على رتبة البكوية ... ولكن رقب الوظيفة الادارية تحت الاحتلال قضى على كل ما بقي من قوة الاحتمال ونفذ صبره ، فمال للعزلة والتبحر في دراسة التصوف ... لانه لم يكن عنده القدرة على ان يعلن الثورة ضد الاحتلال ويقاوم الاوضاع الفاسدة ويعترض على سياسة الحكام ويقوم تصرفات المحكومين .. بل لم يكن أمامه الا ان يتخذ موقف الرفض ، وهو موقف سلبي يلجأ الى عزلة قد تشجع ميوله في التصوف وتعفيه من اللوم ، وتنفي عنه المسؤولية الناجمة عن الاشتراك في أي عمل من الأعمال ، وتقلقه مما يفتش بين الناس من احتقاد وخسة ووضاعة ، الا أنها حطمت كل جسر يربطه باهتمامات الناس ، وجعلته يعيش في امتعاض كامل لكل ما يدور حوله ، سواء من تسلط الانجليز او من استعلاء الاجانب على المواطنين ، او من تخبط سياسة الوزراء او من نهب الخديو للبلاد .. او من فتنى النغلة واللجاجة والوفاة والفش والكر والخبث بين العامة .. فاذا بالشعور بعدم الرضا الذي ادى به الى العزلة يتحول الى سخط ، والسخط يصبح امتعاضا يشعره بأنه ليس له مكان في هذا البلد فترك مصر هربا من كل هذه الاوضاع التي لا يتراح اليها .. ولكن ما ان خرج من مصر حتى وجد نفسه في مهب الأم ضاربة تعصف به من كل جانب .. فما استقر في بلد الا وأحس بالقرب وعاش في عذاب أشد من عذاب الحياة في مصر ، فلم يصبر على الإقامة في ألمانيا وسرعان ما هاجر إلى استانبول لعله يجد في بلاد ينتسب إلى أهلها بنسب من الاصل بعض الراحة بين آل اجداده ، ويحس بنوع من الايمان والاطمئنان يخلصه من الشعور بالظلم والاضطهاد والمهانة .. ولكن ظل يحس عزله وعصاميته ، يبدو عليه مظاهر

الاعياء من ارهاق نفسى رهيب .. تشقيه الوحده في الشيخوخة وتضنيه الهزيمة بعد أن ضاع الامل في كل شيء ، ولم يعد يبالي بالتقدم او التخلف بالحياة او بالموت فلا الحياة في مصر أعطته ما يريد ولا العودة الى الوطن الاول ردت اليه ماظن انه فقده في مصر .. وما أن اشتد به المرض حتى اضطر للعودة الى الوطن الذي نشأ فيه وترى ليموت ويدفن في مقابر اسره .. ولقد شيع جنازته خلق غفير من تلاميذه واصدقائه وكل من سمع عن مكانته وجهوده يشهدوا العالم على ان مصر لم تبخل على هذا الرجل بالترسيم والتقدير ، ولا تنكر فضل من قدم لها خدمات جليلة ، حتى ولو تنكر لها واضطرها لظهره ليخفى معالم الغضب والضيق والرفض والامتناع. (٥٢)

الا ان يحى حقى لم يكتف بأن يعرض مشكلة تعثر العناصر المصرية التركية في تعميق مصريتها عرضا واقعيا من خلال مشاهداته وملاحظاته هنا وهناك في مصر وتركيا ، وفي مختلف الاوساط التي اختلط بها واجتمع فيها مع عناصر تتضارب في داخلها التيارات المصرية التركية من الاقارب والاصدقاء والمعارف .. بل اهتم ايضا بمعالجتها كفنجان القصص المتميز تاركا مطلق الحرية في العرض والوصف والتحليل لشخصيات موجودة فعلا في المجتمع المصرى ، دون ان ينسب الى اصولها التركية الا بالاشارة او الرمز ، محاولا يبرز مجهوداتها المتواصلة من اجل الاندماج في المجتمع المصرى اندماجا كليا خلال شتى مراحل تطور تفكيره . ونخص بالذكر هنا ثلاثة نماذج مختلفة تناولها في « فتدليل ام هاشم » وهى شخصية « داود افندى » في قصة « السلحفاة تطير » .. وفي مرحلة « صبح النوم » وهى شخصية « القزم مع زوجته » .. ثم في مرحلة « الفراش الشاغر » وهى شخصية « فتى العائلة » .

١ - اما عن شخصية « داود افندى » في قصة « السلحفاة تطير » نرى تصور لنا كيف ينزل المجتمع العقاب بكل من يعتزل الناس ويعيش بعيدا عنهم ولا يشاركهم في معارفهم وانفعالاتهم ، فيتعذر عليه الاندماج اندماجا ايجابيا فعلا في الحياة العامة ، فيجانب تصرفاته الصواب ، اذ كثيرا ما تختلط عليه الامور ويقع فريسة الحقد والمكر ، فيتصرف بحماقة قد توقعه في مشاكل تضع عليه كل شيء وتعرض عليه ضربا من التألق تفقده مقومات شخصيته الاصلية المتوارفة ، دون أن يمتحها أصالة جديدة ويترقاها في تقاليد بالية متخلفة .. ويصر يحى حتى على أن « داود افندى » شخصية خيالية ، الا أنه يؤكد من حين لآخر انه ليس شخصية خرافية بل لا ينفي احتمال وجوده بيننا حيا يرزق .. وداود افندى كما يصوره لنا يحى حتى احد اولاد الدوات الذين ودعوا عن وارثين عن وارثين .. فكان من المقول ان يغتفروا طبقة بعد طبقة وجلا بعد جيل « فاصبحوا كالحيوان البرمائى لا هو هنا ولا هو هناك .. فهم لذلك اسرع انقراضا » (٥٣) تثبت

(٥١) يحى حتى : « ناس في الظل » كتاب الجمهورية المندى ٢ يولييه ١٩٧١ القاهرة .

(٥٢) يحى حتى : فتدليل ام هاشم .. قصة السلحفاة تطير : دار المعارف - القاهرة مجموعة القرا رقم ١٨ .

بأن يسكن في ملكه بدار قديمة في حارة مسدودة ، مع أن له استحقاق وقف ورثة عن أم أمه أو جد جده ، يمكنه من أن يعيش في حى افضل .. هوبالنسبة لجيرانه غنى ولكنه في الواقع فقير .. يعتز بأصله الذي يغنيه فيستريح ولا يسلكه في الفقراء فربح .. ان هو ككل اولاد الدوات الذين تربوا في آثار عز سالف .. نجد فيه مع الكبرياء والإنفة كثيرا من الاخلاق الصبيان وقلة الدراية بالحياة في معتركاتها .. بما في العالم الخارجى تمسكا بالماضى .. طيب كريم مع معاونة .. ينفر من الغريب .. أهل الحارة تجله لغناه .. وتستعبطه لنزوله الى مستواهم ، ويتعجبون كيف يجد لذة في ان تصافح يده الناعمة النظيفة يداصلبة خشنة كيد العمال ...

ولما حدث ان استدعى لتسم الشرطة بسبب مخالفة القاء ماء قلرق الطريق وهو يجهل اسلوب التعامل في المجتمع الذى يعيش فيه - فاذا بعامل تعود الجلوس معه ويتظاهر بصداقته يستنزه ويسبل عليه اثاره ضد سوء معاملة رجال الشرطة لعامة الناس ، ويبدى رغبته في الذهاب معه الى قسم الشرطة ليكون في عونه .. الا انه لم يف بهذه الرغبة .. وكان الجاويش فعلا من الفظافة وقلة الادب بحيث لم يستطع داود افندى ، يضافه من الكبرياء وقلة الصبر ، ان يقبل ان يهزه الجاويش هزة توقع طريقه على الارض امام عدد كبير من الناس .. وصمم على ان يرفع دعوى تعويض بقرش صاغ واحد كرد شرف .. وما كان من هذا العاسل الا ان سايره وشجعه على ان يستمر في مقاضاة الجاويش .. ولم يتأخر هذه المرة في الذهاب معه الى المحكمة . لما رآه وجلا مضطربا رغم أنه اعتقد ان العدالة تقتضى ان يدفع داود افندى لمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التى يعيشها المكردودون المتعبون من عامة الشعب المتصبيون عرقا في زحمة الحياة القاسية ، اذ ان قلبه رق له عندما اشتد به القلق .. ولكن سرعان ما اعتاد داود افندى المحاكم بعد ان تكرر تأجيل جلسة الدعوى مرة بعد اخرى .. واذا به يصاحب وكلاء المحامين الذين وجدوا فيه صيدا ثميننا يلتفون حوله ، يحتسون القهوة والشاي ، ويدخنون التارجلية على حسابه .. ويجد منعة تصل حد الهواية في عمل المحاكم دفعته الى ان يشارك وكلاء المحامين في احاديث القضايا ويدخل معهم جلساتها لجرد الاستمتماع .. مما افترى صدقته العامل بأن يعرض عليه بأن يتكلف برفع دعوى لقرىبه له مدمم يستولي رجل ذو بطش وسلطان على ملك واسع له نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما .. فوقع في المصيدة واذا بشهامته وطيبته وجهله تبسط له الامور ، وتدفق لاه يظهر كامل استعداد له ليصرف على هذه الدعوى حتى ولو رهس مصاع زوجته .. ويرط نفسه في مشاكل الآخرين غرقه فيها هذا العامل عن حسن قصد او سوء نية ، اذ انه يدعى انه ما اراد الا خير الجميع بان يخدم الاثنين معا فيشغل داود افندى اوقات الفراغ في عمل يعود عليه بالنفع ويرجع الملك المكتسب لقربيه ... ولكن وكلاء المحامين تراحموا حول داود افندى يستغلونه ويستنزفون امواله ، كأنهم يريدون ان يستردوا ديننا بطريقة غير مباشرة او يستعيدوا اموالا كانت لهم سلبت منهم بطريقة او باخرى ..

فكان داود الفندي ضحية انتقام جيسل مما سبق فعله أجداده بعامية الفلاحين واستغلالهم لكافة المصريين وخذاعهم لهم وسلب أموالهم... وهو لا يدري كيف يتصرف بحكمة وقورة.. بل تستولى عليه كبرياء واثقة تجعله يعيش في الماضي أكثر من الحاضر... ولقد نعه لأن يعتز بأصله الذي لا يفنيه، ولكنه يتشبث به لجرده أنه يريجه ويرتاح إلى المشاعر التي توهجه بأنه ما زال ابن عز من قمة رأسه إلى أخمص قدمه... « صجبت من همه التافه... ولكن كثيرا من الناس الطيبين لا يسلمون في بعض الأحيان من الوهم والشك في براعة ماضيه... فتختلط في أذهانهم الرغبة بالحقيقة... أم هم يستيقظون نجاة إلى أنه ليس هناك دليل واحد على أن الحياة غير مزدوجة... لا يستطيع أن يكون واثقا كل الوثوق من أن ليس له في الوقت نفسه حياة أخرى كالإحلام... لا يشعر بها كما لا يشعر بما حوله من ركة الدور في حياة تنصل طي ضباب كثيف بحياة أشد غموضا لكائنات أخرى... (٥٤) »

ولكن سرعان ما طحنته الأيام وضاع بين الأحداث وتاه في خضم المشاكل، بسبب جهله بالمصريين وبعمده من الحياة المصرية وثقوته داخل عادات واتجاهات ثأري عليه الخروج من داره القديمة بالحارة المسدودة... ومسح ذلك أجبر في النهاية إلى أن يندمج في الحياة المصرية وغما منه ولكن من الباب الخلفي دون أن يتحرر من مشاعر الغربة... وإن بدا أنه أخذ يجارى بعض المظاهر السطحية للحياة المصرية... بخلاف جاره ذلك العامل الذي نشأ نشأة متواضعة ولا ينفك يعرض عليه خدمات لا ينجزها، بل يورطه في مشاكل مدمية أنه يقصد مساعدته... يركز اهتماماته نحو التخلص من وسط عمال اليومية ليحقق طبقة الاندنية أصحاب المرتبات الشهرية... وأخيرا نجح في تحقيق رغبته بعد الحاج وأراقه ماء الوجه وتخلص من ماضيه الكريه كله... حتى الحارة المسدودة تركها وسكن المنورة... بينما انحدر المال بداود الفندي... وأذابه يشاهد يجلس في مطعم أمام طبق فول مدمس بجلاية وجاكيتيه، تجمع أصابعه بلقمة حبات الفول ويمعجنها في الزيت ثم تحمّلها كتلة واحدة كالكرة إلى فمه... ويتجشأ برائحة البصل الأخضر والفجل... وهو الذي تعود تلدوق ضروب من الموسيقى الرفيعة يتألق في ملبسه ولا يأكل إلا أخف أنواع الطعام، أعمانا في أقمار احساناته بأنه يختلف حقا عن عامة الناس... وما أن شاهده العامل وهو يأكل في مطعم الفول حتى أظهر انشراحه وسروره لهذا التحول في حياة داود الفندي... إذ تأكد أن صحة داود الفندي آخذة في التحسن، وأنه تخلص من أمراض معدته التي يشكو منها... ولكن ما أن تقدم إليه تاحتيته حتى نظر إليه داود الفندي نظرة تجمع أقصى ما تستطيع أن تستوعبه من الكراهية والتناف والقبض والبغض ويصرخ شائعا بوجهه: « روح الله يخرب بيتك زي ما خربت بيتي » (٥٥) ... وهكذا اتى داود الفندي مقبلة كل ما وصل إليه

(٥٤) نفس الرجوع السابق .

(٥٥) نفس الرجوع .

من حال على هذا العامل البسيط الذى أصبح الهنديا .. ولا يدري لماذا يكن له داود ائندى مثل هذه الكراهية وذلك العداء ، مع انه حاول ان يقدم له كل ما يستطيع ان يقدمه له من خدمات .. ولم يعرف ماذا فعله حتى يلقى منه مثل هذه المعاملة القاسية .. !!!

ب - ان تفسخ شخصية داود ائندى لم تقادر ذهن يعنى حتى .. فما ان قامت ثورة ٢٣ يولية حتى دعتته ما أحدثته هذه الثورة من تغييرات جذرية في المجتمع المصري الى وضع قصة « صبح النوم » ليحلل نماذج من الشعب المصري قبيل الثورة وبعيدها .. واذا به يتم بان يكون من بين الشخصيات المصرية الصميمة شخصية التركي المصري ، على اعتبار انه ظاهرة اجتماعية تعيش في المجتمع المصري تحتاج للوصف والتحليل والدراسة .. ويقع اختياره على فزيم قوزاي يتناول تصرفاته قبل الثورة هو وزوجته في لوحة من القسم الاول لصبح النوم سماء « كتاب الاسس » كما تتبع تطورات هاتين الشخصيتين بعد الثورة في القسم الثاني من هذه القصة الذي سماه « كتاب اليوم » ، محاولا ان يكشف عن المزيد من ملامح الشخصية التركية المصرية في ضوء المتغيرات الجديدة ، لتتضح له خبايا داخلها من طريق ملاحظة كيفية تكيفها مع كل ما يقع من تغييرات اجتماعية ... ولعل في ذلك يريد ان يصل الى معرفة نفسه أولا وقبل كل شيء حتى يجنبها التخطيط والتورط والارتباك ، ويحفظها من الضياع الذي ليس بعده ضياع .. !!

وكان يعنى حتى في تعرضه للقرم وزوجته اكثر صراحة في تحديد اصولها التركية .. لم يقف عند الرمز والاشارة ... واذا به يصور لنا رجلا بلغ من قصر القامة حتى كاد يكون قوما .. يعد نفسه من ابناء القرية بينما هو حفيد اسرة من برارى آسيا ، تركوا الوطن وهاجروا الى مصر وتقربوا الى حاشية السلطان الذى اقطعهم ارضا فسحة في تلك القرية التي يدعى انه من ابنائها ... بنت الاسرة في هذه القرية دارا فخمة كان ائانها وتحفها حديث الاهالى ودهشتهم .. ومع ذلك لا تقيم فيها الا حسين تجيء مع جمع المحصول ، ثم تعود الى العاصمة بعد قبض لئنه « وشاهريك مالك الملك ان يخلف الالام ابناء اضعوا ما وروا ، واخذت الارض تتناقص اطرافها ، ويد الخراب تمتد الى المنزل .. ولم يبق لسلالة هذه الاسرة في وقتنا هذا الا ثلاثة افدنة وحجرتان فوق مدخل الدار لم تهدم جدرانها .. » (٥٦) ومن اجل هذه التركة بلى حفيد هذه الاسرة جهدا كبيرا لينوز بمنصب امين مخزن السماد الهين ومرتبته الضئيل ، حتى يستطيع ان يعيش هو وزوجته فيما تبقى من المنزل ويراقب ارضه وينتفع بخيراتها .. وحتى لا تردد زوجته ما تدعيه من انها تزوجت عاطلا .. كما يعيش في وسط اناس يعرفون قدره واسله .. فتمت له كرامة وعمل وجاء .. لم يكن قد تبقئ في اسرته من الرجال الا هو .. يلتف حوله عدد قليل من النساء بعضهم ارامل واظلهن عوانس وكلهن مصابات بامراض شتى .. يعيش جميعا

في قاعة مستقرة في منازل مختبئة في ارقصة العاصمة .. ولما تزلزلت واحدة من تلك القريبات وخلف لها زوجها المرحوم ثروة غير يسيرة قبل العزم ان يتزوجها بعد ان وضعت يدها على التركة رغم انها ضخمة الجثة ذميمة الخلقة بشعة الصورة .. وادعى انه ما تزوجها الا قياما بواجبه كزعيم للأسرة اذ ليس لها احد غيره .. وقبلت ان تذهب معه للقرية .. الا انها اقامت في دار حسنة جميلة في اطراف القرية يدفع لها ايجارا يوازي مرتب الزوج .. ثم جاء باناث لا بأس به يدل على سعة العيش واستعانة بخادم اسود ، وهو ترفلا تعرفه القرية ...

وما استقر القرم في القرية حتى اخذ يرتاد على الحان ويرتد على فتاة من بالعات الهوى في عاصمة الاقليم ، يعثر نقوده التي يبتزها من زوجته بعد غراك وصباح ويواجه عقبا من اسرافه بغضب شديد اربابا ، مدعيان بان الديون قد كثرت عليه وينبغي ان يسدها فلا تقوى على احتمال رزقته مفقوما فتجود عليه بما يسأل ... ولكن جاء يوم ونفل فيه صبر الزوجة وبثست من علاجه .. فاذا بها هي الاخرى تحاول ان تبشر نقودها وتوزعها على جيرانها المأزومين والمساكين ، قبل ان يستولي عليها ويصرفها على الخمر والنساء .. واخذت تنوسع في الاحسان فربت لاسر فقيرة اعانة شهرية لا تنقطع .. وتكفلت برعاية بعض ايتام القرية ، وتقدم لهم ما يحتاجون اليه من مأكول وملبس وتعليم .. وتهسرول لمساعدة المرضى بالهدايا والمال .. فداع صيت كرمها بعد ان عم خيرها اهل القرية واحبها الناس حبا جما .. واخذوا يضيرون بها المثل في التبل والعطف على الفقراء والمساكين وصارت دارها مقصد المحتاجين وملجأ الموزرين ... ولكن كثرة اتفاق الزوجة خفف النقود في يد القرم واذا به لا يقدر على زيارة عاصمة الاقليم الا مرة واحدة كل اول شهر ، وان لم ينقطع من الحان فانه اخذ يباعد بين الكاس والكأس ويكثر من التحدث عن تكبته في تلك الزوجة المتلافة التي تبشر نقودها على الغرباء وتبخل على زوجها ، رغم انها تعلم ان كثيرا من قصاصها من النصايين والادعياء .. ومع ذلك احيانا ينجح في الوصول على مال منها بطريقة او باخرى ، وسرعان ما يتدفع الى الحان ويشرب حتى الثمالة ، ويجبر جميع رواد الحان على الشرب على حسابه ، وويل للذي يرفض .. انه يجمع بين المهابة والعريضة يعمر على ان يحترمه اهل القرية حين يتسبط معهم .. ويثور اذا لم يتسبطوا معه حين يزور منهم متعجرفا ...

وكان هذا بالأمس .. ولكن ما ان جاء الاستاذ - ابن القرية المثقف - وتولى حكم القرية وبدأ اصلاحاته باغلاق الحان والسرور الجميع بالاستقامة حتى تبدل حال القرم وزوجه .. فاذا به يحرم على الخروج من داره في الصباح بعد ان تاب عن شرب الخمر حرصا على النقود .. بل لم يعد ايضا يهتم بحسن هندامه ، فذهبت اناقته وبهطل مظهره بعد ان انصرف كل تفكيره الى استرداد الارض التي اضاعها الآء بعد ان ووفوها من الاجداد « كانت ارضنا مربعة الشكل .. خير ارضي القرية .. فانا الآن لا افكر الا في استرداد هذه الارض .. وان ارى ارضنا عادت

مربعة الشكل كما كانت .. كان الجزء الناقص مقطوع من قلبي .. اذا عادت لى ساكن اسعد خلق الله ... ومن اجل ذلك قررت انا وزوجتى ان نوفر كل قرش وكل مليم لشراء هذه الارض.. وبذلك انتهى كل نزاع وخلاف بين الزوجين لما توحدت اهدافهما وخطتهما .. واخذت الزوجة تلخر ايرادها كله حتى تمكن زوجها من استرداد ارض - اجداده .. وقبلت ان تتحمل في سبيل ذلك كل مشاق العمل المنزلي بعد ان استغنت عن الخادم ، ولم تعد تبالي بمساعدة احد .. لا يههما سوى ترقب اليوم الذي تحلم به هي وزوجها .. وهو يوم تربيح الارض ..

فما الذى بدل الاندفاع والعجزة والتبذير والحماقة عند القوم الى حرص وتقير واهمال المظاهر .. ؟ ولماذا انسافت الزوجة وراء الزوج في مثل هذه التصرفات ، ورضيت ان تتخلى عن الإحسان والعطف على الفقراء والمحتاجين ؛ وقبلت العمل المنزلي الشاق دون عون خادم وهي التي نشأت على الترف والرخاء .. ؟ ولماذا هذا الإصرار على تربيح الارض .. ؟ **لاشك ان هنالك اتصالات عميقة هزت شخصية المصرى التركي تنبه بحى حتى الى تطورهما القريب بعد قيام ثورة ٢٣ يولييه التي نزلت نزول الصاعقة على كثير من العائلات المصرية ذات الاصلاب التركية بسبب ما أحدثته هذه الثورة من تغييرات اجتماعية واقتصادية** فاذا بكثير من هذه العائلات تجد نفسها في العراء بلا ارض او مال بل بلا سند من السلطان بعد الفاء الملكية واصدار قوانين التأميم وتحديد ملكية الاراضي الزراعية .. اذ احدث كل ذلك ضربا من الغزع الفكري ما جعل مثل هذه الشخصيات تنكمش انكماشا اجتماعيا مريضاً يتخلى عن القيم التي تتمسك بها وتعودت عليها، فتنتكرت لاحسان ومساعدة الاخرين وحسن معاشره الذين يحيطون بهم ، وحسبت انفسها في احلام الماضي تحاول ان تحقق آمالا بالغرلة والحرمان من تلك المنع التي كانت ملك ابيدهم في ذات يوم بدون مقابل من الجهد والعرق ...

.. الا ان بحى حتى لا يترك قارىء « صح النوم » دون ان يشعره بانها ما زالت في جميعه تحليلات تخص الاسر التركية المصرية لم يغض بها بعد ... واذا به يقاشنا بقصة « الفرائس الشاغر » فنجد فيها من الكآبة والبشاعة ما تشمئز منها النفس على غير ما تعودنا عليه ... فاذا كانت صراحتة وسخريته لاذعة فان عرضه للخراب الروحي الذى اسباب امرة شارع الريحان يشر الغزع الخفيف .. ويتعدى مرحلة الضياع التي كانت تعيشها امرة القزم .. وتلذذ بخراب يمتد على نفور انساني مرووع من واقع حياة كريمة تننة ، يئن في اعماقه من تاوهات تشكو من ظلم الانسان للانسان على مدى اجيال واجيال خلال احداث ومحن لا ذنب فيها للجيل الحالي المتخاذل المتواني ، الذى استسلم لوهم بان الاقدار هي التي شابت وهو لم يشأ شيئا على الاطلاق .. !!

ولكن يحى حتى لم يرد أن يكون واضحا كل الوضوح في قصة « الفرائش الشاغر »
ولذلك لجأ إلى الرموز الراهبة التي تهول في إثارة القرف من مصر أسرة شوارع لريحان التي
هوت إلى حضيض خلقى يحط من كرامة الإنسان .. واستباح لنفسه بأن يستعين بشتى الصنيع
البلاغية من تشبيه واستعارة وتورية وكناية .. يخفف بما يتعمده إيهام وأعمال فكر من وطأة
البيان المباشر عن الفحش والفسق والخسة في الإنسان .. !!

اذ تصور لنا قصة « الفرائش الشاغر » مدى ما وصلت إليه أسرة مصرية - هي في
الأغلب من أصل تركى كانت تسكن بشوارع الريحان ، وهو أشبه بحارة في حي شعبي
تتراجع على جانبيه كثير من الدكاكين المتلاصقة الفقيرة .. من بينها دكان حانوتى يقع قبالة
بيت هذه الأسرة التى تتكون من أب وأم وولد ، وحين تعيش في سر وترف وسط أسر مطحونة
وعمال فقراء ... ومع ذلك تركها الجيران وأهل الشارع في حالها لما بدأ لهم أن أفرادها على قسط
كبير من الحياة الذى يجعلها تفضل أن تعيش في عزلة وراء ستر .. الا انها لم تستطع ان تخفى
ما ترتع فيه من سعادة ورفاهية وترف ، اذ تفيض مظاهرها في المواسم والاعياد بنور الفرح الذى
يتدفق من النوافذ وما يصل إلى أسماعهم من خلجة الضحك .. كما انه كثيرا ما تقف سيارة
فاخرة من حين لآخر امام باب البيت وينزل منها رجال يتأسون لحاله لما يصدر عنه من تصرفات
غريبة ..

الا ان هذه الأسرة في الحقيقة تعيش السى « نفث اليمين من دنيا الناس .. هي عندهم
زنايبير لا امن الا في تجاهلها .. » - وتعتقد ان العيش ، ليس خطأ عموديا يرتكز جديده على قديمه
ويتسع الأفق كلما علا .. ولا قوس دوران فلك شروق ثم سمت فانحدار فمئيب بل تقف نظراتهم
الى الحياة منذ حد انها مجرد خط انقضى ابض مستقيم ترسمه نقط سود متشابهة ضاع لونها
من شدة تلاحمها ولذلك آثرت هذه الأسرة الانسحاب من دنيا الناس ، فأفرغت حياتها من كل مضمون
ايجابى ... ومضت تحيا في السلبية ... انهم يخشون الجهد ... فيؤثرون حياة الشح والجبن
لأنها دائما مضمونة .. اما ان تكون كريما وشجاعا على الدوام فهذا ليس مضمونا « (٨٥) » بل سبغ
ترفهم درجة ان « طعامهم تمضغه لهم قبلهم المغارم ويد الهاون .. يأكلون اللحم والخضروات
كلها عجينة واحدة مهروسة ، ويجدن لذة مذاقها في ضياع طعم اجزائها .. فالشيوخ عندهم نجاة
من مقابلة وجهها لوجه لنعمة مخلوعة العسلار . (٥٩) » واذا كان الحق يقتضى ان يشكروا الله
على هذه النعم .. الا انهم يتنكرون لها ويتكرونها بما يوقعهم في وضع متعب ، يفتح على مصراعية
كل ابواب الفكر ، رغم انهم اكثر من غيرهم معرفة بقليل هذه النعم وينبغي ان يكونوا
اشد امتنانا لها ... واذا زعموا انهم « كفوا عن الاعطاء خشية نوال عوض يفرقهم يجلبه او

(٥٨) يحى حتى : الفرائش الشاغر .. مجلة الكاتب .. ابريل - ١٩٦١ - القاهرة .

(٥٩) نفس المرجع السابق .

يمتصهم يفيضانه وادموا انهم بذلك امنوا التفتيح وضرب الكف لدعامة العقوق من الآخرين الا انه بهذه المزامم وتلك الادعاءات لا يخفون الا خسة ارواحهم هم انفسهم وهي تنهيب عن الاخطاء حتى تبقى على ما هي عليه من حقيق الشح وخوره .. وتبعد عنها ما استطاعت سماعة الكرم وشجاعته .. ولذلك « اذا ما خلوا الى انفسهم يشعرون بان اياهم قد سقت اسماءها » وتسابست ولا ينتبهون الى ما بينها من فروق .. ولا يحسون بحيوية حدث من الاحداث الا اذا ارتبط « بدوران ظل او بتريد صيحات الطيور المهاجرة (٦٠) » .

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من غربة تكاد تفصلها تماما - سواء اكان فكريا او عاليا - من كل ما يحيطها ومن حياة اجتماعية مما يجعلها عاجزة على التجاوب مع كل ما يطرا عليها من تقلبات وتطورات .. فان هناك ايضا رباطا هشالا يكاد يوطد العلاقات بين افراد هذه الاسرة .. ولذلك لا تعجب اذا ما اختلطت الاعمار باختلاط الايام ونادى الزوج امراته بيا امي .. وهي تناديه بيا ابي .. وناديان ابني الوحيد بيا اخانا .. ونادى الابن امه بيا عروستى .. في حين ان مثاداته لايه قد نسبها لانه اقلع عنها منذ سنين الخامسة ، واصبح لا يتحدث اليه او عنه في حضرة ، ولا يشير اليه بشير الغالب « هو » في حالة غيابه ...

ورغم ما تعيش فيه هذه الاسرة من سرور فاهية فانها راضية بان تقيم في شارع الريحان الشعبي الفقير المتواضع الذي كل اهله من الكادحين المكدودين ... وقد يرجع ذلك الى نوع من الحب للشارع واهله ينبعث من ارتياح افراد هذه الاسرة الى نظرات التقدير والانبهار التي يشاهدونها في عيون الاهالي من حين لآخر ، ومعوضهم عما فقدوه من سلطان وقوة ونفوذ .. ولذلك فضلت السكنى في وسط هؤلاء القوم البسطاء السذج في نفس الوقت الذي تحيا فيه حياتها الخاصة حسب تقاليدها وما شئت عليه ، فهي وان كانت تتراح للاقامة في احد بيوت شارع الريحان كمكان استيطان فانها لا تميل لمشاركة الناس والجيران وسكان الشارع سواء في حياتهم الخاصة او العامة .. بسبب فقدان الثقة المتبادلة ولا وقبل كل شيء .. وتوقع الغدر من الآخرين في اية لحظة بمناسبة وبدون مناسبة .. ولذلك خشي افراد هذه الاسرة تقديم المعروف حتى لا يقابلوا بالخسوت وتكران الجميل ... بينما يشعر اهل الشارع بان هذه الاسرة تربع في عز ليس من حقها لان افرادها لا يكادون يعملون شيئا ولا يؤدون خدمة ما تعود على احد برفع .. في نظرم لا تستحق حتى مجرد الحياة .. وان ما تنوهمه فيهم هذه الاسرة من خداع وغش وتكران للجميل ما هي الا ضروب من الاسلحة يتلذعون بها ضد مواقف مثل هذه الاسر من عزلة وسلبية .. وثاني التقرب بالرفق والخضوع والطاعة ان يمتنع عن الاعطاء ويريد في مقابل بقايا ما ينساقط من الموالد المزيد من الشكر والعرفان .. ولذلك لا تعجب اذا ما اتعدم التفاهم وتفككت الروابط ، وان كان الجميع يلتفتون حول حب الشارع ولا يريدون به بدلا ويتعلقون به كل التعلق ...

وهذا التضارب في المشاعر يدمو الى ضرب من التخبط الانفعالي لا يعرف كيف ينسق بين تيارات هذه المشاعر المتعارضة ... فالعزلة لا تمنح الايمان ... والاختلاط لا يبعث على الاطمئنان ... !! ان الكبرياء المجروح ... والتعالي العاجز والعنجهية المتنادية تشعر على الدوام بان المشاركة والامتزاج والدوبان لا تخلو من انهزامية ، وتمن عن خيبة وفشل « واضمحلال فيزاد التمسك بالعزلة كاستار يخفى العجز ويمنع الآخرين من كشف النقص والضعف والتخاذل ، ويكتفى ، بان يعيش حياة سهلة ميسرة تخفف عنه وطأة ضياع النفوذ والسلطان ولا تشعر بالحاجة الى العمل الجاد النافع ، او تدفع لتحقيق مستقبل افضل ... لان المشاركة بمختلف الجهود لن توصل الى ما كان عليه الاجداد او ترجع مجد الماضي الذي ولى .. فهناك نوع من اليأس ادى الى حالة من الرفض لا تقبل الاستسلام والوضوح للامر الواقع ، فانساب اصحاب المجد الضائع الى العزلة السلبية والامتناع عن عطاء يعملون بها من سخطهم وغضبهم ... ولم يجدوا ما ينعمهم عن التمتع بالشراء المورث في لا مبالاة تقف عند حد الاستهلاك لهذا الثراء ، دون التفكير في استثماره استثمارا يعود على الجميع بالخير يدعون انهم يعيشون على موارد يحاول الاهالي نهجها وحرمانهم منها ، وليس امامهم الا زيادة الحرص الذي اضاف عليهم مظهر الشح الذي يترب من السخاء ، خشية مفبة كثافة عدد المطالبين بالهبات والهدايا ... وهكذا تحول الخوف من نهب المال المورث والمصدر الوحيد للحياة الرغدة الى امتناع عن الاعطاء ... ولا بد ان نتوقع انقطاع كل صلة نبيلة بينهم وبين عامة الناس . وضياح الثقة المتبادلة بين الجميع ... ولا تدرى كيف يمكن تحمل مثل هذه الحياة التي تفتقد كل هذه المعاني لولا حب الكل للشارع ... !! ان العزلة مهما كانت صارمة لا تستطيع ان تقطع كل الصلات بحياة اجتماعية يعيش الانسان في وسطها ، وتحيطه من كل جانب ، وتقابله رغما منه في اية خطوة ولذلك فان الانطواء الذي يلتزم بالعزلة الكاملة لا يمكن ان يصل الى حد الهروب الكامل الشامل من هذا المجتمع . بل ان العزلة قد ذاتها لا تستطيع ان تحول دون اثر المجتمع الضاد ، الذي قد ينزل اشد ضروب العقوبة على كل من يقف منه موقفا سلبيا ولا يسهم اسهاما ايجابيا في تقدمه ويمتنع عن المشاركة والبلل والاعطاء .

لقد توفر لاسرة شارع الريحان حياة سهلة مترفة دون صراع او تراحم ، جعلها لا تبالي ببذل جهد او امان فكر ، لانها لا تحس بالتعلق على الرزق او تخشى من تقب الفسد ... كما تعودت ان تنصرف بحرية دون قيد او ضغوط . تمتنع بقدرة على التحرك دون ان تسمح بتدخل من احد ... يوجد بين افرادها علاقات رقيقة لا عنف فيها ولا صخب ، تمم بتبادل الاحترام والحرص على مظاهر المحبة ... ولتزم بتماسك لا يعترف بتسرب دخيل . الا انها في النهاية لا تكون مجتمعا قوى البنين يحتمل مواجهة كل ما يحدث من تطورات في المجتمع الكبير ... ولذلك غالبا ما تتخبط التصرفات وتضطرب التحركات اذا ما احتك احدهم بالمجتمع الخارجي ... او اعترض هذا المجتمع اى تغير مفاجيء او تعديل غير متوقع ... رغم ما يتمتع به من حرية تسمح بالانطلاق والتصدى لكل ما يستجد من مفاجآت ... وتقوى على ازالة كل غشاوة تعوق وضوح

الرؤية وتطمس معالم الطريق السوي .. وذلك لأن أفراد هذه الأسرة رغم ما يرمعون فيه من مستوى حضارى متقدم فانهم يقضون ايامهم بلا آمال عريضة تقصد تحقيق هدف محدد ، ويسرعون بتلبية رغباتهم الطارئة دون اهتمام ببلوغ غاية مرجوة ... !!

ولذلك لما ابدى الابن الوحيد رغبة في الالتحاق بكلية التجارة دون ان يبدى الاسباب لم يعترض احد ، وكرت له مطلق الحرية في الاختيار .. بل لم يندعش والدان حين عدل عن الدراسة في الكلية بعد ان امضى بها سنة كاملة .. اذ لم يخطر على بالهما ان يجبراه على دراسة أورتته كرها للعلوم التى تتعلق بشئون المال والتجارة والادارة والإرقام .. لانهما لم ينتهيا الى ان فقدان الهدف والبرنامج وضياح الأمل في المستقبل هو الذى جعل الفتى لا يجد المتعة العقلية في هذه العلوم .. فلم يواصل دراسته في كلية التجارة ... ورغم أنه رأى باختياريه ان يلتحق بعد ذلك بكلية الآداب ، إلا انه لم يرجع الى ما عرفه من نظريات ومذاهب ودراسات حثته على الجدل والثروة والسفسطة ، ولم ترب فيه تلوفاً للادب والفن ، ولم تقدر على تنمية احساسه بالجمال ... ولم يجد من يراجع له حين عدل عن دراسته في كلية الآداب بعد ان كرس لها سنة أخرى .. بل طاموه والداه حين فضل ان يقطع صلتها بالدراسة ويبقى في الدار عاطلاً بلا عمل سنة ثالثة ... ولكن الفراغ قلب حياته راساً على عقب ، اذ أخذت تراوده افكار الزواج .. الا انه لم يشغل نفسه طويلاً في البحث عن زوجة تهون عليه مثل هذا الفراغ ... لقد كانت تزورهم فتاة ريفية في صحبة امها ومع ابيها مستاجر اطيان نجم العائلة كلما حل موعد تسديد القسط الشتوى او القسط الصيفي ... وسرعان ما استولت عليه نزوة حكمت بان هذا الفتاة تصلح له « فهي فتاة خام ساذجة لها عيون سيالة لا تقوى على توجيه النظر .. وجبهة لا تبرق بفكرة .. وجد في حالة شيوخ ناهت فيه مغائن الأعضاء .. وشعر ملبد يرى من الآن مقدار سحره اذا غسلته وهدل ضغائر مبتلة على جبينها وخديها .. » فلم يتردد ودفع عليها اختياره لتصبح زوجة له ، رغم انه عرف انها أرملة لزوج من اقربائها في الصعيد قتل في حادث اخذ بالكوار بعد ايام معدودة من زفافها اليه ... اذ أحس وهو في طريقه اليها انه قد ارتدانى الطبيعة الام وتخلص من تقاليد الاجداد ، التي جرت على خوض المعارك من أجل الظفر بزوجة ابتداء من المطاردة واقتناس الوحش للوحش الى خطف ثم شراء وإثبات بطولية بعد نزال الحالى فيما ينساق اليه من متاعها الغزل والسرور .. ولا يوجد ما يجبره على ان يجارى التسباب والتنهات .. وراقه ان يحصل على زوجة سهلة قد تولى غيره فك بكارتها ودكها كالطاجن .. وما عليه الا ان يشتريه مستوي ناعماً جاهزاً.

ولقد هيات له نزوته في الزواج من فلاحه صعيدية حالة نفسية جعلته يستغنى عن فرش المدينة ، ويهتم بان يؤث حجرة العرس على النعش الريفي من حصيرة ترص عند حافتها الشبشب والبقاقيب .. وسرير من الحديد لئلا شات العروس ان تكون من سلك هزاز ... وناموسية من حرير وردي ... وصندوق للعلايس مزين بالأحمر والأخضر .. وطشت

ودست للفسيل .. حتى يعيش في جو مصرى ديفى خالص ... ولعله يكون قد توهم بان اقباله على الزواج من صعيدية ، وثالث غرفة رفيعة على خلاف عادة اسرته في الزواج داخل العائلة ذات الاعراق المتشابهة والتقاليد المتقاربة قد ساعد على تحقيق رغبة كاسنة تنشذ الامتزاج بعمامة الناس ولا تعرف السبيل الى ذلك ، ولكن النزوة والتوهم والرغبة لا تكفى لتحقيق حياة مستقرة ... لقد اختار الفتى زوجة فقيرة جاهلة ساذجة يسر لها كل ما تنشده في عش الزوجية ، وكفل لها كل سبل المعيشة الطرية .. وتوقع ان تكون طوع بناته .. فلقد اعطاها ما فيه الكفاية وهو لم يتعود الاعطاء .. وليس لها في ان تلزمه باى نوع آخر من الاعطاء .. وغاب عنه ان هناك اعطاء يفرضه الطبيعة بعد في نظرها ونظر شبيهاتها من اولى واجبات العشرة الزوجية ، لا تتحقق الا به ولا تتم الا في احضانه .. فنجى في الليلة الاولى ذاتها بان يرى هذه الفتاة الخام الساذجة الطرية في حياء قد انقلبت الى وحش غار مغترس .. العيون المسبلة ابرقت وانبعث منها في جوف الليل نظرة مستعرة تلحس جسده .. والجبين الذى لا يلعب بفكرة اصبح سطورا عليه امر مستعجل نافذ الاداء على الفور ... الشفاه الرقيقة المطبقة انفرجت عن رعشت تلهث ... الفم يتلطف ولا يستقر ... واكتشفت اسنان تلالا جوعها فتطاي من حولها الظلام ملعدوا ... والاعضاء التى كانت تزعم انها فقدت فتنتها في شيوخ الجسد استرد كل منها حقه ، بل واقتصب لنفسه فتنة الجسد كله .. « ولم يكن يتصور ان واجبات العشرة الزوجية تتطلب كل هذه الحدة والاندفاع وذلك النهم والالاح .. الامر لا يحتاج لمثل هذه العجلة التى تفقد الشهية وتضيع المتعة .. انه اراد من الزوجة ان تكون مجرد دمية طيبة يتسلى بها ، او لعبة جامدة يلهو معها .. ليس لها حق المبادرة وهو غير ملتزم باية مسئولية نحوها .. ولذلك لم يكن يتوقع ان تصدر مثل هذه الانفجالات المفزية عن تلك الفتاة السمراء !! »

ولكن كيف يتصرف معها ويعطيها ما تنتمسك بطلبه .. ؟ كيف يرى ظمأها الفريزى الملتهب ويشبع جوعها الجنسي العارم .. وهى لا تقبل التسويف والمعاذلة والمراوغة .. ؟ بينما هو سليل اسرة كفت عن الاعطاء من زمن طويل ، ولا تقبل على امر الا اذا كان سهلا ميسرا .. ولا تقدم على عمل الا طواحية وبإرادة كاملة دون دفع .. ولا تلزم بمسئولية او تكره على اداء واجب .. ؟ !!

وما كادت تخبره في اول واجبات العشرة الزوجية في نظرها حتى تعثر .. واذا بفحولته لما شعرت بانها وضعت موضع الاختيسار والالزام تفقد حماسها ولا تسعفه .. فسقط امام العروس ورفضت ان تعيش في ظل حياة زوجية صورية لا جنس هائج فيها ولا غرائز ملتبة .. فتبين استحالة الجمع بين سليل الاسر الراقية وبين الفتاة الصعيدية الفقيرة سليله الاسر الكادحة المكدودة التى لا متعة لها في الحياة الامتعة التى وهبتها له الطبيعة ، وتضيق في جنباتها شتى المفارقات الاجتماعية والاختلافات الحضارية ، ويتساوى الجميع في اسلوب اشباع هذه الغريزة الاولى وينعم مراعاة اى تمايز أو تمييز اذا ما كان شيق يلع في طلب الارضاء ... ولما تأكدت الفتاة ليلة بعد ليلة من عجز عريسها في مشاركتها جنسيا بعد ان عرت جسدها وكشفت له عن

نوع جنسي كانت تخفيه في سداحه وعباءه، واسياحت له نفسها تحت اعتقاد بان ذلك امر فرسته الطبيعة ولا تعترض عليه التقاليد والمعادن وأقرته الأديان ما دام يسلك الطريق الشرعي المتعارف عليه ... فأحسبت بالخدمة والمهانة بعد ان عرضت نفسها عرض العبيد ولم تجد غير الصد والإبتعاد ... ففضبت لافتضاح شراستها الجنسية .. وثارت لغريزتها الجريفة .. ولم تتورع عن ان ترفس زوجها وأفضة ان تستمر في عشرة رجل على ما هو عليه من اجسام في فراش الزوجية .. وتصارحه بعزة ونخوة بأن « نساء الصعيد خلقن لرجال الصعيد » ثم تعين في امتنانه ونواجهه بغلظة في إباء وشمم .. « اننى أبول على تودك وأناقتك وكلامك الحلو » وتسخر منه مستهزأة .. « إبحث لك عن مومياء ملطخة بالابيض والاسود والاحمر » تليق بابن الاكاسر وتستطيع ان تستثير فيه نوازعه الجنسية المهيضة ...

لم يكن الفتى يتوقع ان يسقط هذا السقوط في اولى محاولاته الإيجابية للمشاركة الواقعية التي تقربه بالفعل لبنت من عامة الصعيد وتمكنه من البدء في السير على درب الانتماء الكامل ... واذ بهذه المحاولة تتحول على مذبح الجنس الى دفع في تيار عارم لا يقبل التردد والتسوف .. مع ان تصوراتها في انه اختار زوجا مطاوعا لينة العريكة تستسلم في هوادة لاوامره ، تقطيعه في كل شيء وتلبى رغباته عند الطلب دون مبادرة منها ... ولما فوجيء بضراوة جنسية مصممة على نوال حقوقها المشروعة دون الاهتمام بأى اعتبار آخر .. فلم يخطر على بالها ان ترى ما بينها من فروق في الحسب والنسب والتحضر والتمدن والنشأة والتربية والثقافة ... ولم تستعمله وتأخذه على راحته حتى يغلب على كل هذه الفروق ؛ قلبا يمكنه من ان يجتاز ما رسبه من حواجز نفسية تحول دون مساعدته على تكوين نوع من الألفة والانسجام والمودة ، تضيف على العشرة الحلاوة لا افتعال فيها ولا انتهازية ، فيسهل عليه ان يستجمع ركائز رجولته ويحلل فحولته لتكون على أهبة الاستعداد ... ولكن تمسك العروس بأداء حقها على الفور وفي اللحظة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحضارية جعل العشرة الزوجية تقوم على مجرد نزوة طارئة طائشة عند الفتى في مواجهه زوجة جادة فسي التمسك بحقوقها المشروعة ، بينما لم يسبق هذه العشرة الرسمية ومحاولات لتعظيم الحواجز التي خلقت ظروفها نفسية جلعت الفتى يحجم عن أداء اولى الواجبات النوعية ، كان قوى داخلية أكبر منه لدفعه ورغباته ان يعلن نوعا من الرفض لمثل هذه الزيجة غير المتكافئة ، الخالية مما ينبغي ان تكون عليه من تقارب ومشاركة وانتماء لا يمكن ان تتحقق الا ببلد جهود مسبقة متواصلة لم ينتبه احد من الطرفين ان يقدم على بدلها اولا وقبل كل شيء .. !!

ولكن الصعادية كانت أكثر حسما للمشكلة .. وسرعان ما طلبت الانفصال .. اذ أحسبت بانه ليس هناك ظل من أمل في حياة زوجية على أبسط أساس من العلاقات بين الرجل والمرأة .. في حين آلم الفتى ان يسقط في نظر هذه الصعادية التي يسيطر عليها شبح جنسى متوقد ورفسه

ملتهية تلج في الاشباع كأنها لا تجد ما تستطيع ان تعرض به كل ما تعانيه من ضروب الحرمان الا ما تريد ان تستمتع به من لذة في فراش الزوجية... !! ولم يكن امام الفنى الا ان يرضخ لرغبتها في الطلاق ؛ ولم يعارض الانفصال ؛ ووجد فيه خروجا من هذا المأزق اللعين .. وترتها تعود الى بلدتها بعد زواج صورى دام اقل من اسبوع ... !! وهكذا انتهت هذه الزيجة في مدة وجيزة لانها قامت على مجرد نزوة طفل حاول ان يلعب دور الرجولة ... وانسحبت الصعيدية من بيت الزوجية الثاني بإرادتها غير آسفة .. الا ان هذا الانفصال جدد موجع حسرتها على فقدها لزوجها الاول الذى ضيعته عليها تقاليد الصعيد الصارمة في الاخذ بالثأر ؛ وتركتها حيرى حتى اصبحت مطعما لمن يريد ان يلهو ويلعب على حساب كرامتها وعزتها .. وفضلت ان تهجر حياة لا كيان لها فيها وعادت الى الصعيد لملها تجد في قرينتها من يعوضها عن عريسها الاول من بين رجال الصعيد الذين خلقت لهم نساء الصعيد ويطلب لهن الحياة معهم .. بعد ان فشلت في ان تلعب مع زوجها الثاني دور الدمية التى لا يريد منها بديلا ... !!

ولكن اذا صعب على فتانا ان يحصل على دمية لبعض الوقت فإنه يمكنه ان يصل الى ما اشبه بالدمية بعض الوقت متى دفع الثمن ... لقد أتاح له جو الحرية المطلق الذى تعيش فيه أسرته ان يلجأ الى العاهرات يشتري منهن ، لينفي عنه سبة العجز في فحولته دون اذعان لاسزام او اكراه .. ويبعد عن رجولته شبهة العنة دون المساس بمشاعره التى يخزونها ان توضع قدراته الجنسية موضع الاختبار ... اذ « ليس لواحدة منهن حق عليه ... فلا مسئولية عليه قبلها .. انه يريد ان يشتري بالنقد لا بمبادلة شيء بشيء... » (٦١)

وكان في اول الامر لا يفرق بين غانية واخرى .. لم بدا يتأنق في الاختيار .. لا لثروته الا البائسة التى يتكاثر عليها المشترون حتى يضيع في الزحام ومع ذلك قلما يجد جنته المنشودة لانه « لا يزال يتوهم حتى في اكثرهن رواجاً وانشغالاً : اشاحة وجه .. او لوية خشم .. او دفعة يد تفسد عليه طمأنينته .. واصبح غاية ما يتمنى ان يجد من جمده وجهها فلا يتحرك ولو صبغ بلون الشمع .. و تعقد خشمها في قارب ثابت .. ولو اتصلبت الشفتان كالخشب .. ومن شلت يدها ولو اصبحت باردة كالثلج . (٦٢)

وهكذا - حتى في احضان بنات الهوى لم يجد فتانا المتعة المرجوة التى تكفل له الاطمئنان والثقة وتمنحه التقدير الذى يرد له اعتباره وإثبات وجود ذاته وبمعز فحولته ويكرم رجولته ... قلما لم يعثر على العلاج الشافى عند الغايات انتكسرت كسبة اصابته بمرض غريب سلط عليه ميكروبا ضعيفا تستطيع ان تلغمه الكرات الحمراء وتقضى عليه في الحال بكل يسر .. ولكن جسده المتخاذل عجز كذلك عن مقاومة هذا الميكروب الوافى لالة فيه وانما لفقدان ارادته الرغبة في المقاومة ؛

(٦١) يحصى حتى : الفرائض الشافى .

(٦٢) نفس المرجع .

حتى أصاب الأطباء في علاجه مما دعا أحدهم إلى النصيح بعرضه على طبيب نفساني .. قد يكشف عن عورات داخلية ويعرى ذاته من كثير مما تستر وراءه .. ويغص خباياه الباطنية ويظهر للجميع خوره وتردده وضباة سواء بين الرجال أو مع النساء ... ويكفيه ما أصابه مما كشفت عنه بنت الصعيد .. وما كاد فتانا يصل إلى هذا الحال حتى بدا وجهه ندبا ينطق « بالنصياع رضى وطيبة حلوة » وإذا بحركات أعضائه تتناسق ويشملها هدوء عجيب رماه بالبلادة والتراخي « ولكنه وجده عز الاناقة ، فزاد اعتناؤه باظافره وربطة عنقه وأنسجام هندامه » وأخذ « يتحرك بخشوع فيه دلال مخضت .. ويتكلم بنبرات خفيفة فيمافنة .. ويدت في عينيه عدوبة كأنما كطلسا بعسل » أضفت عليه رقة مهذبة أرتاح إليها ، وإن كانت مفربة تدعو الآخرين للتودد إليه مما شعره بأنه مرغوب فيه ولا ينفر منه .

وما كاد يشعر بشيء من الاستقرار النفسي حتى راودته الرغبة في مواصلة الدراسة من جديد .. واختار هذه المرة كلية الحقوق . وسرعان ما انتبه زملاؤه لاناقة ورقته ، وأخذوا يلتفتون حوله لا يدرسون ما يجذبهم إليه « أهى أظافره .. أم أصابعه الرخصة .. أم هذا العسل الذي يسيل من عينيه .. وهذه الرقة في حديثه » وإن أسعده هذا الالتفات إلا أن « أحدا منهم لم يتقدم به صلتة إلى درجة الصداقة التي يفصل رباطها قللين عن وسط الزحام » ولكنه « لم يشعر بالوحدة .. بل شعر بالراحة » مما أضاف على تعسلة نظراته إبتسامة حلوة « حتى ازداد تعلق أنزماء به وأخذوا « يضربون به المثل في الطيبة ونبل الاخلاق » على اعتبار أنه ابن الناس الأكابر ... وهكذا استطاع فتانا بحسن علاقته مع الزملاء أن يكسب ارضية جديدة تمنحه ما يحتاج إليه من اعتياد وتقدير يعود عليه بالثقة التي تساند الإرادة .. وبإيمان الذي يبدد الآمال والإماني .. رغم أنه لم يسلم من أقوال السوء التي ترى أن مقالاته في الاناقة والرفقة مقومة ورخاؤه هي اقرب إلى الاتوفة منها إلى الرجولة ، مما دعا البعض إلى توهم أنه يعاني من شدوذ جنسي هو منه براء .. !!

أقبل فتانا على دراسة القانون هو مرتاح البال فتوالى نجاحه حتى لم يبق على تخرجه في كلية الحقوق إلا سنة واحدة « فقد أعجبه أن القانون نجا برتبته من شرعية الكون وركبتها وتناقضها ... وتسميتها للظلم على أنه في بعض الأحيان عدل » ورأى أن « القانون يصنع لنفسه منطقا مستقيلا جعيليا على الورق .. بارع التقسيم والتسلسل عاجل النفاذ » إلا أنه بدا له كأنه « هدم بنش الحياة واتخذ من انتقاضها قول البهر قومة أقام عليها صرحه : القاضي لا يحكم بعمله .. بل من الورق ... فالورق إبين من الحقيقة ... الصدق عنده كالذهب مرفوض ، إلا إذا دمه دليل لم يجد من يكشف زيفه ... الرذيلة عند محددة ... والفضيلة بمهمة ليس لها حساب » (١٦٣) فالتقانون قد يقضى لعقاب الزوج الخائن ولكن لا يكافئ الزوج المخلص ... كما أن نظره معنساوية للجميع دون تمييز بين العامل والجاهل والتطوع والمعدود . ولا يعطى أى اعتبار للقدر وما ينزله

بالتناس من محن ومصائب وما يستلزم بعض الرفق والرحمة والعطف ... ولذلك فإن أحكام القاضي مهما كانت نزيهة لا تصل إلى مستوى العدالة الحققة ... ومع ذلك فإن القانون المنطقي مهما كثرت مخالفاته أفضل بكثير من شريعة عادلة بلا منطلق مفهوم ... وهكذا اختلطت الأمور على فتانا وأخذ يتقدّر تدريجياً الاحساس بالفروق بين الغضبية والردئية . بسبب ما نوهه من وجود تناقض كبير بين منطق شريعة الكون الإلهية وبين منطق القانون الوضعي . عجز عقله عن إدراك ما بينهما من تقارب ووقف عند أدرك ما بينهما من تفاوت ... !! فإن ارتاح إلى دراسة القانون في الأمر لوضوح منطقته وتسلسل أحكامه إلا أنه لم يجد فيه . ما ينصفه من قسوة القدر وبرحمته من شريعة الكون ويمكنه من الانتصار على ذاته ويتقدم من مصيره المحتوم ... !!

ولكن إذا لم تحقق دراسته للقانون ما كان ينشده من وضوح الرؤية وراحة الفكر .. إلا أنها اتاحت لذهنه من فرص التأمل الحر المنطقي ما أدى به إلى بلوغ « لحظة صفاء » غمرته ببقاء وسكينة خلصته من كل ما يكبله من قيود وإغلال. وانتقدته من شتى الأوهام والخاوف وطهرته من الدنس والجاسية وفاضت عليه بمشاعر لا حد لها من الحرية الرحبة ... كان يستطيع أن ينتهز هذه الفرصة التي لا تموض في تدعيم أحوال الصفاء والنقاء والسكينة والطهارة والنجاة والحرية وتعميقها في الذات وتبنيها بين جنبات الوجدان .. إلا أن ذلك يتطلب سلوك هدى طريق شاق لا يقوى على تحمل جهاده إلا من عرف الندم والتوبة ، والتزم بطريقهما وجاهد جهادا متواصلا لا ينحرف عن مراداة شتى ضرويه من المجاهدات الجسدية والرياضات النفسية .. ليقتلع كل ما في داخله من جذور الشر .. ولذلك غفل كيانه الهزيل الهش المتخادع عن إدراك جلال ما انتابه من لحظة صفاء ، ولم ينتبه إلى أن ما توصل اليه من نقاء يعهد له الاقتراب من حال التوبة .. فغاب عليه أن يسير في طريق الندم والتوبة .. وإذا به ينعم على ما غمره به الصفاء والنقاء من حرية بلغت من العنفوان ما زلزل قوامه زلزلة امجزة عن أن ينهض ويصرع الرجس في داخله ويصيح الخلل الذي أصابه ، وينقذه مما هو مساق اليه من أمراض مستعصية .. ورضى أن يبقى على حاله في مرحلة يتصارع فيها الخير والشر ويتنافس في السيطرة على تصرفاته الملائك والشيطان ... فوقع صريع دوامة الحق والباطل .. إلا أنه فضل أن يعاني الصراع بين الغضبية والردئية تستولى عليه بليلة تسوقه إلى مناهات غريبة شاذة على أن يترك هذه الحرية التي اتته بدون جهد يذكر تطغى على كيانه وتتحكم في تصرفاته الهوجاء ... فإذا بأحاساس ملل فظيع يستولى على كل وجدانه ، ويعكس كيانه بمرارة مرة ما بعدها من مرارة ساقته في يمه من التخطئ والتلق ... بينما لم يبق أمامه إلا أشهر قليلة ويتقدم لامتحان ليسانس الحقوق مما زاد من تورته .. ولجمعت عليه شتى المواجه ، ودفعته دفعا لتصرفات بلهاء حمقاء أبعد ما تكون عن الحكمة والرفق والنخوة الإنسانية ، وساقته سوا إلى حتفه في هاوية سحيقة لا قرار لها بعد أن سمح للشيطان أن يلعب برأسه ، ويترك للمعصية أن تغترسه فيغيب عنه الوض الطاهر القويم ، وينساق وراء أوهام حكمت عليه بالعار والاحتقار وأثارت ضد مشاعر التقوى والاشمئزاز فاستحق اللعنة في الدنيا وفي الآخرة ... !!

تجد الطالب الجامعي الذي عجز عن توطيد صداقة كريمة يزميل له في كلية الحقوق يتمتع في كنفها بما يرحمه من زحمة الحياة .. يتسع صريع صداقة مهينة غير متوازنة لا تكاثر فيها بين الطرفين ، ويرضى أن يصاحب صبيًا حائوتيافي شارع الريحان ... وإذا بأقارب السوء التي كانت تهمز بالشذوذ تصبح فجأة حقيقة واقعة ... !! لقد تعود الصبي الحائوتي أن يراه على ما هو عليه من اناقة ونعومة ورقة ورخاوة في نوله وصعوده من البيت الذي يقابل مكانه ... ربما سولت له نفسه امرأ خبيثا فأخذ يترصص به حتى ينتهر فرصة ليؤلق علاقته به وينتال منه مراده ... وحدث بينهما هو يفضح ضيقا مما يعيث فيه من ملل أن وقع نظره عفوًا ذات مرة وهو خارج متأخرا من بيته بنهر عادة على صبي الحائوتي وهو واقف على سلم يطبق لائحة على دكانه ... فما أن تقابلت العيون ورأى فتانا شابا « مدكوك الجسم ككيس قطن .. تفسير القامة والذراع .. ضخم اليد .. ضيق الجبهة والعينين .. نظراته ثابتة لها لمعان ، فيها مكر وحق وعكازة دم فاسد وجوع الوحش » (٦٤) فظن صبي الحائوتي أن الفرصة المربقة قد واثته « وقبل أن يتسبح بوجهه رأى الصبي يبتسم له ويرفع يده إلى رأسه بتحية وسلام .. فعضى وهو يعلم أنه لا بد عائد إليه » .

ولا ندرى كيف توثقت عرى الصداقة بين شابين رغم ما هي عليه من تباين اجتماعي واقتصادي وثقافي وحضاري وكيف : « أصبح من عادة الفتى أن يعفى أمسياته في صحبة صبي العلم أمام الدكان » لعله حاول بذلك الهروب من الملل والتحرر من التسقيف الذي يعامل منه الأمرين ... !! كان أول الأمر ينزل إليه مرتديا بذلته وحذاءه .. ثم « لم يجد بأسا من أن ينزل إليه في جلبابه وشبشبه » لما توطدت اللفة وزالت ما بينهما من فروق .. فلم يجد فتانا ما يحول دون مجاراة صبي الحائوتي ليس في ملبسه فقط بل في مشاركته كذلك في موضوعات الحديث يشغف زائد ، خاصة تلك الموضوع التي تتصل بعمل الحائوتي حتى أصبح « حديث الصبي عن الشغل ومواسمه وسابق مجده ولذته ومتاعبه وطقوسه وفنونه وحيله » (٦٥) ولما أحس صبي العلم بازدياد شغف فتانا بالاستماع إليه والاستفسار المتواصل عن كل ما يتعلق بتفاصيل عمله في عالم الموتى والقبور .. رغبة في أن يحضر معه لمشاهد بنفسه عن قرب كل ما يستفسر عنه .. ومن التريب حقا في ألا يتردد فتانا في قبول مثل هذا العرض في التو واللحظة مجذوبا بسحر عالم الموتى الذي لم يكن يدرس عنه شيئا .. كأنه مساق وهو في غيبوبة بعد أن نفذ انطلاق الحرية وصفاء الطهارة واستكان لأفراء دعوات خبيثة تحت تأثير وهم مضلل بأن ما يتحكم في مصيره المحتوم قدر لا يخضع لمنطق أو قانون ولا يعرف الرحمة أو الشفقة .. فاندفع في تيارات هوائيه الجديدة التي أصبحت لعبته المفضلة ، مع أنه لم يسبق أن رأى جثة ميت من قبل .. !!

(٦٤) الفرائض الشافعي .

(٦٥) نفس المرجع .

وما أن رأى أول جثة حتى وقف امامها مشدوها في حيرة ما بعدها حيرة لا يدري هل ما يراه امامه هو « استسلاماً بلغ حد التعذيب به .. ام عذابه بلغ مذاه فذاب في استسلام .. ؟ وما أن أدرك ان الذي امامه « لا شيء .. له صورة بنى آدم » حتى زالت عنه الرهبة من الموتى واقبل بفصل الجثة برفق آمن مادام الميت « ما يشيع بوجهه .. ولا يلوى خشيمه .. ولا يدفع بيده » (٦٦) فطاب له هذا العمل الذي أطلق له حرية التصرف .. وأصر على أن يصحب صبي الحانوتي في كل طلب .. بينما ظن صبي الحانوتي أن تمسكه بمصاحبته يرجع أولا وقبل كل شيء الى شدة تعلقه به شخصيا ، بحيث لا يستطيع له فراق ، خاصة وإن إبتسامته له أخذت تزداد رقة وعلوبة .. وإن نظراته فاضت تمسكاً وحلاوة .. بينما استولى على جسده ارتخاء ورخاوة .. فطمع فيه ووسوس له شيطانه أن يتجرا عليه ويصارحه بما يريد منه ويطلب منه إلا يتدلل عليه أكثر من ذلك ويستسلم له ما دامت هذه هي رغبته .. وحته على أن يتسربا داخل ظلام الدكان حيث يوجد نعش كبير يسمعهما معا ويتيح لهما أن يقضيا مأربهما في شوق زائد اليه ، ورغم أن الفتى رد صبي المعلم عن غيه .. إلا أنه لم يظهر له أى نوع من الغضب أو الضيق لمجرد توارد مثل هذه الرغبة على شهوة صديقه .. ولم يد عليه أى نوع من التأفف من مثل هذه المهانة التي يريد أن يسوقه اليها هذا الرفيق المفضل .. لأن ذهنه التائه في غيبوبة يستولى عليه ملكوت القبور ولا يكاد يلتفت لأى شيء آخر ولو كان يتصل بكرامة رجولته .. ولذلك لم يمر أى انتباه لكلام صبي المعلم الذي لا لم يجد استجابة فورية لم يلح عليه وتركه في ملكوته فابتعد عنه بعد أن كان ملتصقا به وهو يناوله هذا الحديث حتى يوحى للفتى بأن ما طلبه كان مجرد نزوة طارئة ، وأنه تاب إلى رشده ورجع من رغبته .. وغير موضوع الحديث ودخل في كلام ليزيل ما يكون قد انتاب الفتى من انفعالات الرفض فيفقده إلى الأبد قبل أن ينال مرامه منه ، وإذا به حديثه يذهب إلى « الاستبعاد وذم الزمام والتحسر على الماضي » ليشغل الفتى بكلام عام يتروّد هنا وهناك بلا معنى ولا هدف ...

ولكن سببى الحانوتي لم يتخل هدفه وتحقيق ما ربه بطريقة أو أخرى .. وإن رفض الفتى غير الحاسم لم يدعه يياس .. ودفعه لأن يفكر في امادة المحاولة بطريقة أخرى أكثر فاعلية تفقده القدرة على المقاومة وتجبره على الاستسلام وهو غائب الوعي مشغوف عنه بعارب آخر .. وهكذا يحاول كل منهما أن يلعب على الآخر لعبة الشيطان ... !! وإذا بصبي المعلم يفاجئه بنبا يشبه كل الإفارة بعد أن أخبره بوفاة هروس صغيرة السن قبل ليلة زفافها بيوم واحد .. هي عزز الطلب ... وأخذ يزنيها له حتى يرغبه فيها ويحصل منه على ما يريد في مقابل تحقيق رغبته .. فلم يتورع عن استشارة تلك الرغبة بكل شدة والمالح ، وبين له كيف شيعت جنازتها بالموسيقى وثرت الحناء على القبر ، وغطى جسدها بثوب الزفاف ، وأهل عليها بياقات الياسمين فاشعل هذا الحديث كل كوامن رغبانه وإيقظ شهبواته المكبوتة ، فإذا بها تطلب الانشباع وتراوده على أمر

لا يقره عرف أو قانون ولا يرضى عنه خلق أو دين وثأبه كل الإباء الكرامة الإنسانية .. إلا أن احساسا حادا استولى عليه يصور له أن امامه فرصة فريدة طالما تمتاعها بها قد انتهت ولن تتكرر وليس امامه ان يقتنصها مهما غلا الثمن القادح .. !!

وهكذا انهارت كل القيم التي شب عليها الإنسان منذ الأزل .. وضاع الغنى لسبيل الاكابر ابن الاصول في متاهات وضیعة تنم عن شراسة بشیعة كامنة تريد ان ترد اعتبارها وتنتقم لكرامتها بأساليب لا انسانية ولا اخلاقية ، لم تبال بما قد يصاب به الفرد من خراب روى أو دمار فكري فلا تستقيم له حياة سوية ... ولم يكن هذا الفتى اول من ضاع في هذه الاسرة .. ولن يكون آخر شخص يتعرض لمثل هذه الامراض المستعصية .. لقد سبقه نجم العائلة .. اذ بلنه عقب ارتكابه الفحشاء مع العروس الراقدة جثة هامدة في قبرها لا حول لها ولا قوة انه هوى في المستشفى وهو يعالج من ادمان تعاطى مخدرات يلجأ اليها ليعبد من مخيلته تصورات ناسية وتهوأت ، خادسة توهمه بأنه محاط باعداد مجهولين يتربصون ويريدون تحطم روحه ووعيه ومنطقه ... فتركت نهايته فراشا شاغرا في المستشفى تنذر بأن هنالك نوبلا جديدا يتوقع ان يحل مكانه الشاغر قريبا .. لعله فتانا مما يهدد مصير هذه الاسرة المكتوبة ويؤدي بها الى الانقراض والفتناء ... !!



لا شك أن قصة « الفرائش الشاغر » تشهد ليحيى حقي أنه قد تحرر فعلا من الميول التركيبية ونزعائها الموروثة ، ولم تقف حائلا دون الرؤية الصادقة لواقع الاعراق التركيبية المصرية وما وصلت اليه من حال .. وان تناول هذا الواقع تنقصه الصراحة الواضحة ، ولجأ فيه الى دبلوماسية لا تخلو من حياء تستعين بصيغ بلاغية هي اقرب الى الرمزية منها الى الواقعية .. فانه ربما اراد تخفيف وطأة النقد الاليم الذي يفضح خبايا بني اعرافه ويتقزز من مبادئهم ... ومع ذلك فان قصة الفرائش الشاغر يمكن وضعها في قمة نتاج يحيى حقي القصص باعتبارها آخر فصل في ملحمة صراع الاصلااب التركيبية المهاجرة، تشهد مأساة المهاجر التركي الذي قاوم اللوبان في المجتمع الجديد ، فتكاثبت عليه نواجل المجتمع الممرى واعطاها فرصة لأن تعضه بشراسة خلال سلبياسه ، وقظيره بظهور معين يشير الازدراء والراء على حال من فقد الجاه والسلطان والمجد وتخلى عن الشرف والكرامة والفضيلة ، وانساق في هاوية سحيقة من الدمار الروحي والخراب العقلي ..

ان قصة « الفرائش الشاغر » هي آخر لون في لجأ اليه يحيى حقي ليحدد معالم الشخصية التركيبية المصرية، فلقد ابتدا بتعطيل نماذج بشرية، ثم اهتم بتصوير لوحات أدبية .. الا انه لم يبرع البراعة الكاملة في عرض ما آلت اليه الشخصية المصرية التركيبية الا عند تأليف « الفرائش الشاغرة »

الدرامية التي تمثل صراعاً رهيباً بين الإنسان وقدره وكيف أدى به إلى مصر غاشم لا رحمة فيه ولا عدل ... إلا أن قصة « الفراش الشافر » أشبه بإعلان رفض واستنكار .. يحذر وينذر .. بل يتعد بسوء العقوبة التي تبدو في إبتساع صور الانسانية المنحطة لكل من يعترض على مسنة الحياة ، ويتعمد اهتزال الناس والإبتعاد عنهم لا يشاركهم في حياتهم الخاصة أو العامة، ويفضل أن يظل كامناً داخل دائرة ضيقة يأسر كيانه تقاليد وعادات تمنعه من تكوين صداقات سوية ، وتحرمه من علاقات الوصال والود وتحول دون التضحية والإعطاء والبلبل .. ولذلك تكاد قصة « الفراش الشافر » تعوى بعواء كئيب نحيف يريد أن يروى كيف يؤدي الانغلاق إلى العفن ويسوق بصرح الإنسان إلى الانحطاط ...

ان قصة « الفراش الشافر » ليست الاصرخة توجع غاضبة فيها حسرة واسى على ما وصلت اليه بعض الاسر المصرية التركية فاخذت تستعرض فاجحة نجوم اسرة شوارع الريحان وشبابهم وتبين ما أصابهم من خراب روحي ودمار عقلي وانهار خلقى ، وتظهر ضيق انق الأسر التي لا تراهى في حرية ابنائها ظروف المجتمع الذي يعيش بين جنباته ، ولا تعد شباب العائلة لخوض تياراته بكل قدرة وتمكن حتى لا ينشأ على العزلة ولا يشب على الشج وعدم الاعطاء .. ولا يبدو أمام المجتمع انه يرفض أن يطاوع عامة الناس ويتعالى على الدوابن فيهم بعناد يسوقه إلى الدمار والخزى والعار وينزل بكرامته لئلا ملعونة لا أمل لها في رحمة الله ...

ولا يخلو تصوير هذا الانتحار الروحي على مذبح التقاليد العاتية الراسخة الجذور من قسوة وعنف وإبلام .. فان يحيى حتى لا ينه أو يحذر فقط إنما يهدد ويرهب كذلك بأسلوب مرعب يشبع لا يضع مجالاً للاختيار إلا بين اتجاهين لا ثالث لهما . أما الامتثال طواعية دون عناد أو تكبير للظروف الاجتماعية الجديدة التي آلت اليه حياتهم ، وقبول تعديل السلوك المتوارث عن رضا واقتناع ، تمهيداً لمشاركة الناس والاندماج فيهم أو الاختلاط بهم إلى حد الدوابن عن طريق الود والتعاون والاتصال والوصال والتضحية والإعطاء والبدل والسخاء .. وذلك لمن أراد النجاة .. وأما التجمد على ما هو عليه من عزلة وإبتعاد والتحجر على ما شب عليه من شج وامتناع عن الإعطاء ، منهزماً من الناس والمجتمع خشية التصادم بالجحود والتكران ، ومتجنباً مواجهة الخسة في أي مكان .. فتفتشى في داخله أوبشة تبدد قيمه الانسانية ، وتصيبه بخراب يقضى على الأدبية ويعرض سلالته لنهاية اليمه حقيرة ..

- ٦ -

لا جدال في أن محاولات يحيى حتى المتوالية لتحليل الشخصية المصرية التركية ، ونجاح جهوده في تحديد معالمها الأساسية لكنه من التحرر من ضغط النشأة والتربية الأولى مما عاونه على التخلص من قيود التقاليد وأغلال الوراثة ، وهبالة من الفرص الكاملة لإداء واجبه نحو بنى جنسه

بان حذرهم التحذير الشديد من مغبة ما قد ينزل بهم من دمار وخراب وهلاك .. الا انه لم يعف المجتمع المصرى من مسئولية بعض ما أصاب آل سلالة من جمود وتدهور وانحلال .. وكيف ان فساد بعض جوانب المجتمع أصابه بالتعفن والتخلف الحضارى ، وأشاع عليه كثيرا من القيم الإنسانية وأشاع فيه فوضى لا أخلاقية .. امتدأ لها بصورة او أخرى على الاسر المصرية التركية ويعكس على تصرفاتها سلوكا معينا .. !!

فان بنت الصعيد لما اكتشفت في عريسيها ابن الاكابر .. من وهن جنسى يتوانى عن تادية ما عليه من التزامات ، ويتقاعس عن أن يهبها كل ما يملك من حيوية في الحال وبلا تردد ودون مقابل عاطفى ، ما دامت قد وهبت نفسها وعرضت عليه كل بضاعتها وإباحته له ان ينال منها ما ينال ، حتى قبل ان تعرف من هو وتتوطد بينهما المحبة .. لم تستطع بنت الصعيد ان تتفق موقفا سلبيا من هذا العريس ولم تجد داعيا لأن تستمر علاقتها معه وهو على ما هو عليه من شح جنسى يمتنع عن الاعطاء الجوى فسارعت بمطالبة الفراق في اشمئزاز وعثرة .. ولم يكن امام عريستها الا الرضوخ لهذا الطلب وهو صاغر لانه وضع في ظروف لا يستطيع ان يعاند فيها او يكابر ، وانه لا يملك ان يعطى الا بقدر وحساب وحين يشاء أو يريد دون املاء او اجبار .. لما كان منها الا ان لبثته في ابناء وحشم ، وتخلصت من عثرته غير نادمة على ما يمكن ان يتبعه لها من حياة رغدة .. ولا أبهة بما قد يؤول اليه من مصير .. فتركته حطاما هشيما لا يقوى على مصارعة الواقع المتربص به .. فاذا به يتسرب في حرية الفلام متسللا من الابواب الخلفية الى حياة رخيصة وضيمية هي اقرب الى الموت .. ورات ان سعادتها الحققة في العودة الى مسقط رأسها لتعيش بين من يقدرها من اهل الصعيد ويستطيع ان يمنحها ما تريد دون تخاؤل او مراوغة ..

الا ان ابن البلد لم يستمهله ولم يتورع عن ان ينتقم منه شر انتقام ، وينهش عرشه ورنل دجولته وهو يجرى وراء رغبة حفياء تريد ان تنال متعة خالصة لا يشوبها عائق ولا يغترها صد أو منازلة ، وخاصة اذا ما كانت على مديح بنت الصعيد فلم يبخل عليه ابن البلد بان ينجح له مثل هذه المتعة ولكن ليس قبل ان يسلبه كل عثرة وكرامة ، ويدفع به الى هاوية سحيقة لا نجاة منها .. لقد نشأ على الشح لا يعطى دون مقابل واذا به في النهاية يعطى كل حياته ويقفد انسانيته وأدميته دون مقابل ، بعد ان رضى ان يضاجع الموتي وهو في غيبوبة من الحس والشمور والادراك والوعى .. فكان الخراب الروحى والدمار العقلى والانحطاط الخلئى ..

بمثل هذه التحليلات الواعية استطاع يحيى حقى ان يتطهر من قيود العقد التركية المتزمتة .. ولكنه يعيش وسط مجتمع يعكس عليه كثير من الانطباعات التى لا يرتاح اليها وجدانه وتحد من انطلاقاته الفكرية .. فاذا به يقف حائرا أمام الانجاهات المصرية غير المتوازنة لخضوعها لتيارات متصارعة يقلب عليها روح الانتقام ولا تتورع عن ان تلجأ للفرد والخلع وتخلط بين سفك الدماء

والجريمة وبين العزة والكرامة .. قد تحسم المواقف بالعنف ولكن دون فاعلية إيجابية وتترك جذور المشاكل تستشري .. فاحس يحيى حقي بأنه مكبل بقيود تدخله في صراع جديد من أجل حريته - فإذا به يجاهد في سبيل معرفة الشخصية المصرية الأصيلة ويتكفل بتحليلها وعرضها خلال تطور خبراته الفكرية في صور أدبية متنوعة تشمل فحص النماذج البشرية واستعراض اللوحات الفنية وخلق القصص الدرامية .. ويبدو موقفه من الشخصية المصرية واضحاً في قصص «**البوسطجي**» و «**قنديل أم هاشم**» ولوحات «**صح النوم**» ويمتاز هذا الموقف بأنه لم يصل بعد إلى حد اليأس ودرجة التشاؤم التي تلوح بصراحة عن الضياع والخراب والهلاك .. وأنه ما زال هناك أمل يدعو إلى الجهاد في سبيل تحرير المجتمع المصري من كل مخازيه ، ويسوق الشخصية المصرية إلى السلامة الفكرية والسوية الحضارية .. بتعديل مسار انحرافاتنا وترشيد اندفاعاتها بالتنسيق بين تياراتها المتداخلة ..

وأحسب أن عرض موقف يحيى حقي من المجتمع المصري والشخصية المصرية ومدى توفيقه في التحرر من انعكاساتها على نشاطه وتربيته وتعليمه بما لها من ردود فعل تنبعث من مكنز التراث التركي التقليدي المتوارثة .. يحتاج إلى دراسة مفصلة تبحث مرحلة أخرى من مراحل صراعات يحيى حقي المستمرة من أجل الحرية . تبين حدود معاركه مع ذاته - أولاً وقبل كل شيء - سواء وهو يعايش المجتمع المصري ويختلط بالشخصية المصرية .. أو حين يتحرك من ميوله الصوفية الفتية إلى خضم البهيمية الصاحب المنطلق .. ويصارع بعقليته الشرقية تدفق أمواج الحضارة الغربية المتلاحقة .. !!

النقد الروائي الانجليزي في دور التكوين

كثيراً ما عبر الروائي الانجليزي عن مخاوفه من الناقد المحترف الذي رأى فيه قوة معرلة
 انتطور الرواية ولحربة الكاتب . فأشار سومرس موم (١٨٧٤ - ١٩٦٥)
 الى خطأ الاعتماد الكلية على نقاد من غير الادباء المبدعين لان الناقد ،
 كما يقول موم « الذي لا يعمل بنفسه في حقل الادب الخلاق يحتمل ان تكون خبرته في صنعة
 الرواية بسيطة . ولذلك فهو اما يعتمد في تقديمه على انطباعاته الشخصية التي قد لا تكون ذات
 قيمة تذكر . . . او يصدر احكاماً مبنية على اساس جامدة على الروائي ان يتقيد بها اذا ما
 أراد ان يحوز قبول الناقد » (١) . وفيه هـ.ج. ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٦) H. G. Wells ، قبل
 ذلك باربعين عاماً ، الى عدم جدوى اصرار النقاد على قواعد ثابتة ، والى خطورة اللجوء الى النقاد
 المحترفين عند تقييم الرواية ، فقال :

إذا اردنا ان نعرف ان الرواية اثر من وسيلة للترفيه فلا بد ان امتدادي من ان نتحرر من القيود التي يلج عليها
 اولئك الذين يرفقون في تحديد اطار عام لها . ان كل فن في هذه الأيام يجد لنفسه مفسراً الى ان يسلك طريقاً ومراً بين

"The Art of Fiction", Ten Novels & Their Authors (1954), 19-20.

صغير من المستويات الثقافية المهنية وبين دوامة من النقد العشوائي اللاعقول . فعندما يصبح نقد أي فن من الفنون منفصلاً ومحترفاً ، وتظهر إلى الوجود طبقة من الحكام على الأدب ، يبدأ وضع قواعد ومقاييس علمية محددة ونماذج تطبق على الفن ... لقد تنازل النقاد الرواية كما لو كانت ذات شكل فني لا يقل تعديداً عن شكل السونيئية (٢) .

وانضمت فرجينيا وولف (١٨٨٢ - ١٩٤١) Virginia Woolf الروائية التي اشتهرت بتجاربها في الرواية الانجليزية الحديثة ، موقفاً مضاداً لموقف ويلز وموم عندما اسغت لانعدام النقد الروائي النظري تقريباً . ورات ان مشاكل الادب الروائي في ايامها ترجع الى عدم اهتمام النقاد بشكل الرواية ونظرياتها الفنية والجمالية ، وقالت :

اذا كانت هناك صعوبات تواجه الرواية فلعل السبب في ذلك هو عدم وجود من يعالجها بشقة ويحدد معالمها بدقة . لم يكن أحد للرواية ، ولم يولها إلا القلة اهتماماً جاداً ، وعلى الرغم من أن القوانين قد تكون مضطربة ويجب تعظيمها ، فإن لها مزاياها ، فهي تدعى الوفاء والنظام على الرواية ، وتعترف لها بمكانتها في المجتمع المتحضر ، وتثبت حقها في التقدير والدراسة (٣) .

وبإذا كان موقف الروائي من الناقد فممن الملاحظ ان ناقد الرواية المحترف - باستثناء امثال **برسي لاوول** (١٨٧٩ - ١٩٦٥) Percy Lubbock و**ف.د. ليفينز** (١٨٩٥ - F.R. Leavis) وفلامنهم في القرن العشرين - لم يصل الى مستوى نقاد الشعر والادب المسرحي . فليس هناك ناقد روائي خلال القرون الاولى لظهور الرواية وتطورها يضاهي **ارسطو وصوبيل جونسون** (١٧٠٩ - ١٧٨٤) Samuel Johnson و**كولريدج** (١٧٧٢ - ١٨٢٤) Coleridge في النقد المسرحي والشعري . ومما يسترعى النظران **ماتيو آرنولد** (١٨٨٢ - ١٨٨٨) Matthew Arnold عميد النقاد الفكتوريين لم يلتفت اطلاقاً الى الادب الروائي الانجليزي الذي بلغ ذروته في ايامه .

بدت الرواية الانجليزية في اول نشأتها كماردجبار . ووصلت الى مستوى ادبي رفيع خلال السنوات التي تلت ظهور **روبنسون كروزو** (١٧١٩) رواية دانيال ديفو (١٦٦٠ - ١٧٣١) Daniel Defoe الشهيرة . وعندما نشرت اعمال الروائيين الكبيرين **فيلدنج** (١٧٠٧ - ١٧٥٤) Fielding و**ريتشاردسون** (١٦٨٩ - ١٧٦١) Richardson اصيحت الرواية الانجليزية واقعا لا جدال فيه ، واحتلت المكانة الاولى عند هواة القراءة . ومع ذلك لم يصاحب نشأة هذا الشكل الادبي الجديد نقد يستحق الذكر . لقد اثارت روايات ريتشاردسون في عدد قليل من الكتيبات بعض التساؤلات عن اهدافها ، ومدى اضرامها بمستوى القراء الخلقى . كما بدت نفس الاتجاه الاخلاقي في مقال لجهول بعنوان « دراسة لتاريخ **توم جونز** » (١٧٥٠) (٤) .

"An Examen of the History of Tom Jones" هاجم فيه الكاتب هجوماً مبنياً مقدماً ما اعتبره انحطاط الاخلاقيات التي بنيت عليها رواية **فيلدنج** ، دون أية اشارة الى قيمتها الادبية ،

(٢) "The Contemporary Novel", An English Man Looks at the World (1914), 150-51.

(٣) The Moment & Other Essays (1947), 90

(٤) (المقال المكتوب تحت اسم مستعار هو (اوريليوس) Orbilius

وكانها منعقدة تماماً . ثم ظهر اتجاه مماثل في الخلاف الذي قام حول روايات **لورانس ستيرن** (1713 - 1768) [Laurence Sterne] في نفس العصر عندما ركز المناظرون جدالهم حول مدى اللياقة في أن يكتب ستيرن ، وهو فقيس ، روايات على الإطلاق . ولم يعلق واحد من هؤلاء النقاد على التجديدات الفنية التي اشتهرت بها روايات ستيرن فيما بعد ، والتي جعلته من أعمق الروائيين تأثيراً على تطور الرواية الإنجليزية في عصرنا . وكان على ستيرن أن ينتظر حتى عشرينات القرن الحالي ليحتل المكانة التي تليق برائد الرواية الإنجليزية الحديثة ؛ عندما اكتشفت فرجينيا وولف أهمية تجاربه الفنية . وأن ما يدعو إلى الدهشة في كل هذا هو فشل النقد في أن يلحق بركب الرواية في نشأتها وتطورها سائرين طويلة .

استمر تجاهل النقد للرواية طوال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، أي خلال السنوات التي لاقت فيها الرواية شعبية لا مثيل لها إذا ما قورنت بأنواع الأدب الأخرى . وأولى النقد الشعر اهتمامهم كما في **تراجم الشعراء الإنجليزي** (1781) *Lives of the English Poets* لصمويل جونسون ، أو إلى نظريات النقد الجمالية في كتابات بيرك (1729 - 1797) *Burke* وريبنولتر (1734 - 1792) *Reynolds* . أما فيما يختص بالرواية فقد ظهرت في دوريات من مثيلات *The Monthly Review* (1729 - 1825) و *Critical Review* (1756 - 1817) تعليقات على الروايات التي أخذت تتكاثر بسرعة فائقة . ولكن هذه التعليقات تمثلت في ملخصات الروايات وسرد لأحداثها ليس إلا .

على أن الأوضاع قد تحسنت قليلاً بالنسبة للدوريات الجديدة في أوائل القرن التاسع عشر ، إلا أن تجاهل المعلقين عامة لروايات **جين أوستن** (1775 - 1817) *Jane Austen* التي ارتقت إلى مصاف أعظم الروائيين الإنجليز ، يشير إلى حقيقة الأمور فيما يتعلق بالنقد الروائي المحترف وكان الاستثناء الوحيد لافتقار النقد في ذلك العصر هو المقال (٥) الذي رحب فيه الروائي **سير والتر سكوت** (1771 - 1832) *Sir Walter Scott* في بحرارة برواية **إما** (1816) *Emma* لـ **جين أوستن** أما المحاضرة السادسة لوليم هازلرت (1778 - 1840) *William Hazlitt* في محاضراته المنشورة بعنوان **الكتيب الإنجليزي الهزليسون** (1819) *Lectures on the English Comic writers* وتقليد ولتر سكوت في كتابه **تراجم الروائيين** (1821 - 1824) *Lives of the Novelists* لما سبق أن أنجزه صمويل جونسون في مؤلفته **تراجم الشعراء الإنجليزي** ، فليست إلا محاولات مقيمة في النقد الروائي .

ومنى وصلنا إلى العصر الفكتوري وجدنا اتجاه النقد الملاحظ إلى تجنب الرواية في دراساتهم . فالروائي الوحيد ، نولستوي ، الذي تناولته مانيو آرنولد في مقال طويل (٦) لم يكن إنجليزياً بل روسيا . وكان آرنولد في أول المقال صائلاً عندما قال : « لقد ولى عهد الروائيين

الانجليز العظام ، ولم يتركوا من بعدهم خلفا في مثل شهرتهم » . وفي هذا القول دليل على قدرة آرنولد على التمييز بين الجيد والردىء من ادب الرواية ، ومع ذلك فقد اولى ظهرا لاشغال ديكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠) وداكنرى (١٨١١ - ١٨٦٣) Thackeray وجورج اليوت (١٨١٩ - ١٨٨٠) George Eliot وهم من اعظم الروائيين الانجليز في فترة انتاجهم الخصب وعصر الرواية الانجليزية الذهبى .

يبدو مما سبق اننا اذا ما اردنا ان نكتشف حصيلة من النقد الروائى الذى يعترف بالرواية كأدب رفيع يستحق الدراسة الجادة ، فعلى ان نوجه انظارنا بعيدا عن الناقد المحترف متجهين نحو الاديب الروائى نفسه وما جاء في كتاباته عن ادبه . وهنا نتذكر ما قالته اليزابيث بون (١٨١٩ - ١٩٧٤) Elizabeth Bowen الروائية الانجليزية في الروائى الناقد ، وهو : « ان الكاتب الابداعي الذى يفتقر الى ملكة النقد لا وجود له . بل ان مهنته كروائى لا تتحمل مثل هذا الانتقار » (٧) . وما يؤكد الدور الذى يلعبه الروائى الناقد بروز اسماء فيلدينج وجورج اليوت هنرى جيمس (١٨٣٤ - ١٩١٦) Henry James ود . هـ . لورانس (١٨٨٥ - ١٩٢٠) D. H. Lawrence واسم . فوستر (١٨٧٩ - ١٩٧٠) E.M. Foster وفرجينيا وولف ، على سبيل المثال لا الحصر ، في تاريخ النقد الروائى الانجليزى .

وباستثناء فيلدينج ليست هناك اية محاولة في القرن الثامن عشر لدراسة الرواية على اساس نقدي جاد . ويبدو اسهامه في هذا المجال فيما كتبه في نقد الرواية ونظريتها بينما كان يحاول ان يفسر نفسه ولقائه تجاربه في الكتابة الابداعية . ولا جدال ان فيلدينج هو رائد النقد الروائى في انجلترا بغير منازع . بل لعله ليس مجرد رائد لان المرائد يتبعه آخرون ، وهذا ما لم يحدث في حالة فيلدينج الذى سبق النقد الروائى بقرن من الزمان على الاقل . وتكون سميتنا اكثر دقة لو لقينا بمستكشف وحيد خاص في نقده عالم الرواية البكر وتحسن معاملها الجوهرة .

ونقد فيلدينج الذى احتواه في ثلاث مقدمات لروايته جوزيف اندروز (١٧٤٢) Joseph Andrews وفي ثمانى عشرة مقدمة ، واحدة لكل كتاب من كتب روايته **توم جونز** (١٧٤٩) Tom Jones ، محاولة فريدة في اسبابها ترمى الى الرفع من شان الرواية بتحرير بعض المقاييس النبوية كلاسيكية وتطبيقها على الرواية . واما كانت نتيجة هذه المحاولة (وقد بامت بالفشل كما كان فيلدينج نفسه يعلم) ، فان المحاولة في حد ذاتها كانت مثالا مبكرا للنقد النظرى للتعريف بالرواية والتعقيد لها .

كان الهدف الاساسى الذى سعى اليه فيلدينج اول الامر هو تعريف ماهية الرواية متخذا روايته **جوزيف اندروز** نموذجا لهذا الشكل الجديد . فوصف الرواية بانها « ملحمة هزلية

منشورة (٨) . وكان فيلدينج يعلم تماما مدى الابتكار الذي تتضمنه تلك الموازنة بين الرواية والملحمة ، كما كان يعلم أيضا ما يحتمل من أساءة فهم القراء له في مقارنته بين هذين الشكلين من الأدب . فيقول في مقدمة **جوزيف أنغروز** أن الرواية « تمثل ... نوعا من الأدب لا اذكر أنني رأيت حتى الآن أية محاولة مشابهة له في لغتنا » . ويستمر فيلدينج في شرح أوجه الشبه والخلاف بين الرواية والملحمة ، كما عرفها هوميروس ، مشيرا إلى أن الملحمة مثل المسرحية ، منها ما هو هزلي ومنها ما هو مأساوي . وهوميروس ، كما جاء في أرسطو ، ترك لنا ملحمتين ، أحدها هزلية بعنوان **مارجيتيس Margites** وقد فقدت ، والثانية مأساوية وهي **الإلياذة** ، والملحمة قد تكون إما بالشعر وإما بالنثر ، وإن كان الشعرو الأسلوب الغالب . ونبه فيلدينج إلى عدم الخلط بين «الملحمة الهزلية المنشورة» وبين المسرحية الهزلية والرواية الرومانسية المنشورة الجادة . فالرواية عند فيلدينج أو «الملحمة الهزلية المنشورة» كما عرفها تختلف عن المسرحية الهزلية من حيث أن « حركتها أكثر امتدادا وشمولا ، ودوائيا أحداها أكثر أسعافا ، وشخصها أكثر عددا واختلافا » . وعندما انتقل فيلدينج إلى توضيح الاختلاف بين «الملحمة الهزلية المنشورة» والرواية الرومانسية صادف صعوبات لا حد لها ، واعتبر أن من أسس الاختلاف الأسلوب الهزلي والميل إلى المحاكاة التهكمية *burlesque* للادب الجاد ، والمغالاة فيها ، وهي التي وجد فيها فيلدينج متعة بالغة .

ونجح من تعريف فيلدينج للرواية وتفسيره لهذا التعريف كثير من الخلط . والسؤال الذي نطرحه هنا هو : هل الرواية كما عرفها فيلدينج أساسا مجرد « محاكاة تهكمية » للشكل الملحمي المأساوي ، أم هي رواية هزلية أخلاقية متكاملة قد حذاها ترمي إلى تصوير المجتمع المعاصر ؟ ويعكس هذا السؤال الانشطار الواضح في **جوزيف أنغروز** بالذات ، التي بنيت أول الأمر على « المحاكاة التهكمية » لرواية **باميليا Pamela** (١٧٤٠) لريتشارد سون ، ثم تطورت وأخذت شكل رواية « المآثرات » *Picaresque* التي تصور مساوئ المجتمع بأسلوب الهجاء الساخر ، مستندة إلى المبادئ الأخلاقية . وليس في هذا الخلط الواضح بين اتجاهين مختلفين ما يشير الدهشة لأنه موجود أصلا في نظرية فيلدينج النقدية .

لا شك أن فيلدينج قد تنبه إلى عدم التناسق في تعريفه للرواية مما أدى به بعد ذلك إلى تجنب أية محاولات لبناء نظرية في الرواية متكاملة . وقضت السنوات السبع التي فصلت بين **جوزيف أنغروز** و**توم جونز** على الدور الرائد الذي لعبه فيلدينج في النقد الروائي . ولا يعني هذا أنه أحجم كلية عن النقد . فتوم جونز تحوى من حيث الكم نقدا أكثر مما تحويه **جوزيف أنغروز** ، ولكنه نقد متناثر يفتقر إلى الوحدة . وحتى هذا النقد المتناثر في المقدمات يقل تدريجيا

طولا ومضمونا خلال الرواية . وان كان فيلدنج يشير من آن لآخر في **توم جونز** الى نظرية « الملحة الهزلية المنشورة » ، الا انه من الواضح انه بدأ يفقد اهتمامه بالمسائل النظرية المجردة .

ان ميل فيلدنج الى الاحجام عن التحليل النقدي في **توم جونز** يشير الى اكتشافه ان النقد في إنجلترا في عصره لم يسلك الطريق السليم ، وان الدور الذي لعبه النقد في سن القوانين وتطبيقها ما هو الا عيب ، لان القواعد التي اصر عليها النقاد النيوكلاسيكيون مستقاة من تراث ادبي غريب عنهم ولا تتناسب مع العصر . « والوحدات » التي ابح النقاد الكلاسيكيون على ضرورة اتباعها في المسرحية لم تكن في نظر فيلدنج الا اصطلاحا ضارا يردده النقاد دون تفكير . وقد عبر فيلدنج عن هذا الرأي ستة عشر عاما قبل ان يكشف صموئيل جونسون ، وهو من اعظم نقاد القرن الثامن عشر ، عن عقم هذا القانون في مقدماته لاعمال شكسبير . كما انتقد فيلدنج رغبة نقاده عصره في تطبيق حرفية القوانين المستخرجة من روائع الادب الكلاسيكي دون الاهتمام بروح الادب نفسه . كل هذه احكام جريئة تدل على انها صادرة عن وعي نقدي صائب ، حتى ولو ان صاحبها قد فشل في التوصل الى اسلوب في النقد يحل محل النقد العشوائي السائد في عصره .

وعلى الرغم من فشل فيلدنج في بناء نظرية نقدية في الرواية فانه كان واعيا على الاقل ، باعتباره روائيا اصيلا ، باهمية هذا الشكل الجديد من الادب وما يستحقه من اهتمام وما يتطلبه من تثبيت اقدمه والاعتراف بمكانته ، ولعل محاولات فيلدنج النقدية التي كانت ترمي الى الارتقاء بالرواية الى المكانة الادبية اللائقة بها ، هي في حد ذاتها انجاز له قيمته في هذه المرحلة المبكرة من نشأة الرواية ، ونحن نطلب من اول روائي ناقد في إنجلترا اكثر مما يستطيع اذا ما حملناه مسؤولية وضع نظرية متكاملة في تعريف ماهية الرواية .

وكان من الطبيعي انشاء نشأة الرواية ان يتلاحق اسئلة الروائي عن كيفية كتابة الرواية من الناحية العملية المحضة ، وهي اسئلة في الواقع لا بد وان يطرحها كل روائي في كل مرة يبذل في خلق رواية جديدة . فكما يقول تولستوى « ان كل فنان عظيم لا بد وان يخلق الشكل المناسب لعمله » . وكلما ازداد الابتكار والاصالة تكاثرت الاسئلة التي هي من صميم عمل الناقد .

وكان ستيبن من اهم التجريبيين في ادب الرواية ومن اعظمهم ابتكارا في رواية **تريسترام شاندي** (١٧٦٠ - ١٧٦٧) *Tristram Shandy* التي قلب فيها الزمن رأسا على عقب . وبدلا من ان يقدم بطله كما كان متبعيا في اولى صفحات الرواية فانه لم يسمح له بالظهور الا بعد انقضاء اكثر من نصف الرواية . ومن هنا تظهر احدى المشاكل الفنية الاساسية في كتابة الرواية ، وهي : من اين يبدأ الروائي وكيف يعالج موضوع الزمن وتتابع الأحداث ، ماذا يختار وماذا ينسى جانبا ؟ وقد عرض ستيبن لبعض مشاكل الروائي الفينقي **تريسترام شاندي** ، متخلدا من التأليف احد موضوعاته . ومن اهم الاسئلة التي شغلت باله السؤال : الى اي حد يعتبر الروائي قد حاد عن جوهر موضوعه عندما يستطرد في تصوير ابعاد الشخصيات المحيطة ببطله ليجسمهم للقارئ ؟

وهذا سؤال لا بد وأن يجيب عليه الروائي قبل أن يبدأ في الكتابة ، كما لا بد وأن يطرحه الناقد أيضا عندما يتناول الرواية ، وهو تابع من الوعي بالشكل الفني للرواية .

وسترين مثل فيلدنج لم يصل الى اجوبة واضحة في النقد الروائي . والاجوبة في هذه المرحلة من نشأة الرواية ليست في نفس مستوى اهمية الاسئلة ذاتها . فالذي يهم هو صحة الاسئلة وتنوعها واتساع الرقعة التي تغطيها في مجال الادب الروائي . ويتضح من الاسلوب الذي اتبعه هذان الروائيان في ادماج تطبيقاتهما النقدية في كتابتهما الابداعية ، انهما لم يشعر بالحرص في الجمع بين دور الكاتب الخلاق والناقد في آن واحد . فلا تناقض بين الابداع والنقد ، بل هما بالنسبة الى الروائي متكاملان .

وتتبع جين اوستن نفس الاسلوب في الجمع بين الابداع والنقد في بعض رواياتها ، الا انها لصهر آراءها كناقدة في موضوع الرواية وتصوير شخصها وتطوير حركتها ، بدلا من ان تعرضها ، كما فعل فيلدنج ، في القدمات . ويبدو هذا في رواية *نورث أنجر آبي* (١٨١٨) *Northanger Abbey* التي تكشف عن قدرة *جين اوستن* على تقييم الرواية المعاصرة لها من خلال « المحاكاة التهكمية » . وقد كتبت *نورث أنجر آبي* في قالب ساخر يحاكي اسلوب «الرواية العاطفية » « ورواية الرعب » بهدف نقد هذين النوعين من الروايات التي انحدرت بالمستوى الادبي والفني للرواية بشكل ملحوظ . وجاءت هذه الروايات مجرد تكرار لا ابتكار فيه لما سبق ان كتب في مواضعها . فكانت شخص من الرواية من بطل وشرير صورة طبق الاصل لبطلات وبطلان واشرار مثيلاتها من الروايات ، وهذا صحيح ايضا بالنسبة للمواقف والاحداث والحركة والحوار الى غير ذلك من عناصر الرواية .

ويبدو دور جين اوستن كناقدة روائية عند افتتاح الرواية وتصوير البطلة كاترين مور كنقيض للبطلة المتفق عليها في الروايات الشعبية . فهي كما تقول الروائية ليست بطلة مثالية ، وليست من اسرة عريقة ، ولا تنصفي طفولتها بالجمال والنباهة والحس الرفيع والنبوغ في الموسيقى والتصوير ، الى آخر تلك الصفات البالغ فيها . وانما هي طفلة عادية ، وتصبح عندما تنمو فتاة عادية ايضا . وتضح سخريه جين اوستن اللاذعة في موقف كاترين لافتة البسطة الميالة الى تصديق كل ما تقرأه من « روايات عاطفية » و « روايات الرعب » التي تعطي البطلة صورة كاذبة من الحياة . وتضع جين اوستن بطلتها في عدة مواقف تطابق المواقف المعروفة في « روايات الرعب » ، لتتصور كاترين ان الحياة انعكاس لمجموعة التجارب المثيرة التي تمر بها بطلات « روايات الرعب » التي استحوذت على تفكيرها وخيالها . الا ان مواقف كاترين تنتهي دائما بخيبة املاها ، واكتشافها الاخطاء التي وقعت فيها نتيجة لانها رأت الحياة من خلال قراءاتها لتلك الروايات الرديئة المثيرة . والدرس الذي تتعلمه البطلة في نهاية *نورث أنجر آبي* هو ان الحياة لا هي « رواية عاطفية » ولا هي « رواية رعب » وان كانت لا تخلو في الواقع من العاطفية والرعب .

من الواضح أن نقد جين أوستن للرواية الشعبية المعاصرة لها يدور حول الهوية السابعة التي تفصل بين الواقع وتصور الرواية له . وبسخريتها من الأثر الذي يتركه هذا الفصل بين الواقع والخيال المثير المبالغ فيه تنقد الكاتبة الرواية التي لا تنتمي إلى الواقع في شيء ، والتي تصور الحياة بجمود وتصنع . وتشير جين أوستن إلى الاحتقار السائد للرواية وخجل قرائها من الاعتراف بأدائهم لها ، مما يؤكد مستوى الرواية الهابط وشعبيتها في نفس الوقت . وفي الفقرة التالية تنكر الفئاة القارئة هوياتها ، بينما تعلق جين أوستن على الموقف .

« أنا لست من قراء الرواية ، فقلنا الصغها . لا نطرائي أقرأها كثيرا » . هذه هي التعليقات التي يكثر ترديدها . « وماذا تقرأين إنهما الآسة ؟ فيكون جواب الآسة « إنها ليست إلا رواية » بينما تطرح كتابها أمامها بلا مبالاة مصطنعة ، أو لا خجل مولات (٩) .

والامر الذي يهم جين أوستن هو ألا يتعدى هذا الاحتقار إلى الرواية عامة التي تستحق التقدير . وفي دفاعها المباشر عن الرواية كصورتها وكتبها تبدو امكانيات الرواية في احسن صورها . ويلاحظ أن هذا الدفاع مكتوب على لسان الكاتبة نفسها موجه قولها إلى القارئ ، وهذا أسلوب قلما تستخدمه جين أوستن في رواياتها ، مما يوضح الاهمية التي تعلقها على تلخيصها لهمة الرواية الادبية كما فهمتها . وتستمر الكاتبة في تعليقها الساخر على لا مبالاة القارئة التي هي في الواقع تقرأ ، كما تقول الكاتبة : « جود ما انتجعه ذهن انسان :

إنها (أي الرواية التي تقرأها الآسة) ليست الاسيسيليا أو كاميللا أو بيلندا ، أو بالهري ، أنها ليست إلا عملا من الاعمال التي تكشف عن اعظم قدرات العقل الإنساني ، التي تنقل إلى العالم في احسن اسلوب مختار معرفة وريقة بالبيئة البشرية ، وسامها المختلفة ، وفكرها التقد ، وحضورها اللغني ، وروح الفكاهة التي تصنف بها (١٠) .

ويبدو من هذه الفقرة أن جين أوستن إنما تصنف كتاباتها هي ، كما تصنف الادب الروائي في ارقى مستواه . وهي تحاول في هذا التعريف ان تضع أسسا ومقاييسا عامة للرواية .

وترى جين أوستن نتيجة للاحتقار السائد للرواية ضرورة وقوف الروائيين من امثالها صفا واحدا ضد النقاد المحترفين ، الذين يحطون في تقدم الروائي المنشور في الدوريات من شأن الرواية ، فتقول :

فلنعد المعلقين النقاد يقدحون الرواية ذات الخيال التلطف بالذوق الاوصاف كما يفعلو لهم ، ويتحدثون عن كل رواية جديدة بأسلوبهم الواهن ، مشيرين إلى المبدء الذي تنش من تحتة دور النشر . علينا ألا يتخلى بعضنا عن بعض . اننا نحن مشر الروائيين هيئة مفيونة . لملي الرثم من ان التاجنا قد وفر للقراء ترفيها لا حد له ، ولا يمكن لأي هيئة ادبية اخرى في العالم ان تصاحبها ، فليس هناك شكل ادبي آخر فويل بمثل الهجوم الذي قوبلت به الرواية (١١) .

(٩) نورت انجر ابي ، الفصل الخامس

(١٠) الرجوع والفصل السابقان .

(١١) الرجوع والفصل السابقان .

في كل ما سبق أن جاء في نقد الرواية على لسان فيلدينج وسترون وجين أوستن على شأنه وتحسمه في الظلام ، نجد محاولة الروائي توضيح ماعية الرواية ومهمتها ، مما يعينه عمليا في كتاباته الخلاقة ، كما يكتشف هذا التقدم رغبة الروائي في الارتفاع بالرواية الأدبية والرفع من شأنها .

وقد مهدت هذه الخطوات الأولى في نقد الرواية الطريق لأدب روائي آخر هو سير والتر سكوت ، الذي اشتهر في القرن التاسع عشر برواياته التاريخية ، فظهر مقاله « اما رواية » "Emma, a Novel" كمثال جيد للنقد الموضوعي . ويستحق هذا المقال مناهة خاصة لانه مثل ميكر لتقييم حاد للرواية سواء اكانت مجرد التسلية او انها تضمن هدفا اخلاقيا واجتماعيا . والى جانب هذا فالمقال من أجود ما جاء في نقد ادب جين أوستن وفي التعرف على الأهمية الأدبية لرواياتها في أيامها الأولى . وملكة النقد الموضوعي عند والتر سكوت تنضج على وجه التحديد في قدرته على تقييم عمل كاتبة مثل جين أوستن يختلف اختلافا تاما من انتاجه التاريخي .

ويشير سكوت في مقاله الى نوع الروايات الهزيلة التي اكتسحت السوق في أيامه ، والى موقف القارئ منها ، الذي سبق أن اشارت اليه جين أوستن في نورت أنجر أبي - اي رفس القارئ الاعتراف صراحة بقراءاته على الرغم من استمتاعها بها . وسكوت لا يحكم بقسوة تامة على هذا النوع من ادب الهروب الذي يساعد ، كما يعترف ، على التخفيف من كثير من آلام البشر مثل « الملل والقلق والالام وحتى الفقر » ، كما يخفف من وطأة حياة « المسنين والعزباء والمجوردين والوحيديين » . ونظرة سكوت التسامحة الى رواية الهروب جعلته يشعر بالتزام أكثر نحو توضيح قيمة رواية في مثل مستوى اما الادبي ، فيقول :

ان واجب الناقد يصبح مساعدا حيال اعمال ... تكشف عن معرفة عميقة بقلب الانسان ، وتبر منها بقوة وهدوء تهدف الى وضع هذه المعرفة في خدمة المصيلة والشرف (١٢) .

واهم ما في نقد سكوت في مقاله هو التفرقة التي سبق أن اشارت اليها جين أوستن في نورت أنجر أبي بين روايات معاصريها ورواياتها هي التي تتطلب « اهتماما يفوق بكثير ذلك الاهتمام الذي يتطلبه إنتاج معاصريها الزائل الذي ينفذ مكتبات الاعارة ومشتريها من النساء » . فاعمال جين أوستن ، كما يقول سكوت :

تتنمي الى مستوى من ادب الرواية لم يكد يظهر الا في عصرنا الحالي ، وتصور الشخصيات والاحداث السطحة على نحو أكثر مباشرة من حياتنا العادية اليومية . وهو امر لم يسمح به القواعد السابقة للرواية (١٣) .

أن جكم سكوت الصائب كروائي ناقد جميع بين الرومانسية والواقعية في رواياته التاريخية يمكنه من تقديم مشكلة الروائي في عصره الذي تحرر من قيود المواضيع الرومانسية البعيدة عن الواقع دون أن يتحرر من التقاليد الرومانسية في أسلوب الكتابة . ويقول سكوت بهذا الصدد :

أن الرواية الحديثة في طاعرها هي الطفل الترمسي للرواية الرومانسية ، وعلى الرغم من أن شكلها العام قد تغير ليناسب العصر الحديث ، إلا أن المؤلف استمر مقيد بكثير من العالم الخاصة بالرواية الرومانسية التي ظهرت عند نشأتها (١١) .

من الواضح أن سكوت يشير هنا إلى المبالغة الفنية التي لا تنمى مع موضوع الرواية المعاصرة ، ويبدو هذا أيضاً عندما يقول : « ويمكن متابعة (هذا الأسلوب) في تناول أحداث الرواية وتطورها ، وفي التناخ العاطفي المحيط بالشخص بالرواية (١٥) » .

وإن كان اسهام جين أوستن في تطور الرواية الحديثة يتلخص في التحرر من المواقف والشخص والإحداث التقليدية كما جاءت في الرواية الرومانسية ، فإن اسهام سكوت في نقدة يرجع إلى تعرفه على ما أنجزته جين أوستن في كل من الموضوع والشكل الفني اللذان لا يفصل بينهما . ويقول في هذا :

إننا لا ننسى تارة فشيلا على مؤلفة ما عندما نقول أنها تلزم القرب من الأحداث العادية والأشخاص العاديين . ومع ذلك فقد أنتجت صورا مبتكرة ذات حيوية إلى درجة أننا نشعر أنها تفتقر إلى الإثارة التي تعتمد على سرد أحداث غير عادية ... إن أحداث رواياتها مبني على وقائع عادية لا تختلف عما تقع تحت أعين غالبية الناس . وتتميز شخصياتها نتيجة للدوافع وعلى أساس مبادئ يسهل على القاري أن يتعرف عليها ، لأنها نفس الدوافع والمبادئ التي تحكمهم وتحكم غالبية أصنافهم (١٦) .

وعلى الرغم من جميع هذه المحاولات النقدية التي ترمي إلى النهوض بالرواية الأدبية فإنها لم تكن ذات أثر فعال . لقد بنيت على مناقشات جادة لبعض نواحي الأدب الروائي مما يدل على وعي الروائيين الرواد بمشاكلهم الفنية والشكلية، ولكن تقدمهم لم يفضح عنها باستفاضة ، ولا على نحو منظم يمكن أن نستخلص منه مجموعة من الأسس النقدية المتكاملة . وإلى جانب هذا فإن دفاع الروائيين عن أدبه وما يستحقه من احترام لم يأت بالنتيجة المرجوة .

استمر الهجوم على الرواية حتى السبعينات والسبعينات من القرن التاسع عشر على أساس أن هدفها الواحد هو التسلية ، وأن قراءة الروايات ليس الانوعا من الإدمان والانغماس في اللذة . وليس في هذا ما يشير للدعشة ، لأن الفكتوريين عرفوا بالتطهيرة والتزمت الذين دفعوا بكثير من الآباء إلى حرمان أولادهم من تلك « التسلية الخطرة » ، كما سمو قراءة الروايات . ومنهم غير ذلك من الشروط العشوائية . وقد شبهت عادة قراءة الروايات نهارا بشرب الخمر في الصباح ،

(١٤) القال السابق

(١٥) القال السابق

(١٦) القال السابق

من كان أقل صرامة فوضعوا قواعد لقراءة الرواية تبدو لنا اليوم مضحكة في شروطها . فحرم بعضهم قراءة الروايات صباحاً أو أيام الأحد ، وسمح بعضهم قراءة والتر سكوت وحرم دوماس إلى كما شبهت العادة عامة بالأقبال المفروض على الحلو الذي كانت لها شروطها أيضاً في البيت الفكتوري . وقد استخدم كثير من الروائيين أنفسهم هذين التشبيهين ، فقال **ترولوب** (١٨١٥ - ١٨٨٢) Trollope : « أن الناس يقرأ الروايات كما يأكل الرجال الفطائر بعد العشاء والشعور بداخلهم بأن المذاق في كلتاهما زائل أن لم يكن ضاراً » . وأشار لأكبري إلى نفس المعنى عندما قال : « آه - تلك الروايات البديعة . كم أذكرها جيداً ، إنها حلوة ولذيذة مثل فطائر الفاكهة التي عرفتها في صباي » . ومن عشاق الرواية في عهد فكتوريا هنري كراب روينسون Henry Crabbe Robinson الذي لم ينقطع عنها طوال سبعين عاماً . وقد عبر عن ادماحه في مذكراته بقوله :

« أن الرواية بالنسبة لي مثل الخمر بالنسبة للآخرين » . ويقال أنه كان يقرأ الروايات دون تمييز بين الجيد منها والردى . وهذه هي علامة الممن الحقيقي . وقد واصل القراءة حتى سن التسعين ، عندما أشار في مذكراته إلى قراءته لرواية *Vanity Fair* (ولم تكن للمرة الأولى) وهو مستلق في الفراش ممسكاً بشمعة لتشرق له الصفحات .

كان من الصعب إذا القضاء على النظرة الترفهية المجردة للرواية التي اشترك فيها الروائيون أنفسهم في بعض الأحيان ، وهي إحدى الأسباب التي يرجع إليها تأخر تطور النقد الروائي . ومع ذلك فالاستمتاع بقراءة الروايات الذي وصل إلى حد الإدمان في كثير من الحالات ، وإن كان عائقاً في سبيل ظهور النقد الروائي ، يمثل في الواقع نقطة الارتكاز في هذا النقد . فالروائي ، كما قال **ترولوب** ، « غير مسووح له بأن يبعث الملل » . إن كاتب القصص لا بد أن يدخل السرور على قرائه . والآن هو لا شيء (١٧) وسأنا في هذا الرأي هنري جيمز الروائي والناقد المشهور ، وهو من أكثر كتاب الرواية وعياً بشكلها الفني ، عندما قال : « إن الشرط الوحيد المسبق الذي ينبغي على الرواية أن تنفيذه هو إثارة اهتمام القارئ » (١٨) . وعندما يوضع ذلك الاهتمام تحت الدراسة الموضوعية في محاولة لتفسير ما الذي أدى في الرواية إلى إثارة ذلك الاهتمام ، يولد النقد . ما الذي يدفع بالقارئ إلى قراءة الرواية الواحدة عدة مرات بعد أن كشف عن تطور أحداث الرواية والعلاقات بين شخصياتها ومصيرهم من زواج ووفاء إلى غير ذلك ؟ إن مهمة النقد هي الإجابة على هذا السؤال .

ولكن قبل أن يتجه النقد الروائي إلى هذه الدراسة الموضوعية التي تركز على تحليل وتقييم شكل الرواية واسلوبها ، اتبع طريقاً آخر تناول من خلاله الرواية من حيث أخلاقياتها ودورها

الفعال في المجتمع . وهذا اتجاه لا غرابة فيه منى فذكرنا تطهيرة الفكرين وقلقهم العميق من اى اثر ضار قد يلحق بمجتمعهم . وقد بلغ هذا القلق ذروته خلال الستينات واستمر حتى الثمانينات . ففي عام ١٨٦٦ ظهرت في دورية London Quarterly Review التي اشهرت بعبولها المتطهرة ، حملة ضد ما اعتبرته روايات كثيرة كتبها تشارلز وود (١٨٨٤ - ١٨١٤) Charles Reade وولكي كولينسر (١٨٢٤ - ١٨٨٩) Wilkie Collins ، ومسر هنري وود Mrs. Henry Wood ووصفتها بانها نوع من « السم الخفى » الذى سيؤدى الى انهيار المجتمع . ويتضح من الاسلوب الذى اتبع في هذه الحملة انى لم يكن لها اى اساس من الصحة ، هبوط مستوى النقد الروائى والا منطقية التى بنى عليها . فكان النقاد يقفون من اعتراضهم على لا اخلاقية رواية بالذات الى الحكم الشامل على طبيعة الرواية عامة وتأثيرها الفاسد على المجتمع .

وقد طبق كثير من النقاد المحترفين مقياس الفائدة الاخلاقية للرواية على نحو اكثر تفوقا . فاشاد بعضهم برقى مستوى الروائيين الاخلاقي وطهارة تعاليمهم الاخلاقية . وبذلك اصبحت الرواية في نظرهم اداة للتعليم ووسيلة لتصحيح الاوضاع الاجتماعية الفاسدة المعبية ، ولنشر الفضيلة . وتتمسك هذه النظرة المنفعية الى الرواية في السبعينات في الجدل الذى نشأ حول الرواية . وسرد المدافعون عنها امثلة تثبت ان الرواية تعمق من تجربة القارئ ، وتعمل على احياء المثل الغاضلة ، وتوقف قليلا من البطولة وتعلم الفتيات « الايثار والطبية والرقية » (١٩) . ولا تمتنع ، نفس الدورية ، حسن مهاجمة والتر سكوت لفشله ، كما تقول ، في تطوير الفائدة الاخلاقية التى رافعت الرواية الى مصاف الادب المحترم منذ ان كتب رواياته . وتعود مرة ثانية الى وصف رواياته بانها روايات تسلية لا اكثر ولا اقل ، متسائلة كيف يتأثر مثل هذا الكاتب بما له من نبوغ وقوة وامكانيات ان يسقط من حسابه اهدافا عظيمة تتفتى مع ما حياه الله به ، وتنتهي بالسؤال : « اليس هناك قضية واحدة حية تستحق الدفاع ؟ » (٢٠)

وبذلك كانت معاناة الرواية ، في نهاية المطاف ، من اصدقاتها الاخلاقيين المنفعيين لا تقل من معاناتها من اعدائها الاخلاقيين المتطهرين . ففي كلتا الحالتين لم يشعر موقعهما عن الاعتراف بالرواية كشكل ادبي له كيانه واستقلاله الذاتي .

ومع ذلك فقد تقدم النقد الروائى على ايديهما نتيجة لا تفاقمها على تقييم الرواية على اساس تأثيرها المنفرد على خيال القارئ ومشاعره . وفي مقال نشر عام ١٨٦٦ في Saturday Review اشار الكاتب الى هذا التأثير غير المباشر الذى اعتبره اعظم ما تتصف به الرواية فيما يتعلق بفائدتها العملية ، ويرجع الى الصلة الوثيقة بين « خيال الانسان المسرحي »

“The Uses of Fiction”, Tinsley's Magazine (1870), vi.

(١٩)

(٢٠) نفس المرجع ، The Scott Centenary' العدد التاسع (١٨٧١ - ١٨٧٢)

ومجمل طبيعته الاخلاقية . ويعطي هذا النوع غير المباشر من الفائدة العملية لكل من الروائي والناقد النظري مجالا اوسع للعمل مما يعطيه النوع الاخر من الفائدة العملية المباشرة . وهذا النوع السابق هو الذي اعتمدت عليه جورج اليوت في تبرير اهمية عمل الروائي وجدته . وجاء فيما قالته :

ان اعظم فائدة تدين بها للكتاب ، سواء اكان رساما ام شاعرا ام دولابا هو تأثيره على اتساع دائرة مشاعرنا وتعاملنا ... ان الفن هو الرب شمه للحياة ، وهو وسيلة لتوسيع حلقة تجاربنا ، ولد صلاتنا ببنى البشر خارج حدود حياتنا الشخصية (٢١) .

ويتبين من هذه الفقرة ان جورج اليوت ، مثل جميع الفكتوريين العظام ، كانت تنظر الى دورها كمعلم او مؤثر على فكر الناس ومشاعرهم نظرة جادة ، كما تومن بمسؤولية الكاتب الكبيرة وقداسته عمله .

وقد ادى الاعتراف باهمية الدور الذى يلعبه الروائي في حياة الانسان والمجتمع الى تأكيد جديد في النقد الروائي لاطلى اثر الرواية في السمو بالاخلاق ، ولكن على النواحي الفكرية والابداعية في الرواية . وفي مقال ظهر في *British Quarterly* عام ١٨٦٧ ارتفع الكاتب بالقياس الفنية التي تتطلبها الرواية ، واضفى نداء على الرواية لشمولها واحتوائها على الادوار المتعددة التي تؤديها ككل من الملحمة والمسرحية والشعر الفنائى . ويتناول الكاتب « ما الذى لا يستطيع الروائي عمله ؟ » . ان اسمى الحقائق في نظره - وهنا يميز وبين مجرد الدرس الاخلاقي والموظلة - يمكن التوصل اليها عن طريق الرواية ، وخاصة اذا كانت جورج اليوت هي كاتبة الرواية التي يقارن الكاتب بينها وبين جوه *Goethe* من حيث نظرتها الجديدة وسمو مبادئها .

وتختلف جورج اليوت عن كثير من معاصريها في مفهومها للنظرية الاخلاقية للرواية ، فهي تعتمد في تأثيرها على القارئ لا على الوظيفة المباشرة (وان كانت رواياتها تحوى كثيرا من هذه المواقف) ولكن على التأثير الخفى لا سلوبها في الكتابة الذى تخاطب بمشاعر القارئ وعقله وحواسه كاتسان متكامل لا يمكن الفصل بين عناصر انسانيته المتعددة . وتقول جورج اليوت في هذا الصدد مؤكدة العامل الجمالى في رواياتها لا العامل المذهبى المباشر :

ان مهنتي هي مهمة المعلم الجمالى لا المعلم المذهبى . وهي تهدف الى احياء البلى الشاعر التي تدفع بالانسان الى الرقية في العدل الاجتماعى ، ولا تهدف الى وصف الخطوات العملية للتمهيد للحدود التي لها يستطيع عقل الفنان الحكم عليها مهما حركه تعامله الاجتماعى (٢٢) .

اصبحت القضية هنا قضية فنية جمالية ، وليست قضية تلقينية هادفة مباشرة ، كما اصبح الشكل الجمالى او الفنى اساسا في تصوير الرؤية الاخلاقية الشاملة . اى ان الشكل الفنى في سبيله الى الارتقاء الى نفس مستوى اهمية الموضوع ، او على الوجه الاصح اهمية الرؤية .

(٢١) "The Natural History of German life", Westminster Review, (1856), X

(٢٢) Letter, edit G. S. Haight, 1954-5, vii p. 44

وهنا اعتراف صريح بالدور الفنى والشكلى للرواية الذى لم ينتبه اليه النقاد في غمرة دفاعهم عن اخلاقيات الرواية المتعلقة بالموضوع .

ولعل جورج اليوت في الرواية هو من اجودوا قدر ما كتب في هذا المجال في العصر الفكتورى . ونظريتها – ان مسح تسعية تعليقاتها المتفرقة بنظرية – مبنية على الاسلوب الواقعى الذى نادت به ، ودافعت عنه ، وطبقته عمليا منذ اول رواية نشرت لها . وقد اتخذت الالتصاق بالواقع القيد الوحيد للرواية ، وهاجمت في نقدها ، مستندة الى هذا المبدأ البسيط الروايات التى حادت عنه ، فالبالغة والتقاليد الادبية البالية ، وكل ما يمكن وصفه بالتصنع الادبى لاقى منها نقدا لازما . وقد نشرت تعليقاتها ومقالاتها في دوريتى ليغر Leader وستمنستر Westminster في خمسينيات القرن الماضى . واهم ما كتبه في هذا الصدد مقالان بعنوان : « التاريخ الطبيعى للحياة الانسانية » “The Natural History of German Life” « روايات تافهة لنساء روائيات » وفي الفصل السابع عشر لرواية آدم بيد (١٨٥٦) “Silly Novels by Lady Novelists” شرح نظريتها الواقعية موضحة البساطة والقوة اللتين بنت عليهما راياها في تصوير الحياة ، وقالت :

وبذلك فانا راضية ان احكى قصتي البسيطة دون ان احاول تصوير الاشياء على نحو افضل مما هي عليه فى الواقع . انا لا اخشى شيئا بالتاكيد الا عدم توى الصدق ، لهذا رغم اني لم تبدل من جهد شيء يخشى منه . ان البعد عن الحقيقة سهل والصنع صعب . ولي صلة الصدق للرغبة الثائرة هذه ، التى تصف بها صوري الواقعية ، واتى بغيرها اصحاب النفوس المتعالية ، في هذه الصفة اجد متعة كبيرة .

ان الاحترام ، بل والتقدير ، اللذين تميز بهما جورج اليوت في نظرتها الى انتاجها الروائى ساعدا في الجزء الاخير من القرن التاسع عشر على قيام حركة في مجالى الرواية والنقد الروائى اساسها الجدية والفكر والعقلانية . واصبح روائيون من امثال جورج ميرديث (١٨٢٨ – ١٩٠٦) George Meredith وجورج مور (١٨٥٢ – ١٩٣٣) George Moore وجورج جيسنج (١٨٥٧ – ١٩٠٣) George Gissing وتوماس هاردى (١٨٤٠ – ١٩٢٨) Thomas Hardy تقطسة التقاء عاصف وجدال مستمر حول الرواية الادبية ، وما يجب ان تكون عليه . فكان رأى ميرديث انها يجب ان تنضم « فلسفة » و « فكرا » و « فكرة » بدلا من ان تكون قابلا لاخلاقيات الطبقة المتوسطة ووسيلة لقتل الوقت . واتخذ جورج مور نفس الموقف مهاجما معاصريه عندما قال غامبيا : « ان اهتمامى لا يتجه نحو اولئك الذين ينظرون الى الادب وكأنه نوع آخر من رياضة ركوب الدراجات » (٢٣) . واصبح « الضمير الفنى » المصطلح الذى تعارف عليه الروائيون النقاد في حربه لرفع المستوى الفنى للرواية ووضعه في المرتبة الاولى قبل اى اعتبار آخر . وكان يخشى عليه ، كما حدث في العصور السابقة ، من انتشار الرواية الرخيصة الشعبية واكتساحها السوق في اعقاب قوانين التعليم الجديدة التى استوعبت عددا كبيرا من المواطنين ، تعلموا القراءة والكتابة دون ان يحصلوا على اية ثقافة .

وكان جورج جيسنج من الروائيين النقاد الذين بهروا بانجازات الروائيين الفرنسيين والروسين ، الذين اتصفت اعمالهم بذلك « الضمير الفني » الحى الذى وضع الادب فوق اى اعتبار مادى ، مالا كان ام شهرة . وقارن جيسنج بين الرواية الفرنسية والروسية من ناحية وبين الرواية الانجليزية من ناحية اخرى ، فقال :

ان الروايات الانجليزية مائة بالنسبة بسبب بالى جدا ، وهو ان الروائيين الانجليز يفتشون من التجار احسن ما فى مغفورهم لغوهم من يفر ذلك بشبهتهم ، ومن ثم بدخلهم... فليكن الروائيون صادقين مع ضمائرهم الفنية وسيتبعهم الدوق الجاهلى فيما بعد (٢٤) .

ساعد موقف الروائيين النقاد من الرواية فى الربع الاخر القرن التاسع عشر على الانتباه الى الشكل الروائى ومناقشة جمالياته . وكانت هذه آخر مرحلة من مراحل تطور النقد الروائى فى القرن الماضى واصعبها ، كما يبدو من تخطب النقاد وترددهم ، وعدم توصيلهم الى ابسط المبادئ التى يمكن الاستناد اليها .

فاثرت فيرنون لى Vernon Lee الروائية التى عكفت على دراسة البناء الروائى ، جماليات الرواية . ان الرواية فى نظرها ، متى قورنت بفن التصوير او الموسيقى ، ليست الا نصف فن . فهى تفتقر الى الوسيلة التى يمكن بواسطتها ان تحول موضوعها ذا الاهتمامات الانسانية الاخلاقية الى تلك الانطباعات الحسية التى منها يتألف كل ما هو جميل . ان جاذبية الرواية فى نظرها غير جمالية ، بل تستند الى ميلنا المطلق نحو النقاش والجدل واكتساب معرفة بالحياة ، والانارة العاطفية ، والشعور بالرضا الذى تدخله علينا نماذج مركبة من الكلمات . وهذا العنصر الاخير هو الوحيد الذى يمكن اطلاق مصطلح « الشكل » عليه وهو عنصر ، كما تدعى فيرنون لى ، تستطيع الرواية الاستغناء عنه (٢٥) .

وظهرت نفس السلبية فيما قاله **جورج بارنيت سميث** George Barnett Smith عام ١٨٧٤ عن بناء الرواية . فبعد ان اثنى عظيمًا على فيلدنج واعماله الروائية ، قال :

ان تحظى الرواية ابدا بمكانة توازى في اهميتها مكانة المسرحية بسبب العيوب فى بنائها (٢٦) .

ورقم سميث ، كما وقع كثير من معاصريه ، فى نفس الخطأ الناجم عن الاعتقاد بانه يمكن الحكم على بناء الرواية المتفكك بالاستناد الى مقاييس تنتمى الى شكل ادبى آخر مثل المسرحية ، لا الى مقاييس تناسب اهداف الرواية .

"The New consorship of literature", letter to the Pall Mall Gazette, XI, (December 1884) (٢٤)

"The Aesthetics of the Novel", Literature, (1899), V 98-100. (٢٥)

"Our First Great Novelist" Macmillan's Magazine, xxx (1874), 1. (٢٦)

وعلى العكس من ذلك اعتبر آخرون مرونة الرواية واحدة من مزاياها الجمالية . فقال أحد المعلقين على الرواية :

إن الرواية من بين جميع الاشكال الادبية هي الشكل الوحيد الذى يستطيع أن يعبر بسهولة مطلقة عن كل عاطلة يمكن تصويرها (٢٧) .

غير أنه صاد ثانية واعترف بمخاطر هذه المرونة في البناء الروائي .

والهم في كل هذا ، سواء اجامت التعليقات النقدية على الشكل الروائي ايجابية ام سلبية ، هو بدء ظهور الوعى بالناحية الجمالية للرواية ومناقشتها . وقد صاحب هذا الاتجاه الجديد في اواخر القرن التاسع عشر ازدياد الوعى الفنى عند الروائيين انفسهم الذين وقعوا تحت تأثير فلوبير (١٨٢١ - ١٨٨٠) Flaubert الروائى الفرنسى الذى ساعد اهتمامه بالشكل الفنى للرواية على تطوير الرواية الحديثة ، كما ساعد على النهوض بالرواية عامة لما ابداه من جدية في معالجتها ايهاا .

ونتيجة لهذا ، اخذ النقاد الروائيون بالذات في اواخر القرن ، يعبرون عن حماسهم المتزايد للرواية وصن نفقهم فيها ، متخذين من الرواية الفرنسية مثلاً يحتذى لرنة الفن . في احدى المقالات الهامة التى ظهرت عام ١٨٨٤ بعنوان « فن الرواية » » "The Art of Fiction" اكد والتر بيرزانت (١٨٣٦ - ١٩٠١) Walter Besant الروائى الانجليزى ، أن الرواية قرين تام لاشكال الفنون الاخرى ، محكمة مثلها بقوانين دقيقة يمكن أن تلقن كما تلقن قوانين الهارموني في الموسيقى . وعندما نصل الى عام ١٨٩٠ نجد أن النقاش والجدال قد اوداد حول اهداف الرواية واساليبها ومبادئها ، حتى أصبحت ظاهرة من ظواهر الدوائر الادبية . وانصب هذا الجدل حول جانبى الشكل والموضوع ، وكان لكل منهما انصاره . فاصبحت الرواية محور اهتمام عدد من النقاد اعتبروها الآن شكلاً ادبياً يستحق الدراسة .

• • •

كان الوقت قد حان لظهور ناقد يستطيع أن يجمع الخيوط المفككة في شكل مترابط . وآلت هذه المهمة الى الروائى هنرى جيمز الامريكى الاصل الذى عاش معظم حياته الادبية في انجلترا وتجنس بالجنسية البريطانية . وقد ارتفع جيمز الى مصاف الروائيين العظام كما أصبح رائد النقد الروائى في العصر الحديث .

كانت الثورة في النقد الروائى التي قامت على اكتشاف جيمز مفاجئة وساحقة وكاملة . ففي عام ١٨٨٤ جاء على لسان جيمز ، وهو ما زال في منتصف العمر ، أن الرواية الانجليزية ليست

موضوعها «لدراسة» (٢٨) ، وعبر عن اسفه العميق لانقارها الى النقد لاهميتها في تطور الادب . وبعد عشرين عاما ، كان جيمز قد درس الرواية وحلها بدقة لم يسبق لها مثيل في **مقدماته** الثماني عشرة التي كتبها لطبعة نيويورك لرواياته وقصصه « (١٩٠٧ - ١٩٠٩) . ولعلنا لا نخطئ اذا ما قلنا انه ليس هناك في تاريخ النقد ثورة في مثل شمول الثورة التي ادت الى **مقدمات جيمز** . وينفرد النقد الروائي في هذه الظاهرة المفاجئة ، بعكس النقد الشعري الذي نما وتطور في انجلترا ببطء وصعوبة طوال ثلاثة قرون منذ ايام الشاعر درايدن . واذا ما استثنينا المحاولات الراهنة للتفرقة التي سبق ان ذكرناها ، فاننا لن نكون مخطئين كل الخطا اذا قلنا ان النقد الروائي في اواخر القرن التاسع عشر في انجلترا ولد من لا شيء . وايا كانت الاعمية التي نغصها على نقد جورج اليوت وزميلها جورج هنري لويس George Henry Lewis فمن الواضح لنا اليوم كما كان واضحا لجيمز انها كتبت دون استناد الى مبادئ فنية موقوفة بها ، بدون التاكيد من ان الجمهور القاري يتمتع بنفس الثقة في الرواية . اما في حالة جيمز ، ففي استطاعتنا ان نقول انه لأول مرة منذ ايام فيلدنيج ، الرائد الاول في النقد الروائي ، يتحدث رواي من فنه بمعرفة وثيقة ، كما يكتب من اعمال غيره من الروائيين بنفس الاسلوب الواثق .

ان نشر **مذكرات** Note books جيمز عن رواياته عام ١٩٤٧ البت بما لا يدع مجالا للشك ان جيمز كان فنانا ذا وعي عميق استطاع ان يعبر عنه منذ البداية . فمن سن الخامسة والثلاثين حتى وفاته لم يتوقف عن شرح الاسباب والظروف التي دفعت الى اختيار موضوعات بالذات ، موضحا في **مذكراته** نواة رواياته ، والخطوات التي مرت بها ، وكيف تطورها . ان كل رواية من روايات جيمز وكل قصة من قصصه ظهرت الى الوجود بارادة واعية افصح عنها الكاتب باسهاب لا يكاد يكون له نظير في تاريخ الرواية . في هذه **المذكرات** اذا ، التي بدأ جيمز يكتبها عام ١٨٧٨ ولد النقد الروائي كما نعرفه اليوم . اما **مقدمات** رواياته الثماني عشرة التي كتبها في نهاية حياته الادبية فهي تتوجح لجميع انجازاته . ويجب ان نشير هنا الى ان الاعتقاد السائد بان النقد كثيرا ما ينشأ نتيجة لفشل الكاتب في اعماله الخلاقة لا ينطبق اطلاقا على جيمز ، حيث نجد التوؤم التام بين النقد والنطق . وبلا حظ ايضا ان جيمز لم يكتب معتذرا او مدافعا عن بعض او كل ما جاءه من اعماله . ان مجموع نقده يتصف بطابع الثقة المتواضعة ، كما يتصف باحترام الكاتب العميق لذلك الغموض الذي لا يد ان يكتنف كل عمل ادبي خلاق .

واذا ما تركنا **مذكرات** جيمز جانباً لاختلافها العام عن بقية نقده من حيث هي توضيح وتفسير لعملية الإبداع عنده ، فان نقده يقع في ثلاث مراحل يتناول الناقد غيرها كتابا معاصرين له وفيهم من الروائيين الانجليز والفرنسيين والامريكيين . وتنطفي المرحلة الاولى مقالاته المنشورة ابتداء من سن الواحدة والعشرين في مجلة Nation وغيرها . وهي تعليقات على كتب من مختلف الانواع ، من

بينها مقال (١٨٠٥) هاجم فيه رواية **صديقنا المشترك** (١٨٦٥) Our Mutual Friend لتشارلز ديكنز . اما المرحلة الثانية فهي تلك الفترة الوسيطة المثمرة التي بدأت بنشر مقال (فن الرواية » (١٨٨٤) " The Art of Fiction " ، وهو تعليق على محاضرة والتر بيوانت المنشورة تحت نفس العنوان ، وبيان في نظرية الرواية . ثم تلته مقالاته الهامة عن الروائيين **ترولوب** (١٨٨٣) و **ستيفنسون** (١٨٨٨) و **موياسان** (١٨٨٨) Maupassant و **زولا** (١٩٠٣) Zola و **بالزاك** (١٩٠٥) Balzac ويمكن ان نضيف الى هذه المقالات مقالة عن **هوثورن** (١٨٧٩) Hawthorne اعطى فيه الروائي الامريكي حقه في الشناء كاملا ، ثم مقالة عن **كونراد** Conard و **آرنولد بينيت** Arnold Bennett و **هيو والبول** Hugh Walpole بعنوان « جبل الشباب » "The younger Generation" . واخيرا تجيء المرحلة الثالثة التي ظهرت خلالها **مقدماته** (١٩٠٧ - ١٩٠٩) التي تتضمن مجموع ما جاء في نقده الروائي ، وتمثل عمق وضئ اهتماماته النظرية في النقد . واعتبر جيمز هذه **المقدمات** في مجموعها مرشدا لمن يصبو الى مهنة الرواية الشاقة ، كما سماها . ولا يمكن ان ننكر ان هذه الاشادات لا تتبع نظاما معينا ، فكل رواية وكل قصة كانت تطرح اسئلة نقدية خاصة بها لا تنطبق على غيرها ، ولا تستند الى خطة واضحة الهدف . ومع ذلك فمجموع ما جاء فيها ذو طابع متنوع تشمل جوانبه العديدة اهم اوجه النقد الروائي عند جيمز .

وكان جيمز في هدفه طموحا ، فرمى الى خلق تقليد انجليزي في النقد الروائي من لا شيء . وكان مصيبا في شكواه من افتقار الرواية الى النقد عندما قال :

كان الاعتقاد السائد الى وقت قريب على ما يبدو ، حوان الرواية الانجليزية ليست على حد قول الفرنسيين مجال للدراسة . ولم يبد عليها انها تستند الى نظرية او افتناع او وعى بنفسها ، او انها تعبير من عقيدة فنية نتيجة اختبار وعقائرية ... لقد كان هناك شعور عام مريح منسبط بان الرواية هي رواية كما ان « البودنج » هو بودنج (٢٩) ، وان مهمتنا الوحيدة هي ان نبتلعها . (٣٠)

وقد سبق ان لاحظ جيمز في مقاله عن **ترولوب** ان « من الخطورة بمكان » في انجلترا « ان يكون المرء فنانا صريحا او واعيا ، او ان يتبع نظاما او مذهبا » . وقد اخذ جيمز على عاتقه مهمة اصلاح الوضع بان جعل الرواية الانجليزية موضع « الدراسة » الجادة لأول مرة تقريبا في تاريخها الطويل .

واساسا النقد عند جيمز هو التعاطف والتوحيد بين الناقد والعمل الادبي . ويعرف النقد بأنه « مبدأ نفهم الاشياء » ومهمته « الالحاق في المطالبة بحاجة جميع الاشياء الى التفهم » (٣١) . ولا فائدة من ان يفسر الناقد من موضوع المؤلف ، كما سبق ان حدث مع المتطهرين والنفيعين ، لان

(٢٩) « البودنج » نوع من الحلوى المألقة الشكل ويقصد باستعمال الكلمة هنا افتقار الرواية الى الشكل المحدود .

(٣٠)

"The Art of Fiction"

Views & Reviews, (1908), 94

(٣١)

الموضوع حبة تعطي عن طريق مؤثرات وعمليات هي في نهايتها غامضة . واهتمامات الناقد يجب أن تنصب على المعالجة الأدبية التي لا يستطيع أن يلم بها إلا « بالانغماس في عبقرية الكاتب » ، وتنبع خطأه ، والتعرف على كنهه « (٢٢) » . ومع أن جيمز في مقدماته كان في وضع يحسده عليه النقاد من حيثانه كان يلعب دور الناقد لأعماله الخلاقه، وبذلك كان ناقدًا مكتمل المعلومات عما يكتب ، فانه كان يلعب دور القارئ أيضا الذي تفوته اشياء كثيرة ، وخاصة فيما يتعلق بالأعمال التي انتجها منذ زمن بعيد . ولذلك فعندما تناول رواياته اقرب منها في تواضع الناقد الذي لا يستطيع مهما حاول أن يتعرف على كل ما يمكنه العمل الخلاق . فكان مثلا للناقد المثالي كما تصوره جيمز، الذي عليه أن يقبل حدود معلوماته وتقائص قدراته عندما يقف وجها لوجه امام السر الغامض الذي يكتنف كل عمل إبداعي . ان الناقد المحترف يستطيع أن يتعلم الكثير من موقف جيمز من العمل الفني ، واعترافه باستحالة التوصل الى كل الحقائق التي تؤول في نهاية الامر الى ما نسميه فنا . وقد عبر جيمز عن هذا بقوله :

ان التاريخ الخاص لاي عمل مخلص عنها كان متواضعا ، يبين في مجموعه على جو الرواية الفني الحاف بالفوضى ، مما يفيق وفارا على العمل (٢٣) .

ويقول ايضا :

ان السطح المصور هنا وهنالك يرفض الاستجابة ، بلتشك ، فالاسرار والنوايا الخفية مدفونة الى درجة لا تسمح لها بالظهور لانية (٢٤) .

وفي موقف جيمز هذا بعض الشبه بنظريات النقاد المحدثين الذين يؤكدون عدم جدوى تتبع نوايا الكاتب . ولكن الشبه لا يمدو كونه سطحيًا ، اذ ان جيمز يملك من البصيرة ما يمنعه من القول بان الاستحالة تعني عدم المحاولة . ان جيمز يعلم تماما انه ليس هنالك نقد مهما تعمق ، يستطيع ان « يستحوذ ذهنيا » على العمل الفني . وانما النقد انواع ، فمنه ما يقترب قليلا من العمل ، ومنه ما يبعد عنه كلية .

وقد كتب جيمز قصة قصيرة في موضوع الكاتب والناقد بعنوان **الصورة في السجاد** (١٨٩٦)

The Figure in the Carpet . ويشير العنوان الى السر المدفون في العمل الفني الذي ينبغي على الناقد والقارئ ان يكتشفاه . ويلاحظ ان السخرية في القصة لا تصدر ، كما ظن البعض ، عن الاعتقاد بان سر « فيريكر » ، الكاتب الإبداعي ، لا يستحق الاكتشاف ، ولكنها تصدر من خطأ الاعتقاد بان هذا السر يمكن التوصل اليه دون اللجوء الى قراءة متعمقة ومتفهمة للعمل الأدبي نفسه . وكل محاولة لاكتشاف سر « فيريكر » الكاتب العبقري الذي يموت حاملا معه هذا السر الى القبر ، كما تظن شخص القصص ، كل محاولة جديدة تلقي بالباحث بعيدا عن الجواب ، لانه يعتمد في بحثه

"Notes on Novelists with Some other Notes" (1914), 259.

(٢٢)

"The Art of the Novel", edited by R. P. Blackmur (1934), 4.

(٢٣)

(٢٤) المرجع السابق . ص ١١ .

على الآخرين وليس على « تحليل دقيق مبني على التقدير » للأعمال الإبداعية ذاتها . والقصة تعبير عن احتياج جيمز على افتقار إنجلترا إلى النقد الروائي الجاد ، وعلى « جمود الحسن العام » فيما يتعلق بالرواية . وقد لخص هذا في قوله :

« إن ما نسميه نقدا بعيد عن الاحساس بحقيقة الأشياء » (٣٥) .

ويرى جيمز في هذه القصة إلى الارتقاء بالرواية إلى مكانة الفن الرفيع المركب الذي يصعب على الناقد أن يحلل جميع تركيباته ، وأن يستخلص منه بالتجريد رؤية الكاتب أو « الصورة في السجاد » ، كما سماها جيمز في قصته . فجوهر العمل الخلاق سر غامض لا يمكن الاستمتاع به وتقييمه ، إلا عن طريق القراءة للتماطفة . ويعني هذا أن مهمة الناقد شاقة . فيجب أن يتصف بالقدرة على النظرة المركبة والاحساس المرهف ، وعلى بلل كل مشاعره وانتباهه . أن النقد عند جيمز هو « آخر الفنون وأكثرها تركيباً ، آخر ما يؤهل له الإنسان ، وآخر ما يصل إليه . وهو أكثر الفنون حاجة إلى النضوج والتفهم والمقارنة » (٣٦) .

وجيمز في نظرية للرواية التي تناولها في مقاله « فن الرواية » يصوغ بعض العبارات المحددة في مفهوم الرواية والرؤية الروائية التي ينفرد بها هذا الشكل الأدبي ، كما يوضح نقائنها ومزاياها التي لا جدال فيها . ونقطة الإبتداء عنده ، كما كانت عند فيلدنج وجين أوستن وجورج اليوت ، هي تصوير الرواية للحياة . فيقول :

إن السبب الوحيد لوجود الرواية هو أنها تحاول تصوير الحياة . ومتى ألفت هذه المحاولة جانباً ... تكون قد وصلت إلى وضع غريب عنها (٣٧) .

ويقول في مكان آخر : « إن الرواية تتصف بالشمول والعمق في مطابقتها الرائعة للحياة » . (٣٨) وهناك فقرات عديدة في نقد جيمز تشير عامة إلى تقبله للأسلوب الواقعي وإعجابه بكتاب هذا الأسلوب من الروائيين العظام من أمثال بلزاك وفلوبير وموباسان ودوديه وجورج اليوت وورجينيف. وبينما يعبر عن استيائه من أسلوب جورج صاند (٣٩) (١٨٠٤ - ١٨٧٦) George Sand لافتقاره إلى « الدقة » - أي أسلوب الحقيقة ، فإنه يثنى على « الدقة في تصوير التفاصيل » إلى حد « التشبع » في روايات بلزاك وفلوبير .

وعلى الرغم من تأكيد جيمز لملافة الرواية بالواقع فإنه لا يخلط بينهما . فالرواية ليست مرآة ولا هي محاكاة للحياة بالمعنى الضيق لأن الفن ، في نظر جيمز ، لا يمكن أن يكون مجرد

(٣٥) المرجع السابق ص ٢٢٧ - ٢٢٩ .

(٣٦) "The Art of Fiction".

(٣٧) "The Art of Fiction"

(٣٨) Partial Portraits (1888), 378.

(٣٩) French poets & Novelists (1878)

« خريجة من الحياة » كما ادى زولا . بل الرواية مختارات من الحياة ، يحورها الروائي ويشكلها ويخلقها من جديد . والاختيار ضروري لان الحياة كلها شمول وفوضى ، والفن كله تمييز واختيار » (٤٠) .

وقد شبه جيمز الفن بالمفاعل الكيميائي الذي يصهر مواد الحياة حتى تظهر في قالب جديد لتؤدى عملها . واستخدم نفس الصورة في وصفه للفنان عندما قال : « انه الكيميائي Alchemist الحديث الذي يبحث العلم القديم في البحث عن سر الحياة » (٤١) .

الرواية اذا تعطى القارئ صورة واهمة بالحياة ، ويكون نجاحها بالتقدير الذي يستطيع الروائي بأسلوبه اقناع القارئ بهذه الصورة . وهنا تظهر مشكلة الصدق الفني التي شغلت بال جيمز كما كانت موضع اهتمام جورج اليوت التي اكتشف في رواياتها « ذلك الدليل القوي الكامن بالصدق » (٤٢) . فجيمز احتار في تحديد ما كان يعنيه بالصدق والحقيقة فيما يتعلق بالاسلوب الواقعي . ولم يستطع « تثبيت » درجة الواقع الذي يتطلبه العمل الفني . ووجد صعوبة في قبول شخصيات خيالية مثل دون كيشوت ومستر ميكون لان « حقيقتهم » كما قال « مسألة في غاية الدقة ، مصبوبة برؤية الروائيين الى درجة تتردد معها في تقديمها كنموذج يحتذى . مهما وضحت معالم الشخصيتين وحيث » (٤٣) . واتخذ جيمز موقفا مماثلا حيال رواية ديكسن صديقنا المشترك ، فقال عنها انها تحفل بشخص مملوكة تثير الضحك ، مشوهة في مظهرها ومسلكتها دون سبب مقنع ، الى درجة قضت على انسانياتهم .

فالواقع اذا ذو اهمية اساسية في الرواية ، ولكن ليس من السهل اعطاء فكرة واضحة ووصف كامل لما يعنيه الواقع ، كما يتضح من قول جيمز :

لا جدال في ذلك ان نستطيع ان نكتب رواية جيدة الا اذا كان لديك الاحساس بالواقع ، ولكن من الصعب ان اعطيه وصفا مصلحا للعناصر التي تعمل على خلق هذا الاحساس . ان الانسانية شاسعة والواقع ذو اشكال لا حدود لها (٤٤) .

وهنا يتساءل جيمز لماذا يحاول الروائي ان يخلق صورة « واهمة بالحياة » ؟ وماهى وظيفة الفن ؟ والسؤالان متداخلان والاجابة عليهما تكاد تكون واحدة . ووظيفة الرواية في نظر جيمز هي اعطاء القارئ « عالما آخر » ، تجربة تشبه في مفعولها الاثير الذي يستخدمه طبيب الاسنان ، فكلاهما يسكن من « آلام الواقع » . ويضيف جيمز : « ان ماتراه طبعا هو واقع آخر ، واقع اشخاص آخرين ، ويتوقف ما نراه على القدر الذي تحتويه الصورة من الحياة » (٤٥) . غير ان جيمز لا يدعى انه يعرف كنه هذا الشعور بالسكون والتخفيف من الآلام الناتج عن قراءة

"The Art of Fiction"

(٤٠)

Notes on Novelists, 275

(٤١)

Views & Reviews, 4.

(٤٢)

"The Art of Fiction"

(٤٣)

(المرجع السابق)

Notes on Novelists, 436

(٤٥)

تجارب الآخرين في الرواية . وكل ما توصل اليه ملاحظته هو أننا بعد القراءة نعود الى واقعنا ، وقد ازدادنا قوة وصلابة . وتبين ان الروائي الذي يسمح لنا بأن « نحيا حياة الآخرين » لا يعمق من تجاربنا فحسب ، بل كذلك رؤية جديدة للحياة ومعرفة صادقة بانفسنا . اننا نشترك في رؤية الروائي ونتشكل هـ . وفي هذا الرأي امتداد وتطور لنظرية جورج اليوت في الواقع والصدق الروائي وتأثيرهما الخفي على القارئ .

ان الرواية تستطيع ان تكشف للقارئ عن حقائق نفسه وعالمه بنسبة اكثر من اشكال اخرى فنية في نظر جيمز . فالروائي ، كما يقول جيمز ، يمكن القارئ من ان يختار ويقارن ويفهم ، حتى يصل في نهاية المطاف الى نوع من التكامل الذي لا ينتمى الى الوضاعة والتفاهل مهما كانت سطحيته ونفراته « (٤٦) » . وهذا التكامل الذي يعتبره جيمز اثارا دائما من آثار الرواية يفترض مسبقا الشمول في هذا الادب والابتعاد عن النظرة الجزئية للواقع . فعلى الروائي ان يعبر من خلال ادبه عن كل نواحيه الانسانية . وهنا يجد جيمز مكانا للاخلاقيات والضمير في نظريته ومقاييسه الادبية . ويرى على هذا الاساس ان الرواية يجب ان تكون عملا وصفا محليا ، مجرد صورة للسطحيات . بل يجب ان يكون لروح الانسان وجوهه مكان في الرواية خليق به حتى لا يظهر مجزا معزقا بل متكاملما روحيا وعقليا وجسميا .

وينتقل جيمز بطبيعة الحال من هذه الفكرة الى تناول موضوع العلاقة بين الرجل والمرأة في الرواية فغير من امتراضه على الرقابة المستترة في انجلترا تلك التي حرمت على الروائي معالجة نواحي هامة من الحياة ، كما عبر عن اسفه للقيود التي وضعتها الميول المتطهرة والاحتشام المتكلف في ذلك الوقت على العمل الروائي . ونادى جيمز بضرورة التحرر من هذه المعوقات للرواية في سعيا نحو الرؤية المتكاملة .

ولكن لم يظل دفاع جيمز من فكرة التحرر هذه التي استلهمها من الروائيين الفرنسيين وتراجع هذا نتيجة لظهوره هو ونفوره من الناحية القريبية في الانسان ، واقباله على الناحيتين الروحية والاخلاقية ، اي ما اعتبرهما اكثر انسانية وشمولا . وقد وجد ، رايه ، ان غالبية الروائيين الفرنسيين يفتقرون الى الرؤية الاخلاقية . فهم على حد قول اساتذة في الفن والشكل ، وفي تصويرهم لسطحيات الحياة : الاحساسات والفرايز والרגبات ، ولكن ينقصهم تصوير « الشخصية في حركتها ، وامكانيات سلوكها ، والدور الذي تلعبه الفكرة في الحياة .. وعندما يضمنون ايديهم على حياة الانسان الروحية تنبذ مهارتهم » (٤٧) . ويقارن جيمز مقارنة فاصلة على هذا الاساس بين الروائيين الانجليز والفرنسيين .

فالانجليز ، في نظره ، كتاب تملأ كتاباتهم العيوب ، وينقصها الشكل ، ويبيلون الى معالجة الامور معالجة نفسية اخلاقية باحتشام متكلف . اما الفرنسيون فهم اساتذة فحل لا اخلاقيون في تصوير سطح الحياة . وكان جيمز يرمي الى تحقيق التوازن بين الميول الانجليزية والفرنسية

Selected letters, ed. Leon Edel, (1956), 157

(٤٦)

Essays in London & Elsewhere (1893), 183

(٤٧)

في الرواية بكتابة الرواية النفسية الاخلاقية ذات الشكل الفني المتناسق ، اى الجمع بين المعنى الاخلاقي والناحية الجمالية .

ورأى جيمز ان مثل هذا التكامل امر شخصي محض وثيق الصلة بالمثقل الذي يصدر عنه . وقال في هذا الصدد :

ان اعني ما يسفر عنه العمل الفني هو عبق المثقل الذي انتجه ... فالرواية الجيدة ان تصدر ابدا من عقل سخي . هذه حقيقة نظري ، بالنسبة للفنان ، المثل الاخلاقي الذي يحتاجه (٤٨) .

فمثلا الفنان بالمفهوم العريض هو الذي يشكل رؤيته وكلاهما محور اهتمام الناقد الروائي وقد شبه جيمز ادب الرواية بالبيت و « بيت الرواية » (٤٩) ، له واجهة عريضة تتخللها نوافذ عدة ، كثيرا ما تكون مجرد نقوب و وراء كل واحد من هذه الفتحات اسس ذات عينين أو نظارة مكبرة - اى اداة ملاحظة فريدة تضمن لصاحبها انطباعات على كل انطباع اخر . فقد يرى المشاهدون نفس المشهد ولكنه يكون دائما مختلفا لأن الرؤية تتوقف على المشاهد وزاوية الرؤية . والنظر هنا هو مشهد الحياة ، والفتحة أو الثقب هو الشكل الادبي والمشهد الذي نفتت الحياة في كلها هو وعي الفنان المتكامل . هذه هي الصورة اللافنة التي استخدمها جيمز في احدى مقدماته الاخيرة لوسيف فن الرواية « الذي لا وجود له الا بوجود « المشاهد عند الناقد » .

وقد ركز جيمز اهتمامه على ناحية الخلق عند الروائي التي تعكس الخيال انشاء عملية الإبداع ، وتكشف عن عملية نسج مشاعر الكاتب وانطباعاته ، اى ذلك الوجه الذي يعكس ذاتية الفنان الدقيقة . وكل روائي يستحق المعالجة النقدية في نظر جيمز « حالة خاصة » . وجمع هذه « الحالات » فريدق نوعها . ويكون الحكم على مستوى الناقد وقدراته بقدر ما يستطيع ان يصل الى اعماق « الحالة » التي يدرسها . ويلخص جيمز بعض تلك « الحالات » التي درسها في نقده على النحو التالي : فغلوبر هو « المثل والصورة للحالة الفكرية » ، وزولا هو الشخصية التي « تسود وتهيمن في النهاية » ، اما موباسان « فحالته » مميزة لانه يكتب عن طريق الاتصال الجريء المباشر بحواسه . وجيمز في نقده هذا يكتب كالعالم الذي يحاول تشخيص « حالته » لاوصفها . والشئ الذي يبحث عنه في « تشخيصاته » المستندة الى اسلوب العمل الادبي ونسجه ، هو مزاج الروائي الغريب ، ومدى رؤيته ، وحركة مناعره وحواسه . انها تلك الأشياء التي سهاها جيمز ب « لون الهواء الذي يتبع به الفنان ، ايا كان ، صورته للحياة دون وعي » . فالنقد عند جيمز لا يقل ابداعا عن العمل لخلق ، والناقد مثله كمثل الروائي يجب ان يتشبع بالعمل الذي يتناوله ويتفاعل معه كما يتشبع الاديب بالحياة المحيطة به ويتفاعل معها . والهدف في نهاية الامر هو الوصول الى الجوهر .

وقراءة الرواية على هذا النحو معناها دراسة الروائي نفسه والعيش من جديد في جو حياته الدفينة . ومع ذلك فان جيمز في نقده لا يسلط بين الروائي وعمله . ويقول في هذا الشأن :

« إن الحياة والأعمال شيان مختلفان ، والمعرفة الوثيقة بأحدهما ليست ضرورية إطلاقاً للاستمتاع العام بالأخرى » . ولكن على الناقد أن يتعلم « أن يقرأ ما بين السطور » .

وجيمز لا يتبع أبداً في الخطأ الذي وقع فيه كثير من النقاد من بعده ، وهو محاولة استنباط حياة الكاتب من خلال عمله . إنه لا يرمي إلى مجرد الترجمة عندما « يقرأ السطور » وإنما يرى إلى مسائل أكثر أهمية يراجل تكتشف فيها حياة الكاتب ، مثل الأسلوب الذي من خلاله اختبر الحياة والناس ، والإشياء التي سلط عليها اهتماماته ، وتلك التي أشاح عنها بوجهه ، والمواقف التي تنبأ بها في رواياته وكيفية حلها . وعلى رأس هذه القائمة تقع قيمه الأخلاقية المستقاة من تجاربه . فالأسلوب من الناقد عملية تقترب من المنهج النفسي . يؤكد هذا مقالات جيمز في نقد الروائيين التي تستند إلى الملاحظة النفسية ، والاستنباط والاهتمام بالمعاني الخفية ، والعلاقات الإنسانية ، والظروف المحيطة بها ، والدوافع المسلكية .

وجيمز في تأكيد أهمية المشاعر والأحاسيس عند الناقد يمكن اعتباره إلى حد ما ناقداً رومانسياً تنصب اهتماماته على عملية الخلق عند الأديب ، مثله في ذلك مثل كوليرج ، الشاعر والناقد الإنجليزي . وهناك شبه ملحوظ بين نظرة جيمز إلى العمل الخلاق ونظرة كوليرج ، فكلاهما يعترف على عضوية العمل الحيوية التي تضفي عليه استقلالاً مثل استقلال أي من الكائنات الحية . وفيما قاله جيمز عن شخص روايته صورة سيدة (١٨٨١) *The Portrait of a Lady* دليل على استقلالها الذاتي ، ووجودها المنفصل عن وجود المؤلف . فيقول جيمز إنه بينما كان يكتب روايته أدخلت شخصاً تتصرف على الغراء وكأنها هي بدورها تبحث عن مؤلف آخر يطلق لها العنان . وكان انطباع جيمز أثناء عملها أنها تقول له « لو أنك أعطيتنا فكتك فسنرشده إلى الطريق الذي يجب على البطلة أن تبذل آرثر أن تسلكه » . وفي مقدمته لرواية *The Ambassadors* (١٩٠٣) نصح جيمز قراءه ألا ينتقصوا من قيمة « القوة الدافعة التي تولدها الرواية لنفسها » والنشبية الذي يستخدمه جيمز ليوحى بالحياة التي تتخلل العمل الخلاق يبعث إلى الأذهان ما قاله كوليرج أيضاً عن الوحدة العضوية للقصيدة الشعرية . واليكم نص ما كتبه جيمز ، وهو الاقتباسات المشهورة في النقد الروائي :

(الرواية) كائن حي ووحدة مستمرة ، مثلها في ذلك مثل أي عضو حي ، ويقدر ما فيها من حياة سنجده ، كما اعتد ، أن كل جزء من أجزائها يخضع على بعض مما في أجزائها الأخرى (٥) .

وتؤدي هذه الفكرة إلى وجه من أهم أوجه النقد عند جيمز ، وهو اهتمامه الملح بالشكل الفني وعلاقته بالموضوع . وفي تأكيد جيمز لأهمية الشكل ، الراجع إلى تأثير الرواية الفرنسية والحركة الجمالية في نهاية القرن الماضي ، إسهامه الأساسي في النقد الروائي . وتتركز مقدماته حول قضية الشكل التي كان يعلم جيمز مدى تعقيدتها وتركيبها . لقد كان يرى أنها مبنية على تناقض لا يمكن حله . فهدف الرواية والشكل النهائي الذي يأخذه لا يتقابلان

ولا يتواءمان كما يحدث للماء في الوعاء ، والعلاقة بين الشكل والمضمون علاقة مختلفة تماماً عن علاقة الوعاء والماء . ولم يحاول جيمز تبسيط القضية ، بل حاول أن يعيها في أبعادها المتعددة .

ولقد لخص جيمز أهمية « الشكل » بالنسبة للرواية في قوله « بدون الشكل تكون الرواية مجرد « بودنج مائع » . وهذا ما وصفه روائع روايات تولستوى ودوستويفسكي . وبني اعتراضه على روايات تولستوى لما اعتبره افتقاراً إلى الشكل ، وأن كان لم يسعه ، وهو الناقد ذو البصيرة النفاذة ، أن يضفي عليها ثناء عظيماً . فروايات تولستوى كما قال جيمز :

كتلة رافعة من الحياة . وافهة عظيمة - حدث عشوائي هائل . وحتى قيد لوضوحه الكبير هو الحياة بأكملها (٥١) .

إن إعجاب جيمز بهذه الأعمال الرائعة لا تنكر . لقد وصفها بأنها « بودنج » حقاً إلا أنه اعترف أن عبقرية الروائي الروسي جعلتها طيبة المذاق . ومع ذلك فـجيمز يؤكد عيوبها وهي : « الافتقار إلى التكوين ، وتحدتها للاقتصاد والشكل البنائي » (٥٢) . أما أساس إعجابه بالرواية الفرنسية ، على الرغم من نفوره من أخلاقها ، فهو اهتمامها بالشكل والوعي الفني الذين انصف بهما الروائيون الفرنسيون .

وقد يبدو من تعليقات جيمز على أعمال تولستوى أن نظره إلى الشكل في الرواية نظرة ضيقة تفصل بينه وبين المضمون . ولكننا إذا ما معنا النظر في نظرية جيمز في الرواية وجدنا وعياً كاملاً بالوحدة بينهما . فهو يشكو من الاعتقاد السائد بأن الموضوع والشكل في العمل الفني مختلفان ومتفرقان . ويحاول اقتناعنا بأن ذلك التمييز الخطير بين المضمون والشكل في العمل الفني الرفيع يجب القضاء عليه . وبين أيضاً أنه من المستحيل وضع حد فاصل بينهما وتحليل التكامل الذي هو جوهر العمل . وقد انتهى جيمز على مدام بوفاري Mme Bovary لتلويز لهذا التواءم الكامل بين الشكل والمضمون ، فقال :

والشكل في حد ذاته لا يقل بأى حال من الأحوال من جوهر الموضوع أو الفكرة في الأهمية وفي الغاية . ومع ذلك فهو مطابق للمضمون لا يمكن فصله عنه إلى درجة أننا لا نستطيع أن نستخلص الشكل في أية لحظة على الأفراد . (٥٣) .

وهذه الوحدة بين الشكل والمضمون هي أحد متطلبات جيمز الأساسية في الرواية ، فالشكل وحده ، كما يقول « يأخذ المضمون ويسلك به ويحفظه » (٥٤) .

وبالإضافة إلى تحليل جيمز الدقيق لأوجه الرواية الفنية المختلفة ولانجذابه نحو المشاكل الشكلية المتعلقة « بوجهة النظر » والأداة المصطلح عليها « الوعي المركزي » البنية على

“The future of The Novel” Essays on the Art of Fiction, ed. Leon Edel (1956) 228 (٥١)

Selected Letters, 171. (٥٢)

Notes on Novelists, 80. (٥٣)

Selected Letters, 171. (٥٤)

تصوير الفعل من خلال وعي شخص ذي حس مرهف وذهن متفقد قريب من المؤلف نفسه ، بالإضافة الى كل هذا فان اسهام جيمز في تطور النقد الروائي يظهر ايضا في مفهومه العضوي لكل عمل خلاق ، ذلك المفهوم الذي على أساسه رفض الاشتراك في جدال النقاد حول ما سمي « برواية الحدث » « ورواية الشخص » . فجميع عناصر الرواية كما رآها جيمز متداخلة ومندمجة ، ومهمة الناقد تقييم الشكل الذي هو جماع هذه العناصر . ويقول جيمز في هذا الشأن :

يكثر الناس الحديث عن هذه الاشياء (الوصف - الحوار - الحدث - الشخص) كما لو كان كل منها يتميز عن الآخر بشكل لاطع ، بدلا من ان يلوب بعضها في بعض في كل لحظة من الاناس ، وتشكل مجتمعة في علاقاتها المتداخلة وحدة شاملة معيرة . انا لا استطيع ان اتصور شكلا مكونا من سلسلة من الكتل ، او ان تكون هناك في اية رواية تستحق الدراسة على الاطلاق فقرة وصليية لا يكون السرد من مهنها ايضا ، او فقرة من الحوار لا ترمي في نفس الوقت الى الوصف ، او لسة من الحقيقة ايا كانت لا تلعب دورا في الحدث ، او حدثا يستحق الاهتمام من اى مصدر غير المصدر العام لتجاذع الرواية ، وهو للحدثا التصويرية . فاما هي الشخصية اذا لم تكن تحديدا للحدث ؟ وما هو الحدث اذا لم يكن تحديدا للشخصية ؟ واين هي الصورة او الرواية التي لا تتناول الشخصية (هـ) .

بهذا يؤكد جيمز طبيعة الرواية العضوية ووحدةها . ولكن بما ان الوحدة تتصف بالعضوية فانها وحدة مبنية على التمدد والاختلاف . وجيمز يعلم جيدا ان هناك تناقضا في محاولة استواء الحياة التي لا شكل لها في اطار الرواية المصطنع الذي لا بد وان يكون له شكل ومجرد « فكرة تثبت » (تلك الكلمة التي يرددها جيمز مرارا في مقدماته) الحياة هي في حد ذاتها تناقض للحياة . وعندما يأخذ جيمز في ادلاء النصيحة الى الكاتب الروائي قائلا انه يجب ان يبدأ من نقطة تجارية ، يجد نفسه يتحدث بشكل عام دون تحديد ، ويعترف بان نصاحه ان يفيد الروائي كثيرا . ويقول :

فأي نوع من التجارب نعني ؟ واين تبدأ واين تنتهي ؟ ان التجربة لا حدود لها ولا هي متشعبة ابدا . انها نوع من العنصرية الهائلة تشبه بيت منكيوت هسغم بني من ادق الخيوط العربية المعلقة في غرفة الومي ، ونسكت في نسجها بكل ذرة تطر على اجنحة الهواء . انها مناج العن : وعندما يكون خيالنا ، بل عندما يكون عقل هباري ، فانه يحتفظ باوهن ما يوحى بالحياة ، ويعول نبضات الهواء نفسها السريلى (هـ) .

ويعرف جيمز مشكلة الروائي بانها مشكلة الاختيار من تجارب الحياة الفنية وتركيزها وتشكيلها لايهام القارئ بالحياة . فعليه ان يختار ، كما يقول ، من فوضى الحياة « العديدة الشكل والنظام » ، من الواقع « العديد الهدف » بحيث يشكل اختياره هذا معنى ويكشف عن قيم . وبذلك فارواية في نهاية الامر تتضمن - حتما - نوعا من الخداع . ولكن جيمز اصر على ان يكون الخداع مكيفا ومشكلا ومصنعا بمهارة المحترف التي تتطلب المعالجة الدقيقة الواضعية . فالحياة ، كما قال جيمز ، مستحيلة التحديد لا تعرف اين تنتهي ، اما الرواية فيجب ان تعلم حدودها . وعلى الرغم من ان جيمز يؤكد اهمية الاختيار والتركيز والاقتصاد ، فانه يصر ايضا على ان الهدف هو جعل الرواية « ممثلة للحياة شاملة عليها » ، ولكن دون ان تخلف

الطباعا بالتصنع والتكلف . وقد شرح جيمز هذه النقطة المنطوية على التناقض بين الفن والحياة في قوله :

فيقدر ما نرى الحياة بدون تعليم جديد من خلال مساقمته لنا الرواية يكون شعورها باننا نلمس الحقيقة .
ويقدر ما نرى الحياة وقد اتخذت لنفسها نلاما جديدا ، يكون احساسنا باننا امام بديل للحياة ، حل وسط ، وتقليد لها . (٥٧)

وبما ان مشكلة الاختيار هي اولى المشاكل التي يواجهها الروائي ، ولا احد يستطيع حلها الا هو ، فان جيمز يعترف باستحالة أن يشترط عليه تناول موضوعات دون أخرى . وإذا كنا نحترم الروائي فاعليتنا أن نمنحه حريته في الاختيار خاصة بعد ان عانى الكثير من النظرة المتزمتة الى كل من الحياة والادب . وفي رد جيمز على اشارة والتر بيرانت الى الرواية لانجليزية وهدفها الاخلاقي الواعي ، هجوم على افتقارها الى الشجاعة الادبية عندما قال :

لا بد وان الروائي الإنجليزي العادي قد استمرى نغرات الناس بالفقره الى الشجاعة الادبية ، ونفوره من مواجهة الصعوبات التي تتجارع حول معالجة الواقع - انه يميل الى الجبن الى العمى الحدود ... ويتنزه عمله ، في اغلب الاحيان ، بالسمت الخريف فيما يتعلق بواقعيه بالذات ... ان جوهر الغالة الاخلاقية هو مسح الحياة باجمعها . (٥٨)

ويلخص جيمز موقفه كناقد بقوله اتسالا نحاسب الروائي على موضوعه ، وانما نحاسبه على معالجته للموضوع . فيقول :

يجب ان نعطي الروائي حقه في موضوعه ، في فكره ، اما نقدنا فينطبق فقط على ما يصنعه من مادته . (٥٩)

واي فشل ينسب الى العمل الادبي هوفشل في التنفيذ فقط حيث يظهر من خلاله ضعف العمل الادبي أو قوته .

ويبدو معا سبق ان الرواية في نظر جيمز اقل الاشكال الادبية جمودا ، لقد اشار الى « روعة هذا الشكل » الذي يمثل « قليلا جدا من القيود وعديدا من الامكانيات » . وفي استعراض تأكيده لحرية الشكل الروائي تحدث من شرط واحد فقط ، كما هو واضح من الاقتباس التالي :

وبالمقارنة فان الفنون الأخرى تبدو مفيدة معاقرة ، والظروف التي تعمل من تحتها جامدة ومحددة . والشروط الوحيدة التي تصور انه يمكن وضعه بالنسبة للكتابة الروائية ان تكون صادقة . ان هذه الحرية ميزة عظيمة رائعة ... الحياة كلها (مغايبا الروائي) لك ... لا تصغ الى اولئك الذين يرون سجنك داخل بعض لؤايا الحياة ، فالتين أن اللئ لا يعيش الا فيها ... ليس هناك طابع للحياة ، ولا اسلوب للنظر اليها أو للشعور بها ، الا ويمكن ان يجد له مكانا في خطة الاديب الروائي . (٦٠)

وبهذا فاننا نؤكد الذي روى - فيما يبدو سالي بناء نظرية نقدية في الرواية ، لم يطوقها بأية شروط الا شرط الصدق . انه لم يرفع من شأن الرواية فحسب بتناوله لها في اسباب وجديرة لم يسبق لهما مثل ، بل صورها وفتح لها المجال لتعانق الحياة بأسرها . وتصورها في انسب شكل

(٥٧) نفس المرجع

(٥٨) نفس المرجع

(٥٩) نفس المرجع

(٦٠) نفس المرجع

يطابق رؤيا الفنان . وهو في هذا يقارب روائيا ناقدا آخر هو د. هـ. لورانس ، يختلف تماما عن جيمز ، وإنما يتفق معه في تأكيده ضرورة استمتاع الروائي بالحربة الكاملة ليحقق رؤياه بشرط واحد ، وهو ان يكون صادقا ومخلصا في هذه الرؤيا بما يرضي ضميره الفني . وقد قيم **لورانس الرواية في مقالة « الأخلاقيات والرواية » (١٩٢٥)** . واعتبرها ارقى وسيلة لتصوير الحقيقة ، وكان يعنى بذلك الحقيقة التي تنتمي الى سلوك الحياة . كما الح على انه ليست هناك قواعد لبناء الرواية ، وأن القواعد يمكن تطبيقها فقط على الروايات التي هي مجرد نسخ من روايات أخرى لا أصالة فيها . وفيما عدا ذلك ، فالرواية الحية التي تصور « الانسان الحي » لا تحكمها الا الحياة . لقد تقدم لورانس كثيرا عن جيمز فيما يتعلق بتحرر الروائي في كتابه ، وإن كان هناك صدى للورانس عن كيفية كتابة الرواية حين يقول جيمز : يجب ان تكتبها كما تستطيع » .

ومهما نقل من الثورة التي حققها جيمز في النقد الروائي فلن تكون مبالغين . فغالبية المبادئ التي نستند اليها في النقد الروائي الحديث والتي افنتها بالمصطلحات المعروفة اليوم هي من آثار جيمز . انه هو الذي نبهنا الى المعنى الشاسل الموحد في الرواية ، وهو الذي كشف لنا عن الوحدة العضوية بين اجزاء الرواية وعناصرها ، وهو الذي عرف الدور الذي تلعبه الاخلاقيات بالمعنى العريض في الرواية ، وليس بالمعنى الضيق المبني على السلوك الاجتماعي المتفق عليه ، وهو الذي اشار الى عامل الخداع في الرواية ، وفي نفس الوقت أكد جوهه الصدق فيها . وفوق كل هذا ، فـ **جيمز هو أول ناقد انجليزي بحث في اسباب المسائل الجمالية والفنية في الرواية** . ومع ذلك فقد انجز كل هذا دون اللجوء الى شروط مسبقة . وفيما قاله ليون ادبل **Leon Edel** الناقد المشهور بأبحاثه عن جيمز وترجمته لحياته ، اشارة الى عدم مذهبية الاديب والناقد الكبير :

ليس هنالك كاتب حجة اقل مذهبية من جيمز . انه يتحدث اليها بصراحة حتى اليوم ... معرفا بنفسه ، وبذلك الفن الذي احترفه بالاخلاص . (١١)

ومنذ وقت بعيد مضى قال برسي لا بوك الناقد الروائي المعروف الذي تتبع خطى جيمز في نقد الرواية ، قال انه الناقد الحقيقي الوحيد في فن الرواية .

وكان جيمز مثلا للاديب الذي وهب حياته لفنه وعاش ليصور في رواياته قيما انسانية ، ليمتد بالحيادة ويتمعق فيها حتى تصبح دقيقة في وعيها وغنية في مسئوليتها . اما النقد الروائي بالنسبة اليه فهو اداة ترمي الى تفهم ذلك النوع من الادب الذي انتجه . ومن الطبيعي ان تكون الاداة في نفس مستوى رقى الادب ، ما دام كلاهما وليد نفس العقل والروح . ان النقد عند جيمز لا يقل ابتداعا عن العمل الخلاق ، بل يصح ان نقول انهما وجهتا عملة واحدة ، ومظهران متكاملان لمعقريتي جيمز الابتداعية التي تركت تراثا في النقد الروائي لا يقل في كثير عما تركته في الادب الروائي . وباتجاهات جيمز في النقد بدا الطريق امام الناقد الروائي المحترف من بعده اكثر وضوحا ، وانتقل النقد الروائي الى مرحلة جديدة تتميز بالنقطة والتقييم المتزن .

تكنولوجيا العصر والمجال الطبي للعالم العربي سنة ٢٠٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ .
ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً فِي قِرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا
النَّفْثَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمَضْغَةَ عَظْظًا فَكُنُوسًا الْعَظْظِ لِحَمَاءٍ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ
خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ
صدره الامير محمد

للدكتور : مصطفى كمال محمد

الوسطى ، بل تمتداه الى العصور القديمة حيث قامت وازدهرت حضارات مصر وبابل وآشور . وفصل هذه الحضارة على العالم والذي لازال يدين لها بالشكر والعرفان . فالعرب امة علوم واختراعات ، وامة ادب وشعر، وهم الذين اسسوا الاسس الاولى في شتى اوان العلم والمعرفة . ان جابر بن حيان مثلا هو الرائد الاول في ميدان البحث العلمي التجريبي ، والكندي اول من اثبت كروية السطوح المائلة ، والادريسي الذي اكتشف

فما من شك ان عقل الانسان العربي يحمل في تقديمه سمات ماضية ، فالحضارة العربية سلسلة متعاقبة لتطور هذا العقل العربي وكشفه عن اسرار هذا الكوكب الذي يعيش فوقه والكواكب المحيطة به ، وفي الكشف عن مختلف القوانين الفيزيائية والكيميائية والرياضية والطبيعية وتلايلها لغايته ، واصبح هذا العقل المستنير يحمل شعلة الحضارة من عصر الى عصره، فعبقرية الحضارة العربية لا تقف عند حدود العصور

من هنا جاء اهتمامي بتناول العلاقة بين التقدم الحضاري في مجالات العلم والتكنولوجيا وبين التغير الاجتماعي الذي يمس نظم المجتمع وقيمه الاجتماعية . وان درجة النمو الاقتصادي تتوقف على درجة نقل واستيعاب التكنولوجيا الراقية الموجودة في المجتمعات الصناعية المتقدمة .

البلاد المتقدمة تعيش في نهضة علمية وثورات تكنولوجية مستمرة وذلك منذ منتصف القرن التاسع عشر . كذلك فان القدر الأكبر من النمو الاقتصادي في هذه البلاد يدين الى التقدم العلمي والتكنولوجي الذي تحقق في هذه البلاد .

فلكي نعيش هذا العصر ونصل الى سنة ٢٠٠٠ سلام ، فاننا يجب ان نندرك تماما أهمية التكنولوجيا المعاصرة وتطبيقاتها في شتى المجالات كقوة ثقافية ديناميكية عصرية ، بمعنى ان رصيد أي دولة من رجال العلم والتكنولوجيا بمعاملهم او اجهزتهم ومعداتهم ، هو الذي ينقل المعاصرة اليها . والتكنولوجيا في هذا البحث لا يقصد بها المعرفة بمعناها العام وباختلاف فروعها بل اعني هنا المعارف العلمية التي قد تتنوع في مجالاتها التخصصية . ولكن ، لا ننكر ايضا انها تشترك وترتكز على المنهج العلمي السليم والذي يعتمد بصفة رئيسية على التحقيق الموضوعي والتجريب التطبيقي ومدى الانتفاع منها ومدى الحدود التي تتيح استخدامه . بهذا البحث اود ان اوضح مساهمة تكنولوجيا العصر في المجال الطبي وكيفية الاستفادة منها في بناء العالم العربي سنة ٢٠٠٠ ، وكيفية التركيز على خلق وتنمية ائمن ما نعتز به ، وهو الطاقة البشرية القادرة على الاسهام بالعلم في صنع المستقبل . هنا ايضا لا اطمع اني اعمل الانسان العربي خالداً ، ولكن كل ما اريده هو اعطاء اسيابهم ولادة بدون حادث ، ونموا عاديا ، وحياة بدون ميوب وأمراض وآلام . وان طريق العلم يؤدي دائما في نهايته الى تحقيق الغايات المرجوة وتوفير

مناخ النبل والاسطرلاب - ثم ابن سينا وبحوله العظيمة في الجرات وتكوين الجبال والمعادن ... ثم ابن يونس الذي اخترع البندول ... وكذلك الرازي وكشوفاته الطبية العديدة ... ولا نستطيع ان نتجاهل اسهام كل من ابن الهيثم والبيروني وابن النفيس والبوزجاني وابن رشد والجاحظ وابن البيطار وغيرهم في مجال العلوم والمعرفة كالجبر والهندسة والفلك والطب والتشريح والصيدلة والكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان والمعادن وغيرها .. كما ان القيم الإسلامية لا تتعارض مع العلم ، بل هي روح العلم نفسه ، والتقدم التكنولوجي طالما يستهدف في النهاية خير الانسانية وسعادة البشر .

لا جدال في ان اقامة مجتمع الرفاهية هو الهدف الاسمي الذي تسعى اليه كافة الدول المعاصرة ، وهو المعيار الذي يقاس به مستوى تقدم الشعوب . 'مجتمع الرفاهية هو المجتمع الذي يحقق فيه أكبر قدر من الرفاهية الكلية .. أي أكبر قدر من الاشباع من المنافع والسعادة لاجموع افراده .

فالمدول النامية تخوض الآن على الصعيدين الوطني والدولي حربا ضد الجهل والفقر والمرض وسيطرة الدول الاقوى عليها . فالعالم العربي في اشد الاحتياج الى استراتيجية علمية مدروسة لتنمية موارد الطبيعة والبشرية . لأن الدولة الحديثة التي نريد بنائها تعتمد بالدرجة الاولى على الانسان العربي صاحب الحضارة العربية ، وحامل القيم الشريفة ، وهذا يتطلب تحقيق تفرات جذرية في انماط السلوك الاجتماعي ومحاولة أحداث تغير في تركيب وخصائص البيئة المحيطة بالانسان العربي ...

فان العلم والمجتمع يكاد يكمل كل منهما الآخر . فيقدر حاجة المجتمع الى النتاج العلمي لتبنيته وإدراجه ، فان العلم في حاجة الى التقبل الاجتماعي لتدعيمه وثبته .

العصر في المجال الطبي ، ومدى الاستفادة منها
للعالم العربي سنة ٢٠٠٠ .

❖ تكنولوجيا انتاج العناصر الالكترونية
والمغناطيسية وعلم الانفورماتيك في المجال
الطبي : اشار العالم لوكلائش رئيس اكااديمية
الطب بفرنسا الى الاهمية المتزايدة التي يحتلها
الالكترونيك والانفورماتيك في مجال القيادة
الطبية . فمفلة فترة قريبة جدا كان العلماء
يعتقدون ان مخ الانسان يتكون من ١٢ - ١٤
مليار نيرون ، متحدة مع بعضها بأعجاب الطرق
ومتصلة بخيوط عصبية مع اعضاء وأنسجة
الجسم . كما يوجد نيرون الجسم الحي عادة
في حالتين اما هادئة واما مثارة . ويقول
الخبراء ان وظيفتي النيرون هاتين يمكن
مقارنتهما ، في التصوير المبسط بعنصر راديو
الالكتروني ذي وضعين يعمل بنظام « التوصل
والقطع » ويمكن أن يكون ذلك صماما او مرحلا
او ترانزستورا . ومن النيرونات « تبني »
الاعصاب التي تعتبر بالنسبة للجسم بمشابة
الاسلاك ، او خطوط المواصلات بين الجسم
ككل وبين بعض الاجهزة او القطاعات على
حده . وبعبارة أخرى فان الاسلاك - الاعصاب
تربط الجسم بالحيط الخارجي : فنجد مثلا
المخخ وحده وهو غرفة التحكم في الجهاز
العصبي المركزي - يضم حوالي ١٠٠ مليار
خلية . والخلية هنا ليست مجرد « نواة
الحياة » بل مؤسسة متعددة الفروع ذات
قطاعات عمل واقسام مختلفة ، ونظام للتغذية
بالطاقة ووسائل نقل . ففي الجسم الحي
يجري باستمرار تنسيق العمل بين مختلف
الاجهزة ، وتجمع المعلومات عن حالة النظام
وعن ظروف الوسط الخارجي ، ويحافظ على
درجة حرارة ثابتة وضغط ثابت . من هذا
المنطلق وعلى أسس علمية قوية تولدت
تكنولوجيا العصر وعلم السيبرنتيكيا ووروما
بثقة في المجال الطبي لخدمة الانسان البشري
وأصبحت انتصاراتها في هذا المجال أكثر أهمية
وبذلك نجد أن المجال الطبي استفاد وسوف

السعادة المنشودة لبنى الانسان العربي في كل
زمان ومكان .

وواجب الانسان العربي ان يتعلم وأن
يسعى الى مجالس العلماء ليتفقه ويتعظ
بالمعلم النافع الموصل الى رضوان الله تعالى ،
لان الله عز وجل يسأل الناس عن تقصيرهم
في طلب العلم ومجالسة العلماء الصالحين .

وان خطة عملنا لا بد ان تستهدف الوصول
الى تكنولوجيا عربية عصرية ، وان نشزم
بشعار (العلم للمجتمع) مع الحرص الشديد
على توفير كل اسباب الدعم والنجاح للبحث
العلمي . فمن جانب يرى أيضا ان يتركز عمل
العلماء في المجال الطبي على تحسين الأداء من
خلال علاج المرضى والوقاية منه بمثابة
واستخدام أحدث الاساليب التي تكتشف في
الدول المتقدمة . كما يرى ان يخصص البحث
العلمي والتكنولوجي جهدا خاصا موجها
لمساندة صناعة الدواء المحلية الوطنية ، بحيث
يكون ذلك من خلال :

- نقل التكنولوجيا الخاصة بانتاج
الكيمويات الدوائية التي تصنع منها
الستحضرات والعقاقير الطبية اقتباسا وتقليدا .

- استكشاف مصادر جديدة للدواء في
النباتات الاقليمية .

- التركيز على الرعاية الطبية وإباحت
القضاء على الأمراض الوبائية والمستوطنة
واعتبار مشروع القضاء على البلهارسيا مشروعا
قوميا عربيا يشترك فيه علماء الداخل والخارج

- استخدام الاجهزة الحديثة والمقول
الالكترونية في المجالات الطبية بشئ فروعها .

وبالتالى سوف نعرض هنا في هذا المقال
لبعض تطبيقات الهامة والابتكارات
والخدمات الفعلية التي تقوم بها تكنولوجيا

❖ الأوتوماتون

جهاز يمثل نظام آليات وتركيبات (الالكترونية كهربائية ، ضغط الهواء ، هيدروليكية) تجري عمليات استقبال ومحوّل ونقل واستخدام الطاقة والمادة بطريقة ميكانيكية أوتوماتيكية أي بدون مشاركة الإنسان .

❖ المنطق الرياضي

تأسس هذا العلم بفضل الفكر الاغريقي ارسطو ، الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ويرجع الفضل أيضا الى فلاسفة العصور الوسطى مثل عالم اللاهوت والكيماوي رايونند لوليا ، والعالم الرياضي والفيلسوف الألماني غفريد ولهمل لينتس وهو مؤسس أيضا المنطق الرياضي . وهو الذي حاول في القرن السابع عشر أن يؤسس أول حسابات منطقية حسابية وجبرية حرفية ، والعالم الرياضي جورج بول وإبو الكتابة المعروف فوبنتش صاحب رواية « الذبابة » . وقد قام ارسطو بتحليل التفكير الإنساني وأشكاله مثل المفاهيم والحكم والاستنتاج العقلي . وبالتالي علم المنطق هو علم الاستنتاجات السليمة الذي يتناول اشكال وقوانين التفكير . وبدأ هذا العلم يتوغل بسرعة الى عصرنا هذا في شتى المجالات ويعمل في كل مكان وكل شيء تعمل فيه الحاسبات الالكترونية . فكل مسألة تحلها الآلات انما تحلها على أساس قوانين المنطق الرياضي الصارمة .

وينبغي هنا أن نوضح كيفية تحويل الاحكام المنطقية الى صيغ رياضية . فنجد في العبارات البسيطة التي يستخدمها الإنسان انما ترتبط ببعضها بواسطة احرف مثل : لا - أو - و . وهذه الاحرف الثلاثة تستطيع ان تفعل في المنطق كل شيء . ولقد اتفق العلماء (علماء المنطق) على علامات معينة للدلالة على هذه الاحرف - مثلما تفعل في علم الرياضيات - فنستخدم الاشارات الرياضية الآتية (١) ،

يستفيد كثيرا ، من وجود نظام للمعلومات - نظام يمكن أن يجمع المعلومات ، ويحلل المواد رياضيا ، ويجد بسرعة الحالات المرضية المماثلة وستكون هذه بمثابة « ذاكرة » طبية ضخمة . من هذه الحالة يكون بإمكان أي طبيب من أي مكان ومن أي دولة من بلدان العالم أن يتلقى الاستشارة من هذه « الذاكرة » الطبية الموجودة .

وبذلك دخلت السيبرنيثيكا الآن غسرة العمليات الجراحية وهي تشارك بشكل مباشر في العمليات وتتحكم في الوظائف الحيوية للجسم ، فتتابع عمل القلب ، وتضبط ضغط الدم في الشرايين وتراقب صمق التخدير .

من هنا يأتي تعريف علم السيبرنيثيكا : هو علم يدرس طرق ادارة المجتمع البشري ، وهي كلمة اغريقية قديمة « سيبرنيثيس » وتعني « ماسك النذفة » أو « الريان » بمعنى القائد . حيث كان علم قيادة السفن في اليونان القديمة يسمى « سيبرنيثيكا » أي علم التحكم والاتصال في الاجسام الحية والآلات . وبالتالي نرى ان العناصر الهامة في علم السيبرنيثيكا تتناول العناصر الآتية :

❖ نظرية المعلومات :

حيث ان كلمة معلومات Information لاينية الاصل وكان معناها في البداية تصور ثم تطورت الى اخبار أي نقل الاخبار أو نقل معلومة ما . وقد وجد العلماء في السنوات الأخيرة ان المفهوم العام لكلمة « معلومات » مطاط للغاية فحدودها معناها على ان يصبح « معيار التحدد في الخبر او المعلومة . وبذلك تعتبر مفهوما علميا جديدا يعطى للباحثين منهجا جديدا ، نظريا - اعلاميا ، يمكن بواسطته التغافل في كثير من العلوم التي تدرس الطبيعة الحية وغير الحية ، والمجتمع والادراك .

من الدراسة العميقة والشاملة لجماليات التحكم والتوصل إلى القوانين التي تخضع لها عمليات التحكم . وفي كل مكان نجد أن تنفيذ عملية التحكم مرتبطة بنقل وتجميع وحفظ معالجة المعلومات التي تحدد الشيء المتحكم فيه ومسار العملية والظروف الخارجية وبرنامج العمل . وبالطبع فمن الممكن أن تكون ناقلات المعلومات في النظم المختلفة ، مختلفة أيضا من حيث طبيعتها : فقد تكون اشارات صوتية أو ضوئية أو ميكانيكية أو كهربائية أو كيميائية أو وفاق أو اقلاما تلفزيونية ، ولذلك ، ومن المهم في المجال الطبي الحديث انشاء اجهزة الكترونية لجمع المعلومات عن العمليات الجارية في الجسم . لهذا الغرض اخترعت وابتكرت اجهزة مدهشة ، حساسة للغاية ودقيقة جدا ويكفي أن نذكر منها واسمات القلب الكهربائية التي تدرس نشاط القلب ، وراسمات الدماغ الكهربائية ، والتي توضع في اسرار نشاط الدماغ ، ورسومات العضلات الكهربائية والتي تسجل عمل العضلات ، والأقراص الدقيقة التي هي عبارة عن مجسات لاسلكية لدراسة المعدة ، والأمعاء ، والمجهر الإلكتروني بأناويعه والجهر التلفزيوني والتلفزيون الملون في الطب وما إلى ذلك من أنواع مختلفة متطورة للغاية . لذلك يعتبر علم الالكترونيات والانفورماتيك من الفروع الهامة والاساسية من فروع العلم والتكنولوجيا . وتبين هذه الفروع مدى أهمية علم الكهرباء وتطبيقاتها في المجال الطبي - ابتداء من السمكة التي ترسل تيارا كهربائيا حتى آلة تقوية القلب . يشغل علم الالكترونيات اساس وتصميم وتركيب الاجهزة الكهربائية المبردة ، والاجهزة المصنوعة من اشباه الموصلات مثل الجرمانيوم والسيليكون .

فالاجهزة الكهربائية المبردة من الهواء واشباه الموصلات تستخدم بنجاح في الاجهزة الاوتوماتيكية واللاسلكية والتلفزيونية والتي تشترك في رحلات الفضاء ولخدمة الطب الفضائي ، واجهزة الراديو الالكترونية الحديثة

(-) ، (x) ، (ب) وذلك على أن نحل محل الكلمات المستخدمة مثل « زائد » ، « ناقص » ، « في » ، « على » على الترتيب . فقد اتفق بالفعل على استخدام الرموز الآتية واستخدامها في علم المنطق الرياضي فمثلا الرمز « الاشارة » الموجبة (ب) للدلالة على كلمة او والرمز أى علامة القرب في (x) للدلالة على كلمة (و) ومع استخدام بعض الاسس البسيطة في علم الجبر نستطيع أن نصل الى حل بعض المسائل المنطقية المعقدة . ونستطيع الآلة الاوتوماتيكية أن تقوم بالشيء نفسه .

❖ الانفوريشمات

علم حيوي ضروري لحل مختلف أنواع المسائل ويتضح لنا أن الرياضة في الطب ، وأخص علم الوراثة ، لا نستطيع الاستغناء عن تكنولوجياها . أن العملية التكنولوجية لحل أقدم المسائل تتكون من عدد كبير من العمليات البسيطة ، من الخطوات البسيطة الأولية . ولقد اكتسبت كلمة انفوريشمات القاعده معنى واسعا للغاية في الوقت الحالي . فهو دليل لحل المسائل ، ومن الممكن أن تصوغه في شكل أوامر قصيرة ينفي تنفيذها بدقة ودون أي اعتراض ، وعندئذ يكون الانفوريشمات مرشدا لنا لجميع حل المسائل المعقدة .

ويقول الاختصاصيون انه في الوقت الحالي الذي تتطور فيه الرياضة الآلية بسرعة وتصبح الحاسبات الالكترونية واقعا ملموسا . فإن الحاجة تصبح أكثر إلحاحا لإيجاد الانفوريشمات الذي يساعد على حل المسائل المعقدة .

الهدف الاساسي من علم السيبرنتيكا والذي يسمى علماء الرياضة والفيزياء والهندسة والطب من مختلف بلدان العالم اليه هو الوصول الى اقصى قدر من اتعنه عمليات التحكم في مختلف مجالات النشاط الانساني وزيادة انتاجية العمل . ومن أجل ذلك لابد

اجهزة القياس ، الدوائر النيفية - الآلات الالكترونية الحاسبة كما توضع أيضا في اجهزة خاصة داخل كبسولة يتلمها المريض فترسل اشارات عن حالة المعدة والأمعاء . كما تفضل اجهزة اشباه الموصلات عن الصمامات الالكترونية بالمميزات العامة التالية:

- الوزن الخفيف والمقاييس الصغيرة .
- انعدام استهلاك الطاقة على تسخين الغتلة المستخدمة في الصمام .
- طول مدة الخدمة (يبلغ عشرة آلاف ساعة)
- لاجهزة اشباه الموصلات المختلفة في المضخات ، اجهزة الاستقبال ، اجهزة كفاءة عالية . اذ ان فقد الطاقة في نفس الاجهزة قليل .
- متانة ميكانيكية عالية (تتحمل الاهتزاز والصدمات والمؤثرات الميكانيكية الاخرى)

- تحويل الصورة الضوئية الى تيار كهربائي ذي شكل خاص .
- توجد دائما تقدية مرتدة داخلية . والسبب هو وجود اتصال كهربائي مباشر بين دائرتي الخروج والدخول .
- تعمل بجهد تقدي منخفضة .

❖ مصنع لادوات تقوية القلب

توجد أدوات تقوية القلب منذ خمسة عشر عاما ، وقد عرفت تحسينات متوالية مع تطور فنون تكنولوجية صنع أدوات تقوية القلب . حيث ان هذه الادوات تعمل بشكل نبضات كهربائية فوق عضلة القلب مما يجبرها على متابعة عملها بانتظام .

- وفي الآلات الالكترونية الحاسبة واجهزة الطب بفروعه والبيولوجيا والفيزياء وفي فروع هندسة القياس المختلفة وغيرها . فالمضخات والمولدات والمقومات ومرسومات التذبذبات واجهزة القياس وغيرها من الاجهزة الالكترونية أصبحت سلاحا فعالا للبحوث الطبية ولتنظيم العمليات الجراحية واجهزتها . وهكذا فان علم الالكترونيات زودنا بإمكانات غير محددة مثل الترانزستورات بشئى انواعها . حيث ان الترانزستورات تشغل مكانا هاما بين اجهزة اشباه الموصلات الكهربائية التى تستخدم لتقويم وتضخيم وتوليد وتغيير تردد التيارات الكهربائية المختلفة ، وكذلك لرسم تذبذبات الظواهر الكهربائية وغير الكهربائية . وتكون دوائر الترانزستورات عادة دائرتان : دائرة الدخول او التحكم ودائرة الخروج او الدائرة التحكم فيها . وفي دائرة الخروج يوجد الحمل . وتصنف الترانزستورات حسب طريقة التصنيع والمواد المستعملة وخصائصها للعمل ، ولها ثلاثة مخارج او أكثر ، وتعا لعدد المخرج تسمى بصمامات اشباه الموصلات الثلاثية او الرباعية وهكذا .

وفي اجهزة اشباه الموصلات الحديثة تستخدم بكثرة اشباه الموصلات الآتية : جرانيوم ، سيليكون ، سيلينيوم وجاليوم زرنيخي وغيرها من مواد اشباه الموصلات . واشباه الموصلات هى المواد التى تحتل موصلتها الكهربائية النوعية أى « المقدار الذى يعبر التوصيلة الكهربائية للمادة » مكانا متوسطا بين الموصلات والعوازل . ويجب هنا ان نميز بين النوعين « التوصيلية الكهربائية » ، و « التوصيلة الكهربائية النوعية » فالنوصيلية الكهربائية تعرف بخاصية تمرير المادة للتيار ، فنجد الفرق واضحاً بين النوعين .

وتستخدم الترانزستورات الآن بنجاح في المضخات ، اجهزة الاستقبال ، اجهزة الارسال ، المولدات ، المستقبيلات التلفزيونية،

يجرى التحقق من موقع الشريط كي لا يحدث انقباضات في حاجز القلب ، وهو يعتبر جيدا عندما يكون مستوى التفرقة منخفضا. عندئذ يجرى ربط السابر بالوريد ، كما توسع العلية داخل تجويف يجرى اعاده لهذه الغاية فوق الجرح . اما العملية الجراحية التي تجرى بواسطة التخدير الموضعي فتتبع بالاشعة وتعتبر عملية بسيطة .

تمثل الادوات القوية والحارسة للقلب حوالي ٨٠ الى ٩٠ في المائة من الادوات التي جرى تركيبها خلال السنوات الاخيرة ، وهي مزودة بمجربى اضافي بحيث يراقب السابر حركة القلب ويسير عمل الآلة فور ظهور الحاجة . في بعض الاحيان يجرى صنع العلية من مادة التيتانيوم النقي ، وهو معدن قوى وذو جودة خصائصية عالية . وبشأن البطاريات ، يبدو ان الليثيوم سيحل محل بطاريات الزئبق مع زيادة المائدات وفترة العمل .

في الوقت الحاضر يقدر ان هذه الآلات تستهلك استقلالا في العمل خلال فترة تمتد من ٥ الى ٨ سنوات . ومع ذلك ، فان مقويات القلب بنسق محدد ، او المحركات الكهربائية لاتزال تحافظ على مقدرتها . كما ان هناك مؤرجع يرسل نبضات بمعدل سرعة محددة سابقا ، وهي توازي ٧٠ نبضة في الدقيقة مع عدم مراعاة البطي (القلب) حامل هذه المحركات . واهرا فهناك آلات تقوية القلب النطائرية مع اشرطتها الكهربائية اي البطاريات العاملة بالبوليتونيوم . تدمر هذه الآلات اكثر من الماضي ، ولكن ذلك لا يقضى على الرقابة الفعلية للعريض .

تجرى ابحاث عديدة لتحسين ادوات تقوية القلب ، وللحصول على مواد جديدة لتصنع منها هذه الادوات . وبالرغم من ذلك فان هناك عيوب بسيطة في اجهزة ادوات تقوية القلب الموجودة في وقتنا الحاضر . حيث نخشى دائما من عطل يصيب المعدات . وهو

في القرن التاسع عشر ، درس ايرلنديان وهما روبرت ادامس (١٧٩١ - ١٨٧٥) ووليام ستوكس (١٨٠٤ - ١٨٧٨) المرض الذي حمل بعد ذلك اسم ستوك - ادامس ، وهو مرض يجمع بين بطء النبض والاضغاء . وفي عام ١٩٥٢ ، خطرت للعالم الدكتور بول زول فكرة اعادة تحريك قلب متوقف بواسطة شريطين كهربائيين فوق صدر المرض .

ومنذ عام ١٩٥٨ ، تخيل العالم فورمان تدريب القلب بواسطة سابر . وابتداء من هذه الابحاث التجريبية السابقة واعتمادا على نتائجها ، تناولت ادوات تقوية القلب انتاج تيار كهربائي بواسطة البطاريات . ولقد ساعد تطور الالكترونىك وتطور علم السيرينيتيك في ظهور هذه الآلات الالكترونية والترانزيستورات في صنع ادوات تقوية القلب وسهولة انتشارها .

من المعروف ان كل عضلة لها القدرة على ان تنقبض ، بالنسبة لتنقبض عضلة القلب ، كما تسبق الانقباضات مظاهر كهربائية تولد وتنشئ تغييرا في القوة . اما الرسومات والتدليلات الذي يحصل عليها عند التسجيل فيمثل التسجيل رسم انقباض عضلة القلب وذلك نتيجة مرور التيار الكهربائي . وفي افضل الحالات يقدم موجات متتابعة ومتشابهة تظهر باستمرار . وفي كل من الاجزاء ، تجيب موجة موازية لانقباض اذين القلب وموجة اخرى صادرة من بطين القلب تصادف عودة الاستقطاب مرة اخرى وبعد ذلك تبدأ الدورة من جديد .

تتألف ادوات تقوية القلب خاصة من علبة دائرية ذات سمك ضئيل للغاية ، كما يكفى حجمها لاحتواء البطاريات ، كما تحتوي على سابر بشكل شريط . اصبح السابر الان وحيدا ، وهو يعمل الشريط الكهربائي الذي يجرى ادخاله في الوريد الايمن او اليسر للراس ، ويصل بدقة حتى البطين الايمن .

رأى الحاسبة الالكترونية « أورال » مع رأى الاطباء . وعند اجراء العمليات ثبتت صحة تشخيص الآلة . كما وضعت نظريات ونظم التشخيص الطبي التى يستطيع الاطباء بواسطتها في العيادات ان يحددوا لا تشخيص عيوب القلب فحسب ، وانما كذلك امراض الكبد والمعدة وبعض الامراض المعوية والأورام المختلفة ، بما فيها اورام الدماغ .

* اذن الكترونية للصم والبكم

خلال المؤتمر الحادى عشر للحديث عن امراض الاذن والانف والحلق ، وقد عقد في بونى ايرس « الارجننتين » ذكر الدكتور كلود شوارد انه حقق مع مساعدة ومساعدة علم الالكترونيات « اذنا الكترونية » يمكن ان تقدم مساعدة هامة للصم البكم . اوضح كيفية وصوله لدمج عقل الكترونى (اوردنباير) صغير في الاذن الداخلية ، ومع تحقيق الاتصال مع اطراف عصب السمع ، وضعت هذه الآلة الاقطة نهائيا تحت الجلد ، ويبلغ قطرها الفعلى سنتيمترين مع سمك يبلغ سنتيمتر واحد ، كما تتلقى النبضات الكهربائية المغنطة للذباب متشغل ، بحجم آلة تسجيل صغيرة . يعتبر الدكتور شوارد اخصائيا في امراض الاذن والانف والحلق ، وقد سبق له ان وضع بنتاج خلال عام ١٩٧٣ اشربة كهربائية في الاذان الداخلية لثلاثين شخصا من المصابين بالصم . تتصل هذه الاشربة الكهربائية بالآلة غير متنقلة ، وقد سمحت للمرضى بالاتصال مع العالم الخارجى ، تمثل هذه الطريقة صعوبات سائدة ، إذ تفرض على المرضى الخضوع كل اسبوع لمعالجة لتجنب اخطار الانلهايات . اما الآلة التى اعدت اليوم فقد تحققت في اقل من عامين بين سبتمبر ١٩٧٤ ونهاية عام ١٩٧٦ وحتى الآن ، واقيمت « الاذن الالكترونية » لدى ثلاثة اشخاص او أكثر من الصم والبكم ، وقد سمحت لهم بالاستماع والحديث بعد عدة اشهر من التدريب .

يقع في مختلف الطبقات سواء كانت الآلة ضعيفة او البطاريات فارغة او الاشربة مقطوعة او السابو منتقلا من مكانة . وبالتالي ومن المستحسن ان يساهم المريض في مراقبة ساعة الاسعاف المراقبة . ومن ناحية اخرى ، لا يهمل الطبيب المعالج مريضة ، وهو يراه في مواعيد محددة ، كما انشئت مراكز لمراقبة هذه الآلات . كما ان دراسات تردد النبضات يعتبر حاسما ، ويحصل على ذلك بوسائل عديدة : فحص النبض كل اسبوع - الفحص الهائفى واشارات « بيب بيب » التى تكشف وتحوّل الى اشارات صوتية ، وكل ذلك لا يعد من مصلحة المريض بشكل مناسب ، كما لا تثير هذه التدابير خوف المرضى ، بل على العكس ، تثير في نفوسهم الاطمئنان ، كما تسمح لهم بالحياة في ظروف معقولة . وبشكل خاص يتعلق الامر بالذين يشكون من عدم انتظام عمل الاذن والطين ، ومهما كان اصل هذه الشكوى . بإمكان امراض اخرى ان تستفاد وتعالج بواسطة هذه الآلات . وطالما لا يوجد حل كامل لقضايا الاتسجة والمتانة التى تحد من عمليات تعليم القلب . فان هذه الآلات تبقى وسيلة الاسعاف الحقيقية لمرضى القلب . ومن هذا المنطلق اقيمت في الدول المتقدمة مصانع لادوات تقوية القلب لمدى حاجه المرضى لمثل هذه الادوات لتساعد القلوب المريضة .

* الحاسبة الالكترونية « أورال »

هى حاسبة الكترونية ذات تشغيل برنامجي . وتعتبر الإجهزة الكترونية هى العناصر الأساسية فيها ، وهى قادرة على اجراء ملايين العمليات وأكثر من ذلك في الثانية الواحدة . وهذه الحاسبة الالكترونية « أورال » تستخدم لتشخيص الامراض . فهى تضع في السنة حوالى ٢٠٠٠ تشخيص لعيوب القلب الوراثية ، وليس هذا فحسب بل انها احيانا تكون أكثر دقة في التشخيص عن الطبيب المعالج ، فقد حدث أكثر من مرة ان اختلف

تطبيق العلاج بواسطة المياه المعدنية . اذاع كل من الدكتور روبرت كوفيلير والعالم كلود لاروش والأطباء الباحثين جود لويسكي وجون دي لاور ما برهنته الاختبارات والأبحاث

التجريبية التي تمت على الثوران في مختبر المياه بمستشفى فيشي بفرنسا عن فعالية العلاج بواسطة المياه المعدنية ، وقد تبينت فائدتها خاصة في علاج التهاب الشرايين في الاعضاء السفلى وأمراض الاوردة وأمراض أجهزة التنفس العليا . وسجلت النتائج أن ٦٠٪ من النتائج كانت مرضية ، ٢٠٪ من النتائج غير مرضية ، ٢٠٪ من النتائج فاشلة .

وبصورة عامة ، تبين أن المرضى الذين يحصلون على أفضل نتائج العلاج بواسطة المياه المعدنية هم دون الخامسة والستين .

اما لدى المرضى الذين هم دون الخامسة والأربعين ، كانت ٨٪ من النتائج المدهشة ، ٦٠٪ جيد جدا ، يعتبر النجاح سريعا وعميقا بقدر معالجة المريض منذ ظهور امراض المرض في البدء .

❖ الاجهزة الاتوماتيكية في خدمة المعجزة :

ان عالم الاجهزة الاتوماتيكية في ايماننا هذه شديد التنوع . وهو دائم التوسع والتعقيد؛ وتعتمد الاجهزة الاتوماتيكية على تحديد مايسمى باستقرار النظام وبذلك يمكن مقاومة مختلف انواع الانحرافات في العمل ، وعلى حساسية الاجهزة الاتوماتيكية . فساهم هذا الفرع من التكنولوجيا بتقديم خدمات هامة للمعجزة لاعطائهم فرصة المشاركة مع الآخرين بالحياة العادية .

فقدت لهم آلة تدعى « هاندكار » أى عربة اليد الكهربائية ، وهي تسمح لمعاجز بالجلوس امام المقود والتنقل بشكل مستقل بدون مفادرة متقدمة .

❖ تكنولوجيا النفخة غير المنتظمة للتحركات الموجبة الصوتية لصالح امراض الاذن والانف والحنك .

يحدث عادة ان امراض الاذن والانف والحنك تسبب انسداد قناة تسمى بقناة أوستاش وتقع بين الغم وطبلية الاذن . تعتبر هذه القناة يصعب الوصول اليها لمعالجتها حيث يتراوح قطرها بين مليمتر واحد ومليمترين . وبصورة عامة تصيب هذه الامراض غالبا الاطفال وخاصة التهاب الاذن الداخلية (حيث يصاب ٢٪ من الاطفال في سن الدراسة بالالتهابات في قناة أوستاش) وفي حالة تكرارها اى تكرر اصابة الطفل بهذه الالتهابات ، تعتبر هذه الاصابات سيئة بالنسبة لقناة أوستاش الواسلة بين الاذن المتوسطة والجزء الداخلى لطبلية الاذن .

ونتيجة الالتهابات الحادة في الاذن المتوسطة يتسبب خلل في توازن الضغط بين جانبي طبلية الاذن ، ومن المحتمل ان يحدث الصمم . عندئذ يتلقى الانف والحنك افرازات تسيل من القناة المسدودة . وعند تجمع هذه الافرازات ، تحدث التهابات وتنتفخ المخاط . كما يعود ٤ الى ٥ ٪ من هذه السدود الى الحساسية . ولذلك أعدت طريقة تكنولوجيا تعتمد على أسس علم الصوت في الفيزياء وهذا التكيف تم انجازه بواسطة المختبرات البحرية لتحديد الضغط اللازم الذي يسمح بمساعدة « نفخة الصوت » بفتح القناة عند الابتلاع . كما استنكر ايضا اطباء امراض الاذن والانف والحنك استخدام الادوات القافسية على الجراثيم مثل المضادات الحيوية وذلك بشكل دائم لان ذلك يحدث زيادة في عدد اصابات الالتهابات الجلدية بالمقابل .

كما اشاروا الى محاسن السلاج بالمياه المعدنية لامراض الاذن والانف والحنك حيث انه نتيجة للدراسات والاحصاءات حول

المواليد «الخدج» الذين وضعوا قبل الموعد الى مركز العناية اللازمة في ظروف جيدة تشمل عدم الحركة والعزلة الحرارية اى الانعقاد من تغير في درجة حرارة الوسط والمراقبة وهذا تحت عنوان ايزوكوك . درست هذه المعدات الجديدة ونظمت بالاتصال مع قسم المساعدة الطبية للحالات المستعجلة في باريس، ويديره العالم الدكتور كارا . وقد استخدمت حتى الآن للنقل ١٥٠٠ مولود جاءوا قبل الموعد ٥٠٠٠ وبتراوح وزن المولود بين ٦٠٠ جرام الى ٥٢٠٠ جرام، لقد أمد شكل من البوليسيترين المتعدد (مواد بلاستيكية تبدو بشكل خلى وتدعى كذلك « رغوة » بلاستيكية) وهى تتألف من هيكل وغطاء يسمح باطلاق حرارية رأس الطفل ، ويسمح الهيكل الفارغ بإقامة المولود وعدم حركته بواسطة رداء وغطاء عازل ومعقم ... بعد وضع المولود بهذا الشكل يؤمن الغطاء بعزلة حرارية مع السماح باعطاء الاوكسجين للطفل لتسهيل عملية التنفس . اما المعيزات الرئيسية للايزوكوك فتتناول الآتى :

- الوزن حوالى ٩٠٠ جرام ، اى خمسين مرة اقل من المعدات الكلاسيكية .

- لا يحتاج الى اى مصدر خارجي للطاقة .

- حجمه ضئيل (٧١٠ × ٤١٠ × ٢٢٠ ملليمتر) .

يسمح كذلك بتحقيق جميع فنون التنشيط - اعطاء الاوكسجين ومد الانابيب - التنفس - اعطاء الدم ... الخ وذلك في ظروف تأمين مطلق بسبب عدم وجود آلة كهربائية .

✽ الاسعاف الطبى السريع .

في باريس يؤمن قسم « المساعدة الطبية والاسعاف السريع » أعمال تنسيق الاسعافات السريعة ، وقد أقيم في مستشفى نيكر ويديره العالم كارا ، حيث يؤمن عدد من عمال المخابرات

والصفقات التكنيكية للهانديكار تتناول الآتى : -

- دراجة كهربائية ذات اربع عجلات ، عجلتان اماميتان للحريك والتوجيه،وعجلتان مستقيمتان في الخلف .

- هيكل الدراجة من مادة البوليستر القوي وتوسع لشخصين . اما قاعدة حمل الدراجة فهى من انابيب الفولاذ الملحمة .

- فرامل هيدروليكية وتوجه بواسطة رافعة امام القائد .

- محرك كهربائى بقوة ٩٦ فولت و ٤ كيلو وات وهو يحرك العجلات الامامية .

- الاستهلاك ، ١٠ كيلو وات ساعة للتعبة الكاملة مع استقلال للتنقل بين ٥٠ ، ٧٠ كيلو مترا .

- اقصى سرعة : ٥٠ كيلو مترا في الساعة .

- مجموعة الكترونية او كهربائية ميكانيكية توجه بواسطة مقود دائرى له تأثير على توين الحرك الكهربائى .

وبالتالى نجد ان هذه العربة الكهربائية تسمح للعاجز بالجلوس امام المقود والتنقل بشكل مستقل بدون مفادرة متعده اذ يكفى الضغط على زر كي يهبط حتى مستوى الارض ويسمح ذلك للعاجز بالدخول الى المركبة من الخلف بواسطة الدفع ، كما يفعل ذلك عادة بواسطة عجلات عربته . يضبط مجددا على زر يرتفع مستواه كما يفتح الابواب في نفس الوقت . وهناك نظام اوتوماتيكي لتجميد القعد للسيار .

✽ جهاز المواليد قبل الموعد

حققت المؤسسة الاوروبية للابحاث والتطبيقات الطبية معدات بسيطة تسمح بنقل

منخفضة ، وتلك أيضا دقة في القياس الحراري (درجة الحرارة للمريض) بمعدل عشر الدرجة بين ٣٥٥ و ٤٠٥ درجة سنتراد . أما المجموع فيوجد داخل وعاء بلاستيكي مرقم يبلغ طوله ثلاثة سنتيمترات بعرض سنتيمتر وبالإضافة إلى مقبض . ترتفع جميع مقاييس المواد بنسبة حرارة الجسم وتتحول من الحالة المتباعدة إلى الحالة السائلة كما يتبدل لونها بفضل إضافة مادة تلوين .

تعود فائدة هذا الترمومتر الطبي الحديث إلى سهولة أكثر في قراءة درجة الحرارة بالنسبة للمريض ، كما تعود إلى دقة أكثر وسرعة عطف أقل وسلامة صحة أكثر عند استخدامه . يستخدم مرة واحدة ويبلغ ثمنه حوالي فرنك فرنسي بالنسبة لموازين الحرارة الكلاسيكية .

✽ تكنولوجيا الفيزياء النووية وأهميتها

في المجال الطبي :

سمحت تكنولوجيا الفيزياء النووية بإقامة أول سيكلترون طبي للخدمات الطبية في القارة الأوروبية وذلك في مستشفى فريدريك -جوليو باورسيه بفرنسا ، ويسمح ذلك باستخدام الأشعة النظائرية وسيخصص من ناحية لعلاج أمراض السرطان بواسطة النيوترونات ، وضع السيكلترون داخل جدران مسيكة من الاسمنت وذلك بجوار معامل الكيمياء وغرف فحص المرضى . وذلك لتسهيل نقل العناصر المشعة المستخدمة ، حيث أنه يكفي ثوان معدودة لنقل هذه العناصر المستخدمة والتي تتجاوز فترة نصف حياتها أقل من نصف ساعة أي أن مدى الحياة لها قصير - وذلك بواسطة الضغط الهوائي داخل أنابيب خاصة للنقل ، يجري إنتاج العناصر داخل غرفة بتحقيق فيها العمل بشكل أوتوماتيكي إلى أقصى حد وهنا نجد أهمية الأتمتة حيث

ستندرديست وطبيب على الأقل سرعة الاتصال الإذاعي والهاتفي الدائم ، وقد وضع ذلك تحت تصرف القسم المنقل مع خمس سيارات للإسعاف ، كما يمكنه الاستعانة عند الحاجة بطائرات الهليكوبتر التابعة لرجال الأمن والحماية المدنية .

أما دوره الرئيسي فيتناول خاصة نقل المرضى بين مختلف المستشفيات . كما تتصل سيارة الإسعاف بالمجهزة بطبيب التخدير عن طريق الإذاعة بسيارات الإسعاف التابعة للشرطة ، كما تتصل بتقسيم المساعدة الطبية والإسعاف السريع .

يحقق المساعدة الطبية السريعة ونظام الإسعاف السريع مابلى :

- أعداد بيان يومي بشأن لائحة الإسهرة الشاغرة في قاعات الإسعاف .

- تأمين النصائح الهاتفية .

- إدارة القسم المنقل للإسعاف السريع ، حيث يهتم هذا القسم بشكل خاص بإسعاف المرضى وعند الحاجة بنقلهم بواسطة سيارات الإسعاف والهليكوبتر أو الطائرة ،

✽ طريقة جديدة لتسجيل حرارة المريض

قدم العالم الصيدلي مارسيل جيو طريقة جديدة لتقدير الحرارة خلال الاجتماع الذي عقد في أول يونيو سنة ١٩٧٦ أمام أكاديمية الطب الوطنية الأوروبية - ويعتمد الميزان الحراري (الترمومتر الطبي) الذي عرضه العالم جيو على قوانين انصهار المركبات الكيميائية وهي في الحالة السائلة . كما أنها مجهزة لتسجيل حرارة الفم (تحت اللسان) يتألف ميزان الحرارة الجديد أساسيا من خمسين قطعة بلاستيكية صغيرة يحتوي كل منها على كمية من المواد المتبلورة عند درجات

وإذا كان لهذا التكنيك فوائد عديدة في مجال الأبحاث التطبيقية فله أهمية أيضاً في مجال الأبحاث الأساسية . وهذا التكنيك لا يزودنا فقط بإمكانية الحصول على مقاطع رفيقة من العينات المطلوب فحصها ودراستها « مثل الطرق المستخدمة في فحص مقاطع رفيقة جداً من المواد الأخرى » ولكنه أيضاً يزودنا بمنافع أخرى وعديدة الأغراض نتناول منها الآتي :

— رؤية المظهر الخارجى للخلايا .

— رؤية الغطاء البلازما مع إمكانية رؤيته بسهولة بواسطة النزج الجزئى لغطاء الخلية .

— رؤية المظهر الخارجى للنواة ، والفجوات الصغيرة ... الخ .

— دراسة الأسطح المزقة لهذه الأعضاء الحية . كما لهذا التكنيك فوائد أخرى ، فانه يسمح بإزالة تكوين الشوائب غير المرغوبة والتي من الصعب مراقبتها عند التكوين . ويتم هذا التكنيك Cryodécapage تحت فراغ كامل .

ويفهم بالخلاء (الفراغ) الغاز ، وخاصة الهواء المخلخل بدرجة عالية . حيث يتم التبريد بطريقة قطع العينة المتجمدة تحت هذا الفراغ . كما يزود هذا التكنيك بترموتر الأزواج الحرارى وذلك لمراقبة درجة الحرارة . وبعد اتمام الحصول على السطح الممزق والمتنح أثناء قطع العينة المتجمدة والتي تم لها عملية Cryodécapage تبدأ الخطوة التالية وتسمى الطبع أى يتم تخير جزليات من الكربون على العينة المقطوعة ، ويتم كل هذه الخطوات تحت الفراغ . وبعد ذلك من السهولة التامة فصل الطبقة المتبخرة والتي ترسبت على العينة والمميزة لتكوين الخلية بواسطة الميكروسكوب الإلكتروني . ومن المميزات والفوائد الأساسية لاستخدام الخلايا المتجمدة في الحالة الحية وذلك لغرض فحصها ودراستها ، فانها تحتفظ بحيويتها عند

انها مرحلة من مراحل الإنتاج الصناعى تتميز بتحرير الإنسان من الاداء المباشر لوظائف ادارة العملية الإنتاجية ونقل هذه الوظائف الى الاجهزة الأوتوماتيكية . أضدت هذه الآلة النموذجية والصغيرة الحجم من قبل شركة س.ج.م.د.ف المرتبطة مع شركة تومسون س.اس.ف. — وذلك لحساب مفضية الطاقة الذرية . وبإمكانها العمل مع فريق من الفنيين التخصصيين في هذه المجالات . أما استقلالها بشكل واسع فيفرض وجود عمل فريق بحثى هام من علماء الكيمياء الذين يعملون على توسيع واستخدام الوسائل الجديدة والسريعة لتخليق الجزئيات المرفعة . وقد تطورت هذه الفنون بفضل برامج الأبحاث التى تتعلق بالفيزياء النووية ، وقد وجدت تطبيقات هامة على الصعيدين البيولوجى والطبى وخاصة الالكترونىك والميكانيك والتحليل الكيميائى أو فنون تخليق المواد الجديدة ، واجهزة الحس الالكترونى وتطبيقات الجهر الالكترونى الماسح . فنتيجة ذلك تطور الطب النووى تطوراً سريعاً وتحقق سيكلوترون طيس لمعالجة الأمراض السرطانية بواسطة النيوترونات .

❖ طريقة تكنولوجية حديثة لفحص الخلايا والانسجة الحية بواسطة استخدام الميكروسكوب الإلكتروني .

يقدم هذا التكنيك إمكانيات رائعة وحديثة لفحص المواد البيولوجية والطبية ويطلق على هذا التكنيك اسم (تبريد — Cryo — ، إزالة — décapage) والتطبيقات الشائعة في هذا التكنيك تتناول الآتي :

— دراسة الخلايا النباتية .

— فحص الميكروبات الحية غير المرئية بالعين المجردة .

— فحص الانسجة النباتية .

أعدت شركة فرنسية - انجليزية للأشعة آلة تستخدم أشعة اكس وقد أطلقت عليها اسم دانسيوم . يتعلق الامر بطريقة تحدث ثورة في ميدان استخدام تكنولوجيا الاشعاع. يمر شعاع دقيق من اشعة اكس فوق المخ وذلك بشكل طبقة بعد طبقة . تجمع المعلومات بشكل اشارات كهربائية وترسل الى العقل الإلكتروني (أورد ينافير) ليعيد تركيب الصور .

وهكذا يمكن مشاهدة مالم يسبق تحقيقه بواسطة التصوير بالأشعة - الأورام الخوخة - تشويهاات اوعية الدم وكل امر هام يجب اكتشافه بسرعة لاتخاذ المريض .

وتتناول هذه الطريقة كالاتي :

يمتص المخ الأشعة عند مرورها ، كما يقيس جهاز الكاشف أهمية هذا الامتصاص للأشعة . اما المحول المستخدم بالجهاز فيحول الفرق الحادث الى ارقام حتى يمكن دراستها ومعالجتها بواسطة استخدام العقل الإلكتروني . تم تفر اسطوانة الفيديو هذه الارقام الى صور واضحة على شريط مغناطيسي لتسجيل صور التلفزيون . كما يأمل الذين يستخدمون الأشعة توسيع تطبيق هذه الآلة في اجزاء اخرى من الجسم .

❖ علاج المرضى المصابين بسرطان الرئة :

ان الجراحة في الوقت الحاضر هي العلاج الوحيد الذي يستطيع شفاء عدد من مرضى المصابين بسرطان الرئة .

في مركز جراحة ماري - لا نوبلوسج في باريس، أجريت عمليات لآلي مصاب بالسرطان البديائي في الرئة وقد شفى ٢٣٪ من الذين أجريت لهم عملية منذ خمس سنوات على الأقل . أجريت عمليات اخرى لآلي وستة مرضى مصابين بداء السرطان الثانوي « ميتا ستاز » وقد شفى ٣١٪ من الـ

التحضير تبعا لهذا التكنيك - كما اثبت هذا التكنيك من الامكان وبدون اى مصاعب دراسة هذه العينة المحضرة والمنتجة بهذه الطريقة Cryodécapage بأنها تعطي صورة

حقيقية للخلايا والأنسجة الحية . وبهذا يثبت بأن العينات لم يحدث ولا يطرا عليها اى تعديل أثناء التحضير بطريقة Cryodécapage

وفحصها باستخدام الميكروسكوب الإلكتروني. وهنا أود اوضح ان الميكروسكوب الإلكتروني عند تشغياله يستخدم الشعاع الإلكتروني بدلا من الشعاع الضوئي كما في الميكروسكوبات الضوئية .

❖ تكنولوجيا الاشعاع وعلم الكيمياء في

معالجة الامراض السرطانية وغير السرطانية .

تستخدم طريقة تكنولوجيا لمعالجة بعض الحالات الشاذة لآوعية المخ . وهذه الطريقة التكنولوجية الجديدة لا تحتاج الى ضرورة اجراء عملية جراحية للمريض . حيث ان هذا التكنيك العلاجي بواسطة الفحص الاشعاعي يتم عن طريق اعطاء فرصة للاشعاع كي يتخلل الى الاوعية المصابة مستخدما ساير الكترونيك مغلي بغطاء على شكل بالون . ينفخ بعد ذلك الغطاء ويكون بمستوى جرح الاوعية التي تحت العلاج مما يحدث سدا للقرح مع المحافظة

على امتداد الشريان ، وهذا يسمح بتأمين وصول الاوكسجين بشكل جيد . كما ان هذا التكنيك الحديث مخصص حاليا لمعالجة الشقوق الناتجة عن رضوض الوجه وعدد من اشكال القروح التي تصيب شريان القلب والتي لم تكن لوقتنا الحاضر قابلة لاجراء عملية بواسطة جراح الانسداد ، وعملها غير قابلة للعلاج بأى طريقة اخرى . ومع ذلك فيالامكان توسيع نطاق هذا التكنيك في حالات عديدة قبل اجراء عملية جراحية من اجل البحث عن افضل مكان لاجراء العملية بمستوى اوعية المخ وذلك لعدم اضرار مرور شريان القلب.

أجريت لهم عمليات تعود الى ثلاث سنوات على الأقل. أما الوفيات خلال العمليات فلا تتجاوز ٢٥٪. يعود التقدم الذي تحقق في هذا الميدان خاصة الى معرفة المرض باكرا كما يعود الى مراقبة عدد من انواع السرطان المتطور والى علاج كيميائي أكثر فاعلية واخيرا الى تحسين طاقة العلاج بواسطة الكوبالت الاشعاعي.

شدد العالم بوبار (باريس) على ضرورة الجمع بين عدد من الادوية التي يعتبر تأثيرها المشترك له فاعلية أكثر من تناول كل علاج على حدة. وبهذه الواسطة يمكن للعلاج الكيميائي أن يأمس القضاء على الخلايا السرطانية بشكل اهم. كما تبين أن العلاج بواسطة الاشعة يمكن أن يستخدم بين مرحلتين من العلاج بواسطة الادوية الكيميائية... ومع ذلك، يجب أن يستخدم في البدء عندما تسد القرحة شعبة الرئة وتؤدي الى التنفس، من ناحية اخرى، يعتبر العلاج بواسطة الادوية الكيميائية مفيدا بعد انتزاع القرحة السرطانية. اما النتيجة فتتضمن بمعدل خمسين في المائة وبماكتها كذلك استئزادك او تخفيف الانتكاس.

✻ معالجة سرطان العظام :

يسفر هذا النوع من السرطان عن ظهور مرض الرئة. ولفتت الأنظار خاصة للاعمال التي يقوم بها العالم جافية وقرية في الولايات المتحدة، وهي تناول استخدام العلاج الكيميائي بالادوية الكيميائية في البداية وذلك لوقف نشاط ظهور المرض الذي لا يزال في حالة بسيطة. وهكذا يبدو ٦٠ الى ٨٠ في المائة من المرضى الذين يعالجون بهذا الشكل في حالة مرضية (طبية) بعد مرور اربع سنوات من اجراء العملية الجراحية، ولا يبدو لديهم علامات ظهور المرض، بينما تبلغ هذه النسبة ٢٠٪ لدى المرضى الذين يعالجون بالجراحة فقط.

دعت هذه النتائج الإيجابية الى محاولة استخدام هذا العلاج مع المرضى الذين استؤصلت الاورام لديهم مع المحافظة والعناية على العضو المصاب والزود ببدة عظمية للحماية وتحل مكان قسم الورم المقتوع. كما تدل ملاحظات اخرى تناول معالجة اورام المبيض والامعاء الغليظة والمعدة والرئة لدى عدد محدود وخاص، تدل على اتجاه أطباء السرطان حاليا هو اتجاها يهدف الى عدم الاقتصار على العلاج المحلي بواسطة الجراحة والاشعة، وانما للاستعانة ايضا بعلاج كيميائي عام لمهاجمة المرض عندما لا يمكن ادراكه وهو موجود. كما سيسمح هذا الشكل الجديد لمكافحة السرطان الثانوي بمساهمة المرضى مساهمة فعالة وحقيقية في علاجه، كما يمكن بهذه الطريقة أن تعطى فرصة طبية لاجراء عملية تعديل كاملة وتحسين العلاقة بين المريض وأطبائه.

قدم كل من الطبيب دويارك وديكولكس تقريرا بين التقدم التكنولوجي الحديث في مكافحة السرطان الثانوي (ميتاستاز) للعظم. يمثل السرطان الثانوي المعروف بالتكوين البدائي السرطاني انتقالا و مراكز ثانوية للاورام الخبيثة التي تبدو في موقع بعيد عن المنظمة في البدء.

يقدر الطبيب دويارك والطبيب ديكلوكس أن عشرين بالمائة تقريبا من الأشخاص المصابين بالسرطان قد عرفوا الاعابة بظهور السرطان الثانوي للعظم.

تؤلف الخلايا السرطانية مجموعات بمستوى العظم وتسفر عن تحطيم تدريجي للنسيج العظمي والذي يترجم بشكل كسور. بين عام ١٩٦٠ وعام ١٩٧٠ أدخلت الفنون التقليدية لجراحة النسيج العظمي هذا العلاج الجراحي في حالة ظهور علامات السرطان الثانوي للعظمي ولم يكن يعرف قبل ذلك غير العلاج بواسطة تنظيم التشويه عن طريق تجميد العضو

الموضوع بطريقة مركزية داخل قالب استباقي من الصليب اللين ومن الضروري بعد ذلك ان يجرى اجراء البلمرة تماما لمركب الاسمنت الاكريليكي وذلك ا زمن براوح ما بين ٢٠ دقيقة او اكثر .

❖ امراض الثدي

نجد هنا مدى اهمية تكنولوجيا العصر في التوصل السريع والكشف عن الجروح في النسجة الثدي حيث ان امراض الثدي « الطفيفة » نجد لها اهميتها وخطورتها . لان مضاعفة الاورام غير السرطانية والتي تعتبر في البداية ليس لها اهمية يمكن ان تؤدي الى استئصال الثدي بشكل كامل . لذلك من المهم ان نتوجه الى علماء تكنولوجيا العصر لخدمة هذا المجال . اشار اطباء امراض الثدي الى انه من المهم الكشف سريعا عن الجروح في النسجة الثدي . وهنا تتدخل تكنولوجيا العصر لتجد الطريق السليم لانقاذ المرضى . يجرى جمع المعلومات المتعلقة باستخدام وسائل تكنولوجيا العصر للفحص وذلك للحصول على خلاصة نتائجها بغية الكشف عن اصفر ظاهرة مرضية .

اعدت طريقة للفحص ولا تزال في مرحلة الاختبار ، وهي تتناول تسجيل ومقارنة تبدلات القوى الكهربائية البيولوجية بمستوى الثدي ، ويسمح ذلك بتحديد الثدي الطبيعي والثدي المريض ، وذلك تبعاً لاهمية التغير المحفوظ في النسجة . كما امكن تحديد اصل عدد من الاورام الصغيرة التي تبدو في الثدي على سبيل المثال ، نذكر منها ان الاكساي لا تتطور اطلاقاً نحو السرطان ولكن يعود اصلها الى عوامل نفسية وجسدية . نتيجة ذلك ادت الى الاهتمام بدراسة وفحص خطوط الجلد والاصابع واليد بكاملها لدى ثلاثة آلاف امرأة فقط لوحظ ان عددا من هذه الخطوط يدل اتجاه « تجسيد » للمواقف والاجهادات على الصعيد الجسدي . وفي الوضع الحالي لهذه الاعمال ، قدر ان بعض الحالات الخاصة من الامكان ان يشار اليها وهي قابلية الاصابع

المصاب بالجنس . في الوقت الحاضر - تطورت فنون تكنولوجياية التحطيم التدريجي للنسيج العظمي او البدلات الخاصة بكسور العظم . وهي تحمل املا جديدا للمرضى . يمكن هذا الامسك بامكانية الانتقال بحرية وبدون خطر يهدد اكسار العظم . يحل هذا الفن فوائدا جديدة كما بين اهمية تكنولوجيا علم البوليمر في العلاج الطبي الحديث والتي ساعدت هذا الشكل الجديد للعلاج .

وهناك اولا استخدام الاسمنت الاكريليكي ، حيث يجرى حفر العظم المصاب وبملا الفراغ بالاسمنت . وبالامكان كذلك استخدام مسام في عظم المصاب ، وتجرى تقويته كذلك بالاسمنت الاكريليكي .

وبالامكان كذلك بالاستعانة « بالتحطيم الشامل » الذي يؤمن صلاحية فورية ويسمح بالحصول على تقوية العظم بحيث يستطيع المقاومة فورا وطوال فترة طويلة امام الحركات الميكانيكية التي يخضع لها . اما جراحة استبدال الاعضاء فتمثل شكلا آخر للعلاج ويوصى بها : ان تقوية البدلات بواسطة الاسمنت الاكريليكي هي عبارة عن عنصر اساسي لتجачها . ويعتمد الاسمنت الاكريليكي الجراحي على مادة بولي ميثيل ميثا اكريلات وتستخدم كمادة لمركيبن ، في احدى المركيبن تكون جزئيات سلفات الباريوم منتشرة داخل المادة الاساسية . وتخلط كمية معلومة من جزئيات سلفات الباريوم بيودرة البولي ميثيل اكريلات وينضاف بعد ذلك سائل الميثيل ميثا اكريلات للخليط بالنسبة الآتية :

جزءان من بولي ميثيل ميثا اكريلات
وزناً .

١ - جزء من سائل ميثيل ميثا اكريلات
وزناً .

وبعد ذلك يخلط الخليط جيدا وان يكون في حالة رخوة ويضغط حول قضيبي من الصلب

ومع مراقبة طبية سليمة ، ليستطيع الحياة بشكل عادي على قدر الإمكان .

❖ التكنولوجيا وميدان طب الإنسان :

أقيم في عام ١٩٧٤ المؤتمر الثاني الوطني لجمعية طب الإنسان الفرنسية في قصر المؤتمرات بباريس وتناولت أكثر المذكرات العلمية نزاع اللغة من الإنسان وأصابتها بالقرع وبنسبة هامة . توازي إصابة الإنسان بالقرع كمية استهلاك السكر . كما لا يوجد أي لقاح ضد قرع الإنسان ، ومن أجل تجنب هذا المرض ، لا بد من المحافظة على الأنظمة الصحية والأساسية لتنظيف الإنسان مراراً كل يوم وذلك لمنع ظهور طبقة تتراكم فوق الإنسان . كما يعتبر نزاع اللغة عن السن مسؤول عن استئصال عدد كبير من الإنسان .

وإذا عني بالإنسان باكراً بالامكان شفاؤها وذلك بفضل جراحة تسمح بالقضاء على رسوب الطرارة فوق اللثة . أما أفضل وقاية لهذه الظاهرة فهي نظافة الفم . وبهذا الشأن أيضاً أسفرت عدة أبحاث عن أعداد بدلة الإنسان أي جهاز صغير يقوم مقام عمل السن وأوضحت النتائج بأننا الآن نشهد نهاية أسطورة الذهب . الواقع أن هذا المعدن الثمين يستبدل أكثر فأكثر بمزيج يتركب من أساس يعتمد على النيكل والكروم - تملك هذه السبيكة مميزات مماثلة ولكنها أصعب أعداداً لأنها أقل ليونة . ومع ذلك يعتبر سعرها أقل ، مما يسمح بتحقيق توفير هام عند أعداد بدلة للإنسان . تمكن حوالي سبعمئة طبيب إنسان بكلية جراحة الإنسان بجامعة باريس من إجراء دراسات تكتيكية تراقبها بيانات واقعية عن تأثير الطبقة الصفحية الشكل التي تغطي السن والتي تحدث التسوس والتخثر وتجريد الأسنان . كما أنه من السهولة أن يتمكن الإنسان من مقاومة تسوس الأسنان والتخثر وذلك بالعناية الصحية على الإنسان . كما أن تنظيف الإنسان

لامراض الشدي الطفيفة نتيجة للاعراض السابق ذكرها .

في نطلا... الحوادث التي تمت بفرنسا (باريس) بشأن مرض السرطان والمصابين بداء السكر وبناء على طلب العالم ماتيه حاول اخصائيان وهما جاكلين فاير وهينريكا أونج تحديد نسبة المصاب بداء السرطان وقد وضعا على التوالي مختلف المراحل التي يتعرض لها المصاب بداء السرطان .

عندما يتكشف المصاب بداء السرطان حقيقة مرضه ، فإنه سيواجه مرحلة انهيار عصبي قبل أن يتملك نفسه . عندئذ من الضروري تخفيف حدة مخاوفه والحديث عن علاجه والحديث مع غيره من عائلته . لانه في حاجة للثقة بالطبيب الذي يقوم بعلاجه وأن يحصل على طمأنينة فعلية من طبيبه . وتحت هذه الظروف في الامكان ان يتعاون مع الطبيب لمكافحة المرض . وبالتالي عندما يتأكد ويعرف ان جميع التدابير قد اتخذت لتخفيف من آلامه الجسدية والنفسية، عندئذ يقل قلقه ويأسه . كما أصبح كثيراً كل من الطبيب جاكلين فاير وهينريكا أونج بضرورة التحدث بين مرضى السرطان وعائلاتهم وكذلك الاطباء أيضاً وذلك لتخفيف حدة المرض لديهم . والواقع أن المرضى بداء السرطان ينتظرون من الهيئة الطبية وكذلك من الذين يجاورونهم وعائلتهم قوة الكفاح معهم .

كما أوضح كل من السادة تشوبرتسكي، لورانت ، دروين وتوتان ضرورة تعليم المصابين بداء السكر منذ البداية ماهية مرضه وكيفية معالجته . كما من الضروري والواجب ان يتخذ هذا التعليم شكلاً جدياً وعملياً وعلمياً . وهو يحتاج الى عشر ساعات تقريباً . وتكمل هذه الدراسات بتوزيع منشورات خاصة على المرضى بداء السكر . وبالنسبة للمرضى الذين يحتاجون لاستخدام الانسولين ، يجب ان يتلقى المرضى الاشراف بنفسه على احواله

دوليا شهيرا في ميدان امراض الفم والاسنان ، وتناول قسم هام من ابحاثه كيفية تركيب السن . وقد كرس أحدث أعماله وتجاربه العلمية البحوث لحركة انتقال المواد الكلسية بمستوى مختلف اطراف السن . كما تناولت أبحاثه بعد ذلك بواسطة استخدام المجهر الإلكتروني الماسح (التصوير بالأشعة) . تحفت هذه الاعمال في اسنان القط المولود بعد حقن شرايينه بالكلس المشع من نوع (Ca 45) ، وبرهن العالم فرانك عن وجود طريقتين لمسور الكلس (الكالسيوم) من شرب الدم الى الانسجة التي يتوحيها الكالسيوم المشع . يمر الطريق الاول بين خلايا النسيج والثاني عبر الخلايا المسؤولة عن تركيب العظم . اما قوة وطريقة هذا العمل فتعود لآلياته ان الطريق الثاني هو اهم من الطريق الاول . تتحقق هذه الاعمال والأبحاث بواسطة الحيوانات المولودة ، وهي تقدم معلومات ثمينة حول تركيب الاسنان .

والتطبيقات العملية لثل هذه الاكتشافات من الامكان ان تتضاعف وخاصة في ما يتعلق بآلية ظهور وعلاج تركيب السن والانسجة الخاصة التي تعتمد عليها السن عند الظهور .

كما تحدث ايضا العالم بيار فوهر عضو الاكاديمية الوطنية لطب الانسان بفرنسا عن طريقة جديدة تتناول استخدام أكسيد الكالسيوم الثقيل أو الهيكسوكاليس، اكتشفت هذه المادة الجديدة عام ١٩٧٢ من قبل العالم بيار برنار من باريس. وقد درسها فريق يتألف من ستة باحثين تمكنوا من تنظيم استخدامها بشكل علمي . وقد استخدم الهيكسوكاليس لمعالجة ١٦٠٠ شخص تقريبا . سمع له ذلك بالقول ان هذه المادة يمكن ان تستخدم بشكل فعال في جميع حالات معالجة الاسنان .

ان امكانيات هذه المادة ليست شئيلة ، وهي تشمل القضاء على جميع الادوية وتخفيض استخدام الادوات اليدوية ، وكذلك تخفيض

بانظام يكفى في الحقيقة لمنع ظهور هذه الطبقة الصفحية فوق الاسنان . وهي تتألف بنسبة ٨٠٪ من جراثيم . وفي الواقع هذه الجراثيم تنتهي بمهاجمة الانسجة التي تسند السن ، وبالتالي تحمي هذه الانسجة وتصبح غالبا مقرا للعدوى قبل ان تفقد الطاقة الكلية التي تسند السن قبل الوقوع .

ومن اهم الاستنتاجات التي اسفرت بهذا الاجتماعي العلمي التكنولوجي في ميدان طب الانسان :

— مواد جديدة للأجهزة التي تقوم مقام السن وذلك للحماية وتسمى بالبدة وملء السدود . كما هناك اصماغ جديدة لها قدرة الالتصاق بالسن بشكل افضل ومن اهم مميزاتا بأنه ليس من الضروري عمل اعداد خاص . وقد اوصى باستخدامها .

— زرع الاسنان ، ويعتبر من التجارب التكنيكية الحديثة، ويمثل ذلك جلدور صناعية حقيفة كما تستخدم كاساس للجهاز الذي يقوم مقام السن أو علبد من الاسنان (البدة) ويوضع على جانبي العظم ويثبت في مستوى سمك العظم ، ويبدو ان الاتجاه السائد نحو استخدام الفحم الزجاجي .

كما توصلوا بأنه يوجد تأثيرات جانبية اخرى وذلك لالتهاب الاسنان ، وبالامكان ان يكون هذا التأثير على القلب وادوية الدم والعظام والكلية والعين أو الجلد .

في الوقت الحالي — ولثل هذه الحالات — لا بد من العمل بجد شديد وعدم التفرع الاسنان بدون تيمر . وبناء على ذلك يجب تحديد الموقف بدقة سواء لانتزاع الاسنان أو حفظها تبعاً للخطر الذي يمكن أن يكون حيويًا.

يعتبر الاستاذ دكتور روبرت فرانك مدير كلية جراحة الاسنان في ستراسبورج ، اخصائيا

نسبة اجراء العمليات الجراحية ، ومن شأنها كذلك ان تضاعف نمو العظم من جديد .

ايضا اسفرت عدة ابحاث عن التغيرات الحادثة في تركيب ودرجة نفاذية العاج الخاص بأقنية جذر السن بعد تعرضه للحوامض الضعيفة والمواد المطهرة بالنتائج الآتية :

— ليونة عاج جذر السن بواسطة المواد الكيميائية يقلل الوقت اللازم لعملية توسيع قناة الجذر ميكانيكيا . كما وجد ان درجة ليونة العاج تتناسب طرديا مع وقت الانغماس ولذلك حيد استعمال اى مادة من مواد البحث لمدة ١٥ دقيقة فقط .

— ليست عملية تحديد الوزن المفقود طريقة دقيقة لمعرفة تأثير المادة على علاج جذر السن، ولكن قياس ايونات الكالسيوم الموجودة في خلاص الكالسيوم المترسبة تعطى شواهد افضل لتحديد تأثير المواد المستعملة في البحث على عناصر العاج غير العضوية . ومن الواضح من نتائج البحث ان كل المواد المستخدمة تعطى زيادة في ايونات الكالسيوم بعد مضي ٢٤ ساعة مع تغير بسيط فيها بعد مضي ٤٨ ساعة — ومن ضمن النتائج ان تحديد وضع استعمال اى مادة يعطى تفاعلا محدودا .

— منحتيات ونتائج تحليل حيود الاشعة السينية (اكس) اعطت اجابة واضحة عن التفاعلات والمركبات الجديدة الناتجة بين عاج جذر السن وبين هذه المواد .

— كما وجد ان اساس كل المكونات الجديدة الناتجة هي خلاص الكالسيوم ، وان التغيرات في نوسفات الكالسيوم القاعدية (اساس تركيب السن) تغيرات بسيطة وكل التغيرات تمت في مركبات اخرى مثل هيدروكسيد الكالسيوم .

— درجة نفاذية الصيغة تتناسب طرديا مع وقت الانغماس وهذا يعطى شواهدا جديدا على

استعمال المواد الكيميائية قبل استعمال المواد المطهرة .

— وجد ان اى مادة كيميائية تستعمل يجب الا تتعدى حدود قناة العصب حتى لا تسبب اى الم المبريش في بادئ الامر .

— كما نستطيع القول بأنه لم يستقر الامر بعد على شكل وضع هذه المواد عند استعمالها اكلينيكي . ان استعمال كمية هذه المواد في التجارب العملية كانت اكثر بكثير من كمية المادة اللازمة عند استعمالها اكلينيكا، ولكن هذه الكميات يمكنها ان تعطينا فكرة عن التغيرات التي ستحدث في عاج السن .

ومن التحليلات الاحصائية ومقارنة حامض الخليك ١٠ في المائة ، ٢٠ في المائة وثلاث مواد اخرى متداولة مثل :

EDTA - ENDOSOLVE - LARGALULTRA

وجد أنه يفضل تكرار استعمال حامض الخليك كمادة كيميائية لعملية التوسيع الكيميائي الميكانيكي اللازمة في قنوات السن .

❖ الصحة العامة وطب الأطفال

عرفت ابحاث الكلية خلال السنوات العشر الاخيرة تقدما خاصا فيما يتعلق بامراض الكلية والضغط . اذا كان قد تحقق في الواقع تقدم مدهش للعلاج بواسطة الكلية الصناعية وتعليم الكلية . ولا تزال هذه الوسائل مسكنة كما تمثل حولا مؤقتة . ان الوقاية من امراض الكلية ترجع عامة لفضل الدراسات والابحاث المتعلقة بالوراثة خاصة ، كما انها ستسمح بتخفيض نقص عمل الكلية لدى الطفل وبالتالي لدى البالغين .

اوضح العالم جون هامبورج عضو اكاديمية العلوم ومدير مركز ابحاث امراض الكلية في مستشفى نيكس بباريس وذلك كان خلال المؤتمر الذي عقد بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس

المرض ، وبالفعل ظهرت فعاليته بإيقاف الوباء الأخير الذي حدث في البرازيل .

ذكر العالم تريو من مؤسسة ميريو أنه إذا كانت الاوبئة الكبرى المعروفة مرتبطة بالجراثيم من نوع ١ ، س ، فلا يمكن التأكد بأن الجرثومة من نوع ب تعتبر مسؤولة لوحدها . في فرنسا جرى احصاء كل عام وذلك من الألف الى الألف وخمسمائة إصابة ، كما لا يمكن التأكيد بأنها لن تتخذ يوما هذا الشكل من الانتشار . في الوقت الحالي لم يتمكن التحقيق وتصنيع الطعام المقابل . وأما فيما يتعلق بمرض الانفلونزا وذلك خلافا لانهابات الأغشية المحاطة بالبحر ، لا يوجد حاليا أى علاج .

يقضى داء الانفلونزا في فرنسا كل شتاء على ٨ - ١٨ ألف شخص وبينهم ٩٠ ٪ من الذين تجاوزوا الستين عاما . أما التطعيم فيبدو أفضل الأعمال . ذكر العالم هاتون من مؤسسة باستير ما يلي :

إذا كانت حماية التطعيم ضد الانفلونزا في البداية غير كاملة (جرعة التطعيم) قليلة مع عدم معرفة سلوك تطور الجرثومة التي تعتبر أصل الوباء . أما اليوم فيفضل تطور نسون تكنولوجيا التقنية سمحت لنا باستخدام جرعات منتجة وذات فعالية قصوى مع اختفاء كل الأضرار تقريبا التي كانت سابقا تنتج عنها .

منذ شهر نوفمبر ١٩٧٥ ولان يجري بتسم الأمراض المعدية في قسم البحث الطبي الاجتماعي ، وهو تابع للمؤسسة الوطنية للبحث الطبي لأوروبا ، تحقيق يعتمد على نسبة تغيب الطلبة عن حضور الدروس وتعتبر هذه النسبة من التغييب دليل على أهمية انتشار وباء الانفلونزا ، من أجل هذا التحقيق ، جرى اختيار تلاميذ الصف الأول والثاني في المدارس الابتدائية . وتتراوح اعمارهم بين السادسة والثامنة ، وهو السن الذي تعيبه عادة أمراض الأطفال المعدية (الحصبة

المؤسسة الوطنية للصحة العامة والبحث الطبي ، فان زيادة نسبة البولينا في الدم ليست ناتجة عن تجمع المادة البولوية من البولينا نتيجة ضعف الكلية لدى الإنسان السليم فقط بل أنها تقضى على هذه المادة أيضا . وأن كثيرا من ذلك برهنت الأبحاث التجريبية خلال سنوات عديدة على أن عجز وظائف الكلية يؤدي كذلك الى سلسلة متوالية من الخلل أو عدم الاتزان الى المواد الهامة والتي يعتمد عليها أساسا الوسط الداخلي لجسم الإنسان مثل الماء والصدوديوم واليوتاسيوم والكالسيوم والمغنيسيوم وغيرها من المواد الثابتة . وبرهنت الأبحاث التي تتعلق بأمراض الكلية والتي حققها عدد من الفرق العملية البحثية من العلماء الفرنسيين والمتخصصين في هذا الفرع على ما وراء « أزمة الكلية الحادة » من امراض خطيرة تؤدي في النهاية لوفاة الرضى . وهذه الأمراض المختلفة تهاجم الكلية وتحدث فيها اصابات . وأن معرفة كل من هذا الخلل وعدم الاتزان في المواد الأساسية في تركيب جسم الإنسان بشكل أوسع وكذلك البحث عن اسبابه (يتعلق الامر غالبا بالمناعة) يعتبر لازما للعلاج وكذلك للوقاية من هذه الأمراض . ويحاول علماء الكيمياء عزل المواد السامة واحدة بعد الأخرى وهي التي تجرى مع الدورة الدموية وتعتبر مسؤولة عن الخلل القاتل . ان الكلية الصناعية وحدها هي التي تستطيع حاليا تحقيق عملية التنظيف .

أما فيما يتعلق بأمراض التهاب الأغشية المحاطة بالبحر ، نجد حاليا أن يعاد استخدام المضادات الحيوية والسولفا ميد لعلاج مثل هذه الأمراض ، وبالتالي نتج من ذلك أن نسبة الوفيات تناقصت من ٨٠ الى ٢٠ ٪ في المائة ومع ذلك لا تزال هذه النسبة مرتفعة ، ولكن ذلك يعود جزئيا الى قدرة الجرثومة المدهشة والتي تسبب هذا المرض وأصرارها على الحياة والتطور بسهولة لمقاومة العلاج . فاهتم الباحثون بتصنيع طعم خاص للوقاية من هذا

الطفل . ولا يوجد مثيل لهذا المركز في فرنسا نفسها أو الخارج أيضا ويديره العالم الأجيل.

اسفر وجود هذا المركز ، نتيجة تعاون بين الخدمات المتخصصة بالمستشفى ، عن دراسة التشخيص والأسباب لأمراض الكبد لدى الطفل ، وبين وحدة أبحاث أمراض الكبد لدى الطفل . وقد أنشئت هذه الوحدة من الأبحاث التي تتعلق بأمراض الكبد بالمؤسسة الوطنية والبحث الطبى عام ١٩٦٩ .

عقد القسم الاول من هذا الاجتماع الدولى تحت رئاسة العالم روبر دى يرو فى قصر اونج شامب حيث يوجد هناك مقر المركز الدولى للطفولة . وفى هذا الاجتماع الدولى اجتمع خمسة عشر امريكيا وخمسة عشر اوروبيا . اما المرحلة الثانية فقد عقدت داخل مقر وحدة أبحاث أمراض الكبد لدى الطفل . سمع مؤتمر المؤسسة الوطنية للصحة والبحث الطبى لعدد كبير من الأطباء والباحثين بالمساهمة فى اعمال القسم الاول .

ترتبط احدى الاعمال الجديدة لهذا اللقاء بتنوع الأبحاث العلمية . كما ضم الاخصائيين فى الكيمياء الحيوية وفى علم المناعة وعلم الجراثيم وكذلك الاخصائيين فى علم التشريح - والأمراض أو الأطباء المتخصصين فى أمراض الكبد لدى البالغين أو الاطفال - وفى هذه المناسبة قامت فكرة السباق الاساسية للتقدم التكنولوجى ودورها الهام فى البحث الطبى.

واشار العالم جوى جود لويسكى الى موضوعين حديثين يتعلقان بالعلاج بواسطة المياه المعدنية : التهاب الكبد الجسرومى والانفعالات الغذائية للطفل ، وبالأمان يؤدى موضوع الانفعالات الغذائية لدى الطفل الى إنشاء مستشفى خاص لاجل معالجة اضطراب الهضم لدى الطفل .

التقى حوالى عشرة الاف طبيب من جميع بلدان العالم لتبادل معلوماتهم وخبرتهم فى

- التهاب لوزنى الاذنين الخ) فى فرنسا مثلا اختيرت ١٢ مدينة . من بينها نانت ، بوردو ، مونبيليه ، ليون وغيرها من المدن . وفى هذه المدن اجرى مراقبة ستة آلاف طفل تقريبا . وفى كل صف يحدد يوميا عدد الفالبيين وما سبب التقيح عن الدراسة . وعندما تتجاوز نسبة الفالبيين ١٥ ٪ يتوجه شخص مكلف بالتحقيق الى المكان الذى يقع فيه الفياح من اجل تحديد ومعرفة ما اذا كان الامر يتعلق بوباء الانفلونزا . وفى حالة تحديد المرض ويشخص على انه بالفعل وباء الانفلونزا يتناول الخطوات الهامة الآتية :

يجرى التقاط بصاق الحلق لدى الاطفال المرضى وكذلك كل من يجاورهم من العائلة ، ترسل جميع هذه الانار الى مؤسسة باستير فى باريس أو الى مركز مراقبة وباء الانفلونزا أو الى المختبر الوطنى للصحة العامة وهى مختبرات تضم قسم الاوبئة . وبالتالي تقوم جميع الفحوصات اللازمة لعزل عدد من انواع جراثيم الانفلونزا ودراستها دراسة بناءة . ونتيجة لهذه البحوث العميقة سمحت النتائج بمعرفة اتناء هذه الجراثيم الى نوع ١ - فيكتوريا او نوع الثانى من ب .

وبالتالى استطاعوا ان يحددوا نوع الجرثومة التى ينتمى اليها وباء الانفلونزا ، ومن هذا المنطلق بدأت المؤسسات الصحية فى صنع الطعم الخاص لوباء الانفلونزا واستخدام العلاج الكيمىالى السليم للقضاء على هذه الانواع من وباء الانفلونزا .

امراض الكبد لدى الاطفال

عقد فى اوربا اجتماع دولى خصص للحديث عن امراض الكبد ومجارى الفدة الصفراء لدى الطفل وكان مقره فى باريس بمستشفى الاطفال بالضاحية الجنوبية . حيث اقيم خلال السنوات العشر الاخيرة مركز أبحاث لدراسة امراض الكبد ومجارى الفدة الصفراء لدى

في الحقيقة ، يعود أكثر حوادث التهابات مجرى التنفس لدى الأطفال والرضع ، كما تعود تقريبا كل إصابات الأنف والحنك ورأس الحلق وشعبة الرئة إلى أصل جرثومي . وبالتالي تكون المضادات الحيوية والتي تخفض الحرارة (الحمى) ليس لها تأثير على هذه الأمراض بشكل عام .

بالنسبة لاصابة الأطفال بارتفاع الحرارة لمدة طويلة غير معروفة السبب . في هذه الحالة يخشى أن تعطى المضادات الحيوية للطفل لأنه من الاحتمال أن تعطى نتائج خاطئة أو سلبية بالنسبة للفحوص البيولوجية اللازمة للعلاج السليم . اما فيما يتعلق بإجراء عملية جراحية قادمة أو طفل يتناول أدوية كورتيزونية أو ممانعة للأنهيار العصبى ، يعتبر تطور التندبات الصحية الشديدة ، وخاصة في المستشفى ، أكثر فعالية وأقل خطورة من العلاج الوقائى بواسطة أدوية المضادات الحيوية .

حقق فريق مؤسسة باستير بفرنسا بإدارة العالم فرانسوا جاكوب الحائز على جائزة نوبل الطبية - والعالم روبير فور اكتشافا هاما في علم الحياة . سمح هذا الاكتشاف بإدراك سبب عدم تأثير مناعة الجسم على الجنين لدى المرأة الحامل وكذلك على السرطان في الجسم ، بينما تعتبر هذه المناعة سبب لغط الطعوم لأعضاء خارجية . وبالمقابل لم يكن الوقت الكفول ما إذا كان هذا الاكتشاف يمكن أن يساهم في معالجة السرطان . وقد تركزت البحوث التجريبية الأخيرة على مسيد البحث الطبى على موضوع الخلايا التى بدلت نظريات الوراثة والفسىولوجيا وعلم الأمراض بكامله . كما اشار البحث الى علم المناعة مع الاكتشاف الهام الى علم الاجنة مع تضمين الأمراض في ذرات الخلايا قبل الولادة ، وكذلك الى علم الهرمونات مع الوسائل الحديثة لمنع الحمل .

تطابق الميدان الطبى والعلاج والجراحة والاختصاصات التكنولوجية العصرية وأمراض الفم والأسنان . وتم نقاش أربعة أبحاث حول مواضيع الساعة (المسؤولية الطبية ، ومنع الحمل - حوادث منزلية لدى الطفل ، مراقبة وصف الادوية وعدم الإفراط في تناولها - المصابون بداء المفاصل الروماتيزمية) . كما تناول النقاش أيضا جميع ميادين الجراحة العامة والصحة العامة والاختصاصات، وخاصة طب الأطفال، والتوليد وأمراض الفم والأسنان اما في مركز المستشفى الجامعى - بيتيه - سالبتيير فقد جرى نقاش حول الإفراط في استخدام المضادات الحيوية لدى الطفل . حيث انه بعد ثلاثين عاما من اكتشاف هذه الادوية، تبدو باستمرار ضرورة تعلم استخدام هذه الادوية بطريقة منتظمة وبدون افراط . لان الاستخدام غير المنتظم والافراط في استعمالها لا يؤدي فقط الى الاستهلاك المادى (المالى) ، بل يؤدي أيضا الى المضاعفات المتزايدة والخطرة كبدور المقاومة المختارة والبارزة من الانسان ، وهي تبعد عن كل مشروع علاجي . هذه السعة من المقاومة للمضادات الحيوية تعود الى الإحماض المحتوية على « بكتيرياات » في النسوة للخلايا الحية او (بلاسيد) وبصورة عامة - من الضروري أن تستخدم المضادات الحيوية بطريقة سليمة والتي تستخدم بدون تمييز على سبيل الوقاية أو قبل معرفة ما إذا كانت هذه الجرثومة هي المسؤولة عن المرض ، وكذلك نوع هذه الجرثومة . يقدر علماء الجراثيم انه لا يصح استخدام المضادات الحيوية - أى الادوية المقاومة لحرارة الجسم - « للتغطية » كما يجب عدم استخدامها على سبيل الوقاية ، إلا في حالات محددة بعد معرفة نوع الجرثومة المطابقة للمرض والمقصود مكافحتها . كل هذا يعنى عدم اللجوء الى المضادات الحيوية قبل معرفة الجرثومة ونوع حاسبتها النسوية للمرض نفسه .

الذهنية والسكرية بشكل مبالغ فيه يؤدي كل هذا إلى الاضطرابات الخطرة بجسم الإنسان . وبالتالي لابد من تنظيم تربية حقيقية للتغذية تسمح بالمحافظة على التوازن الغذائي للإنسان . بمعنى أنه منذ الطفولة ، لابد من بدل تربية غذائية صحية للطفل ، مع دراسة دور الفيتامينات وتأثيراتها سواء كان الأمر يتعلق بوجودها في العناصر الطبيعية أو حفظها في المواد الصناعية أو تأثيرها بواسطة المنتجات الصيدلانية .

عقدت اجتماعات في أوروبا وكان مقر هذا الاجتماع في باريس لدراسة أبحاث التغذية المتعلقة بالصحة الغذائية . وقد نظمت أخيراً من جانب اللجنة الوطنية للطفولة والمركز الوطني لتنسيق الدراسات والأبحاث المتعلقة بالتغذية خلال ثلاثة اجتماعات شدد المشاركون على ضرورة تعديل السلوك الغذائي للأطفال والبالغين ، وذلك بتحقيق تطور في تناول الغذاء الصحي وكمية السعرات اللازمة للطفل . حيث أنه من الملاحظ أن الأطفال في سن الرابعة قد اعتادوا أكل الطعام المالح أو الحامض على كثير من السكر مع عدم شرب الماء .

أشار العالم روسيه رئيس أطباء مستشفى سان فانسان دي بول بباريس خلال اجتماع اللجنة الوطنية للطفولة وذلك لدراسة تغذية الشباب ، ذكر أن ثلث حالات البدانة والضعف يبدأ منذ الطفولة ، وأن عدداً من العادات الغذائية العائلية السيئة تمهد لبدانة الطفل . كما أضاف قائلاً : يخشى من تضخم النحيم بشكل غير قابل للنقص لدى الأطفال ويحافظ على ذلك عدم انتظار هرموني . لذلك يجب على طبيب الأطفال أن يراقب كل زيادة في الوزن .

كما أشار العالم دوبيان خلال اجتماع المركز الوطني لتنسيق الدراسات وأبحاث الطفولة إلى العادات السيئة منذ الأشهر الأولى وخلال العامين الأولين من الحياة . قال : « خلال الأشهر الأولى ينمو الطفل ويزيد وزنه جراماً

ذكر العالم ميتكوفسكي أن مكافحة الوضع السابق لولائه ، وهو يمثل السبب الأول للوفيات لدى المواليد الجدد يجب أن يتخذ الأفضلية في ميدان الصحة العامة . من أصل ٨٠٠ ألف ولادة في فرنسا خلال عام ١٩٧٣ ، تحقق ٨٠ ألف ولادة قبل الأوان . ومن أصل هذا العدد ، توفي خمسة عشر ألفاً ، كما أن عدداً شبيهاً يصاب بعاهاث تتعلق بالكفاءة والحركة ، ومن ناحية أخرى لاحظ الصالح ميتكوفسكي أن التقدم الهام في ميدان العلاج لا يجب أن ينسبنا أن الكشف عن الحمل الذي يمثل « خطراً كبيراً » والوقاية منه لا يزالان يعتبران السلاح الأكثر فعالية ضد الولادة السابقة لأوانها . وإن زيارة الحامل للطبيب أربع مرات خلال فترة الحمل تعتبر من الأصل غير كافية . تبين أنه في حالة فحص الحامل مرة في الشهر من الإمكان تجنب حالات الوفاة للمواليد بنسبة كبيرة . كما يمكن تجنب إصابة ستين ألفاً بالعاهاث خلال خمسة عشر عاماً . أشارت الطبيبة جنغيفيف بارييه المختصة بالتخدير وإعادة تحريك الموالود أشارت إلى الاخطار التي تصيب الحوامل اللواتي يتنفسن جميع أنواع الادوية بغرض الوقاية والتقوية . فإن عدداً من أنواع الادوية المدة للبول يمكن أن تكون سبب عدم التوازن الأيوني لدى المرأة والجنين ، كما تسبب في نقص كمية الكالسيوم لدى الأم . أن الادوية المسكنة والمهدئة للاعصاب تسبب أكثر إلى الجنين بالنسبة لأم . لذلك يجب الامتناع المطلق عن كل علاج عند الاقتراب من مرحلة الوضع .

❖ أبحاث تتعلق بالصحة الغذائية

إن الحياة الحديثة قد عدلت بعمق كثير انفعالات الجسم البشري ، الذي سيحتاج من جديد لأشياء عديدة يجب على أدوية الفرد أن تقدمها بمساهمة تكنولوجيا العصر .

بلاط في الواقع أن أكثر مساوئ التغذية بدون تغفل وحكمة والتي تسبب الزيادة الفائض في السعرات والامتصاص الزائد للعوامل

تنظيم الغذاء أن الاخطار الواقعية للاضطرابات والتي تسبب الحوادث إنما تبدو خاصة عندما يبدأ تناول العلاج ، وذلك قبل أن يعتاد الجسم عليه . ومن هذا المنطلق عكف الاخصائيون على العلاقات التي تنشأ بين الاجهاد العصبي وظروف التغذية ، وقد اتفقوا على اهمية الغذاء المعقول والمناسب ، ومن اجل تمتع باتباء كامل وسرعة استجابة ، لابد من تجنب نقص نسبة السكر في الدم مما يخفف نسبة الاوكسجين وحتى النوروتين في خلايا الاعصاب . وكذلك تناول وجبات الطعام الغنية وهي تحدث عادة رغبة في التعاس . فنجد من المستحسن بالفعل احترام السعة المنتظمة للانتباه المفروضة على السائق والتي عادة تنقص بعد ساعتين من قيادة السيارة وذلك نتيجة للارهاق . بالتالي يجب هنا على السائق الوقوف بانتظام لتناول وجبات صغيرة من الطعام والمواد السائلة . تسمح هذه التدابير للسائقين بالحفاظ على انتباه اقصى وتجنب جميع الحوادث التي تعود الى تعب الجسد والاعصاب .

انضى فريق بحثي لدراسة التعب والاجهادات العصبية ، وهو يضم الاطباء والباحثين في المجالات المختلفة - الامراض والسيكولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والطب العام والطب المهني والاطباء الشرقيين على الصحة الرياضية (الطب الرياضي) والغدد والتنفس ... وكانت غاية هذا الفريق البحثي هي تناول المواضيع التالية :

- تحديد الاسباب والمظاهر والعناية بالاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا عن عجز عصبى أو نفسى .

- جمع ودراسة نشر جميع المستندات المتعلقة بهذه المواضيع .

- اعداد وتطبيق التدابير الصحية والوقاية بالنسبة لجميع علامات الاجهاد .

في الساعة (حوالى ٢٥ جراما يوميا) اما وزن الدماغ فيزيد جرامين يوميا ، وبعد ١٢ شهرا يزيد وزن الطفل ثلاث مرات بالنسبة لوزنه عند مولده ، كما يبلغ طوله عندما يبلغ عامين نصف الطول النهائي لبلوغه » . وهكذا برهن على اهمية قضايا التغذية لدى الرضيع ، وشدد على الاخطاء التي تتردد في الغالب :

- تجاهل الام للميزات المختلفة لانواع الحليب وزيادة الكمية .

- استخدام باكر للغذاء المالح او الكثير السكر .

- لم بعد الاطفال بين الرابعة والسادسة يعرفون شرب الماء . كما يملكون مشروبات كثيرة السكر والالوان .

ونظمت ايضا مؤسسة تنظيم الغذاء في كلية الطب الباريسية مؤتمرا تناول دراسة الموضوعات المرتبطة بالصحة العامة والصحة الغذائية لسائق السيارة . توجد في الحقيقة

علاقة وثيقة بين نظام الغذاء والانتباه . حدد عدد كبير من الاخصائيين التابعين للهيئة الطبية والمنظمات المسؤولة عن سلامة السير ، حددا تأثير الكحول وعدد من الادوية بصورة خاصة على نوع رد الفعل العصبي . كما دلت الاحصاءات بوضوح على ان نسبة الحوادث تزداد مع زيادة نسبة الكحول في الدم . وان سلامة السير تعتبر افضل طالما نسبة الكحول لا تزداد عن ٣٠ . جرام ، وبوإزاء ذلك كمية امتصاص شئيلة وخاصة اذا جرى ابتلاع عدد كبير من الادوية دفعة واحدة قبل تناول الطعام فهناك عدد من الادوية المسكنة واللازمة لحالات الصرع والمنشطة والفائدة للشهية « القاطعة للجوع » وهي تؤثر مثل الكحول وتحدث زيادة في الوقت اللازم لاحداث رد فعل في الاعصاب ، كما تحدث نقصا في قدرة تنسيق اعصاب البصر واضطرابات في التمييز والانتباه . كما وضحت الابحاث التجريبية التي اجريتها من قبل مؤسسة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا
وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ
الشَّجَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذَٰلِكَ يُخْرِجُ مِنْ
بَطْنِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ
أَن يَفِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

صلى الله عليه وسلم

المؤلف ... ان للعسل فوائد عديدة ونافعة وله آثار نافعة اذا استنشق صباحا فهو يساعد على سهولة التنفس وقاتل للجراثيم ، بالإضافة الى انه مقو عام لجميع اعضاء الجسم ... والدليل على ان العسل له فوائد كثيرة ، خاصة للجهاز التنفسي، فقد انتجت المانيا الفريبة دواء للسعال يدخل في تركيبه نسبة ٥٪ في المائة من العسل الابيض .

علم النفس الهندسي والفيولوجي

اثبتت الابحاث التجريبية الحديثة ان تطور تكنولوجيا الاجهزة الاوتوماتيكية والالات والمعدات انها غيرت تفكير البشرية ، فكان الانسان في الانتاج يصنع كل شيء بنفسه ، اما الآن فهو الذي يتحكم في عملية الآلة اى اخذ يتحول اكثر فأكثر الى قائد يصدر اوامره للاجهزة الاوتوماتيكية . رغما عن ذلك التقدم ، فهذه الاجهزة الاوتوماتيكية فرضت على الانسان ان يكون منتبها قوى الذاكرة ، حاضر البدنية ، سريع الاستجابة . فتتطورت الدراسات البيولوجية لخدمة الانسان فاستطاع العلماء نتيجة لدراسهم وإبحاثهم ان يحددوا الوظائف البيولوجية العليا للانسان اى صنع معدات مهية للاتصال والتعامل مع الانسان ومتناسقة مع قدراته وطاقاته . حيث انه

اشارت تحقيقات حديثة الى أهمية وتكرار الاجهاد وضعف القوة الناتجة غالبا عن مجر عصبي او نفسي . وقد تبينت الاحصائيات للاطباء داخل المستشفيات ان مريضا من أصل اثنين يشكو من التعب والاجهاد العصبي . وعلى صعيد العبادة ، يشمل الضعف جميع مظاهر المرض، وان كل مرض جسمي او عقلي يسبب ضعفا . وعلى الصعيد النظري ، اقتضت الدراسات الفسيولوجية الاساسية الكلاسيكية في الغالب على تعب العضلات ، وهي كافية لابرار مجموع مايتعلق بالاجهاد الناتج عن ضعف القوة وتأثيره على الحياة النفسية والاجتماعية .

علم النحل شفاء للناس

بدلا من استخدام العقاقير والادوية يوجد علاج جديد وقديم عرفه الانسان منذ القدم - انه عسل النحل الذي ذكر في كتاب الله عزوجل .. الهاما من هذا قدم الطبيب الروسي الاصل «دوش» في كتاب تحت عنوان « النحل سيدلة مصحة » يقول في كتابه ان العسل افضل علاج للأمراض الناتجة عن البرد ... اما ان يخلط بالخليل الساخن او عصير الليمون او مع الشاي الساخن ... هذا العلاج عرفه العالم منذ مئات السنين . انه يقضى تماما على البرد او الزكام . ويستخدم أيضا في إيقاف النزيف الرئوي مع خليط مع عصير الجوز ، ويضيف

❖ مكافحة التلوث والأضرار الصناعية :

في المجتمعات الصناعية والمجتمعات المجاورة، نجد الهواء يحتوي على أدخنة كثيرة . وكما أن مياه الأنهار تحتوي على مركبات كيميائية ، حتى البحر يحتوي على البترول أى متلوث بالبترول ... الخ ، وهذا ما يسمى بتلوث الهواء والماء والبحر والأضرار التي تعود من هذا التلوث تسمى الى الصحة العامة للإنسان. فتجرى مباحثات عديدة في نطاق مكافحة التلوث والأضرار الصناعية ومكافحة الضوضاء . في الوقت الحاضر يجري بناء شكل جديد لجدار من الاسمنت ضد الضوضاء وذلك على الطرق السريعة والمزدحمة والتي تكثر فيها الضوضاء بشكل خاص . فأمكن تحقيق ستار مصنوع من الزجاج والالونيوم وهو يندمج تماما مع الموقع، كما يشترط نسبة كبيرة من الارتجاجات التي تحدثها السيارات مما يخفف قليلا من ازعاج السكان المجاورين لهذا الطريق المزدحم . أما التصنيع والتلوث البيئي فهما عنصران متلازمان تتناسب العلاقة بينهما تناسباً طردياً فكما ازداد التصنيع ازداد التلوث البيئي معه بما قد يؤثر على الصحة العامة وعلى نوع الحياة . في نطاق المعرض الدولي لتكنولوجيا الآلات لمكافحة التلوث والأضرار الصناعية والذي أقيم بين ٧ ، ١١ ديسمبر عام ١٩٧٦ في باريس وذلك برعاية ومساهمة وزارة نوع الحياة .

قدم هذا المعرض الدولي الأول للمقاومة التلوث والأضرار الصناعية المعدات والمنتجات والوسائل والخدمات المقررة لفنون الهواء والماء والفن والنباتات الصناعية ونقائس المدن ومكافحة التلوث والأضرار . حيث أن هناك نصوماً تشريعية عديدة تلزم كل من يسبب التلوث على استخدام تجهيزات لمكافحة التلوث والأضرار . تحققت أخيراً دراسات لحساب اللجنة الاقتصادية الأوروبية في بروكسل ، أفادت أن اسواق صناعات مكافحة التلوث ستعزف تطوراً بمعدل ١٤ في المائة في السنة حتى عام ١٩٨٠ . سترتفع هذه النسبة إلى

ثبنت عملياً بأننا نرى أكثر مما نتذكر في كل خطوة نخطوها . وبذلك يدرس علم النفس الهندسي الطبي باهتمام شديد « السعة » للإنسان بوصفه قناة معلومات وقناة اتصال وأيضاً تحديد وتنمية المواهب المهنية لدى الإنسان ورفع مستواها الى مستوى متطلبات التكنولوجيا المعاصرة المتزايدة .

وفي الأبحاث التجريبية وعلى مدى واسع يجري في هذا المجال وتقديم للإنسان عدة مسائل متزايدة الصعوبة . ويقوم العلماء بعد ذلك ، وبواسطة أجهزة خاصة ، بتحديد ما يسمونه « معامل التقدم » أى القدرة على تنمية المواهب ، وتساعد هذه الطريقة على معرفة ما إذا كان الإنسان يستطيع أن يعمل في أمة منه من المهن التي تتطلب رد فعل دقيق وسرعة بدئية . وضبط اعصاب واسترشاد في المواقف غير المتوقعة ، وفحص العاملين قبل توزيعهم على الورش والتخصصات والمناصب . ويحدد العلماء الخصائص الفطرية لكل شخص وقدرته على تميزتها . وهذا يساعد على معرفة العمل الذي يناسب كل إنسان ، وعلى عدم تضيق الوقت والجهد في تعليمه عملاً يناسبه أو حرفة لا تتفق مع استعداداته . وبفضل تطور علم البيونيكا يقوم العلماء بوضع علاقات جديدة أكثر ارتباطاً بين الإنسان والآلة .

وعلم البيونيكا هو علم يدرس استخدام العمليات والمناهج البيولوجية لحل المسائل الهندسية الحيوية . ويمكن تعريف علم البيونيكا أيضاً بأنه نظرية مناهج إقامة النظم التكنيكية التي تقترب مواصفاتها من مواصفات الأجسام الحية . ويأخذ هذا العلم تسمية من الكلمة الاغريقية « بيون » أى « خلية حية » . وكس من أبحاث تجرى في ميدان علم البيونيكا ! إن العلماء يبحثون بجهد عن وسائل بيولوجية للقوة من الأشعة الخطرة ويأملون أن يتمكنوا من بناء مرشحات حية لتنقية الماء والتربة من النشاط الإشعاعي .

وبفضل ما أصبح يملك من مقومات وقدرات على التطور وبفضل ما حققه وسيحققه من تقدم تكنولوجي .. وبفضل الاكتشافات ذات المستقبل الكبير في البيولوجيا الجزيئية وفي الكيمياء الحيوية والعضوية والفيزياء الحيوية والفيزياء النووية والاشعاعية وعلم الخلايا وعلم الوراثة، وبفضل ظهور اتجاهات جديدة فيها وغير متوقعة مثل الإحصاء البيولوجي والرياضيات البيولوجية ونظرية النظم. فوجدنا وتحققنا ان التكنولوجيا المعاصرة الآن قد دخلت بالفعل في المجال الطبي بشتى فروعه ، والاستخدامات الطبية للأجهزة الصوتية وغيرها فالعقل هو الطريق للإيمان ... ونحن نقبل على الإيمان بعقولنا .. وان التقدم أمر لا يمكن الرجوع عنه ، ولا يمكن إيقافه لان العقل دائم البحث والاكتشاف والابتكار . وبجانب هذا العرض أود ان أكرر اهتمامي والتركيز بالنهوض بالارتقاء الفكري والثقافي (السمو الفكري - المآثر الثقافية) في العالم العربي ونرتفع به الى أسس مكانة والاعتماد أيضا بأنماء ملكاتنا العقلية وتعميق ثقافتنا حيث انها تقدم لنا قوة فكرية تقدمية في جو مكيف المناخ . كما يسمح الارتقاء الفكري والثقافي للطفل بتعليم ما لا يستطيع ان يتعلمه في الكتب، وبالتالي فان مهمتنا هي دراسة ما يمكن ان تقدمه المآثر الثقافية للعلم والتكنولوجيا ومع دولة العلم والإيمان ومزودا بطاقة الاصال الحضارية التي تملكها الأمة العربية .

١٥٪ في السنة فيما يتعلق بمعالجة المياه الصناعية ، كما ستبلغ ٥٥٪ بالنسبة لتنقية الهواء ، اما ميدان أدوات القياس ومراقبة التلوث الجوي فسيزد بشكل اكيد حوالى ٢٥٪ في السنة وذلك حتى عام ١٩٨٠ . اما فيما يتعلق بأجهزة العزل الحراري ، أجهزة الحماية ضد أي تغير في درجات الحرارة ستقارب الزيادة السنوية حتى عام ١٩٨٠ ، ١٥٪ ، بينما سيزيد بيع آلات القياس بمعدل ٢٥٪ . بإمكان قطاع جمع النفايات والقضاء عليها ، سواء كانت تتعلق بالنفايات المنزلية او الصناعية ، بإمكانه ان يعرف زيادة بيع الأدوات والمعدات بمعدل ٢٠ في المائة في السنة ، وذلك بسبب بدء تطبيق قانون النفايات الصادر في يوليو عام ١٩٧٥ .

اليوم بوسنجان نقول اننا نشهد اليوم ميلاد مجال طبي جديد حيث تقف معه كلمات التكنولوجيا بديلها العلمي جنباً الى جنب مع هذا المجال وتسلح هذا المجال الطبي الذي يعد من أقدم العلوم ، والتي ولدت كعلم وصفى وتجريبي ، باحدث الوسائل في ترسانة العلوم ، الا وهي طرق التحليل السليمة ، والتفكير الذهني والحساب الدقيق . ولقد حظفت التكنولوجيا الحديثة الخرافات القديمة والشعوذة والقيم البالية في المجال الطبي . واصبح تقدم العلماء المؤشر الذي يوضح اتجاه الانسان الحديث ... وبفضل قدرة العقل الانساني المعاصر الخارقة والمجددة

المراجع العلمية

- ١ - الموسوعة الصغيرة في علم السيبرنتيكس - فيكتور بيكليس
- ٢ - أسس الإلكترونيات - أ. جيريستوف
- ٣ - L'ASSOCIATION POUR LA DIFFUSION DE LA PENSEE FRANCAISE
- ٤ - مؤتمرات الأمراض الأذن والأنف والحنك - لوشون - مدينة المياه المعدنية بفرنسا سنة ١٩٧٦ .
- ٥ - المؤتمر الثالث والسبعون الفرنسي لأمراض الأذن والأنف والحنك والرأية - باريس كلية السنان بير - سبتمبر سنة ١٩٧٦ .
- ٦ - فوائد العلاج بالمياه المعدنية - الأستاذ شارل دوبريه - فيشي فرنسا - مختبر المياه التابع لمستشفى بيشا .
- ٧ - A New Freezing - Ultramicrotome
H. Moor' Ph.D, K. Mühlthaler, Ph.D, H. Waldner,
A. Frey, - Wyssling, Ph.D
The Journal of Biophysical and Biochemical
Cytology, 1961, Vol. 10, No. 1
- ٨ - Dijon - France 6^e Congrès de la Société européenne de neuroradiologie
„Etude radiologique des Vaisseaux anormaux dans les tumeurs cerebrales“ Sept. 1976.
- ٩ - L'exposition „Biocapt 75“ (l'électronique au service du malade) BNF n. 1327
du B-12 75
- ١٠ - الأيام الوطنية لعلم الأشعة - باريس - ١٦ - ١٨ فبراير/ ١٩٧٦ بمستشفى الأمراض الأطفال .
- ١١ - الإنسان والآلة - فرنسا - تولوز - ٢٥ - ٢٦ نوفمبر/ ١٩٧٦ .
- ١٢ - المؤتمر الدولي لجمعية أمراض القلب الفرنسية - ٦ - ٨ ديسمبر ١٩٧٦ باريس ٧٥.١٩ .
- ١٣ - المؤتمر الفرنسي للجراحة - معالجة سرطان العنق - باريس ١٩٧٦ .
- ١٤ - Le Professeur Charles Gros, MM. Quennville et Gautherie, Chercheurs à l'Institut National de la Santé et de la Recherche Médicale de Strasbourg France 1976.
- ١٥ - Charles Gros: Fondateur de l'école de "Sénologie" strasbourg - France.
- ١٦ - Professeur Debrun. L'Hospital Henri - Mondor de Creteil - Paris - France.
- ١٧ - P.W.R. BEAUMONT, JOURNAL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER 1977 p. 1485 part I
- ١٨ - P.W.R. BEAUMONT AND B. L. PLUMPTON
JOURNAL OF MATERIALS SCIENCE SEPTEMBER 1977 p. 1853 part 2.
- ١٩ - ROBERT FRANK, DIRECTEUR DE L'ECOLE DE
CHIRURGIE DENTAIRE à STRASBOURG. FRANCE.

- ٢٠ - التفورات العادلية في تركيب ودرجة تعادلية الساج الخاص باقية الجذر بعد تعرفه للحوامض الفسفوية والمواد الطهرة - رسالة دكتوراه ١٩٧٧ جامعة القاهرة - كلية طب الانسان .
- اشرف على الرسالة الدكتور سلسيل محمد محمود ابراهيم الاستاذ المساعد بكلية طب الانسان - جامعة القاهرة
- والدكتور مصطفى كمال محمد المدرس بكلية العلوم جامعة المنصورة . . وصاحبة الرسالة السيدة الطيبة سلمى حسن العشرى .
- ٢١ - Le Professeur Hannoun l'institut Pasteur - 25^e Journees Pharmaceutiques internationales - Paris 1975.
- ٢٢ - الذاكرة العائرة لتأسيس المؤسسة الوطنية للصحة والبحث الطبى - ١٩٧٥ - فرنسا .
- ٢٣ - مؤتمر امراض الكبد لدى الاطفال - باريس ١٩٧٥ .
- ٢٤ - اجتماع المركز الوطنى لتنسيق الدراسات وابحاث التنفيذى باريس - ١٩٧٥ .
- ٢٥ - مؤسسة تنظيم الغذاء - مؤتمر لدراسة موضوع اللصايب المرتبطة بالصحة الغذائية لساق السيارة - كلية الطب - باريس ١٩٧٤ .
- ٢٦ - ايام الجمعية الفرنسية للطب ماقبل الومع وما بعده - مدينة تور - ١٩٧٤ .
- ٢٧ - Tables rondes - les Entreiens de Bichati :
CHU Pitié - Salpêtrière, 105, Boulevard de l'Hôpital, 75013 Paris 0 Septembre et Octobre 1976.
- ٢٨ - مؤتمر علماء الاتصالات الكيميائية للمواد الحية في باريس يوليو - ١٩٧٥ .
- ٢٩ - Groupe d'etudes de la fatigue - Docteur Pierre Burgard, 2, Square du Croisice - 75015 Paris.
- ٣٠ - La 2^e Semaine internationale de l'Environnement du 7 au 11 decembre - Paris - 1976.
- ٣١ - التكنولوجيا الحديثة في المجال الطبى للتنمية وبناء المجتمع لعام ١٩٧٧/٢٠٠٠ لسنة ١٧ العدد ٥٥٦ - جريدة الشباب العربى - مصر . للدكتور مصطفى كمال محمد .
- ٣٢ - Journees Pharmaceutiques internationales de Paris (26^e Journee Pharmaceutiques, Francaises) "Le Pharmacien et le 3^e âge" Paris Sep. 1976.
- ٣٣ - 73^e Congres Francais d'oto - rhino laryngologie et de pathologie cervicofaciale. Paris Sept. 1976.
- ٣٤ - 22^e Réunion européenne d'information en Epileptologie et en Electroencéphalographie Marseille France Sept. 1976.
- ٣٥ - 5^e Congres international de médecine Psychosomatique - société française de psychosomatique "La place du corps dans la relation PSYCHOSOMATIQUE et Médicale. Paris - sept - 1976
- ٣٦ - Colloque "Biomedica" 11th - TRIA "Homme/machine" Toulouse - France Novembre 1976.
- ٣٧ - Congres international de l'Association dentaire Francaise - Decembre - 1976.
- ٣٨ - Journées nationales de radiologie novembre - Paris - 1976.
- ٣٩ - Dr. Coucazon Jacques Spécialisé en Urologie, Académie de Moutpéllier, France.

الدافعية بين النظرية والنمذجة دراسة تطيلية مقارنة

* طلعت منصحور

ارتباطا بمتطلبات العصر الخاصة بتحقيق الاداء
الأفضل والتوظيف الامثل لامكانات الفرد
وطاقاته النفسية . ومن هنا ، كان الاهتمام
بالتزايد بعلم النفس الدافعي (Motivational
(Psychology) ، او بعلم الدافعية (Motivology) (١)

وتصور الدافعية - كما يقر «بول توماس
يونيغ» (١٩٦١) - على أنها مصطلح عام «لكل

لعبت الدافعية دورا متعاضدا في
نظريات علم نفس القرن العشرين ، فمفاهيم
وفروض الدافعية تؤلف اجزاء متكاملة مع
الكثير من نظريات علم النفس بعامة ، والتعلم
والشخصية بخاصة . كذلك شهدت العقود
الثلاثة الاخيرة من هذا القرن بناء نظريات
للدافعية أكثر تخصصا . وترتبط هذه الحركة
بطبيعة الحال ، بتزايد مقدار النشاط التجريبي

(١) دكتور طلعت منصور مدرس الصحة النفسية بكلية التربية جامعة عين شمس . اسهم ببحوث منشورة في بعض
المؤتمرات الدولية ، علمو الجمعية المصرية للدراسات النفسية ، والجمع المصري للثقافة العلمية ، والجمعية
الامريكية للتقدم والعلوم .

(١) مصطلح اقترحه « ر. س. وودورث » (١٩١٨) .

ماديس (١٩٥٩) ، هول (١٩٦١) ، براون (١٩٦١) ، يونج (١٩٦١) ، ديلينجسافر (١٩٦٣) ، ألكسون (١٩٦٤) ، كوفروآبلي (١٩٦٤) ، توماي (١٩٦٥) ، بولز (١٩٦٧) وغيرهم . وقد ظهر أول مسح للمعديان في الكتاب السنوي لعلم النفس المعروف بـ Annual Review of Psychology في عام ١٩٥٢ ، وكتبه « ماور » .

كان ميلاد علم النفس كعلم مستقل نشاج « التهجين » بين الفلسفة والفسولوجيا التجريبية . وفي علم النفس التجريبي « الكلاسيكي » هذا ، الذي نشأ على أيدي فخر وثولت وإينجهاسوس وغيرهم من السيكلوجيين الألمان ، لم يكن لغة مجال أو استخدام للمفاهيم أو الفروض الدافعية . ويمكن أن نعرض أسباب هذه الحقيقة التاريخية إلى أن السيكلوجيين التجريبيين الكلاسيكيين قد استأنرهم دراسة العمليات المعرفية - خاصة الإحساس والإدراك . كما تملكتهم الطريقة الاستبطانية في هذا الصدد . وفي نفس الوقت كان هناك اتجاه صاعد آخر في البلاد الانجلو - سكسونية .

سيكلوجيا وإيثولوجيا القرائن : في الوقت الذي كان فيه علم النفس التجريبي أخذاً في النمو في ألمانيا ، كانت هناك ثورة علمية ذات دلالة بالغة تتقدم في إنجلترا بنشر « دارون » كتابه « أصل الأنواع » (١٨٥٩) ، وهو الكتاب الذي أثر في علم النفس تأثيراً بالغ العمق . لقد جعلت نظرية دارون عن التطور البيولوجي في الأمكان تفسير السلوك الانساني بتطبيق المبادئ ذاتها التي طُلّا استخدمت في تفسير سلوك الحيوان . ومثل فجر النشايخ

محددات السلوك » ، يتطلب منا في هذه الدراسة أن نضع في الاعتبار ملك النظريات التي تتضمن معطلحات أساسية مثل الدافعية الدافع ، الحافز ، الحاجة ، الغريزة ، القوة ، الباعث ، القيمة الذاتية ، وغير ذلك . ونرجو أن تكون قد وفقتنا في انتقاء تلك النظريات التي أثرت في البحث السيكلوجي وفي تطور التصورات النظرية إبان العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة (١٢) .

وهذا لا يقدم نظريات الدافعية واحدة تلو الأخرى ، ولكن أن نعرض لتتابع الدراسة المقارنة لنظريات الدافعية وفقاً للموضوعات التالية :

- ١ - تطور النظرية في الدافعية .
- ٢ - مفاهيم الدافعية
- ٣ - نمذجة الدافعية .

(١) تطور النظرية في الدافعية

لقد قيل عن علم النفس ، كما يفرض « إينجهاسوس » ، أن « له ماضياً طويلاً ولكن تاريخاً قصيراً » . ولعل هذا يصدق بصورة خاصة على سيكلوجية الدافعية . فقد شكلت فروض ومفاهيم الدافعية جزءاً هاماً من التصورات الفلسفية والسيكلوجية خلال تاريخها الطويل اعتباراً من فلاسفة الإغريق . لكن الكتاب الأول الذي تركز تعاماً للدافعية قد ظهر في عام ١٩٣٦ (يونج - ١٩٣٦) ، ولم تظهر المراجع الأولى التي تغطي ميدان علم النفس الدافعي إلا في العقد الأخير . كتب المرجع الأول عالم قد آخر هو (وودورث ١٩٥٨) ، ثم تبعه آخرون ، بنذرا (١٩٥٩) ،

(٢) يمكن الرجوع ، لمن يريد معلومات أعمق وأوسع عن نظريات الدافعية ، إلى الدراسات المسجلة لمجموعة من العلماء البارزين في هذا الميدان ، مثل : ألكسون (١٩٦٣) ، بولز (١٩٦٧) ، توماي (١٩٦٥) ، هيلجارد (١٩٦٣) ، كوفروآبلي (١٩٦٦) ، كيش (١٩٦٩) ، ماديس (١٩٥٩) ، يونج (١٩٦١) ، بالإضافة إلى المصدر البالغ القيمة Jones, M.R. (ed.) Nebraska symposium on motivation. Lincoln : Nebraska Univ. Press, 1953-1963.

الأنفعال التعجب ، غريزة الهرب – الأنفعال الخوف ، الغريزة الاجتماعية – أنفعال الميل للجمع ، غريزة السيطرة – أنفعال الزهو ، الغريزة الوجدانية – أنفعال العطف والحنان ، وغير ذلك من الغرائز .

ويتضح من التعريف السابق ان «الغريزة» في نظرية ماك دوجل مصطلح تفسيري حمري يتضمن :

(أ) المكونات المعرفية التوجيهية (ان يدرك » ، « ان ينتبه الى ») .

(ب) وكذلك المكونات التنشيطية الدينية (« الاستشارة الانفعالية » ، « ان يخسّر الدافعا » ، « ان يسلك ») . وتصور ماك دوجل للغرائز على هذا النحو ، يعنى في نفس الوقت انها مصدر لنظام الدوافع . واذا تتحدد هذه الوظائف التوجيهية والدينامية باستعداددوراني يصير مفهوم الغريزة عند ماك دوجل مفهوما تفسيريا كاذبا Pseudoexplanatory concept تماما ، خاصة وأنه لم يقاوم غواية ابتداعه لغرائز كثيرة للغاية . لقد قدم في كتابه (١٩٠٨) فقط اثنتي عشرة غريزة ، ثم اوصل هذا العدد فيما بعد الى اربع عشرة غريزة لتنتهي بها يعرف بالثمانية عشر ميلا نظريا Propensities ، وهذا التحول في المصطلح كان نتيجة للجدل التقدي الطويل الذي شغل علماء النفس في العشرينات من هذا القرن . ويتعزكز ما يعرف بالجدل حول الغريزة في عالم النفس « جون واطسون » ، الذي ادرك – وغيره من السلوكيين – الخاصية التفسيرية الكاذبة لمفهوم الغريزة بعد ما صار من الواضح ان الكثير من علماء النفس والانثروبولوجيا كان يلجأ الى ابتداء غرائز جديدة في كل مرة يحتاجون فيها الى مفهوم تفسيري للظواهر التي يدرسونها ، وقد استبقى ماك دوجل في مفهومه عن الميل القهري Propensity concept فقط تلك المكونات الأكثر دينامية

كان المفهوم الاساسي المستخدم في تفسير سلوك الحيوان هو « الغريزة » للإشارة الى « القوى الدافعة » وكذلك « الميكانزمات الحركية » في سلوك الحيوان . وقد صار ايضا مفهوم « الغريزة » بعد نشر نظرية دارون ، شالما بين علماء النفس ، خاصة في الدول الانجلو سكسونية . لذا قدم وليم جيمس ، وهو اول عالم نفس امريكي ذي شأن كبير ، غرائز متعددة لتفسير السلوك الانساني ، لكن موازنة لمفاهيم تفسيرية أخرى مثل « العادات » و « الانفعالات » و « الإرادة » .

كان وليم ما كدوجل (١٩٠٨) ، عالم النفس الانجليزي – امريكي ، هو الذي اعتبر « الغريزة » على انها مفهوم اساسي في تفسير السلوك الانساني . وجوهر نظريته محاولة لاقتامة علم النفس استنادا الى مبادئ التطور . وفي كتابه « مقدمة في علم النفس الاجتماعي » ، الذي كان له تأثير بالغ على الفكر السيكولوجي بحيث صدرت منه أكثر من ثلاثين طبعة منذ نشره في عام ١٩٠٨ ، يعرف « الغريزة » على النحو التالي :

« يمكن ان نعرف الغريزة ، اذن ، على انها استعداد نفسي – جسمي موروث او فطري ، نهى صاحباها السى ان يدرك وينتبه الى موضوعات من فئة معينة ، وان يخبر استشارة انفعالية من نوع معين عندما يدرك ذلك الشيء ، وان يسلك وفقا لها بطريقة معينة : او ، على الاقل : ان يخبر اندفاعا نحو ذلك السلوك » (ص ٢٥)

وفي نظريته عن الغرائز : يقابل ماك دوجل الغريزة بانفعال معين ، مؤكدا بذلك بانه بالتوازية Parallelism اتجاه مسيطر على علماء النفس في هذه المرحلة المبكرة من تاريخه ، ومن ثم فهو يربط بين قائمة الغرائز وما يوازيها من انفعالات معينة . مثل غريزة المقابلة – أنفعال الغضب ، غريزة حب الاستطلاع –

للمفهوم السابق عن الغريزة ، كما يتضح من التعريف التالي :

« الميل الفطري استعداد ، وحدة وظيفية لتنظيم الكائن للعقل . وهو استعداد ، حينما يستثار ، يخلق ميلا نشطا ، سعيا ، اندفاعا ، أو حافزا نحو هدف معين » (١٩٣٢ ، ص ١١٨) .

وبحدد مصطلح الغريزة فيما بعد على النحو التالي :

« الغريزة هي ذلك الجانب الخاص من تنظيم الكائن الحي (وحدة وظيفية) يعبر عن نفسه في تتابع الاداء الغريزي (ص ٤٩) .

بهذا التعريف الأخير للغريزة يكون ماك دوجل أكثر اتفانا مع استخدام المصطلح لدى علماء الأيثولوجيا الحديثين الذين حللوا المفهوم القديم للغريزة ، وهو مفهوم حصري غامض ، إلى عناصر متعددة تحمل معاني محددة أكثر .

يعتبر « ك . لورنز » مؤسس علم الأيثولوجيا (Ethology) ، (٣) بينما يعتبر « ن . تيررجن » منظره المنهجي . ولخص « تيررجن » نظريته عن الغريزة في هذا التعريف :

« سوف اعرف الغريزة بطريقة اختيارية على أنها ميكانيزم عصبى منظم بطريقة متدرجة هرميا ، مستهدف لجوانب معينة مهيأة

للاستشارة (Priming) يطلق ويرجه بالاندفاعات (impulses) ذات الاصل الداخلي وكذلك الخارجى ، ويستجيب لهذه الاندفاعات بواسطة حركات متسقة تسهم في بقاء الفرد والنوع (١٩٥١ ، ص ١١٢) .

يعرف « تيررجن » الغريزة ، كما يوضح هذا الاشتقاق على أنها ميكانيزم ينشط بالاندفاعات التي تعرف في موضع آخر كما يلي :

« يحدد تأثير هذه العوامل الخارجية الدافعية لدى الحيوان ، التنشيط والاستشارة لفرائزه » (ص ٥٧) .

هذا الفارق بين الميكانيزم والدافعية يوجد أيضا في النظريات الأخرى التي نمت في هذا القرن موازية للنظريات « الأيثولوجية » .

ورغم ما لنظريات الفرائز من آثار عميقة على علم النفس ، إلا أن مصطلح « غريزة » قد استخدم بمعاني مختلفة . فإذا كان التعريف التقليدي للغريزة كنموذج منظم ومركب للسلوك يميز النوع الواحد في موقف معين ، كنموذج غير متعلم ، وغير من بدرجة أو بأخرى ، فإن الفرائز المحددة على هذا النحو غير موجودة بين الكائنات الإنسانية ، ولم تتضح أى غريزة علميا . ففى الكائنات الإنسانية تتأثر كل النماذج المركبة للسلوك بالتعلم ، بل حتى لدى الحيوانات الدنيا ، بتأثر النشاط الغريزي بالبيئة .

(٣) تشيع لتعديد « الأيثولوجية » على أساس وصف « فريبلانك »

Verplank, W.S. (1957) Aglossary of some terms used in the objective science of behavior. Psychol. Rev. 64, No. 6, Part 2, pp. 1-42.

لعلوم السلوكية الموضوعية ، التي يحدد فيها العالم الأيثولوجي على أنه « .. عالم سلوكي يلقى تدريجه في علم الحيوانات ، ويدرس عادة سلوك الحشرات والاسماك والطيور أكثر غالبا مما يدرس الثدييات والمجموعات الأخرى ... » انه « دارس للسلوك القارن .. عالم سلوكي يحب حيواناته » (ص ١٤) . « اما السلوك فهو : « ذلك العالم الذى يبحث في سلوك الحيوانات بطريقة موضوعية والذى يحاول ربط ملاحظاته بما في نظام نظري لا يتضمن مفاهيم مستعارة من الاستبطان والفلسفة العقلية » (ص ٦) .

(١٩٤٠) الذين وجدوا ، بعد قطع الاعصاب من المعدة الى المخ ، ان مفعولهم كانوا يستجيبون كما لو كانوا في حالة من الجوع . أى ان الانقباضات المعدية ليست حدثا داخليا ضروريا للدافع الجوع ، لكنها أحد المثيرات العديدة التي عادة ما تتضارر لاحداث الجوع .

وتوضح البيئة التجريبية ان تأثيرات الجوع على السلوك تتغير مع الخبرة بدرجة كبيرة . ولذا ، حينما اخضعت الفئران لجدول منظم من الحرمان مع اطعامها في نهاية كل فترة من الحرمان ، وجد انها - بعد عدة مرات قليلة - اخذت تتناول كمية ثابتة من الطعام في كل مرة ، بدلا من التهام اكبر قدر ممكن من الطعام وتبين احد هذه البحوث (لاورنس ؛ ماسون؛ ١٩٥٥) انه اذا اربطت فترة الاطعام التجريبية مع الفترة المعتادة لتناول الطعام ، فان الحيوانات سوف تاكل اكثر مما لو كان الاطعام غير مرتبطا بالفترات المنتظمة لتناول الطعام .

وهكذا ، توضح حقائق علم النفس الفسيولوجى Psychophysiology والقارن Comparative Psychology ، ابتداء من دراسات بافلوف الشهيرة ودراسات التعلم الحيوانى ، ان الكثير من جوانب السلوك التي تبدو انها تعتمد على الجوع البيولوجى يمكن ان تستمدى بالتأثيرات الخارجية المرتبطة بالهدف . فبعض هذه الجوانب فطرى ، وراثى ، بيولوجى والاخر متعلم ، وكثيرا ما تتداخل في علاقات متشابكة مع نظام الدوافع .

وبالنسبة للانسان ، ثمة فارق كبير بين وجهة النظر التي تذهب الى ان الحاجات الاجتماعية لدى الانسان ، وكذلك حاجاته الجنسية ، جزء من الطبيعة الوراثية للنوع الانسانى ، ووجهة النظر التي تذهب الى ان الحاجات الاجتماعية متعلمة من الثقافة التي نشأ فيها وانه حتى اشباع حاجاته الجنسية

وتوازي نظام الفرائز عند ماكدوجل مع نظام للمواقف بنطوى على اثر الخبرة والتعلم على السلوك الغريزي ، وان كان ماكدوجل لم ينتبه الى ذلك . يطلق « ج . ميرى » (١٩٤٧) على ذلك عملية الجدولة canalization

فالدوافع الاساسية لا تتبدى بنمط غريزي محض ، ولكن مختلطة ومتداخلة مع التجربة والتعلم . واذا اغفل ما كدوجل ما تصف به الدوافع وما يعتريها من تبدل وتحول ، عنى فرويد بهذا الجانب المميز للدافعية لينتهى الى ان علم النفس مطابق ، ليس يرد الافعال الى مصادرها الغريزية ، وانما بالكشف عن هذه التثيرة في الحالات الدافعية .

فما جرى من اعتباره سلوكا قائما على الغريزة والظفرة والتكوين البيولوجى للنوع ، لم يكن منعزلا عن آثار الخبرة والتعلم . وتلك حقيقة ابدتها دراسات متعددة .

مثال ذلك ، في حالة حرمان الكائن الحي من الطعام لفترة طويلة ، تحدث عدة تفسيرات جسمية :

(١) انقباضات معدية .

(٢) تناقص معدل السكر في الدم .

(٣) تزايد نشاط الجهاز العصبى المركزى ويشيع الاعتقاد خطأ بان الجوع ينسب عن الانقباضات المعدية . لكن يصف بعض الباحثين مريضا خضع لعملية استئصال للمعدة gastrectomy ، الا انه كان يقرر بعدها انه يشعر كالمعدة باحساسات الجوع (الجنشتين) كارسون ، ١٩٣١) . واستجابات الفئران ، التي تعرضت لاستئصال المعدة ، للحرمان من الطعام بنفس « سلوك الجوع » مثل فئران المجموعة الضابطة التي لم تخضع للاستئصال (تسايغ ، ١٩٣٨) . هذه النتائج قد ابدتها بوحت (باش ، ١٩٣٩ ، مورجان ومورجان ،

يتأثر بثقافته بدرجة واضحة. ولعل الدراسات **الإنثروبولوجية** قد أوضحت أن ما يقرره بعض العلماء من وجود غرائز معينة لا توجد في بيئات أخرى كالثقافات البدائية مثلا، ومن ثم لا يوجد اتفاق على نوع الغرائز وعددها، وبالتالي يبدي بعض الباحثين ميلا إلى رفض نظرية الغرائز.

ويفضل بعض العلماء المحدثين عدم نيل مفهوم الغريزة، بل أن يعدلوا من التعريف. فعلى سبيل المثال، يذهب «إيرنك» إلى ما يسميه بـ «الحاجات المنغرفة»

Instinctoid needs، وهي حاجات ذات أساس غريزي، ولكن الطريقة التي تشبع بها تعتمد على التعلم بدرجة كبيرة.

في الحقيقة، بدلا من تغيير تعريف الغريزة وإضافة مزيد من الالتباس إلى هذا المفهوم النظري، من الأفضل نيل هذا المصطلح كما يتعلق بالسلوك الإنساني. فالتفكير في ضوء هذه «الثنائية» بين الغريزة والتعلم يؤدي بنا إلى نفس المنعطف الخلق الذي أعاق التقدم لفترة طويلة في قضية الوراثة - البيئة بالنسبة للكلاء.

ولعل من الأجدى أن يكون تفكيرنا في ضوء التركيب الوراثي للكائن الحي في تفاعله مع بيئته وثقافته. وهنا تؤكد الأهمية البالغة لطبيعة التركيب الوراثي. فالقطة، مثلا، تراث نوع التركيب الذي يهيئها لنشاط معينة وفي نفس الوقت يحدد ما تستطيع أن تفعله (أن تمسك الفأر، وتتسلق الشجرة، لكنها لا تستطيع أن تتكلم أو تقرأ كتابا). والكائنات الإنسانية تراث نوع التركيب الذي يمكنها من أن تمشي، ومن أن تسوق السيارة، ومن أن تتصل بالآخرين عن طريق الرموز والكلمات

والمعاني، ومن أن تخطط للمستقبل. لكنها لا تستطيع أن تنمو طولا إلى خمسين قدما، أو أن تعيش على الحشائش، أو أن تحل المشكلات التي تتعدى حدودها.

فسلوك الكائنات الحية يتحدد بطبيعية التركيب الوراثي والبيئة التي تعيش فيها. ومن ثم، فإن وصف ذلك السلوك على أنه سلوك غريزي أو متفرض يعتبر تبسيطا زائدا.

● ● ●

في الوقت الذي خرج فيه ماكندوجل بنظرية الغرائز، ظهر اتجاهان آخران في علم النفس، تأثرا بدراون أكثر من تأثرهما بفونت. وبمثل هذان الاتجاهان **النمو الجيني** لنظامين جديدين في علم النفس:

(١) سيكولوجية التعامل أو ال (Manthanology: (t)، وهو المنحى البيولوجي (Biotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل علم النفس الفسيولوجي وسيكولوجية التعلم.

(٢) سيكولوجية الشخصية أو «علم الشخصية» (Personology) (٥)، وهو المنحى الاجتماعي (Sociotropic) لعلم النفس الدافعي الذي جرى داخل سيكولوجية الشخصية. وما حدث بين هذين المنحيين من تفاعل يتضح من شكل (١).

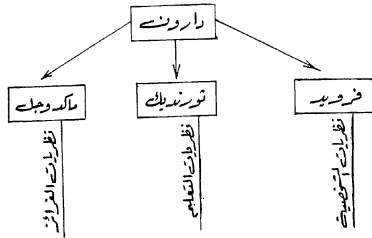
ولا يزال علم النفس الدافعي يرتبط بقوة بهذين المنحيين. كما أن الكثير من التصورات والفروض المعاصرة عن الدافعية يمكن فهمها

(١) هذا المصطلح مأخوذ عن اقتراح لدمه «اللايد نوبل»

(Clyde E. Noble), Contemporary Psychology, 1968, 13, p. 10.

(٥) مصطلح الفرحه «هـ. موري» (١٩٢٨).

شكل (١)



سوف ترتبط بدرجة اولى بالوقوف ، بحيث انها حينما تعاود الوقوع ، تكون اكثر احتمالا للوقوع ؛ اما تلك التي تصاحب او تتبع بعدم ارتياح الحيوان ، مع بقاء الاشياء الاخرى متعادلة ، تضعف روابطها بالوقوف ، بحيث انها حينما تعاود الوقوع ، تكون اقل احتمالا للوقوع . فيقدر ما يكون الارضاء او عدم الارتياح ، تكون قوة او ضعف الرابطة » (١٨٩٨ ، ١٩١١) .

وقد جعل « قانون الاتي » هذا من التنعيم الموضوع الرئيسى فى سيكولوجية التعلم للثلى قرن . بتقديم مفاهيم « الارضاء » او « الاشباع » Satisfaction « وعدم الارتياح » discomfort كمتغيرات ايجابية وسلبية . جعل ثورنديك من التغيرات الدافعية العوامل الاكثر اهمية فى سيكولوجية التعلم . مثلما صار خفض الدافعية (الارضاء) وعدم الغفص للدافعية (عدم الارتياح) الشروط الاكثر اهمية للتعلم (خاصة فى اعمال ثورنديك بعد عام ١٩٢٩) .

فحسب ارتباطا بهذه الحلفية التاريخية ، كما يتضح من شكل (١) :

النخى البيولوجى لعلم النفس الدافعى :

سيكولوجية التعلم وعلم النفس الفسيولوجى :

بتأثير الدارونىة نما الاعتماد بالتعلم الحيوانى فى اواخر القرن التاسع عشر . ومن بين من استلهم بنظرية التطور عالم النفس الأمريكى « ادوارد لى ثورنديك » ، الذى كان الرائد العظيم فى خلق علم نفس تجربى للتعلم . فى عام ١٨٩٨ نشر تجاربه المشهورة على القطط فى صندوق - متاحة ، ووصف التعلم « كمحاولة وخطا » او « تعلم انتقائى » (Selective Learning) واكى بفسر التعلم اقترح عدة قوانين ، من بينها القانون المشهور المعروف بـ « قانون الاتي » :

« من بين الاستجابات العديدة لنفس الموقف فان تلك التي تصاحب او تتبع تماما بارضاء للحيوان ، مع بقاء الاشياء الاخرى متعادلة .

وقد استخدم ثورنديك المصطلح الشائع « الغريزة » كدلالة على المتغير الدافعي الأساسي لكن حينما احتدم « الجدل حول الغريزة » استبدل مصطلح « غريزة » في نظريات التعلم بمصطلحات أخرى للمتغيرات الدافعية الأولية مثل « الحوافز » ، « الحاجات » ، « المطالب » وغير ذلك .

وقد كان « وودورث » (١٩١٨) هو الذي قدم مصطلح « حافز » (drive) لتعيين المتغير الدينامي الذي يحرك أو ينشط ميكانزمات السلوك لكن أعظم إدخال للمتغيرات الدافعية في سيكولوجية التعلم كان على يد « إدوارد تولمان » . لقد قدم كتابه الدائع العيت « السلوك الغرضي لدى الحيوانات والإنسان » (١٩٣٢) المتغيرات الدافعية كالحوافز والمطالب على أنها أكثر المحددات السلوكية أو المتغيرات الوسيطة أهمية جنباً إلى جنب مع المتغيرات المعرفية : « استعداد الغابة - الوسيطة » (means and-readiness) و « التوقعات » (expectations) . لم يكن

تولمان صاحب نظرية في التديم ، لكن الدافعية بالنسبة له ، لعبت دوراً هاماً كمحدد للاداء ، الذي يرشد أو يوجه إيجابياً بالمحددات المعرفية .

لم يهتم تولمان أبداً بالنمو الشكلي لنظريته، وعهد إلى تغيير مصطلحاته خلال سنوات بحثه فاذ بدأ بـ « المطالب » و « الحوافز » ، تحول إلى « الحاجة » ليعود في النهاية إلى « الحافز » (٦)

الآن تولمان قد اتى المنظر الفل سيكولوجية التعلم : « كلاك هل » ، الذي تمثل أعماله الرئيسية (١٩٤٣ ، ١٩٥٢) اعظم نظرية متطورة في السلوك . هذين الكتائين (١٩٤٣ ، ١٩٥٢) طور هل قانون الاثر عند ثورنديك

إلى نظرية للتديم ، منظمة ومحكمة . وقد استبدل في هذه النظرية ، « الأرضاء » عند ثورنديك بـ « اختزال الحاجة » وفيما بعد بـ « اختزال الحافز » وحدد المصطلحين الدافعيين الهامين ، « الحاجة » و « الحافز » ، على النحو التالي :

« حينما ينشأ موقف يكون فيه الاداء من جانب الكائن الحي لازماً للاحتماالية الأمثل للبقاء سواء بالنسبة للفرد أو النوع ، يقال انه توجد حالة حاجة . ولما كانت الحاجة ، سواء فعلية أم كامنة ، عادة ما تسبق وتصحاح اداء الكائن الحي ، غالباً ما يقال أن الحاجة تدفع أو تحفز النشاط المرتبط . وبسبب هذه الخاصية الدافعية للحاجات ، فإنها تعتبر كمنتجة لحوافز حيوانية أولية » .

« ومن الاهمية بمكان ان نلاحظ في هذا الصدد أن المفهوم العام للحافز يعيل بقوة إلى ان يكون له الوضع المنظم لتغير وسيطاً و (٧) ، لا يمكن ملاحظته أبداً بطريقة مباشرة » (هل ١٩٤٣ ، ص ٥٧) .

« الحاجة » ، إذن ، متغير مستقل يحدد المتغير الوسيط « الحافز » « ف » ، الذي بدوره يتحد مع متغيرات وسيطة أخرى في تحديده السلوك .

ومن بين المتغيرات الوسيطة الأكثر أهمية ، بالإضافة إلى الحافز (D) متغير دافعية - الباعث (K) incentive - motivation variable الذي يتحدد بمقدار ونوعية الانابة وقوة العادة م ع س . وهذه المتغيرات الوسيطة تتحد بطريقة تضعيفية في جهد استدعاء رد الفعل reaction evocation-potential (sEr) السلوك = دالة (sEr) = دالة (Dx K x sHr)

(٦) ارجع الى الاصل الرئيسية لتولمان (١٩٤٢ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٩) .

للتعلم (يمكن تطبيقه على الحافز ، **ثانياً** ، ان الميكانيزم الاساسي للدافعية (الاستئثار : القوة) واحد بالنسبة للحوافز الاولى والمتعلمة ، وان الميكانيزم الاساسي للتدعيم (خفض في الاستئثار القوة) واحد بالنسبة للالابات الاولى والمتعلمة (ميلر ، ١٩٥٩ ، ص ٤٤٠) . وقد قام « ميلر » بتجارب هامة كثيرة عن الدافعية والتعلم .

وقدم « ماور » ، بالتعاون مع ميلر ، مفهوم « الخوف » كحافز مكتسب ، الذي قد يعتبر الأساس لكثير من الحوافز المكتسبة الأخرى (ماور ، ١٩٥٠) . وبمثل هذا المفهوم الأساس لما اضطلعنا به من تجارب ، وقد غير « ماور » في سياق تطور تجاربه نظريته من « نظرية التدعيم ذات العامل الواحد » One-factor reinforcement theory الى ما يعرف « بنظرية العاملين » (two-factor-theory) التي عدلها مرة أخرى فيما بعد ، بحيث أصبحت في الواقع هي نظرية العامل الواحد ، تقوم على « التجاور » (contiguity) على انه العامل الاساسي في التعلم - وهي بالتالي لا تختلف كثيراً عن نظرية سبنس. وربما يمكن الاختلاف في ان المتغير الدافعي الاساسي هو دافعية « الباعث » في نظرية سبنس ، و « الخوف » في نظرية ماور .

اما « براون » (١٩٦١) فقد يلور نظرية الدافعية الراسخة في النظرية السلوكية العامة عند هل . وجعل من الواضح ان التغير البالغ الالهمية (« الحافز ») هو متغير وسيط ، تنشيطي (activating) عام ، لا توجيهي (non-directed) ، ويعزز هذا بوضوح مفهوم الحافز عند هل وبراون عن مفاهيم الحافز الأخرى (مثل مفاهيم تولمان وفرويد) ، وبالإضافة الى ذلك ، انى براون بنظرية أكثر وضوحاً واتساقاً وقابلية للتحقيق

لقد أثرت نظرية هل بعمق في تطور نظرية التعلم . فبين نظريات التعلم المعاصرة يشمخ بناء هل مهيباً بروعة بنيانه ، جميلًا بتناسب اجزائه ، فريدًا في تناسق تفاصيله (سيد عثمان ١٩٧٤) . فمن بين زملائه وتلاميذه النجباء كان : « ل . سبنس » ، « ن . ميلر » « ماور » ، « ج . براون » .

يشتمل اسهام « سبنس » في نمو مفهوم « الباعث » (incentive) بين المتغيرات الدافعية . لقد غير مفهومه من نظرية تدعيم خفض الحافز drive - reduction - reinforcement theory الى ما يعرف بقانون الاثر التجريبي Empirical Law of Effect ، الذي فيه تلعب الدافعية وخفض الدافعية نحسب دوراً في الاداء ، بينما يفهم التعلم على انه شرط كلاسيكي يتبع « مبدأ التجاور » Contiguity principle (١٩٥٦ ، ١٩٦٠) .

اما « ميلر » ، بالتعاون مع « دولا رد » ، فقد طبق شكلاً مبسطاً لنظرية هل على التعلم الاجتماعي (ميلر ، دولا رد ، ١٩٤١) وعلى نظرية الشخصية والعلاج النفسي (دولا رد ، ميلر ، ١٩٥٠) وبجانب ذلك ، طور نظرية شكلية عن السلوك الضراعي (ميلر ، ١٩٥٩) ، واكثر المفاهيم اهمية في نظرية ميلر : « الحافز » ، « الامارة » cue ، « الالابة » ، « الاستجابة » . يتحدد الحافز على انه « مثير قوى » : ولكل مثير قوى « وظيفة الحافز » drive - function تستثير الاستجابات وتنشطها . وبالإضافة الى ذلك ، يمكن ان يكون للمثيرات « وظيفة الامارة » cue-function التي توجه السلوك . اما « الالابة » فهي ذلك الشيء الذي ينتج « خفض الحافز » ، الذي بدوره يدمم الاستجابات للمثير . وتعريف الحافز كنوع من المثير ينطوي على مزايا كثيرة : **اولاً** ، ان قانون التدعيم (والتوانسين الأخرى

وغالباً ما يرتبط المنير غير الشرطي بشيء ما ، هو ، وفقاً لنظام هل ، أما خفض الحافز (مثل الطعام)
drive-reducing
أو استدعاء الحافز
drive-inducing
(مثل الصدمة الكهربائية) . وفوق ذلك ، يشير بافلوف الى ما يعرف بـ « الفعل المنعكس الانظمي »
Orienting Reflex (OR)
كعامل حاسم في تكوين اي رد فعل شرطي
Conditioned Reaction (CR)
وقد خضعت مشكلات « الفعل المنعكس الانظمي » (ع.ظ.) والنشاط الانظمي «نظ»
Orienting activity (OA)
لنقص من الدراسات المتعمقة : الفسيولوجية والنفسية وفي الحالات السوية والرضية في الانحساد السوفييتي في الثلاثين سنة الاخيرة (ب .
أوخين ، ١٩٥٨ ، ش . سوكولوف ، ١٩٥٨ ،
١٩٥٩ ، ١٩٦٤ ، ١٩٧٠ ، فنوجرادوفنا ،
١٩٦١ ، الخ) .

والفعل المنعكس الانظمي (ع.ظ.) ، وفقاً

لهذه الدراسات ، هو استجابة الكائن الحي الى ظهور مشيرات جديدة او الى اي تغيير في الوسط المحيط (اطلق عليه بافلوف كذلك الفعل المنعكس الاستقصائي
exploratory reflex
، ويمثل الفعل المنعكس الانظمي استجابة مركبة تسهم فيها تقريبا كل منظومات الاورجانزم : يدخل فيها استجابات حركية (مثلا ، حركة الجسم والراس والعين في اتجاه المنير) ، حشوية (تغير دفع الدم في اجزاء الجسم ، تغير النبض والتنفس) ، يوكهربية (تغير تيارات الاداء ، الفعل المنعكس الجلدي -
Skin - Galvanic Reflex
وكذلك التغيرات في بنية المخلات
Analizers
وفي استشارة أعضاء الاستقبال الحسي
receptors
ويتوضع التركيب الفسيولوجي - العصبي للفعل المنعكس الانظمي في المنظومات الحسية و تحت الحسية
cortical, subcortical systems

التجريبي (الامبيرقي) عن «الدافعية الثانية»
Secondary motivation
فليس ثمة « حوافز » مكتسبة او متعلمة ولكن هناك « مصادر متعلمة »
learned sources
للحافز ، التي كلها - بنفس الطريقة مثل المصادر الاولى
Primary sources
(الحاجات) - تحدد الحافز العام ذاته او تؤثر فيه . ويشير براون ، مثل ماور وميلر ، الى الخوف على انه الاساس لكل « الانساق الدافعية الثانوية »
secondary motivational systems
(١٩٦٨) . علاوة على ذلك ، يتبل براون امكانية توحيد « الحافز » مع « الاستشارة » في « المنظومة الاستشارية الشبكية »
reticular arousal system (RAS)

بهذا التفسير الفسيولوجي للحافز ننمى خطأ آخر للنمو في سيكولوجية التعلم . فاذا تتبعنا الخط الاساسي اعتبارا من ثورنديك ، هناك اتجاه مواز هام آخر يبدأ مع بافلوف .

ولعلنا المعروف ان نظام بافلوف لا يتضمن اية مفاهيم دافعية في نظريته الاصلية كما قدمها في عام ١٩٢٧ . وربما يعزى ذلك الى انه قد أجرى تجاربه على الحيوانات في ظل شروط اكثر سلبية وتقييدا . فبدون قيام الحيوانات بافعال حرة ، ليس ثمة حاجة لتفسير تنشيطي في النظرية . لكن هذا يمثل بالطبع تفسيراً سطحياً لأعمال بافلوف . فاذا تفحصنا نظريته بدقة نجد ان عملية التثريت وسلوك الحيوان في الموقف التجريبي يحددهما تفاعل دينامي معقد بين عمليتين اساسيتين : « الاستشارة » و « الكف » . وبين هاتين العمليتين ، تعتبر « الاستشارة » على الاقل عملية تنشيطية ، تحركية . وبالتالي متغيراً دافعياً بالعلمى التقليدي للدافعية . وبالإضافة الى ذلك تدخل الدافعية في المنير غير الشرطي الذي يدعم الاقتران الشرطي اذا تبع المنير الشرطي.

reticular formation السبكي وخاصة التكوين السبكي الذي يباثر تأثيرا تنشطيا على لحاء المخ ، ولتعمل العكس الانظمي اعمية بالغة الحيوية فهو يضمن الشروط الامثل للادراك والتحليل الاولى للعثيرات الجديدة ، وكذلك استعداد الادراك من الاستجابة لها (٧)

وقد ادى منطق نمو البحث الرصين في هذا الصدد الى علماء النفس في الشرق والغرب الى نتائج متقاربة . فهناك تشابه كبير بين نظريتي العالم السوفيتي « ي . سوكولوف » والعالم الكندي « د . د . برلين » (١٩٦٠ ، ١٩٦٧) ، حيث يؤكد كلاهما على دور « المنظومة الاستنارية الشبكية » (RAS) في السلوك الاستقصائي .

تأثر « براين » بالعلماء السوفييت وبجان
باجيه الذي عمل معه ، وخاصة **يدو نالد هيب** .
مزى الى « هيب » بصفة خاصة ، في عمله
الرئيسي (١٩٤٤) ، وصل علم النفس القوي
التقليد البافلوفي الاصيل ، كما ينسب اليه
الفضل في بحث نهضة في التنظير الفسولوجي في
بيدان علم النفس . لقد كشف « هيب » في
اطعمة الاول ، لظنه (١٩٥٩) ، عن تصور

واعية دور « المنظومة الاستثنائية
السيكوية » بالنسبة للسلوك عامة والدافعية
خاصة قد اقروا العلماء منذ ان اكتشف
الفسولوجيان « موروزى » و « ماجون »
وظيفة هذه المنظومة . كما قدمها لأول مرة في
عام ١٩٤٩ . و ابرزها « ماجون » على نحو

(٧) تمثل الدراسات السوفيتية في الفعل المنكسب الانتمائي «خ ط» والشتات الانتمائي «ط ذ» اسهاما مهمة في الفكر السوفيتي المعاصر. وهي تستلزمان باذنا سفير على كثير من البحوث المنكسبية السوفيتية، وبخاصة في تلمية علم التنسب موسكو. ورعاها «ج سوكولوف» «في السجون لوريا» (لورا فيونجورادوف) وفهمه. تفتت «جامعة موسكو - كلية علم التنسب» في «الأكاديمية السوفيتية» سلسلة من الدراسات ظهرت في مجلد بعنوان

في عام ١٩٥٨، «ترجمت إلى الإنجليزية» في عام ١٩٦٥ تحت إشراف (L. Voronin)، ويتضمن ٤٨ دراسة في هذا الصدد. كما أجرى العديد من البحوث (٢٨ بحثا) تحت إشراف «سوكولوف» و«فيونجورادوف» ظهرت في عام ١٩٧٠. بالروسية تحت عنوان

ويبحث فيها (٢٢ بحثاً) تحت إشراف (سوكولوف) قدمت إمام مؤلف (١٩٦٩) عن «اللياتزامات التيرنية للتعلّم» ،
 نقله قسم علم النفس المعنبي والسسيولوجي بكلية علم النفس - جامعة موسكو وقسم فيولوجيا النشاط المعنبي
 الزاقي بالأكاديمية العلوم الطبية بموسكو ، ونشرت في كتاب (بالروسية) تحت عنوان
 (E. Sokolov (ed.) : Neuronal mechanisms of learning, Moscow Univ. 1970).

علم الجمجمة : craniology (A)

التعلم الحديثة ، ولأى نظامه القائم على التجريب تطبيقاً على مشكلات عامة (١٩٥٣) . فقد طبقت نتائج بحوثه على العلاج السلوكي وخاصة على التدريس (١٩٦٨) . ومن الانتقادات الممنوعة لانجاه سكتن المعادي للنظرية antitheoretical orientation

تلك التي قدمها « ن. ميلر » (١٩٥٩) ، الذي أشار إلى الفائدة « الاقتصادية » لادخال متغيرات بسيطة في تلك الحالات التي يكون فيها أكثر من متغيرين مستقلين وتابعين خاضعين للملاحظة في تجربة .

ومما يجدر الإشارة إليه هنا ، أحد الرواد المبرزين في علم النفس الدافعي ، « بول توماس يونج » ، الذي يعتبر اتجاهه أقرب إلى سيكولوجية التعلم والاتجاه السيكونفولوجي في الدافعية منه إلى سيكولوجية الشخصية . اضطلع يونج بتجارب كثيرة على الحيوانات عن مشكلات تفضيل الطعام . وقد بنى ، استناداً إلى هذه التجارب ، نظرية وجدانية وجدانية (hedonistic) (٩) موضوعية للدافعية ، تشمل مسلمتها الأساسية في أن البواض (مثل الطعام) تحدد الاستشارة الوجدانية affective arousal وهذه العملية تحدد السلوك وتؤثر في التعلم . ولا يفغل يونج المصادر الأخرى للدافعية (مثل الحاجات ومثيرات النفور) ، لكنه يؤكد أن الانفعالات الوجدانية الإيجابية positive - hedonic affects

قد أغفلها علم نفس الدافعية التجريبي الحديث وقد نظم يونج (١٩٦١) كل نتائج البحوث في علم النفس الدافعي الحديث في نظامه الوصفي أو أطواره المرجعي ، الذي يعرف بالاتجاه «متعدد المنظور» multi-perspective أو «الانتهاجي» attitudinal ، أو «النسبي» relativistic ، هذا النظام ، الذي يبعث

محكم في عام (١٩٥٤) ، وقد يسر هذا الاكتشاف عمل علماء النفس في هذا الصدد ، خاصة في أعمال « دونالد لندزى » (١٩٥٧) . وتكامل دور « المنظومة الاستشارية الشبكية » في نظرية الدافعية عند « البرايث دوفي » (١٩٦٢) التي أكدت ، كما شاع في الثلاثينات ، دور مفهومين أساسيين في وصف السلوك وتفسيره : « التنشيط » (Activation) و « التوجيه » (direction) . وغني عن القول ، أنه قبل اخضاع هذه الوظيفة الدافعية للمنظومة الاستشارية الشبكية للبحث ، ساد افتراض بأنها نتيجة نشاط الجهاز العصبي التلقائي alitonomic nervous system ، الذي يعتبر الآن نظاماً جانبياً وثانوي الأهمية مقارنة بالمنظومة الاستشارية الشبكية .

وأهمية دور المنظومة الاستشارية الشبكية قد تأكدت ، بالإضافة إلى ذلك ، في نظرية « دالير بندرا » (١٩٥٩) الذي يقرر أنه قام بالجمع بين اتجاهي « هب » و « سكتن » .

لعل أرجاء الإشارة إلى « ب. سكتن » من قبل بعض إلى أن نظريته - أو بعبارة أدق ، نظامه الوصفي - لا يتضمن أية مصطلحات تفسيرية تشير إلى متغيرات وسيطة أو تكوينات فرضية . ومن ثم ، لا يتضمن نظام سكتن أية متغيرات دافعية بالمعنى التقليدي - حتى أقل من بالوف . لكن سكتن يستخدم مصطلحات لتفسيرات مستقلة امبيريقية ، تربط بالمتغيرات الدافعية . وأكثر هذه التفسيرات المرتبطة بالدافعية أهمية في نظام سكتن : « الحرمان » و « التذعيم » . يحدد الحرمان الدرجة العامة للتنشيط ، بينما يحدد التذعيم « قوة الاستجابة » أو احتمالية حدوث الاستجابة . ويرتفع سكتن في الوقت الحاضر على موقع من أكثر المواقع تأثيراً في سيكولوجية

مثل جهد impetus . هدفه ، موضوعه ، مصدره .

« معنى يجهد الفريزة عنصرها الحسركى ، مقدار القوة أو الطلب على الطاقة التى تمثلها . وهدف الفريزة هو فى كل حالة الاشباع ، الذى يمكن الحصول عليه بإبطال حالة الاستشارة فى مصدر الفريزة . اما موضوع الفريزة فهو ما يمكن ان يتحقق فيه او من خلاله هدفها . انه الشيء الأكثر تغيراً بالنسبة للفريزة ولا يرتبط بها فى الأصل ، ولكنه يصير متعلقاً بها فحسب بسبب ملائمتها خاصة لتوفير الاشباع ويعنى مصدر الفريزة تلك العملية الجسمية فى عضو او جزء من الجسم ينشأ منه مثير يتمثل فى الحياة العقلية بفريزة من الفرائز (فرويد ، ١٩١٥) .

بعد ان قدم فرويد هذه المسلمات والتعريفات الاساسية ، مضى الى مناقشة المشكلات الهامة المتعلقة بعدد وأنواع الحوافز الفريزية :

« اقترح انه يمكن تمييز مجموعتين من هذه الفرائز الاولى ، فرائز حفظ الذات او غرائز الأنا ، والفرائز الجنسية . لكن ليس لهذا الاقتراح ثقل المسلمة الضرورية ، مثل افتراضنا « للفرض » البيولوجى فى الجهاز العقلى ، انه مجرد تكوين مساعد تعتمد عليه فقط طالما ثبتت قائمة ، ولن يكون هناك الا فارق ضئيل فى نتائج عملنا للوصف والتصنيفات استبداناه يتكوين آخر » (فرويد ، ١٩١٥) .

لقد غير فرويد تصنيفه للحوافز الفريزية مرتين : من الحافزين الفريزين المذكورين الى حافز فريزى واحد « الطاقة الجنسية » (الليبيدو ») ، ثم مرة أخرى الى اثنين : فريزة الحياة (الايروس Eros) وفريزة الموت

على الاشارة والالهام فى هذا الميدان ، هو صيغة حديثة لأعماله الفذة المبكرة (١٩٣٦ ، ١٩٤٣)

النحي الاجتماعي لسلام النفس الدافى ، ديناميات الشخصية :

فى نفس الوقت الذى ابتدع فيه بافلوف ولورندليك وماكدوجل نظرياتهم ، كان « سيجموند فرويد » يرسى اساس التحليل النفسى . لقد كتب ، بعد ان حاول بناء نظرية فسيولوجية (١٨٩٦) ، عمله الرئيسى الاول عن الأحلام (١٩٠٠) . وقد كانت نظرياته ، منذ البداية ، دينامية من حيث انها قدر كوت على « الطاقات » و « القوى » النفسية ، و « الصراعات النفسية الداخلية » كمحددات للسلوك السوى والمرضى . الا ان فرويد قدم اول صياغة منظمة لنظرية الدافعية فى عام ١٩١٥ ، حيث حدد متغيره الدافعى الاسامى الفريزة ، او بالآخرى الحافز (١٠) :

« يمكن ان نخلص الى نتيجة بان الصرائز وليست المثيرات الخارجية هى القوى الدافعية الحقيقية فى التقدم الذى رفع الجهاز العصبى بكل كفايته الهائلة الى مستواه الراقى الحالى من النمو ..

« وإذا شئنا الان اعتبار الحياة العقلية من وجهة نظر بيولوجية ، تبدو « الفريزة » لنا كمفهوم محايد بين ما هو عقلى وما هو جسمى ليكون كلاهما الممثل العقلى للمثيرات المتولدة من داخل الارجازيم والمنسابة الى العقل ، وفى نفس الوقت المقياس للطلب على طاقة العقل بسبب اتصاله بالجسم .

« والان نحن فى موقع مناقشة مصطلحات معينة تستخدم للإشارة الى مفهوم الفريزة ،

(١٠) اشار علماء عديدون ان الترجمة الصحيحة للمصطلح الالمانى Trieb . يبنى ان تكون « الحافز » ،

وليس « الفريزة » كما شاع ترجمتها ويقترح « دابابورت » (١٩٦٠) تسمية المصطلح الدافى الفرويدى ب « الحافز الفريوى » Instinctive drive .

العوامل المسيطرة هي القوى الدافعية الأولية بجانب « الميكانزمات الارتباطية ». وقد واصل ليفين مع زملائه تجاربه وتحليله التصوري للميول المسيطرة ، أو « الحاجات » (Bedürfnis) كما سماها فيما بعد (١٩٢٨) لم يكن ليفين هكذا مهتما بالحاجات البيولوجية بقدر ما كان مهتما بأشباه الحاجات - quasi needs ، التي هي ميول محتومة بالقرارات (Vorsatz) والحالات الأخرى (Einstellungen) لقد احكم ليفين وزملاؤه باتقان نظرية عن الدافعية الإنسانية (كما تتميز عن نظرية الدافعية الحيوانية التي احكمتها نظريات التعلم) . وقد طوقت أعماله تلك المشكلات الكلاسيكية مثل «مستوى الطموح» ، النشاط البدلي ، ، « استدعاء الاداءات المبثورة » (ظاهرة زيغارنك) ، وغيرها ، وقد ظهرت نتائج هذه الأعمال في فترة اقامة ليفين بألمانيا ، وقد جمعت وترجمت الى الانجليزية في عام ١٩٣٥ .

اما في فترة اقامته بأمریکا ، فقد احكم ليفين نظاما كاملا، معروفا بالنظام الطوبولوجي لوصف تركيب الشخص « ش » والبيئة (المدركة) « ب » . وقد الحق بهذا النظام الوصفي (١٩٣٦) فيما بعد نظاما تفسيريا (١٩٣٨) ، حيث فسر السلوك « س » كدالة للشخص والبيئة : س = دالة (ش ، ب) ، ويعمل مفهوم القوى النفسية اكثر التفسيرات الدافعية اعمية . ويتحدد هذا التكوين التفسيري بحالة التوتر في الشخص (المرتبطة بحالة الحاجة في الأورجانزم) وبالقيمة الدافعية Valence لموضوع او نشاط معين في البيئة (المدركة) . واذ تعتبر « نظرية المجال » عند ليفين متقنة ومنسقة للغاية ، الا انها قد خضعت للنقد الشديد من حيث ارتباطها تماما بالاحداث الملاحظة (اي ، تعريفات اجرائية قليلة للغاية) ، واعتامها - وفقا لمبدأ المعاصرة contemporacity اساسا بالقوى العاملة في اللحظة الراهنة ، وانفاها للسياق التاريخي

(ثاناتوس Thanatos) . ولنترك تفاصيل نظرية فرويد في الدافعية ، حيث يمكن للقارىء الرجوع اليها في مصادر عربية عديدة .

لقت نظرية التحليل النفسي في الدافعية تفسيرا ونموا بعد فرويد ، وقد قدم « كينيث كولي » (١٩٥٥) تحليلا عميقا لنظرية التحليل النفسي في الدافعية وأبرز أن « الطاقة » energy و « البنية » structure هما المفومان الأساسيان والمتنامان في نظرية التحليل النفسي في الدافعية (وربما في أي نظرية) . واقترح « نموذجيا بنويوا دوريا - دائريا cyclic - circular structural model

ليحل محل النموذج الثلاثي القديم الذي قدمه فرويد : الهى ، الانا ، الانا الأعلى . اما « دافيد رابابورت » (١٩٦٠) فقد قدم تحليلا متعمقا شاملا لنظرية التحليل النفسي في الدافعية ، وفيه اشار الى الفارق بين الاسباب والدافعية ، حيث يعتبر الدافعية نوعا خاصا من الاسباب . وميز بين « الحوافز الفريزية » والانماط الأخرى للدوافع . واكد ، مثل كولي ، التفاعل الهام بين الحوافز والتراكيبات (ميكانزمات الدفاع ، وغيرها) . وبالإضافة الى ذلك ، قدم مقارنات بالغة القيمة بين نظرية التحليل النفسي عامة والنظرية التطورية عند بياجيه ونظرية التعلم .

ومن النظريات الغلة نظرية «كورت ليفين» في الدافعية، وهي النظرية الوحيدة في الدافعية التي تربط بعلم النفس التجريبي الكلاسيكي بينما كان يدرس ليفين مع «فريدمر» مؤسس مدرسة الجشطلت ، وبرافقة كيولر وكوكا ، استلهم ليفين الشاب للتقسيم بأولى أعماله التجريبية عن «الميل المسيطرة» determining tendencies التي اعتبرت بمثابة تمسك لأعمال «آخ» (١٩٥٥) التي تتناول مشكلة الإرادة داخل إطار مرجعي ارتباطي كلاسيكي أوضح « ليفين » (١٩٢٢) انه توجد ميول مسيطرة أخرى بجانب الارتباطات ، وان هذه

أو - حينما يدخل في مواجهة - إلى الانتباه والاستجابة لأنواع معينة من الضغط . وحتى قد تولد الحاجة إدراكات وهمية وتغفلت هذائية (إسقاطات لضغطها المتصور imaged press على موضوعات غير ملائمة . وتصحح كل حاجة على نحو معين بشعور أو انفعال خاص وتعمل إلى استخدام أساليب معينة (الحاجات الفرعية sub-needs ووسائل الأداء actones لمعاذرة اتجاهها . وقد تكون الحاجة ضعيفة أو قوية ، وقتية أو دائمة . لكنها عادة ما توجد وتؤدي إلى نشأة سياق معين للسلوك الظاهري (أو الخيال) الذي (إذا كان الأورجانيزم مقتدرا والمقاومة الخارجية ليست مما لا يمكن التغلب عليها) يغير الظروف الحافزة بطريقة تصل بالوفد إلى الغاية بما يؤدي إلى تهدئة (سلامة أو إرضاء) الأورجانيزم » (موراى ، ١٩٣٨ ، ص ١٢٣ - ١٢٤) .

يتضح من هذا الاشتقاق أن « الحاجة » عند موراى تختلف عن الحاجة عند هل وأصحاب نظريات التعلم ، حيث تقتصر عندهم على حالة الحرمان في بعض الأجزاء الطرفية peripherical organs أو في الأعضاء الحشوية viscera الحاجة عند موراى ، من ناحية أخرى ، حالة رئيسية (فرضية) ، أكثر شمولاً وإحاطة من « الحافز » عند هل (أقرب في الواقع إلى جهد استيعاد رد الفعل Ert عند هل) ، ومن « الحافز الفريزى » عند فرويد . تتضمن نظرية موراى تقريباً أربعين حاجة ، مقسمة إلى « الحاجات » حشوية الأصل viscerogenic needs (وعددها ثلاث عشرة) و « الحاجات نفسية الأصل » Psychogenic needs (وعددها عشرون على الأقل) . وتعمل هذه الثروة من المتغيرات الدافعية وكذلك المتغيرات التفسيرية الأخرى جوانب القوة والضعف في نظرية موراى على السواء . تكن القوة في إمكانية عمل أوصاف متنايزة لشخصيات

للظاهرة النفسية ، فنظرية ليفين «اللاابديه» وفي ذلك تكمن نقطة الضعف الكبيرة في نظامه الشاق الذي أقامه . ورغم ذلك ، فقد ألهمت نظرية ليفين أعمالاً تجريبية عديدة ، سواء في علم نفس الطفل أو (بخاصة) في علم النفس الاجتماعي . كما أثر في نظرية التعلم من خلال « تولان » وفي نظرية الشخصية من خلال « هنرى موراى » .

يرى « موراى » نظريته كشكل حديث لنظرية التحليل النفسى في الدافعية ويقصر بدنه لكل من مكدوجل وليفين . ويبرز في كتابه « استكشافات في الشخصية » (١٩٣٨) تكامل الطرق التجريبية والكلينيكية ، بما يكف عن أول أمثلة حقيقية للعمل بروح الفريق في علم النفس . ومن أبرز معالم نظرية موراى محاولة إقامة تكامل للجوانب القيمة من نظرية التعلم مع أساسيات نظرية التحليل النفسى . لذا ، يبتدع موراى تصنيفاً محكماً على الأصول التطورية genesis للشخصية لوصف السلوك ، لكنه في تفسيره للسلوك يؤكد - خاصة أهمية أحداث الطفولة المبكرة و « ديناميات الشخصية » . وفي إطار ذلك ، يقدم موراى المتغير الدافعى « الحاجة » :

« الحاجة تكوين (وهم مقنع أو مفهوم فرضى) » يكمن وراء القوة (الطبيعية الجسمية - الكيميائية) في منطقة المنح، قوة تنظم الإدراك والفهم والتعلل والنزوع والأداء بطريقة يتم بها تحويل موقف قائم غير سار إلى وجهة معينة . وفي بعض الأحيان تستثار الحاجة مباشرة بعمليات داخلية من نوع معين (حشوية viscerogenic ، غدديّة endocrinogenic أو تتعلق بسرير المنح thalamicogenic تنشأ في سياق التتابعات الحيوية ، لكنها تستثار أكثر (في حالة الاستعداد) بحدوث أحد الضغوط الفعالة (أو بصور توقعية لذلك الضغط) . لذا ، تنبئ الحاجة عندما تؤول بالأورجانيزم إلى السعى أو إلى تجنب المواجهة

الأفراد ، والضعف في المخاطرة بتفسيرات كاذبة قد تقع فيها بعض السيكولوجيين . ومما يجدر ذكره ، أن موراي قد عدل نظريته عدة مرات (١٩٥١ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٩) ليستقر به الاسم أخيراً إلى استبدال مفهوم « الحاجة » بمفهوم أكثر دقة وتضييقاً يعرف بـ « الاستعدادات thematic dispositions للموضوع »

« لقد أصبح من الواضح لنا أكثر وأكثر أنه يمكن تحديد مكونات الطاقة في الشخصية كاستعدادات للموضوع أفضل من تحديدها كاستعدادات عامة للاداء general actional dispositions (١٩٥٩ ، ص ٣٤) .

ولقد استمر موراي في ابتداء مفاهيم وصفية وتفسيرية جديدة ، وكان له فضل بالغ الأثر على سيكولوجية الشخصية لما قدمه من تصورات نظرية وابتكارات منهجية (من بينها اختبار تفهم الموضوع « التات ») ولما توصل إليه من تجاربه إلى نتائج قيمة . ولعلنا لا نحتاج الصواب إذا اعتبرنا موراي القوة الدافعة في نظرية الشخصية ، حيث يمكن أن نعد الرجل الثاني فقط بعد فرويد .

ولا غرو ، فقد اتفق ماركيلاند على موراي وأخذ يسعى إلى استكمال الشوط إلى أقصى مداه ، حيث واصل البحوث الامبيريقية مستعيناً باختبار تفهم الموضوع « التات » وإنماء نظرية في الدافعية ، لذا قد أمد صورته اجتماعية لاختبار التات ، وحاول هو وزملاؤه قياس مضمون الخيالات في قصص التات التي يرويها المحضون في مواقف مختلفة عديدة ، حيث يمكن خلق دافعية مختلفة (دافعية مثل الجوع ، الجنس ، العدوان ، الخوف ، التوادد ، القوة ، والانجاز) . وعن طريق الجمع بين الطرق التجريبية وطرق الملاحظة الميدانية توصل ماركيلاند وزملاؤه إلى تصورات خلاقة للدافعية . كما حققوا كذلك نوعاً من التقنين لمنهج تحليل المضمون لقصص التات ، الذي

طور إلى الحد الذي يمكن معالجته بالحاسبات الآلية . ومن المعالم المميزة أيضاً لعلم النفس الحديث أن زمرة ماركيلاند قد ركزت بحوثها وتطورها النظري أساساً على متغير دافعي واحد ، المعروف بدافع الانجاز (ماركيلاند وآخرون ، ١٩٥٣) وقد أوضحوا بحوثهم أن الفروق الفردية في قوة دافع الانجاز كما يقاس بالتات تتوقف على البيئة - خاصة حينما تدعم أساليب تربية الطفل الاستقلال والاعتماد على الذات لديه . وقد أوضحت زمرته في أعمالها اللاحقة أيضاً قيمة التات في قياس الدوافع الأخرى (ماركيلاند ، ١٩٥٥ ، اكنسون ، ١٩٥٨) . وقام ماركيلاند نفسه بدراسة تأثير دافع الانجاز على النمو الاقتصادي في المجتمعات المعاصرة والقديمة (١٩٦١) .

ومن ناحية التصور النظري ، قدم ماركيلاند اسهاماً بالغة القيمة بالانتقال من تصور محتوم بالحاجة need-determined conception لدافعية إلى تصور وجداني محتوم بالتوقع hedonistic , expectation determined الدافعية (متاثر بنظريات يونج وتولمان ، أو على الأقل مواز لها) . ويتضح هذا من الصياغة الأولى لنظريته :

« يصير الدافع ارتباطاً وجدانياً قوياً ، يتميز برد فعل توقعي للهدف ويقوم على الارتباط السابق لعلامات معينة مع اللذة والألم » (١٩٥١ ص ٤٤) .

ويحدد ويلخص المسملمات الأساسية لنظريته على النحو التالي :

« تعريفنا للدافع كما يلي : الدافع هو تميز reintegration بواسطة علامة أو إمارة cue لتنبيه في موقف وجداني . ويقصد بكلمة تميز في هذا التعريف أن تتضمن التعلم السابق وكل الدوافع ، في نظامنا ، متعلمة . والفكرة الأساسية هي ببساطة كما يلي : تكون مشاعر أو مواقف معينة متضمنة تباينات بين التوقعات

ويدخل التوقع - أو الاحتمالية الذاتية «لح»
(Pe) - في علاقات متبادلة مع الحافز في
مواقف الانجاز بهذه الطريقة :

شرح = ا ب لح

وتوازيًا مع هذا الدافع الإيجابي لاحراز
النجاح ، يسلم انكسبون ايضا ب « الخوف
من الفشل » أو « الدافع الى تجنب الفشل » :

3- شرح = ا ب د ح هـ

وواحد من السمات الاساسية لنظرية
انكسبون ان السلوك نتيجة التفاعل بين دافعين
على الاقل . ففي مواقف الاستشارة بالانجاز
يكون السلوك (س) نتاج دافعين متصارعين :

د ح = ا ب د هـ

لذا يضمن انكسبون نظريته ايضا بعض
الفروض المستعارة من نظرية ميلر في السلوك
العصبي .

وفي الفترة الاخيرة عمل انكسبون مع « نورمان
فيزر » ، وجعما اعمالهما وما قام به زملائهم
في مجلد جديد (انكسبون ، فيزر ١٩٦٦) .
في هذا الكتاب يوضحون قسمة نظريتهما
المعروفة ب « النظرية المصغرة » - (miniature)
theory) للدافعية الانجاز ويتلمسون
السييل الى امكانية توسيع النظرية الى نظرية
عامة في الدافعية الانسانية تجمع بين نظميين
في علم النفس العلمي : علم النفس الفسارقي
(الاختيارات) للشخصية وعلم النفس العام
(التجريبي)

يصف « فيزر » (١٩٦٧) تطبيق نموذج
« التوقع x القيمة » على سلوك البحث عن
المعلومات information-seeking behavior

(الستوى التكيفي) ولادرا لمصادر للوجدان
الاولي غير المتعلم ، سواء الايجابي او السلبي
بطبيعته . ومن شأن العلامات أو الامارات التي
تكون متزاوجة مع هذه الحالات الوجدانية ان
تفر في هذه الحالات الوجدانية ، وتصبح
الشروط التي تنتجها قادرة على تمييز حالة
مشقة من الموقف الوجداني الاعلى ، لكنها
ليست متحدة معها « (ماكلياند وآخرون ،
١٩٥٢ ، ص ٢٨) .

ومن الواضح ان تصور ماكلياند للدافعية
ينحرف الى حد ما عن تصور اسلافه .

وقد لقي هذا المنحى في اتجاه نظرية « التوقع
x القيمة » (expectation x value theory) مريدام
في التطور على يدى « جون انكسبون » ،
احد رفاق ماكلياند الاقربين ، اهتم « انكسبون »
خاصة بسلوك المخاطرة risk-taking behavior
واعتماد على دافعية لاتجازه . وقد
وقد طور من نظرية دافعية الانجاز الى طراز
متمم للغاية كنظرية للدافعية الانسانية (١٩٦٤)
تأثر انكسبون بقوة بليفين وتولمان ، كما افاد
الى حد ما من نظرية القرار الحديثة .

تبدو التفتيرات الدافعية الاكثر اهمية وما
بينها من تفاعلات في معادلة انكسبون :

ح = ع ح : شرح = ا ب ح د هـ

حيث م ح (Me) تعنى الميل الى احراز
النجاح الذى هو وظيفة لاستعداد ثابت نظري
او مكتسب ، يعرف ب « الدافع » الى انجاز
النجاح « ع » (Ng) ، ويتحد مع « توقع »
النجاح « ح » (Ts) و « قيمة الباعث »
incentive - value للاداء « ح » (Ia)

يمكن أن تتبدى في السلوك حينما تشبع الحاجات الأخرى المحتومة أكثر بالتفاصيل . ويقترح نظاما هرميا للحاجات وفقا للقوة السالبة prepotency (١٩٥٤) ، يمتد من أكثر الحاجات فسيولوجية الى أعظمها نفسيا وتمدنا من الناحية النفسية . ويحدد ماسلو نظام الحاجات الأساسية على النحو التالي :

المستوى الأول : الحاجات الجنسية الأكثر أساسية (كالسعى الى الطعام والماء والهواء والدواء والجنس ، وهكذا) . المستوى الثاني حاجات الامن (وتمثل في تجنب الاخطار الخارجية او ما يؤذى الفرد) . المستوى الثالث : حاجات الحب والاستحسان . المستوى الرابع : الحاجات التي ترتبط بإقامة علاقات مشبعة مع ذات الفرد ومع الآخرين (وتمثل في أن يكون مستعنا بالتقبل والتقدير ، وأن يحظى باحترام الذات ، وأن يكون محترما ، وأن تكون له مكانة ، وأن يتجنب الرفض أو النبذ أو عدم الاستحسان) . المستوى الخامس الحاجات التي ترتبط بالتحصيل والإنجاز والمعرفة والتعبير عن الذات (أن يكون الفرد مبدعا ومنتجا ، أن يقوم بأفعال وتصرفات تكون مفيدة وذات قيمة للآخرين ، أن يحقق إمكاناته ويترجمها الى حقيقة واقعة) .

وهنا يختلف ماسلو بنموذجه الهرمي للحاجات وما بينها من علاقات وظيفية متبادلة عن صناعات القوائم ، منذ ماكديوجل ، الذين كانوا يكدسون قوائمهم دون محاولة جديدة لبيان الصلة فيما بينها . فقد أوضح ماسلو أنه لا يمكن وصف حاجة في عزلة عن الحاجات الأخرى : فالحاجات تنظم ونفسا لأهميتها بالنسبة للفرد ، وتتوقف مقدرة الفرد على إشباع الحاجات « العليا » upper needs (أو أن شئنا حاجات النمو ، الحاجة الى المعرفة والخبرة الجمالية وتحقيق الذات) على مستوى إشباع الحاجات الأساسية (مثال ذلك ، من الصعب على الفرد العمل بكفاءة إذا شعر بعدم تقدير الجماعة أو بأنه غير

وبالتالى طرق ذلك الميدان من البحث الذى كان يحتله من قبل العلماء من اصحاب الاتجاه البيولوجى وسيكولوجية التعلم (مثل ، برلاين)

وينتقد أكتسون كذلك « قانون الأثر » لعدم امكانية تطبيقه على السلوك الانجائى (أكتسون ، فيزر ١٩٦٦) ، ويشير الى الحقيقة بأن « أولبورت » قد اثار هذا النقد ذاته من حوالى ثلاثين سنة .

وهنا يبرز اتجاه آخر في سيكولوجية الشخصية ، صاحبه « جوردون أولبورت » . في كتابه الدافع الصيت عن الشخصية (١٩٣٧) يقترح نظرية - أو أن شئنا ، نظاما وصفيا - للشخصية ، تتناقض الى حد ما مع الخط الأساسى الدينامى لنظرية الشخصية كما قدمه فرويد وليفين وموراي ، وغيرهم ، ينكر أولبورت أهمية الحاجات او الحوافز البيولوجية وكذلك أهمية التوفيق الطفولة بالنسبة للشخصية الراشد . ويبدل لذلك ، طور فرضا عن الاستقلال الوظيفى functional autonomy لدافعية الكبار (فرض قدمه اصلا « رودورث » ١٩١٨) . وفي تعديل لنظريته يقر :

« من وجهة النظر هذه يعتبر الاستقلال الوظيفى مجرد سبيل لاقرار ان دوافع الناس تتغير وتنمو في سياق الحياة ، لأن من طبيعة الناس أنهم ينشئ أن يفعلوا هكذا » (أولبورت ، ١٩٦٨ ، ٢٥٢٨) .

يتفق أولبورت في هذه النظرة الفلسفية الوجودية للإنسان مع عالم قد آخر هو « أبراهام ماسلو » الذى يعتبر من أبرز قادة الاتجاه الإنسانى في نظرية الشخصية . ينتقد ماسلو « نظرية التحليل النفسى من حيث أنها « من جانب واحد » ، تعمل على دافعية النقص deficiency - motivation وتفشل تماما دافعية النمو - growth motivation . ويسلم ماسلو أن دافعية النمو هذه التى تتضح كحاجة الى تحقيق الذات

الدينامي dynamic calculus لتكوين
لا يزال يعرف حتى الآن ، بطريقة غامضة
ومتقنة للغاية ، بالضرورة أو الحافز ، الذي
هو مصدر الطاقة الكامنة وراء السلوك . وكما
سنرى يمكن ان يتعين وبشدة الأراج بدقة
بطريقة التحليل العاملي ، بينما غدت الفريزة
والحاجة والحافز وغير ذلك على أنها كل شيء
لكل الناس ولا يمكن ان تعد تستخدم بدقة
علمية » (كاتل ١٩٦٥ ، ص ١٨٥ - ١٨٦) .

ومن هنا نرى أن مصطلحاً جديداً للمتغيرات
الدافعية الأساسية التي حدد منها كاتل على
الأقل أحد عشر متغيراً ، هذه المصادر التكوينية
للطاقة تنساب خلال تركيبات متعلمة تعرف
بـ « الاتجاهات » و « العواطف » - وهي
مفاهيم معروفة أيضاً من نظريات الشخصية
الأخرى . وأنها لتكون رحلة طويلة إذا أردنا
تتبع كل أعمال كاتل أو يعمق بسبب حجم
ما أنتجه . فبالإضافة إلى مقالاته العديدة ،
ألف عدة كتب (١٩٤٦ ، ١٩٥٠ ، ١٩٥٧ ،
١٩٦٥) ، كما اشترك وحرر عدداً من الأعمال .
ولذا ، فقد مال كاتل في قسم خاص في الفصل
السعي عن «بنية الشخصية» (Personality
Structure) الذي كتبه « ويجينز »
(J. S. Wiggins) في الكتاب السنوي لعلم
النفس المعروف بـ «Annual Review of
Psychology» في عام (١٩٥٨) .

ويمكن ان نشير الى عالم مبرز آخر في ميدان
نظرية التحليل العاملي للشخصية ، هو « هازن
إيريك » الذي اهتم خاصة بتطبيق نظرية
وطرق التحليل العاملي في علم النفس الكليتيكي
أو « العلاج السلوكي » (انظر إيريك ١٩٦٤) .

(٢) مفاهيم الدافعية

ليس من السهل تصنيف مفاهيم الدافعية
وفرض التشابهات والاختلافات بينها لأنها قد
استخدمت بطرق مختلفة بواسطة سيكولوجيين
مختلفين ، وأن المتغيرات المتشابهة قد تبين

محبوب) . وقد لاقى هذا النموذج الهرمي
لنظام الحاجات تطبيقات ذات بال في علم النفس
التطبيقي (مثل ، علم النفس التربوي
والصناعي) .

ولقد تكرر ماسلو في السنوات الأخيرة
على بناء نظريته الى العلاقة بين سيكولوجية
الشخصية وفلسفة الإنسان (ماسلو ،
١٩٥٩ خاصة ، انظر أيضاً ١٩٦٢ ، ١٩٦٦ ،
١٩٦٧ ، ١٩٦٨) .

ولاستكمال صورة نظرية الشخصية اليوم ،
ينبغي الإشارة الى « رايموند كاتل » ، العالم
النفسى الانجلو - امريكى . ليس من السهل
تصنيف كاتل على أنه ينتمى الى مدرسة معينة
أو تقليد معين في علم نفس الشخصية ، وإنما
هو بالأحرى مؤسس وقائد لمدرسة جديدة
تتميز باستخدام التحليل العاملي والطريق
الرياضية لبناء نظرية نبعث داخل سيكولوجية
الدكاء . ولقد ابتدع كاتل اختبارات عديدة
للشخصية ، استطاع بها هو وزملاؤه جمع
بيانات وفيرة عن الشخصية . وأسكن هذه
البيانات في نظريته للشخصية ، التي تلعب
فيها « السمات الدينامية » أو المتغيرات
الدافعية دوراً هاماً . ولقد استعار كاتل
بعضاً من هذه المفاهيم عن ماكديوجل وفرويد ،
لكنه أعاد بنائها في نظرية أكثر احكاماً واتساقاً
والمتغيرات الدافعية الأساسية في هذه «الشبكة
الدينامية» dynamic lattice

التي تعتبر نموذجاً للبنية الدينامية للشخصية
هي : « الأراج » erg (وحدة عمل الطاقة) ،
العاطفة sentiment ، و«الاتجاه» attitude
وبحدود الأراج « على النحو التالي :

« يبدو أننا هكذا قد بيننا بحيث ان
أشباهاتنا النهائية هي اشباع غريزية ، أو
طاقية ergio . يستخدم مصطلح « ارج » ،
وهو مأخوذ من الكلمة اليونانية ergon بمعنى
العمل أو الطاقة ، في التكامل والتفاضل

فيما بعد (١٩٦٢) . فكل السلوك يمكن وصفه ، وفقاً لدوق ، بالجمع بين مصطلحين وصفيين: « الشدة » *Intensity* و « الاتجاه » *direction* ، وهما الجانبان من السلوك اللذان يفترض أن تكشفهما بالنظريات الدافعية.

وغالباً ما نستخدم في التفسير السيكولوجي فئتين من المصطلحات : **المصطلحات التجريبية** (*الامبيريقية*) والمصطلحات الفرضية .

تشير المصطلحات التجريبية (*الامبيريقية*) إلى « المتغيرات المستقلة » التي يفترض أنها الأسباب النهائية للسلوك (الذي هو متغير تابع) . وقد تتضمن هذه المتغيرات المستقلة المتغيرات الخارجية من البيئة وكذلك المتغيرات الداخلية من الأعضاء والأنسجة المختلفة للأورجانيزم . هذه المتغيرات الداخلية ينبغي أن تكون قابلة للملاحظة إذا وولجت كمتغيرات مستقلة يمكن وصفها بمصطلحات تجريبية (*امبيريقية*) . وإذا كانت المتغيرات المستقلة يمكن وصفها كمتغيرات (داخلية وخارجية) ، فإنه يمكن تسميتها بـ « المتغيرات م - م » (*S-variables*)

وقد يفضل بعض علماء النفس ، مثل سكرت الاهتمام أساساً بوصف العلاقات الملاحظة بين « المتغيرات م - م » والسلوك . وتصاغ هذه الأوصاف في بعض الأحيان في قضايا عامة عن العلاقات التكررة والملاحظة بأنظم بين أنماط « المتغيرات م - م » وأنماط السلوك أو « المتغيرات م - س » . وغالباً ما تعرف هذه التقسيما العامة بـ « القوانين » (أو علاقات م - س) . ويعتبر سكرت تكوين وتطبيق تلك « القوانين » على أنه التفسير العلمي الوحيد . لكن معظم علماء النفس يفضل افتراض وجود متغيرات « وسيطة » *mediating* أو « وسيطة » *intervening* بين « المتغيرات م - م » ، « والمتغيرات م - س » . وهذه المتغيرات الوسيطة لا يمكن ملاحظتها .

بمصطلحات مختلفة في النظريات المختلفة . لذا كان من الضروري محاولة استخلاص مفاهيم الدافعية من خلال الدراسة المقارنة للنظريات المختلفة .

المصطلحات التجريبية (الامبيريقية) والفرضية:

لقد نشأت نظريات الدافعية وبنيت فروضها لتفسير السلوك . لكن ليست هناك حاجة إلى المفاهيم الدافعية لكل أنماط أو جوانب السلوك فردود الأفعال الانعكاسية البسيطة (الانعكاسات الولادية) يمكن تفسيرها على أساس وجود مشر يباشر تأثيره على البنية الولادية « القوس الانعكاسي » . أما السلوك المركب (الأدوات أو الأفعال السلوكية) فغالباً ما يوصف على أنه سلوك فرضي أو موجه نحو هدف ، وهذا السلوك يمكن تفسيره بنظريات الدافعية . ومصطلحات السلوك « الفرضي » *Purposive* و « الموجه نحو الهدف » *goal-directed* مصطلحات وصفية ذات طبيعة مركبة وتجريدية وقد تستخدم هذه المصطلحات لوصف أو تعيين السلوك الذي يكشف عن مركب لسمات عديدة يمكن ملاحظتها .

وقد كان ماك دووجل (١٩٠٨) أول من قام بتحليل ووصف محركات السلوك الفرضي ، هي كما عددها سبعة محركات . وقد أشار تولمان إلى هذه المحركات حينما حدد ، في كتابه المشهور ، السلوك الفرضي (١٩٢٢) . وقد اختزل بندرا (١٩٥٩) ، في تحليله العميق ، هذه المحركات إلى ثلاثة : *الملاءمة* *appropriateness* ، *المثابرة* *persistence* ، *الاستقصاء* *searching* . واقترح أيضاً مصطلح « الوجه نحو الهدف » بدلا من الفرضي ، حيث يستخدمه كمؤادف للسلوك المدفوع .

وربما تعتبر أكثر المصطلحات الوصفية بسيطة ودقة تلك التي قدمتها « إليزابيث دوق » في أعمالها المبكرة في الثلاثينات وأحكمتها

جنول (١) : التغيرات « م ، ف ، س »

في بعض نظريات الدافعية

التغيرات - س التغيرات التابعة	التغيرات - ف التغيرات الوسيطة	التغيرات - م التغيرات المستقلة	
سلوك غرضي	الفريزة (١٩٠٨) الميل الطبيعي الليل (١٩٣٢)	مثيرات (خارجية)	ماكدوجل
تدابير حرية تقارير الاحلام اعراض عصائية وغير ذلك من السلوك	الحوافز الضرورية ، الشحنة الانفعالية ، الهي ، الانا ، الانا الاعلى	المصادر الجسمية (السوماتية)	فرويد
سلوك غرضي	الطلب (١٩٣٢) نظام الحاجة (١٩٥١) مصفوفة الانتقاد - القيمة (١٩٥١)	الحالة الفسيولوجية الشروعية (١٩٣١) الحافز (١٩٥١) المثيرات	تولان
سلوك	الحافز ، الحالة ، الاتجاه الرغبة .	الحاجات المثيرات	يونيغ
سلوك وسيلى وتعبري	السمات الدافعية والوسيلة	الحوافز المثيرات	اوليبورت
سلوك	القوة ، التوتر ، القيمة الدائية	الحاجات	ليفين
الافعال « اكون » : ١ - القلبية « فريون » ٢ - الحركة « موتون »	الحاجات (١٩٣٨) ضغط بيتا (١٩٣٨) شحنة انفعالية الاستعداد للموضوع (١٩٥٩) .	المثيرات (خاصة موضوعات الهدف) ضغط الفا (١٩٣٨) ، والمثيرات الاخرى الصادر الداخلية للحاجات	موراى
الاستجابة	الحافز دافعية الباحث جهد الاستجابة قوة العادة	الحاجة المثيرات الخارجية	هل

تابع جدول (١)

المتغيرات - م المتغيرات المستقلة	المتغيرات - ف المتغيرات الوسيطة	المتغيرات - س المتغيرات التابعة
الثيرات الخارجية والداخلية	قوة العادة تجميعات الخلايا تتابعات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الامارة والاستشارة (١٩٥٥)	سلوك منظم
الثيرات المفرجة العوامل الدافعية	ميكانزمات الافراح الفطري ميكانزمات الغريزة الدافعية الدافع	السلوك الشهوى الافعال الاستهلاكية
الامارات الحريمان من مستوى المواطنة	الاستشارة الوجدانية	استجابات « التات » وغيرها من السلوك
المثرات الحالة الفسيولوجية	الأرج الاتجاه العاطفة	الاستجابات للاختبار وغيرها من السلوك
الحريمان اللدعمات الثيرات التفورية	قوة الاستجابة أو - الاحتمال ؟	السلوك الاستجابي وسلوك العملية
الثيرات	الميل ، الدافع ، التوقع البأيث - القيمة	استجابات التات وغيرها من السلوك
المتغيرات الموازية جهد الاستشارة	الاستشارة (المنظومة الاستشارية الشبكية) التطلع	السلوك الاستقصائي والمعرفي

«متغيرات الاستعداد» *disposition variable* للمتغيرات الموروثة وكذلك المكتسبة . وبدا من « الاستعداد » قد يفضل البعض مصطلحات « العامل » أو ربما « التركيب » .

وخلافا لهذه المتغيرات توجد فئة أخرى من المتغيرات النفسية ذات فترة أقصر للوجود، وتتضمن هذه الفئة فئتين فرعيتين : العمليات، التي ربما توجد فقط لشوان أو دقائق ؛ والحالات ، التي ربما توجد فقط لساعات أو حتى لأيام . ولما كان من الصعب التمييز بين العمليات الأقصر والحالات الأطول ، يمكن أن نستخدم المصطلح العام « وظائف » (أو « متغيرات الوظيفية » *function variable*)

ويولي علماء النفس المختلون اهتماما بفئة من هذه المتغيرات أكثر من الأخرى .

فمتغيرات الاستعداد قد درست أساسا باستخدام طرق الاختبارات في علم النفس الفارسي ، متضمنة سيكولوجية الشخصية والدكاء . (يوضح مصطلح « التحليل العاملي » الاهتمام « بالعوامل » أو « الاستعدادات ») . ومن ناحية أخرى ، درست متغيرات الوظيفية أساسا باستخدام الطرق التجريبية في علم النفس العام ، متضمنة التعلم والمعرفة والدافعية .

ومع ذلك ، توجد علاقة وثيقة بين الاستعدادات والوظائف ، حيث أن الاستعدادات تؤثر في مسار الوظائف وتخلق الفروق الفردية في السلوك الذي يتحدد مباشرة بالوظائف . ومن ثم ، غالبا ما استخدم المصطلح الواحد للإشارة إلى الاستعداد والوظيفة المتعلقة به . وقد يخلق هذا في بعض الأحيان فوضى وسوء فهم بين علماء النفس ، لذا غالبا ما يشير مصطلح « الحاجة » في سيكولوجية التعلم إلى الوظيفة (على نحو أكثر دقة ، إلى الحالة) . ومن ناحية أخرى ، غالبا ما تستخدم « الحالة » في نظرية الشخصية

بطريقة مباشرة ، ولكن تستنح أو تغترض ، ولذا يمكن تسميتها بـ « المتغيرات » الفرضية *Hypothetical variables*

أو « المتغيرات - ف » .

وقد قدم « تولمان » ، بهدف تفسير السلوك الفرضي خاصة ، تلك المتغيرات الوسيطة « مثل » « الحافز » و « المعرفة » *cognition* وعلى أساس طراز تولمان « م - ف - س » يمكن تقديم تصنيف أساسي للمتغيرات النفسية وتطبيقها على المتغيرات الدافعية في أهم النظريات التي عرضنا لها ، كما يتضح ذلك من الجدول (١) ، (الجدول الواردة في هذه الدراسة مأخوذة عن أعمال « مادسن » ١٩٥٩ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٤) .

ويتضح من هذا الجدول أن فئة استخدمنا المصطلحات يشيع في علم النفس يتم عن عدم اتساق وفوضى الفئتين . ويتضح ذلك خاصة في التفسيرات المختلفة المتعلقة بالمصطلحين الهامين : « حاجة » و « حافز » . لذلك يستخدم هيل وتولمان (١٩٥١) المصطلحين بطرق متناقضة ، واستخدم موراى « الحاجة بطريقة مختلفة تماما » . وهذه الفوضى هي في الواقع أعظم مما يبينه هذا الجدول ، والتي سوف تصبح واضحة من الجدول الأخرى .

الاستعدادات والوظائف :

أعد تولمان أيضا تصنيفا للمتغيرات وفقا لطول مدة وجود المتغيرات : فبعض المتغيرات النفسية توجد لفترة طويلة ، قد تستغرق كل حياة الفرد من الميلاد حتى الموت ، وهي الاستعدادات الموروثة . والبعض الآخر يكون مكتسبا بعملية التعلم في فترة أو أخرى من حياة الفرد ، وتوجد لفترة أقصر أو أطول ، ولكنها بعد أن تكتسب تلعب نفس الدور الذي تلعبه الاستعدادات الموروثة . لذا يمكن أن نستخدم مصطلح « الاستعدادات » أو

ويذهب « فارير » فيما بعد الى التمييز بين الجوانب « دينامية الاصل » والجوانب « التوجيهية » للمتغيرات السيكلوجية (١٩٥٥) .

وعلى اساس كل هذه التحديدات ، قدم « مادسن » (١٩٥٩) تصنيفا للمتغيرات السيكلوجية يستند الى التمييز بين التأثيرات المختلفة على السلوك (جدول ٣) ،

١ - المتغيرات دينامية الاصل
Dynamogenic variables
وهي تقوم بالتحريك او الاستثارة والتنشيط ، ولذا يكون لها تأثير الشدة على السلوك .
intensity effect

٢ - المتغيرات التوجيهية
directive variables
وهي تقوم بالتوجيه والتنظيم ، ولذا يكون اهمها تأثير توجيهي على السلوك .

٣ - المتغيرات المتجهة
Vector variables
وهي متغيرات محددة لكل من الشدة والاتجاه .

وينضح من التصنيف (جدول ٣) مرة اخرى مصدر الارتباك بين النظريات النفسية فمصطلح « حافز » يستخدم في نظام هسل كمتغير دينامي الاصل ، بينما في نظام فرويد كمتغير متجه . ويستخدم مصطلح « حاجة » كمتغير دينامي الاصل عند هل ، ولكن كمتغير متجه في نظرية موراي (١٩٣٨) وفي نظريات اخرى كثيرة للشخصية .

وبالاضافة الى ذلك ، توجد فروق بين المتغيرات المتجهة ، مثل « الغريزة » عند ماكدوجل و « الحافز » عند فرويد ، من ناحية ، و « جهد الاستجابة » عند هسل و « الميل » عند اكنسون من ناحية اخرى . لذا يعتبر مصطلح « غريزة » عند ماكدوجل غامضا شموليا (ومن ثم ينبغي تصنيفه كمتغير متجه) ، بينما يتحدد بوضوح مفهوم « جهد

لتغطية كل من الوظيفة الدافعة للسلوك والاستعداد الذي يحدد الفروق الفردية في القوة والفترة وغير ذلك من هذه الوظائف . وقد تبيّن موراي لذلك وغير مفهومه الاساسي باستبدال مصطلح « حاجة » الى المصطلح الجديد « الاستعدادات للموضوع » thematic dispositions . وهذا الاستخدام ، الذي يبعث على الارتباك والحيرة لمصطلحات الاستعدادات والوظائف يمكن ان يتضح من الجدول (٢) .

المتغيرات الدينامية والتوجيهية :

ربما تعتبر هذه الفئة من تصنيف المفاهيم اكثر اهمية لنظرية الدافعية ، بقدر ارتباطها الوليق بالمتغير - س : « السلوك الموجه نحو الهدف » .

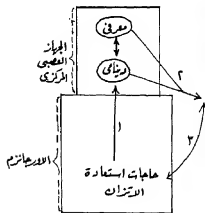
يمكن ان تعتبر « ليقين » اول من قدم تحليلا متعمقا للمفاهيم الدافعية (١٩٣٨) ، حيث ميز بين القوى والقيمة الدائبة . فالقوى forces تتميز بكل من القوة والاتجاه ؛ ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة المتجهات vectors ، اما القيمة الدائبة فهي ، على العكس من ذلك ، يمكن تحديدها فقط قياسا الى قوتها ، ولذا يمكن ان تمثل رياضيا بواسطة المعاريات Scalars .

ولم يكن ليقين هو الوحيد الذي ادرك ذلك التحديد للمفاهيم . فقد ميز « وودورث » (١٩١٨) بين الحافز والمكانزم . ويذهب العالم الميز « بول توماس يونج » الى تحديد مشابه في تقريره ان : « علم النفس الدافعي يمكن تعريفه على انه دراسة لكل الشروط التي تستثير وتنظم سلوك الكائن الحي » (يونج ، ١٩٣٦ ، ص ٤٥) .

وفي نفس الوقت ، سعت « دوفي » (١٩٣٦) الى الفصل بين « الشدة » و « الاتجاه » كمفاهيم وصفية اساسية في علم النفس .

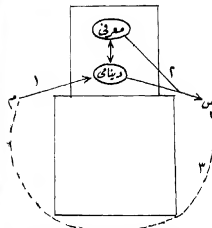
شكل (٢)
نماذج الدافعية

نموذج استعادة الاتزان



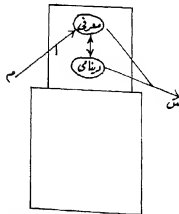
من = دالة (العمليات الدنيائية، والمعرفية)
العمليات الدنيائية = دالة (الحاجات)

نموذج الباعث



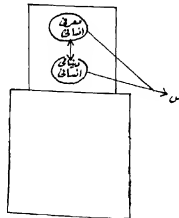
من = دالة (العمليات الدنيائية، والمعرفية)
العمليات الدنيائية = دالة (المتطلبات)

النموذج المعرفي



من = دالة (العمليات الدنيائية، والمعرفية)
العمليات المعرفية = دالة (المتطلبات)

النموذج الانساني



من = دالة (العمليات الدنيائية الانسانية، وطهرية انسانية)
العمليات الدنيائية الانسانية = دالة (؟)
العمليات المعرفية الانسانية = دالة (؟) احتمالية

جدول (٢) : تصنيف للاستعدادات والوظائف

وفقاً لمدة وجود المتغيرات النفسية

متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات	متغيرات الاستعداد « العوامل » أو « التركيبات »	
الميل	الفريزة الميل الطبيعي العاطفة	ماكديوجل
العمليات الاولى والثانوية الخوافز والطاقة	الهي ، الانا ، الانا الاعلى ميكائزومات الدفاع	فرويد
التوقعات الطالب (١٩٣٢) الحاجات (١٩٥١) الخوافز (١٩٥٩) الحافز ، الحاجة ، الحالة ، الرغبة ،	القدرات والسمات المزاجية (١٩٣٢) استعداد الغاية - الوسيلة (١٩٣٢) مصغوفة الاعتقاد - القيمة (١٩٥١) الاتجاه	تولمان
السمات الدافعية والوسيلة التوتر ، القيمة الدائية ، القوة	السمات الدافعية والوسيلة تركيبات الشخصية والبيئة	أوليوروت
الحاجة (١٩٣٨) الضغط والشحنة الانفعالية (١٩٣٨) الحافز جهد الاستجابة دافعية الباحث	الحاجات (١٩٣٨) الاستعدادات للمفوسوع (١٩٥٩) الشحنة الانفعالات (١٩٥٩) قوة العادة	ليفين موراي
تتايمات الاطوار (١٩٤٩) وظيفة الامارة الاستشارة (١٩٥٥) الدافعية العوامل الدافعية الدافع الاستشارة الوجدانية	تجميعات الخلايا ميكائزومات الفريزة ميكائزومات الافراج الفطري مستوى المواعمة	هل هيب تنبرجن ماكليلاند

تابع جدول ٢

متغيرات الوظيفة الحالات والعمليات	متغيرات الاستعداد العوامل أو التركيبات	
تنشيط الأرجات ، العواطف والانجاء	الأرج العاطفة الانجاء	كاتل
الحرمان التدعيمية الاستشارة الفورية	احتمال رد الفعل أو قوة الاستجابة	سكنر
قيمة الباعث التوقع الميل	الدافع	اكتسون
التغيرات الموازية الاستشارة ، التطلع	المنظومة الاستشارية الشبكية والتركيبات العصبية الأخرى	برلاين

جدول (٣) : تصنيف المتغيرات : الدينامية ،
والتوجيهية والتجهة وفقاً لتأثيراتها على السلوك

المتغيرات التوجيهية	المتغيرات دينامية الاصل	المتغيرات المتجهة
الفريرة العاطفة	الميل الطبيعي الميل	ماكدوجل
الخوافز الهي	الشحنة الانفعالية	فرويد
الحافز (١٩٣٢) حين السلوك المباشر (١٩٥١)	الطلب (١٩٣٢) الحافز (١٩٥١) الحاجة (١٩٥١) الحافز (١٩٥٩)	تولمان
الرفسية (١٩٣٦) الدافع (١٩٦١)	استعداد الفأيتب الوسيلة والتوقعات (١٩٣) مصنوفة القيمة - الاعتقاد (١٩٥١) المعتقدات (١٩٥٩)	يونيغ
القوة	الحالة الإنجاء السمات الوسيطة	أولبورت
الحاجة (١٩٣٨) الاستعدادات للموضوع (١٩٥٩)	الحافز السمات الدافعية الحاجة التوتر القيمة الذاتية الضغط الشحنة الاشعالية	ليفيين موراى
جهد الاستجابة	الحاجة الحافز دافعية الباعث الاستشارة (١٩٥٥)	هل
الاستجابة الموقوتة للهدف الحافز - المثير قوة العادة النتابع الطوري (١٩٤٩) تجميعات الخلايا (١٩٤٩) وظيفة الامارة (١٩٥٥)		هب

تابع جدول ٢

المتغيرات المتجهة	المتغيرات التوجيهية	المتغيرات دينامية الاصل	
	ميكانزمات الافراج الفطري ميكانزمات الغريزة	المثيرات المفرجة العوامل الدافعية الدافعية	تنبرجن
الدافع	الامارات	الاستشارة الوجدانية	ماكليفلاند
الاجابة		الادج	كانل
المعاطفة		الحرمان	سكنر
المثيرات النفورية			
المدفوعات			
قوة الاستجابة			
الميل	التوقع	قيمة الباعث	الكسسون
المتغيرات الموازية	التفكير	الدافع	
التطلع	والعمليات المعرفية	الاستشارة	بولابن
	الاخرى		

الاستجابة « عند هل كمزج للمتغير دينامي الاصل («الحافز») والمتغير التوجيهي («قوة العادة») على النحو التالي : جهد الاستجابة = دالة (الحافز \times قوة العادة) .

لكن هل وحواريه قد خلطوا لسوء الحظ - أو على الأقل لم يميزوا بوضوح - بين البعدين المفهومين : « الاستعداد في مقابل الوظيفة » و « الدينامي الاصل في مقابل التوجيهي » . لذا يكون جهد الاستجابة والحافز ووظائف ، بينما قوة العادة في الواقع استعداد (تنشيط بالحافز ومن ثم فهي أيضا وظيفة ، ولكن لا ينك هل وحواريه مصطلحا لقوة العادة كوظيفة) . وربما يعزى سبب هذا الاختلال الى ان الاستعدادات غالبا ما تكون توجيهية (مثلما تكون قوة العادة) ، وان الوظائف غالبا ما تكون دينامية الاصل (مثلما يكون الحافز) . لكن هناك استعدادات تكون دينامية الاصل (مثل العوامل المراجعة) ووظائف تكون توجيهية (مثل الادراك وغيره من العمليات العرفية) . ولذا تتضمن معادلة اتكنسون : $m = d(a \times c + b)$ (الميل) ، « و » (التوقع) وكذلك « ث » (قيمة الباعث incentive-value) تكون كلها ووظائف ، فيها « م » كوظيفة متجهة « و » كوظيفة توجيهية ، « ث » كوظيفة دينامية الاصل . « ع » (الدافع) يتحدد في نظرية اتكنسون (١٩٦٤) بوضوح كاستعداد - ولكن ليس بوضوح وفقا لتأثيراته على السلوك - ومن ثم ربما يمكن تصنيفه كاستعداد متجهة وكذلك كاستعداد دينامي .

واهمية التمييز بين هذين البعدين ربما تضيق أكثر اذا وجدناهما في تصنيف واحد ، يتبين منه لماذا كان المفهوم القديم للفريرة (مثل مفهوم الفريرة عند ماركوجل) عقيما علميا ، حيث لم يتم اطلاقا بالتمييز والتحديد بين ابعاد المفاهيم ، فالفريرة كانت مصطلحا يشير الى كل من الاستعداد والوظيفة ، وكانت الوظائف تعتبر وظيف متجهة غير محددة .

ويتصف مسار النمو في نظريات الدافعية بتزايد التمايز في المفاهيم بين الابعاد المختلفة للمفاهيم . ويرتبط هذا النمو ، بطبيعة الحال ، ارتباطا وثيقا بالنمو التجريبي .

ربما يمكن ان نستخدم تصنيف « دينامي في مقابل توجيهي » على انه يعطى وصفا تقريبا لنظريات الدافعية : كانت النظريات الاقدم (ماركوجل ، فرويد ، والي حد ما الاشكال الاولى من نظريات موراى وتولمان) نظريات تستخدم مفاهيم التجهيزات . اما النظريات الاحداث فتتنقسم الى مجموعتين : تلك التي تؤكد على المتغيرات دينامية الاصل (خاصة هل وحواريه) ، وتلك التي تؤكد على المتغيرات التوجيهية (خاصة نظريات ماركيلاند والكنسون) .

والنتيجة الهامة لهذه الدراسة التحليلية المقارنة تكشف من الميل التزايد بين علماء النفس الى استخدام المصطلحات المختلفة للاشارة الى مختلف جوانب المفاهيم من المتغيرات النفسية التي يعالجونها في نظرياتهم .

واحراز خطوة اكبر في نمو النظرير السيكولوجي يتم بتقبل نظام عام من المصطلحات طالما انها مفاهيم عامة مشتركة بين علماء النفس يعبرون عنها بمصطلحاتهم . وبطبيعة الحال ينبغي ان يكون هناك مجال لاستخدام مصطلحات جديدة ومختلفة حينما يتبدع النظر مفهوما جديدا أو يكتشف تفهيرا .



من هذا التحليل المقارن لنظريات الدافعية وتناولها للمتغيرات الدافعية بمفاهيم مختلفة، يمكن ان نخلص الى تصنيف لنظريات الدافعية خاصة وعلم النفس عامة الى الانماط التالية (جدول رقم ٥ ، ٦) :

١ - « نظريات (م - س) » (S-R) ، وهي تتضمن كل النظريات الوصفية ذات لفظا لبيانات السلوكية . وهذه النظريات قد تتضمن اوصافا

جدول (٤) تصنيف جامع للمفاهيم الفرضية

المفاهيم التوجيهية	المفاهيم الدينامية	المفاهيم المتجهة
الاستعدادات : « الأنا » و « الأنا الأعلى » عند فرويد قوة العادة عند هيل	« الدافع » عند ألكسون	« الهى » عند فرويد « الحاجة » عند موراي (= عوامل الشخصية)
الوظائف : « التوقع » عند ألكسون « الحالة » عند يونج	« القيمة » عند ألكسون « الطاقة » عند فرويد « التوتر » عند ليفين « الحافز » عند هيل	« الميل » عند ألكسون « الحافز » عند فرويد « القوة » عند ليفين « جهد الاستجابة » عند هيل « الحاجة » عند موراي (= الحافز)

جدول (٥) أنماط نظريات الدافعية (مادسن)

(١٩٧٢)

نظريات « (م - س) »	نظريات « (م - ر - س) »	نظريات م - س - س	نظريات « (م - ق - س) »
سكنر بولز	بافلوف يونيغ هيب تنبيرجن دوفي فريمان بوللين بندرا مورجان ستيلاد كونورسكى	فرويد وودورث ليفين تولمان هيل ميسر سينس براون موراي كانال ماكلياند ألكسون ماتك ف هنت كوش فستنج بربرام	أولبرت ماسلو

جدول (٦) : تصنيف موحد لنظريات الدافعية (مادسن ، ١٩٧٣)

انماط النظريات

الفروض الأساسية	نظريات « م » « س »	نظريات « م - د » « س »	نظريات « م - ض » « س »	نظريات « م - ق » « س »
فروض استعادة الاتزان		بافلوف ؟ دوق فريمان	فرويد هـل موراي (١٩٣٨)	
فروض البناء	سكتر يواز	يونيغ تنيبرجن هـب برلاين بندرا	موراي (١٩٥٩) ليبين ماكلياند اتكسون كابل ميلر سبنس	
الفروض المعرفية			براون تولمان وودورث مالك لف هنت كوش فستنجر	
الفروض الانسانية				اولبورت ماسلو

تمخضت عن بيانات ومفاهيم وفروض ومتغيرات عديدة .

ومن طبيعة الظواهر المعقدة ان تخضع لمزيد من التحليل وتبيين العلاقات ، وبالتالي تعدد النظريات والتصورات . وهنا يتوفر « بالتحليل » بيئة متعددة ، قد تكون حتى متناقضة .

وفرض منطق التناول العلمى لئلا هذه البيئة العارمة محاولة تبينها وتصرها في اطار تصورات جديدة تكشف عن العلاقات بين النظريات وما بينها من تناقضات . ويقول آخر ، عندما تفصل الدراسات والبحوث لظاهرة ما الى حد التشتت الزائد بالبيانات والنتائج ، يستلزم النمو في دراسة هذه الظاهرة « تركيب » Synthesis هذه البيئة الوفيرة في تصورات ونماذج اخرى تعمل الى جمع اشياء واغداد النظريات المختلفة ، وتسعى الى اكتشاف ما يجرى بينها من علاقات وتناقضات ، وما تتصف به من الهام او ايهام ، وما يشيع فيها من وصل وفعل .

يتمثل ذلك في بعض اتجاهات الفكر السيكولوجى المعاصر التى تعرف بـ « **نمذجة النشاط النفسى** » (Psychic Modelling) « **تحدد اهمية** » النماذج (Models)

في انها تسمح بان تخضع للاختبار والمراجعة تلك الاسس التى تقوم عليها مفاهيمنا وفروضنا عن الظاهرة النفسية ، وبان تبين امكانات التطبيق العلمى لهذه المفاهيم والفروض . ويكشف التطبيق انه لى ندرس قوانين النشاط النفسى بنجاح يمكن ان نستخدم ليس لحسب المنظومات البيولوجية biological systems ولكن ايضا منظومات متباعدة اصطلاحا لمعالجة المعلومات information processing

وهذا الاتجاه الرامى الى مزيد من التقدم في بناء النظريات النفسية اخذ في النمو بتعميق

العلاقات اشبه بالقوانين Law - like relationships بين التفسيرات « م » والتخيرات « س » ، لكن لا يقوم اى تفسير لهذه القوانين على فروض اساسية .

٢ - **نظريات « م - د - س » (S-O-R)** ، وهى تتضمن كل النظريات التى تفسر علاقات « م - س » باستخدام متغيرات فرضية «ض» ذات معنى فيسولوجى . (« د » (O) وتعنى الاورجائزم) .

٣ - **نظريات « م - ض - س » (S-H-R)** وتتضمن كل النظريات التى تفسر العلاقة « م - س » باستخدام متغيرات فرضية لها معنى « محايد » لا يشير الى اى شكل من واقع او مادة (يقول آخر ، التكوينات الاصلية » genuine constructs وتتضمن هذا النمط ايضا كل النظريات التى تفسر باستخدام النمط الشكلى « للمتغيرات الوسيطة » (مثل ، النماذج الرياضيه) .

٤ - **نظريات « م - ق - س » (S-M-R)** وتتضمن كل النظريات التى تفسر العلاقات « م - س » باستخدام متغيرات فرضية ذات معنى عقلى (« ق » (M) تعنى « عقلى » او « العقل ») .

٥ - **نظريات « ق » (M)** ، وتتضمن النظريات التى تعبر عن فهم لا يقوم على وصف موضوعى ودقيق بلغة البيانات السلوكية ، وانما قد تقوم على لغة البيانات الظاهرية (الفينومينولوجية) . لكن اصحاب هذه النظريات لا يتضحون بجلاء في هذا بقدر ما يظهرون في فلسفتهم عن الانسان .

(٣) نمذجة الدافعية

الدافعية ، اذن ، كانت ولا تزال موضوعا لفيض هائل من الدراسات النظرية والتجريبية

نموذج استعادة الاتزان : وهو أقدم النماذج في تاريخ علم النفس الدافعي . وقد ادخل مفهوم « الاتزان العضوي » Homeostasis في علم النفس ، السيكلولوجي الأمريكي « والتر كانون » (١٩١٥) عن الفسيولوجي الفرنسي « كلود برنار » في تصوره « للوسط الداخلي » internal milieu . وقد قدم فرويد كذلك (١٩١٥) تصورا مشابها في نفس الوقت .

يتصور هذا النموذج ان كل العمليات البيولوجية - بما فيها السلوك - محتومة باختلال « الاتزان العضوي » - أي الشروط القصوى للاتزان في الأورجانيزم . وتستمر هذه العمليات حتى يعود « الاتزان » إلى حالته الأصلية . ويؤلف اختلال الاتزان حاجة تحدد بدورها حافظاً رئيسياً . وهذا الحافز ، بالاشتراك مع عمليات معرفية ، يحدد السلوك الذي يختزل - أو « يشبع » - الحاجة ، ومن ثم يعيد إقرار الاتزان العضوي .

ويوجد هذا النموذج في تلك النظريات المؤثرة مثل نظريات فرويد وهل . وقد تبني كثير من علماء النفس هذا النموذج لأنه يتصف بعدة مزايا ، من أهمها :

(١) أنه نموذج بسيط .

و (٢) أنه نموذج بيولوجي ، وهو ما يعبر هاما بالنسبة لعلماء النفس في فترة ما بعد الدارونية .

وقد أدت شهرة هذا النموذج بعلماء النفس إلى سوء استخدامه وإلى تجاهل الحقائق لفترة

الشبه بين « النموذج » و « الطراز الأصلي » (prototype) ويعتبر استخدام طريقة النمذجة في بحث النشاط النفسي ليس « مودة » ولكن حتمية تفرضها طبيعة المشكلات المعاصرة لعلم النفس . ومن ثم تمثل النمذجة في جوهرها حلقة بالغة القيمة ، ناقصة في نطاق الطرق المستخدمة في علم النفس والطب النفسي تمكنا من التحقق والمراجعة من البيئة التي تتمخض عنها البحوث ، ومن بناء نظرية علمية وعملية متقنة ونافعة . . . (١١)

ولعل هذا الاتجاه يتبدى خاصة في علم النفس الدافعي ، وإبرز رواه « ك . مادن » العالم الدنمركي .

يقدم « مادن » علم النفس العلمي عدة نماذج للدافعية ، ويقر : « لقد وجدنا أنه من الممتع تصنيف الفروض الأساسية - البديهيات والمسلعات - للدافعية إلى أربع فئات نطلق عليها « نماذج الدافعية »

Models of motivation

لأنها غالباً ما تكون نفعاً من التغيرات الفرضية ذات العلاقات التبادلية ، يمكن تمثيلها ب « نموذج » ووفقاً للمضمون الأساسي للفروض الأساسية في النماذج ، يصنفها مادن على النحو التالي (شكل ٢) (١٢) :

(١) نموذج « استعادة الاتزان »

"Homeostatic" model

(٢) نموذج « الباطن » "Incentive" model

(٣) النموذج « المعرفي » "Cognitive" model

(٤) النموذج « الإنساني » "Humanistic" model

(١١) أ . ا . براكو وآخرون (باللغة الروسية) : لنمذجة النشاط النفسي موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(١٢) K.B. Madsen. Patterns of preferences and models of motivation. Paper presented at the Symposium on Pleasure, Reward and Preference. June 5 - 9, 1972, Korsdr, - Denmark.

المثيرات المعروفة بـ « البواعث » أى موضوعات المثيرات الدافعة motivating stimulus objects (الدينامية ، التنشيطية ، المحبّة للطاقة) ، وتتضمن البواعث في بعض النظريات «الدعمات» (reinforcers) و « موضوعات الهدف » goal objects

ويوجد نوعان من البواعث : الأولية والثانوية

البواعث الأولية ، وهى المتغيرات « م (S) ، التى لها تأثير دينامى فطرى . وهذه البواعث الأولية تلعب دوراً هاماً فيما يعرف بالنظريات «الوجدانية» أو نظريات « اللذة » (hedonistic theories) التى تتشامخ بينها نظرية « بول توماس يونج » حيث يوضح ان للاستشارة الخارجية تساليج وجدانية ، وكذلك حسية ، وأن « الاستشارة » الوجدانية (affective arousal)

توجه الأورجانزم نحو أو ضد موضوع المثير ولذا تؤثر في الاختيار والتفضيل . ومن النظريات الدافعة الحسيت في هذا الصدد ، نظريات : هب (١٩٤٩) ، ماكلياند ، وتبرجن .

ومما تجدر اشارته ان النظرية الوجدانية قديمة للغاية - حتى اقدم من نظرية الإثزان - فهي تعود الى فلاسفة الإغريق القدامى مثل إقراط ، و « أصحاب المذهب النفعى » (مثل بنشام) في القرن الثامن عشر . ويمكن التصور الوجداني ايضاً في «قانون الأثر» عند نورندبك وفي « مبدأ اللذة » عند فرويد .

أما البواعث الثانوية ، فهى المتغيرات « م » التى لها تأثير دينامى مكتسب . ولذا فلتبطلك البواعث دوراً هاماً في نظرية التعلم الحديثة . وكان بفضل دافعية الباحث عند « سبنس » ان تضمنتها نظرية هل (يشار اليها بالرمز « ك » (K) تكريماً لـ (K. W. Spence) وتحدد « دافعية الباحث » ك « (incentive motivation, K)

طويلة لم تتلام في النموذج . ولذا تعرض هذا النموذج لنقد شديد الوطأة بحيث انه لم يعد قادراً على استبقائه مكانته على انه النموذج الدافعى الثابت الوحيد ، الامر الذى ادى الى ابتداع نماذج اخرى كبديل له .

نموذج الباحث : استمرت « فترة نموذج استعادة الإثزان » من عام ١٩١٥ (وهو العام الذى خرج فيه كاتون بنظريته) حتى عام ١٩٥٣ (وهو العام الذى عقدت فيه « ندوة نبراسكا Symposium on الدافعية » Nebraska Motivation) وقد انتقد « هارلو (H.F. Harlow) في هذه الندوة نموذج الإثزان على انه ضيق للغاية ، وانه توجد دافعيات أولية بيولوجية اخرى بجانب حافز الإثزان . ولقد اهتم خاصة بوجود « حافز استقصائى بصري » visual exploratory drive

ولقد اتضح من التجارب الكثيرة فيما بعد ان حتى ما يعرف بحوافز الإثزان homeostatic drives (بصفة خاصة : الجوع ، العطش (الجنس) لا يمكن تفسيرها كلية بواسطة استخدام نموذج الإثزان . ومن اقوى الانتقادات الموجهة ضد النموذج الضيق للإثزان تلك التى قدمها « بول توماس يونج » (١٩٤١ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٨) ، وهى تقوم على بيئة تجريبية تتعلق بنفسيات الطعام لدى الحيوانات ، وهذه التفصيلات لم تقم على الإثزان العضوى .

ويمكن تلخيص القضايا الرئيسية المتضمنة في « نموذج الباحث » كما يلى : يكون لمثيرات خارجية معينة تأثيراً دينامياً ، أى تحدد حالة التنشيط state of activation أو energy mobilization معينة الطاقة في الأورجانزم . وهذه الحالة الدينامية ، بالاشتراك مع العمليات المعرفية ، تحدد سلوك الأورجانزم . وغالباً ما يتمخض عن هذا السلوك اختزال للمثيرات الدينامية الخارجية (انظر الشكل) ولهذه المثيرات اسماً في موضوعات

تأثير تنشيطي مشابه للحافز . هذا التأثير
التنشيطي أو **الدينامي** لميكانيزم

هر - هـ

فصل عن التأثير **التوجيهي** بالرمز « ك » .

وقد صار « ك » ، في تعديلات سبنس (١٩٦٠) الأخيرة لنظريته ، أكثر أهمية من « ف » (الحافز) كمحدد للسلوك ، حيث افترض هنا أنهما يتفاعلان بطريقة الاضافة ، ومن ثم كان تعديل سبنس لمعادلة هل المشهورة على النحو التالي :

$$م.ج.س = د.م.ع.س + (هـ \times ل.ع)$$

أو جهد الاستجابة = دالة قوة العادة \times
(الحافز \times دافعية الباحث)

وقد افترض ان « ك » تكتسب **بالتدعيم** ، وتحدد كاختزال للحافز ، بينما تكون « م ع س » (قوة العادة) مكتسبة **بالتجاور** contiguity وقتلا لما يذهب اليه سبنس .

ومن بين النظريات الحديثة في الدافعية التي تنتمي الى « نموذج الباحث » : نظرية اكنسون ومن بين النظريات المبكرة : نظرية لبقيين ، لانها تتضمن مفهوم « القيمة الذاتية » valence الذي تأثر به اكنسون بعمق . كذلك يشمه مفهوم « الشحنة الانفعالية » cathexis عند فرويد المفهوم الحديث للباحث .

النموذج المعرفي : يدخل هذا النموذج تعاما في كثير من النظريات المبكرة عن الادراك والعمليات المعرفية ، لكن بدون احكامها كنظريات للدافعية .

هذه ، بالاشتراك مع « الحافز » (ف) و « قوة العادة » (م ع س) ، « جهد الاستجابة » (م ج س) والسلوك المتتابع . اذن ، « ك » متغير فرعي يتحدد بالتغير « م » : حجم ونوع الاثابة (مثل ، الطعام) المستخدمة في تجارب التعلم التي تشير النظرية اليها .

طور سبنس تصور دافعية الباحث على اساس مفهوم هل عن « استجابة الهدف السابقة الجزئية » (fractional antecedent goal response) ب « ميكانيزم

هر - هـ - هـ * (g - g²)

« والخاصية المعيزة » بل الوظيفة الوحيدة لهذه الاستجابة السابقة الجزئية ، هي أنها تنتج مشيرات مميزة للحصول على الهدف . ويسمى هل هذا المشير ، مشير الهدف الجزئي fractional goal stimulus (ش)

ونلاحظ ان حرف م صغير دليل على أنه مشير جزئي ، وان هل يربط بين هـ و هـ

يخط متقطع اشارة منه الى ان الرابطة بينهما داخلية . وتتطلب نشأة استجابة الهدف السابقة الجزئية ان ترتبط هذه الاستجابة (ش) ارتباطا وثيقا بالحصول على الاهداف اى بالتعزيز « (١٣)

ولميكانيزم استجابة الهدف السابقة الجزئية في نظام هل تأثير **توجيهي** فحسب ، لكن يشير سبنس الى احتمالية ان يكون لاحباط استجابة الهدف الكاملة (RG) complete goal response (س)

(١٣) سيد عثمان : الفعل الثمر الخالص . الكتاب السنوي الاول للجمعية المصرية للدراسات النفسية ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

أما الشكل الآخر للنموذج المعرفي والدافعية فيفترض أن **العمليات المعرفية « دافعية »** (intrinsic motivation) **الداخلية أو الدافعية «**

وأفضل إيضاح لهذا نظرية « وودورت » ، التي تتضمن **تعميماً لفكرة « الدافعية الذاتية أو الداخلية »** في « **نظرية أولية السلوك** » (Behavior Primary theory)

تقرر هذه النظرية أن أكثر أنواع الدافعية أساسية يقوم على تناول البيئة بقوة . وهذه النظرية لا تستبعد الحقيقة بأن الدافعية « الخارجية » extrinsic — الحاجات والمواعيد — قد تحدد أيضاً السلوك في بعض الحالات . لكن الفكرة الأساسية أنه حتى بدون هذه المصادر « الخارجية » للدافعية يكون الأورجائزم نشطاً .

قدم « ماك . في . هنت » (١٩٦٥) « **صيغة جديدة لنظرية المعلومات** » (information theory version)

للتنظريات المعرفية المبكرة من الدافعية ، وبين أن نظرية « جان بياجيه » تتضمن فرضاً كاملاً عن الدافعية المعرفية « الذاتية أو الداخلية » ، وأن نظرية « كارل بيررام » — العالم الأمريكي السيكونيورولوجي — تنتمي إلى نفس الفئة .

ولما كانت العمليات المعرفية المركبة تتعلق استثثاراً بالإنسان ، فإن النموذج المعرفي يقترب من النموذج الإنساني .

النموذج الإنساني : لم يتحدد هذا النموذج بوضوح مقارنة بالنماذج الثلاثة الأخرى ، لكن هناك مجموعة من نظريات الدافعية تتطوّر على خصائص مشتركة بحيث يمكن تمييزها عن النظريات الأخرى وتصنيفها في فئة واحدة . ومن المعالم الهامة المشتركة بينها :

(١) التصور الإنساني لعلم النفس .

ومن هنا ، تضمنت نظرية الجشطالت الكلاسيكية فروضاً دافعية (ف . هيبندر ، ١٩٦٠) . فقد عالج علماء نفس الجشطالت « الميل إلى الإغلاق » أو « إلى خلق شكل جيد » على أنه متغير دينامي ، « قوة » . وهذا التصور لم يحكم أبداً في فروض دافعية صريحة ، وربما قصد لحسب بالميل إلى الإغلاق تفسير دافعية العمليات المعرفية . لكن استطاع ليفين حيك نظرية عامة في الدافعية والشخصية ، تعتبر نظرية باعثة incentive theory أكثر منها نظرية معرفية .

وقد ألهمت أعمال السيكونيوروجيين الجشطالت كذلك ، من خلال ليفين ، العالم « تولمان » . تضمنت نظرية تولمان (١٩٣٢) كلا المتغيرات المعرفية والدافعية لكي يفسر السلوك الفرضي لدى الحيوانات والإنسان . وكانت بعض المتغيرات — خاصة « **التهيؤ لدلالات الجشطالت** » (sign - gestalt - readiness)

عند تولمان — متغيرات دافعية معرفية مختلطة وقد أحكم تولمان بعد ذلك (١٩٥١) هذه المتغيرات المختلطة في « **مصفوفة الإمتقاد - القيمة** » (Belief - Value Matrix) التي تحدد السلوك ، بالإشتراك مع « نظام الحاجة » (Need System) و « **حيز السلوك** » (Behavior Space) . وقد أطلق تولمان نفسه على نظريته (١٩٥٢) « **النموذج المعرفي للدافعية** »

(A Cognition Motivation Model)

وتتضمن النظريات الحديثة للدافعية شكلين مختلفين بدرجة بسيطة للنموذج المعرفي :

يلد هذا الشكل الأول إلى أن **العمليات المعرفية تحدد العمليات الديناميكية** ، وأن العمليات المعرفية إذن **تأثير توجيبي** وكذلك دينامي (بطريقة غير مباشرة) . وآخر مثال لهذا النمط نظرية « ليدون فستنجر » عن « **التنافر المعرفي** » .

الطبيعى الذى سيطر حديثا على الفكر الميكولوجى الأمريكى . وإرباطا بذلك أيضا تبين تصورا إنسانيا خاصا للإنسان خلافا للتصور البيولوجى السائد . ويتضمن تصور ماسلو للإنسان فرضه المتعلق بنوع راشد إنسانى خاص للدافعية يعرف بـ « الحاجة الى النمو » (growth need) أو « دافعية التغير » (metamotivation)

ويمكن الإشارة الى نظرية « توماس مور » (١٩٤٨) كمثال آخر ، وإن كان أقل ذيوعا . وتفترض هذه النظرية تصورا إنسانيا للعلم ونظرية في « حرية الإرادة » اللاحتمية للدافعية الإنسانية .



من هذا العرض لتلمذة النشاط الدافعى يتضح الى أى حد تختزل التلمذة الكثير من نظريات الدافعية الى نماذج محددة تسسكن فيها مفاهيمها ومتغيراتها . لكن يسعى بعض العلماء الى مزيد من الربط والوصل بين هذه النماذج المختلفة في تصورات تركيبية synthesis أكثر عمومية ووظيفية . من هذه التصورات ما قدمه « مادسن » (١٩٧٢) من « نموذج متكامل » ، يحاول فيه إقرار التكامل بين هذه النماذج ، وإن كان يقصر انه لم ينجح في تضمين النموذج الإنسانى داخل « النموذج المتكامل » ، وبالتالي يسمى هذا النموذج الآخر الى التكامل بين النماذج الثلاث الأولى : « نموذج الانزوان » ، « نموذج الباعث » النموذج المعرفى » .

يقوم التصور التركيبى لهذا النموذج الموحد كما يقرر مادسن ، على فرضين : الأول يقرر أن كل النماذج الثلاث « صادقة جزئيا » بقدر ما تتناول فئات مختلفة من الدافعية . ويقول آخر ، نماذج الدافعية صادقة كلها ، لكنها قد حدثت من امكانية تطبيقها . لذا يفترض أن كل نموذج صادق لفئة خاصة من الدافعية .

(٢) افتراض وجود فئة خاصة للدافعية الإنسانية . وتعتبر فئة الدافعية هذه - أو السلوك الإنسانى ككل - « غير » محددة .

ومن أصدق النظريات تعبيرا عن هذا النموذج : نظرية « أوليورت » و « ماسلو » :

عرض « جوردون أوليورت » نظريته فى كتابه « الشخصية » (١٩٣٧) ، طبعة معدلة (١٩٦١) . فى هذا الكتاب الدائم الصبغ ، قدم تعديدا وتمييزا بين العلوم ذات المنحى الفردى (idiographic) والعلوم ذات المنحى التاموسى (nomothetic) ، يقترب من التصورين الخاصين بـ « العلوم الطبيعية » (natural) و « العلوم الشرحية » (hermeneutic) . وقدم فيه أيضا تصوره عن « الاستقلال الوظيفى » للدافعية (functional autonomy) الذى تأثر فيه بالفكرة التى عرض لها وودورت فى كتابه الأول (١٩١٨) . ووفقا لهذا التصور توجد بيئة تؤيد وجود فئة من الدافعية لدى الراشدين ، الناضجين والمتضمنين بالصحة النفسية ، تكون مستقلة وظيفيا عن الدافعية الأولية الأساسية التى توجد لدى الحيوانات والأطفال .

ويوضح أوليورت أن نظريات الدافعية المتضمنة فى نظريات التعلم تستند بطريقة ضيقة للغاية على التجريب على الحيوانات ، وأن نظرية الدافعية المتضمنة فى نظرية التحليل النفسى تستند أيضا بطريقة ضيقة للغاية على دراسة العصائين ، وهم أكثر طفلية فى دافعيتهم من الراشدين الناضجين الأصحاء (مادسن ، ١٩٥٩) .

وقد تأثر « إبراهيم ماسلو » فى نظريته بأوليورت وغيره . ويعتبر ماسلو امام « علماء النفس الانسائين (humanistic psychologists) » حيث نادى بالحاجة الى تصور إنسانى آخر للعلم خلافا للتصور

(الفصوص الحرفية ، وهي الحيطه بالجسم الجاسيء في الدماغ) أو « الباعث » .

٣ - الدوافع الكحائية Cortical motives :

وتتضمن اللحاء المخي cerebral cortex وكذلك منظومة الاستشارة الشبكية . وهي تلك الفئة من الدوافع التي تقوم بوظيفتها ونقلا للنموذج المعرفي : فالعمليات المعرفية تحدد دافعيها . ومن ثم يمكن ان تسمى هذه الفئة بالدوافع « المعرفية » أو « الكحائية » .

٤ - دوافع منظومة الاستشارة الشبكية

Reticular Arousal System

وهي الدوافع التي يفترض ان تتضمن فقط منظومة الاستشارة الشبكية (RAS) وهي الدوافع التي يصدق عليها النموذج « الذاتي » أو الداخلي « intrinsic » - مثل نظرية اولية السلوك عند وودورث . ومن ثم ، يمكن ان تعرف بالدوافع « الذاتية او الداخلية » أو « دوافع الاستشارة او التنشيط » (activation motives) .



والخلاصة : لقد عرف علم النفس لسنوات عديدة بحقيقة تقرر بأنه ذلك العلم الذي ينتج نظريات متعارضة كثيرة . وربما يستمر هذا الاتجاه في المستقبل . لذا ، من الأهمية بمكان بالنسبة لعلماء النفس ان يكونوا قادرين على ان ينوعوا في انفسهم القدرة على ترشيح تناوهم لهذه النظريات المختلفة ، وعلى استخدامها بوعي يفتح على علم النفس كعلم ، لا على نظرية بعينها ، وان يكونوا على بصيرة من انفسهم ليخفضوا من دفاعاتهم الرامية الى فرض محرمات نظرية theoretical taboo على الظاهرة النفسية الحية المتسامية .

وحسبنا بصر « علم النفس العلمي » !

اما الفرض الثاني ، فمؤداه ان كل فئة للدافعية تتضمن بنية معينة في الدماغ (بالاضافة الى « منظومة الاستشارة الشبكية » التي تتضمن كل انواع الدافعية) . وفي ضوء ذلك ، يقترح مادسن (١٩٧٢) الفئات التالية للدافعية :

١ الدوافع دون سريرية المخ

hypothalamic motives

وهي الفئة من الدافعية التي يفترض وجودها في مراكز دون سريرية المخ

hypothalamic centres

وكذلك في منظومة الاستشارة الشبكية (RAS) . وهذه الفئة تكون اكثر صدقا بالنسبة لنموذج استعادة الاثران . ولكن حتى في هذه الحالة لا نستطيع اعتبار نموذج الاثران على انه صادق تماما ، حيث ان دوافع الاثران تتضمن ، مثلا ، الدافع الجنسي الذي لا يعتبر كلية دافعا للاثزان العضوي . وربما تحدد البواضا ايضا هذا النوع من الدوافع وكذلك الدوافع العضوية الاخرى : الجوع ، العطش ، تجنب الألم ، تجنب البرد ، الخ . لذا يمكن ان يطلق على هذه الفئة من الدافعية « الدوافع العضوية » ، أو « دوافع استعادة الاثران » أو « الدوافع دون سريرية المخ » .

limbic motives

٢ - الدوافع الحرفية

وهي تلك الفئة من الدافعية التي يفترض ان تتضمن « المنظومة الحرفية » limbic system في المخ ، وكذلك منظومة الاستشارة الشبكية . وهنا يتبين مادسن فروض « كورنورسكي » بأن « الدوافع الانفعالية » تتضمن « مراكز الخوافر الحرفية » limbic drive centers وان « الدوافع الاجتماعية » مشروطة بالدوافع الانفعالية . وهنا ينطبق خاصة « نموذج الباعث » على هذه الدوافع . لذا يمكن ان تسمى ايضا الدوافع « الانفعالية » و « الاجتماعية » بالدوافع « الحرفية »

المراجع

- ALLPORT, G. W. *Personality : a psychological interpretation*. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1937.
Pattern and growth in personality. New York : Holt, Rinehart & Winston, 1961.
- ATKINSON, J.W. *An Introduction to motivation*. Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1964.
 (ed.) *Motives in fantasy, and society*. Princeton, N. J. : Van Nostrand, 1958.
 and Feather, N. T. (eds.) *A theory of achievement motivation*. New York : John Wiley, 1966.
- Bash, K.W. An investigation into a possible organic basis for the hunger drive. *J. Comp. Physiol. Psychol.*, 1939, 28, 109 - 135.
- BERLYNE, D. E. *Conflict, arousal, and curiosity*. New York : McGraw Hill, 1960.
 Motivation problems raised by exploratory and epistemic behaviour. In S. Koch (ed.), *Psychology - a study of a science*, Vol. 5. New York : McGraw-Hill, 1963.
 Reinforcement and arousal. In David Levine (ed.), *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1967.
- BINDRA, D. *Motivation : a systematic reinterpretation*. New York : Ronald Press, 1959.
- BOLLES, R. C. *Theory of motivation*. New York and London : Harper & Row, 1967.
- BROWN, J. S. *The motivation of behavior*. New York : McGraw-Hill, 1961.
- CATTELL, R.B. *Description and measurement of personality*. New York : Harcourt, 1946.
Personality ; a systematic theoretical and factual study. New York : McGraw-Hill, 1950.
Personality and Motivation structure and measurement. New York : World Book World Book Co., 1957.
The scientific analysis of personality. Baltimore : Penguin, 1965.
 (ed.) *Handbook of modern personality theory*. Chicago : Aldine, forthcoming.
- COLEY, K.M. *Energy and structure in psychoanalysis*. New York : Ronald Press, 1955.
- DOLLARD, J., and MILLER, N.E. *Personality and psychotherapy*. New York : McGraw-Hill, 1950.
- DUFFY, ELISABETHI, *Activation and behaviour*. New York : John Wiley, 1962.
- EYSENCK, H. J. *The biological basis of personality*. Springfield, Ill. : Charles C Thomas, 1967.
- EYSENCK, H. J., (ed.) *Experiments in motivation*. Oxford : Pergamon Press, 1964.

- FARBER, I.E. Anxiety as a drive state. In M. R. Jones (ed.), *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1954.
- FEATHER, N. T. An expectancy-volve model of information-seeking behaviour. *Psychological Review*, 1967, 5 (74), 342-60.
- FRANKEL, Y.E. *Man's search for meaning : on introduction to logotherapy*. New York : Washington Square Press, 1963.
- HEBB, D.O. *Organisation of behaviour* . New York : John Wiley, 1949.
- Drive and the CNS (conceptual nervous system). *Psychological Review*, 1955, 62, 243-54.
- A Neurophysiological theory. In S. Koch, *Psychology-a study of science*, vol. I. New York : McGraw-Hill, 1959.
- A textbook of psychology. Philadelphia : Saunders, 1966.
- HULL, C. L. *Principles of behavior*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1943.
- A behaviour system. New Haven : Yale University Press, 1952.
- JONES, M.R. (ed.) *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1953-1963.
- LAWRENCE, D.H. & W. A. MASON. Food intake in the rat as a function of deprivation intervals and feeding rhythms. *J. Comp. Physiol. Psychol.* 1955, 48, 267-271.
- A dynamic theory of personality. New York : McGraw-Hill, 1935.
- Principles of topological psychology. New York : McGraw-Hill, 1936.
- A conceptual representation and the measurement of psychological force. Durham N.C. : Duke University Press, 1938.
- Field theory in social science. D. Cartwright (ed.) New York : Harper & Row, 1952.
- LINDSLEY, D. B. Psychoophy siology motivation. In M.R. Jones (ed.), *Nebraska symposium on motivation*. Lincoln : Nebraska University Press, 1957.
- LURIA, A. R. *Human brain and psychological processes*. New York : Harper, 1966.
- MC CLELLAND, DAVID C. *Personality*. New York : Dryden Press, 1951.
- The achieving society. Princeton, N. J. : Van Nostrand Reinhold, 1961.
- (ed.) *Studies in motivation* : New York : Appleton-Century-Grofts, 1955.

- ATKINSON, JOHN W., CLARK, RUSSELL A., and LOWELL, L. *The achievement motive*, New York : Appleton-Century-Grofts, 1953.
- MC CIELLAND, D. and WINTER, D. *Motivating economic achievement*. New York : Free Press, 1969.
- MC DOUGALL, W. *An introduction to social psychology*. London : Methuen, 1908, 1908. The 1960 edition is used here. *The energies of men*, London : Ethuen, 1932.
- MADSEN, K.B. *Theories of motivation*, 4th ed, Copenhagen : Munke-gaard, 1959. 4th ed., 1968.
- Integration through meta-science*. Exemplified by a comparative study of psychological theories. *Proceedings of the XIV International Congress of Philosophy*, Vienna & 1968 b.
- Modern theories of motivation*. Copenhagen : Munksgaard, 1973.
- MASLOW, A. H. *Motivation and personality*. New York : Harper and Row, 1954.
- New knowledge in human values*. New York : Harper and Row 1959.
- Toward a psychology of being*. Princeton, N.J., : Van Nostrand Reinhold, 1962.
- The psychology of science*. New York : Harper & Row, 1966.
- A theory of meta-motivation ; The biological rooting of the value-life*. *Journal of Humanistic Psychology*, 1967, 93-127.
- MILLER, N.E. An experimental investigation of acquired drives. *Psychological Bulletin*, 1941, 38, 534-35.
- Studies of fear as an acquirable drive*. *Journal of Experimental Psychology*. 1948, 38, 89-101.
- Learnable drives and rewards*. In S. S. Stevens (ed.), *Handbook of experimental psychology*. New York : John Wiley, 1951.
- Liberalization of basic S-R-concepts : extension to conflict behaviour, motivation, and social learning*. in S. Koch (ed.), *Psychology - A study of a science* vol. 2. New York : McGraw-Hill, 1959.
- And DOLLARD, J. *Social learning and imitation*. New Haven, Conn : Yale University Press, 1941.
- MORGAN, C. & J. T. MORGAN, *Studies in hunger : II the relation of gastric denervation and dietary sugar to the effect of insulin upon food intake in the rat*. *J. Genet. Psychol.*, 1940, 57, 153-163.
- MORUZZI, G., and MAGOUN, H.W. Brain stem reticular formation and activation of EEG. *EEG Clinical Neurophysiology*, 1949, 1, 455-73.

- MOWRER, O. H. A stimulus-response analysis of anxiety and its role as a reinforcing agent. *Psychological Review*, 1939, 46, 553-65.
- Learning theory and personality dynamics.** New York : Ronald Press, 1950.
- Motivation.** *Annual Review of Psychology*, 1952, 3, 419-32.
- Learning theory and behaviour.** New York and London : John Wiley, 1960a.
- Learning theory and the symbolic processes.** New York and London; John Wiley, 1960b.
- MURPHY, G. **Personality : A biological approach to origins and structure.** New York: Harper, 1947.
- MURRAY, H. A. **Explorations in personality.** New York : Oxford University Press, 1938.
- Toward a classification of interaction.** In T. Parson and E. A. Shill (eds.), **Towards a general theory of action.** Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.
- PETERS, R.S. **The concept of motivation,** London : Routledge & Kegan Paul, 1958.
- AIRPORT, D. The structure of psychoanalytic theory : a systematic attempt. In S. Koch (ed.), **Psychology a study of a science**, vol. 3. New York : McGraw-Hill 1959.
- On the psychoanalytic theory of motivation.** In M.R. Jones (ed.) **Nebraska symposium on motivation.** Lincoln : Nebraska University Press, 1960.
- SKINNER, B.F. **Science and human behavior.** New York : Macmillan, 1953.
- Technology of teaching,** New York : Appleton-Century-Crofts, 1968.
- SOKOLOV, E.N. **Perception and the conditioned reflex.** Oxford : Pergamon Press, 1963.
- SPENCE, K. W. **Behaviour theory and conditioning.** New York, Conn. : Yale University Press, 1956.
- Behaviour theory and learning.** Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1960.
- and JANET TAYLOR SPENCE (eds.) **The Psychology of learning and motivation.** New York and London : Academic Press.
- THOMAE, H. (ed.) **Allgemeine Psychologie II : Motivation.** Göttingen : Hogrefe's Verlag für Psychologie, 1965.
- THORNDIKE, E. L. **Animal intelligence.** *Psychological Review*, 1898, Monograph Supplement 2, 8.
- Animal intelligence,** New York : Macmillan, 1911.

TINBERGEN, N. *The study of instinct*. Oxford ; Oxford University Press, 1951.

TOLMAN, E. C. *Purposive behaviour in animal and men*. New York : Appleton-Century-Crofts, 1932.

Drives towards war. New York : Appleton-Century-Crofts, 1942.

A Psychological model. In T. Parson and E.A. Shill (eds.), *Toward a general theory of action*. Cambridge, Mass : Harvard University Press, 1951.

Principles of purposive behaviour. In S. Koch (ed), *Psychology, A study of a science*, vol. 2, New York : McGraw-Hill, 1959.

TSANG, Y. C. Hunger Motivation in gastrectomized rats. *J. Abnorm. Physiol. Psychol.*, 1938, 26, 1-17.

WANGENSTEEN, O.H. & A.J. CARLSON., Hunger sensations in a patient after total gastrectomy. *Proceedings of the Society of Experimental Biology*, 1931, 28, 545 - 547.

ابن شرف القيرواني

وَأَرْوَاهُ النَّقْدِيَّةَ فِي رِسَالَتِهِ « أَعْلَامُ الْكَلَامِ »

عَجْدُ سَلَامَةِ يُونُسَ

زيري واشهر ملوكهم وديب المالكية ورمي
لبانها — بدا له ان يقطع الصلة الواهية التي
تربطه بالعبيديين الشيعة النحلة ، فاعلن
انفصاله عنهم ، وخلص طاعتهم ، ولعنهم على
اعواد المنابر ، وحمل المغاربة على اعتناق مذهب
مالك والاستمسك به دون سواء متأسيا في ذلك
بطولك بنى أمية بالاندلس ، يقول ابن الأثير :
« وهذا المعز أول من حمل الناس بأفريقية على
مذهب مالك ، وكان الأتظب عليهم مذهب أبي
حنيفة » (١) ويقول ابن خلدون : « وكان المعز
منحرفا عن مذاهب الرافضة ، ومنتحلا للسنن ،
فاعلن بمذهبه لأول ولايته ، ولعن الرافضة ،
ثم صار إلى قتل من وجد منهم » (٢) .

ابن شرف أفريقي أو بالأحرى مغربي الولد
والنشأ بالمغرب ، وقد كان معاصرا لدولة بني
زيري خلفاء العبيديين على المغرب وعمالهم
عليه ، بعد أن فتحوا مصر واندلوا من القاهرة
قاعدة لكلهم ، وما أن جلا العبيديون عن المغرب
حتى تنفس أهل السنة الصعداء بعد أن لقوا
على أيدي العبيديين ضروبا من الأذى وصنفا
من العسف والوانا من الاضطهاد زهاء ستين
عاما أو أكثر ، حاولوا فيها بثشتي الوسائل
ومختلف الأساليب فرض المذهب الشيعة
وقمع المذهب السني والتقضاء على أهلله ،
ولاسيما المالكية منهم .

ولما ولي المعز بن باديس — واسطة عقد بني

(٢) تاريخ ابن خلدون : ٦ : ١٥٩ .

(١) الكامل : ٩ : ٩٥ .

حياته :

هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد أحمد بن شرف الجذامي القيرواني ، هذا ماورد فيما اثر لنا من كتب التراجم والطبقات التي ترجمت له ، وعرفت به قديما وحديثا ، **فيما** يقول في ترجمته له : (محمد بن أبي سعيد محمد المعروف بابن شرف الجذامي القيرواني) (٣) **ويقول الصفدي** : « محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني أبو عبد الله الجذامي(٤) ، ويقو **ابن شاكر** **الكتبي** في قوائمه : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني الجذامي » (٥) ويقول **ابن بشكوال** : « محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي القيرواني يكنى أبا عبد الله » (٦) ويقول **السيوطي** : « محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي » (٧) ويتكفى **ابن بسام** في ترجمته بقوله : « وكان أبو عبد الله بن شرف بالقيرواني من فرسان هذا الشأن » (٨) ويفعل الدباغ في معالم الإيمان (٩) ذكر نسبه وبهمله ، ولا يشير اليه ، أما **ابن حجية** في كتابه المغرب فقد أورد سلسلة نسبه، وانتهى به الى قحطان نقلا عن **ابن الكلبي** أول من راد علم الانساب ، والاف فيها حيث يقول في بداية ترجمته له : (من ولد جذام بن عدى بن الحارث بن مرة بن ادد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان كذا نسبه أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي (١٠) اما المحدثون فقد

بيد أن المعز لم ينعم طويلا بالاستقلال ، فقد أغضب العبيدين ، وأحفظهم واثار موجدتهم عليه ، فأخذ الخليفة المستنصر المؤتور ، يتكر كيف يثار لنفسه من المعز الذي انشق عليه ، وخلق طاعته ، فأشار عليه وزيره البازوري أن يشعروا في ارسال العرب الى المغرب ، فاصلحوا بين زغبة ورياح وكانت بينهم حروب وحقود وأعطوهم مالا ، وأمروهم بقصد القيروان ، ومكلموهم كل مايفتحونه ، ووعدوهم بالمدد والعدد فدخلت العرب افريقية ودارت رحى الحرب على ارض المغرب حتى عجز المعز عن رد عادية الأعراب الغبرين ، وسقط في يده ، واضطر الى أن يشير على رعيته بالارتحال عن القيروان الى المهديّة سنة ٤٩ هـ وهكذا نجحت الكفيدة التي يبتت بليل ، وخرت القيروان دار العلم بالمغرب ، وانجسرت موجة العلم والأدب عن القيروان الى المهديّة العاصمة الثانية لأمرأه بني زيري ، وأرز اليها العلماء والأدباء والشعراء .

وقد عاش ابن شرف في ظلال المعز بن بارس، وافصلت أسبابه بأسبابه ، وانخرط في سلك خدمته ، ولقى حظوة كبيرة في بلاطه ، حتى أصبح شاعر المعز المقدم عنده الأثير لديه على سائر من في بلاطه من الأدباء والشعراء باستثناء ابن رشيق .

(٣) معجم الأدباء : ١٩ : ٣٧ .

(٤) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٥) فوات الوفيات ٢ : ١٠٥ .

(٦) الصلة ٢ : ٥٧١ .

(٧) بغية الوعاة : ٤٦ .

(٨) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٣٣ .

(٩) معالم الإيمان : ٣ : ٢٣٩ .

(١٠) المغرب : ٦٦ .

في الرد عليه عدة تصانيف ، كان أبوه رشيق روميا ذكر ذلك هو في الرد على ابن شرف بعد ذكره نسب ابن شرف : هو اسم امرأة نالحة ، ثم قال : وأما أنا فنضر الله وجه هذا الشيخ في ، وأتم به النعمة على ، فما أبغى به أبا ، ولا أرضى بملعبه مذهباً ، رضىت به روميا لأدعيا ولا بدعيا « (١٤) فيبدو لنا من هذا النص أن ابن شرف ربما كان ينزى ابن رشيق بأدومته الرومية ، ويفخره في نسبه في الأجاجم ، ويطعن عليه ، وينقص منه بذلك ، ونثال منه في زمن كان العربي يعتز فيه بعروبه ، ويستشعر فيها العزة والشيم، وكان الموالي الممتنون الى أصول غير عربية لا يبالون جهدا في الانتفاء من الولاء الذي وسمهم بميسم الدلة والصفار ، ومن ثم أخذوا يصطنعون الانساب العربية ، وينتفون جهدهم من اصولهم غير العربية التي أنتمت ، حتى أننا نجد أبا مسلم الخراساني وهو من هو يصطنع لنفسه نسبا عربيا يزعم فيه أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس ، وقد قرعه بذلك أبو جعفر المنصور ، وانكر عليه هذا النسب الزموم عندما هم بالإيقاع به وقتله على مايروى لنا الطبري في تاريخه : (١٥) ونرى باقوت في ترجمته للجاحظ يورد لنا قصة تدل على سخرية الجاحظ (١٦) بهذه الصناعة التي راجت في عصره ، الا أننا نرى ابن رشيق في رده على ابن شرف يصرح برضاه عن نسبه في الأجاجم ، ويفخر بأدومته الرومية ، ويعرض

تبعوا القدامى عند ترجمتهم لابن شرف . **فالبنفادي** في هدية العارفين يعرف به وينسبه بقوله : « محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجدامى القيرواني » (١١). ويقول **محمد كرد علي** : « أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجدامى القيرواني » (١٢) ويقول **صاحب معجم المطبوعات** : « أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني الجدامى » (١٣) .

ومن عرضنا لما ورد عن اصحاب التراجم والطبقات قديما وحديثا في نسبه عند ترجمتهم له ، وتعريفهم به نجدهم قاطبة يجمعون على أنه عربي صليبة وليس ولاء ، وأنه سليل قبيلة جذاع تلك القبيلة العربية القحطانية التي نزلت الى افريقية فيمن نزع اليها من القبائل العربية إبان الفتوح الاسلامية لهذا الصقع ، وألقت به عصا التسيار ، وطاب لها المقام بمدينة القيروان ، فهو اذن عربي صريح ينتمى الى أرومة عربية قحطانية ، وقد كان نسبة العربي أمرا متعلما مشهورا ، حتى أن ابن رشيق ، قريعه ومنافسه في بلاط المعز بن باديس ، لم يستطع أن يفخره في نسبه أو يطن في عروبه ، ونثال منها عندما استحكم العداء بينهما ، فعندما نقرأ في ترجمة باقوت لابن رشيق : « وكان بينه وبين ابن شرف الأدب مناقضات ومحادثات ، وصنف

(١١) هدية العارفين ٢ : ٧٢ .

(١٢) رسائل البنفاء : ٢٠٢ . والنظر ترجمة حسن حسني لابن شرف في مجلة المقتبس المجلد السادس : ٢٥١ .

(١٣) معجم المطبوعات ١ : ١٢٩ .

(١٤) معجم الأدباء ٨ : ١١١ .

(١٥) تاريخ الطبري ٩ : ١٦٦ - ١٦٧ .

(١٦) معجم الأدباء ١٦ : ٩٤ .

بأبن شرف الذي قالوا عنه : ان شرفا اسم أمه (١٧) ، وأنه ليس له أب معروف ، كما غمز به ذلك مرة أخرى حيث يقول :

أما أبى فرشيقي لست أنكسره

قل لى أبوك وصوره من الخشب

وهكذا نرى ان أصحاب التراجم والطبقات يجمعون على ان ابن شرف عربى صريح ، وأنه لسيل قبيلة جذاع تلك القبيلة العربية اليمنية (١٨) التى ينتهى نسبها الى حططان .

ولم يشر أحد ممن ترجموا له ، وعرفوا به الى مكان ولادته وسفقت رأسه ، ويطلب على لظن أنه ولد بالقيروان ، أما سنة مولده فإنا لانكاد نجد أحدا أشار إليها ممن ترجموا له من أصحاب التراجم القدامى ، أما المحدثون فقد حيدوها الأستاذ **محمّد كرد على وحسن حسنى بنحو سنة ٣٩٠ هـ (١٩)** ، أما سنة وفاته فانهم يكادون يتفقون على أنه **توفي سنة ٤٦٠ هـ (٢٠) ولم يشد عن هذا الإنفاق سوى الصدفى وابن بسم والسيوطى** أما الصدفى فانه أورد تاريخ وفاته بأسلوب الشك والاحتمال ، ولم يقطع بأن وفاته كانت في هذا

التاريخ حيث يقول : « وتوفى سنة ستين وأربعمائة ، أو فيما قبلها » (٢١) ، أما ابن بسم فقد أورد في أخبار ابن شرف أنه توفى سنة ٣٦٢ هـ نقلا عن ابن رشيقي حيث يقول : « حكى أبو على في رسالة قراضة الذهب أنه مات سنة الثنتين وستين وثلاثمائة (٢٢) وهو خير غريب ووهم واضح ، إذ أنه لم يكن ولد ، وخرج الى الوجود في هذا التاريخ ، وقراضة الذهب التى بين أيدينا الآن لا نجد فيها إشارة الى هذا الخبر الغريب ، ولعل ابن بسم كان يعنى سنة الثنتين وستين وأربعمائة لا اثنتين وستين وثلاثمائة ، أما السيوطى فقد ذهب الى أنه توفى سنة ٥١٨ هـ وهو خير غريب ووهم واضح ، ولا ندرى من أين أتى بهذا التاريخ مع ان ترجمته له لا تعدو سطرين استقاهما وتقاها من الصلة لابن بشكوال ، وبالرجوع الى المصدر الذى استقى منه ، ونقل عنه ، لا نجد ابن بشكوال يذكر تاريخ وفاة ابن شرف بل أغفله تماما وأهمله ولم يشر اليه ، على هذا فتحدد تاريخ وفاة ابن شرف بسنة ٥١٨ هـ من اختراع السيوطى ، وليس كما زعم من أنه نقله عن ابن بشكوال حيث يقول : « مات سنة ثمان عشرة وخمسائة ذكره ابن بشكوال في زوالده على الصلة (٢٣) أما مكان وفاته فنحن

(١٧) يقول الصدفى : « قيل ان شرف اسم أم أحمد فعلى هذا لا ينصرف ، واسم أبيه فينصرف » **الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧** ويعد ان يعدد رسائل ابن رشيقي في مجاهد ابن شرف وذكر الغلاطه يقول : « وأنشئني في بعضها :

وليست اياكم فضلا كسب

فأنبت في ذلك المنصب

ولحسن نسامكم

بنو شرف شرف امكم

ولكنها التفتت شيخكم

ابننوا لسا امكم ولا

انظر الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(١٨) في كشف القنون : ١ : ٤٦ « جدام باسم الجيم والذال قبيلة من اليمن » .

« ١٩ » رسائل اليفاء : ٣٠٢ وانظر مجلة المكتبي : ٦ : ٣٥١ .

(٢٠) النظر معجم الأدياء : ١٩ : ٣٨ وفوات الوفيات ٢ : ٤١٠ وكشف القنون : ١ : ٤٦ وهدية الدارين ٢ : ٧٢ ونظر الاسلام

١ : ٣٠٨ والأعلام للزركلى ٣ : ٩٠٠ .

(٢١) الوافى بالوفيات ٣ : ٩٧ .

(٢٢) اللخرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٨٠ .

(٢٣) بقية الوعاة : ٤٦ .

ابن شرف هذا ممن فهم منحا ، وصم عن رقا ، فلم يجتمع مع عباد في صعيد ، ولا أهدى له السلام إلا من بعيد » (٢٨) ثم يذكر بعد ذلك أن أول ما بعث به ابن شرف إلى المعتضد باشيبيلى خمس قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره ابن زرينون ، وأنه أجيب على ذلك برسالة من أنشاء ابن عبد البر يستحثه على القدوم على حضرة المعتضد الذى وجه إليه بما يعينه على رحلته إليه (٢٩) فامتنع ابن شرف من القدوم على حضرته واكتفى بأن أهدى إليه كتابه « إكبار الإنكار » يقول ابن بسام : « فتوقف ابن شرف عن القدوم بقدمه ، وكلف ذلك سن قلعه ، وطرده تأليفه « إكبار الإنكار » « باسم عباد ، وبعث به إليه على العباد » (٣٠) فلما وصل الكتاب والخطاب إلى المعتضد لم يجد بدا من إتمام صلته إليه ، (٣١) ورد على ابن شرف برسالة من أنشاء عبد البر أيضا ، ثم يقول ابن بسام بعد ذلك : « ومع وصول هذه الصلة إلى ابن شرف لم يزل على ملوك الطوائف يومئذ يتطوف وينتقل في الدول من منزل إلى منزل ، ومن بلد إلى بلد إلا حضرة المعتضد فإنه كان يخاطبه ، وينشده :

أجيبك في البتول وفي أيها

ولكنى أجيبك من بعيد (٣٢)

نعم أنه توفي في دار غربته بالاندلس متنقلا بين ملوك الطوائف . إلا أننا لا نكاد نجد أحدا من أصحاب التراجم القدامى حدد لنا مكان وفاته اللهم إلا ياقوت الذى يكاد ينفرد بين القدامى بتقرير أن وفاة ابن شرف كانت باشيبيلى (٣٤) ، كما ذهب إلى ذلك من المحدثين حسن حسنى عبد الوهاب حيث يقول : « واجتاز ابن شرف وحده الاندلس ، وسكن المربة وغيرها ، وتردد على ملوك الطوائف كال عباد باشيبيلى وغيرهم وبهذه المدينة الأخيرة كانت وفاته سنة ٤٦٠ هـ . (٣٥) وتبعه في ذلك طائفة من المحدثين . (٣٦) ونحن نشك في هذا الخبر ولا نكاد نطمئن إلى أنه توفي باشيبيلى ، وأنه اتصلت أسبابه بأسباب المعتضد بن عباد صاحب اشبيلى وحاشى في كنفه إلى أن أدرسته منيته ، لأننا نجد ابن بسام في ذخيرته يقول عن ابن شرف : « واستقر أخيرا عند المأمون بن ذى النون فعليه خلع آخر لبوسه ، ونشر بغيه كيسه ، وكانت لعباد همة في اصطحاب الأحرار واستجلاب ذوى الأخطار ينصب لذلك الحبال ويعمل فيه الحق والباطل ، حتى إذا غشوا إلى سرجه ، واغترأوا بزرجه سامهم رد قبس على أبيه ، واخذهم بالسعاية بين الفرق وأخيه » (٣٧) ثم يذكر بعد ذلك أن ابن شرف كان يتجنب عبادا ، ويتحاماه فيقول : « وكان

(٢٤) معجم الأدباء : ١٩ : ٣٨ .

(٣٥) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ .

(٣٦) اتفر الدولة الصنهاجية لأحمد بن عامر : ٨٤ وعمر القروان : ١٠٨ والأعلام : ٤ : ٩٠٠ .

(٣٧) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٢٣ .

(٢٨) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢٩) المصدر السابق : ١٢٥ .

(٣٠) المصدر السابق : ١٢٨ .

(٣١) المصدر السابق : ١٤١ .

(٣٢) المصدر السابق : ١٤٢ .

أما أسرته فقد سكنت عنها المترجمون ، وأغفلوها ولم يشرروا إليها أدنى إشارة ، ولم يخفوا بها شأنه شأن غيره من العلماء والأدباء ، فلا تكاد نعرف من أسرته إلا ولده جعفرًا ، وكان كاتبه أديبًا شاعرًا ، وقد ترجم له ابن بشكوال في صلاته ترجمة موجزة ذكر فيها أن له رواية عن أبيه ، وأنه أخذ عنه ديوانه حيث يقول :

« جعفر بن محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي القيرواني ، وأصله منها ، وبها ولد سنة أربع وأربعين وأربعمائة ، وخرج عنها عند اشتداد الفتنة عليها سنة ٤٧٠ هـ إلى الأندلس ، واستوطن برجة من ناحية المرية ، يكنى أبا الفضل له رواية عن أبيه ، وأخذ ديوان شعره ، وعن القاضي أبي عبد الله بن المراتب وأبي الوليد الوقيشي وأبي سعيد الوراق وغيرهم » (٣٥) ويقول **محمد كرد علي** : « وخلف ابننا يدعى أبا الفضل جعفرًا كان أديبًا ومجيدًا أيضًا ، أورد له المعتمد في خريدته والفتح في قصائد وفضول تشهد له بظول الباع » (٣٦) وفي الفصل الذي عقده ابن بسام بعنوان « ما أخرجه من شعر ابن شرف في أوصاف شتى » نجد ابن شرف قد فضل القول وإجاد في تصوير نكبة القيروان حاضرة إفريقية ، وما أصابها على أيدي أعراب الصعيد من صنوف التخريب والتدمير ، وما لحق بأهلها من الوان العسف والاضطهاد ، وما حل بهم من فنون الأذى وضروب التعذيب ولا غرابة في هذا فقد هزته مأساة القيروان ، وأفرغته الكارثة ، وأزعجته عن حرمه الآمن ، فلا عجب أن انطلقت بعده قصائد تعد من عيون الشعر العربي في رثاء المدن والامصار ، وبعثنا هنا أنه يصف في إحدى مراثيه للقيروان حال أفراخها الصغار -

ثم يورد له ستة أبيات طريفة خاطب بها المعتضد ، وأبأسه من لقائه والوقوع في حباله ، ولا بأس من أن نورد لها لطرافة معانيها هي :

أن تصيدت شيرى صيد طائفة
أوسعتها الحب حتى ضمها القفص
حسبني فرصة أخرى ظفرت بها
هيهات ما كل حين تمكن الفرس
وفلاهر حسن أيضًا لقصتها
لكن لها باطن في طيها قصص
لك الموائد للقصائد مترعة
تروي وتنبسح لكن بعدها قصص
ولست أعجب من قوم إذا انتشروا
لكنما حبسني من معشر خلصوا
ولم يطب قسط لي من يلد ولا
سلوى إذا كان في مقابها مفصص (٣٧)

ثم يعلق ابن بسام على هذه الأبيات بقوله : « قال هذا لتواتر الخبر عن المعتضد بازوروار ركنه ، وخشونة حزنه فأضرب عن ضربه ، ولم يتعرض للنسبة في جبال نسبه ، خوف أن يورطه في الهوان ، ويسقط العشاء به على سرحان ، ويطيح في جملة ما طاح على يديه من الخطاء والندماء » (٣٨) وهكذا يخالفنا الشك ولا يمكننا أن نطعن إلى أن ابن شرف انتهى به المطاف إلى اشبيلية ، وأنه توفي بها كما يقول ياقوت من القدامى ، ومن ذهب إلى ذلك من المحدثين ، ونرجح أنه أدركته منيته بطليطلة في كنف ابن ذي النون .

(٣٧) نفس المصدر السابق والملاحظة .

(٣٨) المصدر السابق : ١٤٣ .

(٣٥) المعلقة ١ : ١٢٩ كما ترجم له الفتح بن خافان في فلالده : ٢٥١ - ٢٥٨ وأغاص في الشناء عليه ونقل شعره الرقص والكرب .

(٣٦) رسائل البلقاء وانظر مجلة التنبيس المجلد السادس : ٢٥٤ .

ولسى منهما سهماً هذا ابن أربع
وهذا ابن ست كلما كان اغفاء
أضهما والليل داج كأنهما
هما نقطتا ياء وجسمى هو الياء
فطورا يفثيم على ذكرك الكرى
فتصبح أضواء عليهم ولاء
وطورا يعجبون اللجى ومطاله
وما كان للفايت مطل وأرجاء
فتضجر منهم أنفـس ربعا بكت
بكى هو للصم الجلاميد إبقاء (٣٨)

ويكاد هذا هو كل ما نعرفه من أسرة ابن
شرف ، وما أثر لنا من إشارات إليها ، في
آثاره الشعرية التي وصلت إلينا .



كان ابن شرف شخصية خصبـة متعددة
المواهب ، فهو أديب ناقد كاتب شاعر صاحب
منظوم ومنثور ، فـياقوت يبدأ ترجمته له
بقوله : « الأديب الكاتب الشاعر » (٣٩) وبعده
الصفدي أحد فحول شعراء المغرب (٤٠) ،
ويقول عنه ابن شاكر الكتبي : « أحد فحول
شعراء الأندلس والمغرب » (٤١) . ويقول فيه
ابن بشكوال : « وكان من جلة الأدياء وفحول
الشعراء ، وله كتب مصنفـة في معنى ذلك كله
ويشير ابن خلدون في مقدمته إلى علو مرتبته في
الشعر هو وقربه ابن رشيق فيقول : « ما كان
بأفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق

وما تجشموه من صعاب وأهوال في الصحارى
والقفار وعلى متون البحار فرارا بأنفسهم من
عسف الأعراب وإذاتهم فيقول :

كاننى وأفراخسى إذا الليل جننا
وبات الكرى يجفو جفونا ويطلق
حماثم أضالـن الزكور فضعها
تجانسها حتى تراءى المفرق
إذا أفزعتهـم نبوة زاحموا لها
فلومسى حتى ودهم لو تفتق
ويصغر جسمى عن جميع احتضانهم
فيثبت ذا فيه وذا عنه يزهدق
كانهم لم يـمكنوا ظـلل نعمة

لها بهجة ملء العيون وردنق
الى أن غدوا قن الفيافى فتارة
تباع وفي بعض الإحايين تعتق

وطورا على موج البحار كأنما
قدى قد وثقنا إننا ليس نفرق
ونحن نفوس سمعة ليس بيننا
وبين الردى إلا عويسد معلق (٣٧)

كما نجد في مدحة أخرى بعث بها إلى
المعتضد يشير إلى طفلين له : أحدهما ابن أربع
سنوات والآخر ابن ست سنوات ، وما تجشماه
في هذه السن الفضة من صعاب فيقول :

أجشمهم ليل القفار وظلمة الـ
بحار وكـم ربعوا ولـلستر أرخاء

(٣٧) اللخية القسم الرابع الجـلد الأول : ١٨١ .

(٣٨) المصدر السابق : ١٧٩ .

(٣٩) معجم الأدياء ١٩ : ٣٧ .

(٤٠) الواقى بالوفيات ٢ : ٩٧ .

(٤١) فوات الوفيات ٢ : ٢٥٥ .

الحسن القاسبي وأبي عمران الفاسي» (٤٥) وشيخ الصفيدي^١ وروى ابن شرف عن أبي الحسن القاسبي (٤٦) ويذكر ابن بشكوال أن لابن شرف رواية عن أبي الحسن القاسبي وأبي عمران الفاسي وصحبة لهما، وأن أبا الوليد بن شريك عليه^٢ ووصفه بالعلم والذكاء، ثم يعرفنا عنه بأنه الإديب أبو الفضل جعفر بن محمد بجميع مجموعات أدبه، وكتب بذلك الشيخ^٣ رحمه الله (٤٧٠). ويذكر الدبائغ^٤: «ولابن عبد الله محمد بن شريك رواية عن الشيخ أبي الحسن له بسبب دأبه عمران الفاسي، وذكره الشيخ أبو الفتح الباجي، والثاني عليه، ووصفه بالعدل والذكاء، وأن عالم الأدب من بعض علومه» (٤٨) ويبدو أن صلة ابن شرف بالفقهاء والفقه كانت قوية متميزة، وأن روايته عن الفقهاء كانت معروفة مشهورة، حتى رأينا الدبائغ يسلك في جملة الفقهاء، ويعدده منهم، فيترجم له، ويعرف به في كتابه «معالم الإيمان» وكأنه كان مشهورا بالعلم والفقه في عصره، معدودا من جملة الفقهاء والعلماء، بل إنه يبدو أن شخصيته الفقهية العلمية كانت أغلب عليه من شخصيته الأدبية، وأن شهرته بالفقه والعلم طغت على جانب شهرته بالأدب وفاقته، حتى أننا نجد الدبائغ في نهاية ترجمته له ينقل لنا ثناء أبي الوليد الباجي عليه، ووصفه بالعلم والذكاء، وأن

وإبن شرف، وأكثر ما يكون فيها من الشعراء طائرين عليها» (٤٩) وحين عرض له ابن رشيق فيمن عرض أهم من شعراء عصره قال فيه كما نقل لنا ابن فضل الله العمري: «شاعر حاذق، متصرف كثير المعاني والتوليد، جيد المقطعات والتقصيد، أشعر أهل زمانه من شق غياره، وأحذقهم من أغنى آثاره، وما منهم إلا أغسر نجيب» (٤٩) فإن رشيق في موقفه من إبن شرف هو موقف الرجل المنصف الذي يعرف له قدره، ويصفه ولا يغمظه حقّه، ولا يبخسه فيما يعلم، ولا ينتقص من قدره الذي يعرفه له، وهو موقف يحمد لابن رشيق إذا عرفنا ما كان بينهما من منافسة، والواقع أن إبن شرف كان من الشعراء المجيدين، وقد اشتهر شعره بقوة التراكيب وسلاسة المعاني، ودقة الموصف، ووضوح الأفكار، كما هو واضح من أشعاره التي أوردنا طرفا منها، ويقول فيه ابن بسام: «من فرسان هذا الشأن، وأحد من نظم فلاسله الآداب، وجمع اشتات الصواب وتلاعب بالمنظوم والموزون تلاعب الرماح بأطراف الفصوص» (٤٤) وقد أورد ابن بسام طائفة كبيرة من شعره ونثره، وبسط القول في أخباره الأدبية وأفاض فيها حتى كسر عليها ما يزيد من خمسين صفحة، بل أن لابن شرف رواية عن أبي الحسن القاسبي وأبي عمران الفاسي الغنيتين يقول بأقوت: «روى أبي

(٢٢) التلمذة: ٢٥٥ ولا توافق ابن خلدون على ما ذهب إليه من أنه لم يكن بالفريقية من مشاهير الشعراء إلا ابن رشيق وابن شرف، وأن أكثر من فيها من الشعراء طائرين عليها، إذ أنه وجد بالفريقية من الشعراء من هم في مرتبة ابن رشيق وابن شرف، بل ربما وجننا من الشعراء المعاصرين لهما من هو أشعر منهما مثل عبد الكريم النشيلي والرفيق الفرواني وعلي بن عبد الغني الحضري وغيرهم.

(٢٣) مسالك الإصرار ج ١١ قسم ٢: ٢٢٨.

(٢٤) الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول: ٢٢٢ وقد نقل الدبائغ في ترجمته لابن شرف من ابن بسام أنظر معالم الإيمان ٢: ٢٢٩.

(٢٥) معجم الأدياب ١٩: ٢٧.

(٢٦) الوافي بالوفيات ٣: ٩٧.

(٢٧) الصلة ٢: ٥٧١.

(٢٨) معالم الإيمان ٣: ٢٢٩.

كيف كان يشهد مراراً لدته ومعاصره ابن شرف وهو يكتب القصيدة في غير مسودة كانه يحفظها ثم يقوم فينشدتها ، ولكن انه لا يستطيع ان يحصى ما كان بينهما والروابط المتينة التي تجمع بينهما تدفع بابن شرف الى ان يحضر كل يوم صاحباً حيناً ، وفي سكر حيناً آخر على ما يروى الصغدي حيث يقول : « وقد قال ابن رشيقي في حقّه في الانموذج : لقد شهدته سرايا يكتب القصيدة في غير مسودة كانه يحفظها ، ثم يقوم فينشدتها ، وأما القطعات فما أحصى ما كان يصنع منها كل يوم بحضري صاحباً كان أو سكراناً ، ثم يأتي بعد ذلك أكثرها مخترعاً بديعاً » (٥٤) .

وبعد ان اتصلت أسبابها بأسباب المعز بن باديس ، وجعلهما بلاطه ، ولهماً إيماناً ان يكونا شاعري حضرته وملازمي ديوانه ، حتى أصبحا متقدمين عنده اليرين لديه على سائر من في بلاطه من الأدباء ، يقول باقوت : « وكان ابن شرف وابن رشيقي صاحب العمدة متقدمين عنده على سائر من في حضرته من الأفاضل والأدباء » (٥٥) .

ويقول حسن حسني : « وقد خصص المعز لصحبته من بين هؤلاء الزعماء المتقدمين ابن شرف هذا وابن رشيقي فكان يلتفت لفرقة الى الاول ، واخرى الى الثاني ، وجرى بسبب ذلك بين هذين الادبيين مناقضات ومهاجاة رسمها كل منهما في رسائل مستقلة ومقامات متنوعة لم يصل اليها منها شيء فيما نعلم (٥٦) .

علم الادب من بعض علومه (٤٩) ويقول الدكتور ياقبي : « وكان ابن شرف قد كان مشهوراً بالعلم والفقه في زمنه ، ولهذا فلسنا نجد له ترجمة لدى ابن خلكان أو باقوت بخلاف ابن رشيقي فله ترجمة لديهما » (٥٠) ونرى ان الدكتور باغي قد جانيه الصواب فيما ذهب اليه من انه لم يجد ترجمة لابن شرف لدى ابن خلكان ، أو باقوت بخلاف ابن رشيقي ، ورد ذلك الى ان شهرة ابن شرف في زمنه بالفقه قد غلبت على جانب الادب بخلاف ابن رشيقي ، فالواقع اننا نجد ترجمة لابن شرف عند باقوت في معجمه ، وإذا كانت ترجمته قد سقطت من ابن خلكان فليس ذلك بسبب شهرته بالفقه ، لان ابن خلكان لم يقصر وفياته على الترجمة للأدباء وحدهم دون غيرهم ، بل ترجم لشئ الطبايعات ومختلف الطوائف والفئات من خلفاء ووزراء وقضاة وفقهاء ومحدثين وقراء ومفسرين ونحاة ولغويين وأدباء وشعراء وكتاب ومؤرخين ورواة ووعاظ وصوفية ومكتلمين .

وقد توصلت العلاقات بينه وبين معاصره ابن رشيقي ، وتوثقت الصلات بينهما قبل ان يجمعهما بلاط المعز بن باديس وأسطرة عقد بينهما كما يقول ابن خلكان (٥١) والذي كانت القيروان في عهده كما يقول باقوت ، « وجهه العلماء والأدباء ، تشد اليها الرجال من كل فج ، لا يرونه من اقبال المعز على أهل العلم والأدب ، وعنايته بهم » (٥٢) كما كانت حضرته محط بنى الآمال ومتنوع الأدباء كما يقول ابن خلكان (٥٣) ، وقد حدثنا ابن رشيقي

(٤٩) معالم الإيمان ٣ : ٢٤١ .

(٥٠) حياة القيروان وموقف ابن رشيقي منها : ٢٠٢ .

(٥١) وفيات الأعيان ٤ : ٢٢١ .

(٥٢) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٣) وفيات الأعيان ٤ : ٢٢١ .

(٥٤) الوافي بالوفيات ٢ : ٩٨ .

(٥٥) معجم الأدباء ١٩ : ٣٧ .

(٥٦) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٢ .

والذي صنعه ابن رشيق :

موز سريع اكلكه
من قبل مضغ الماضغ
ماكلكه لاكلك
ومشربة لسائغ
بخال وهو بالغ
للحلق غير بالغ

فأمرنا الوقت ان نصنع فيه على حرف
الدال ، فعملنا ، ولم ير أحدنا صاحبه
ما عمل ، فكان ماعملته :

هل لك في موز اذا
ذقه قلت جيدا

فيه شراب وغذاء
يريك كالماء القلى

لو مات من تلذذا
به لقييل : ذا بدا

وما عمله ابن رشيق :

الله موز لذيذ
يعيله المستعيد

فواككه وشراب
به يداوى الوقيد

تري القلى العين فيه
كما يريها البيد

قال ابن شرف : فأتت ترى هذا الاتفاق
لما كانت القافية واحدة والقصة واحدة

ويبدو أنهما كانا أقرب الى نفس المعز من
سائر الشعراء ، وأكثر استجابة لما يعليه
عليهما ولهذا رأينا كثيرا ما كان يستدعيهما
ويخلو بهما حين يطيب له أن يلو ، وكان
على ما يظهر لنا يرغب في إثارة أسباب المنافسة
بينهما في مجالسه الأدبية ، ويقوم هو بدور
الحكم أحيانا في المفاضلة بينهما ، يقول ابن
ظافر : « ان الاتفاق والتوارد بين الشعارين
يقع أكثر ما يقع عندما يضيق المقترح عليهما
بان يعين لهما الوزن والقافية » (٥٧) ثم ينقل
عن « ابتكار الأفكار » لابن شرف ما يؤيد
ماذهب اليه فيقول : « أكثر ما يقع هذا الاتفاق
الغريب والتوارد العجيب اذا ضيق المقترح
على الشاعرين بان يعين الوزن والقافية .

ذكر ابو عبد الله بن شرف القيرواني في كتاب
(ابتكار الأفكار) قال : استدعاني المعز بن باديس
يوما ، واستدعى ابا علي الحسن بن رشيق ،
وكنّا شاعري حضرته وملازمي ديوانه ، فقال :
احب ان تصنعا بين يدي قطعتين في صفة
الموز على قافية الفين ، فصنعنا حالا من
غير ان يقف احدهما على ما صنه الآخر ، فكان
الذي صنعته :

ياحبذا الموز واسعاده
من قبل مضغ الماضغ

لان الى ان لامجس له
فالفم ملان به فارغ

سيان قلنا ماكل طيب
فيه والا مشرب سائغ

(٥٧) بدائع البالد : ١٢٧ ، ويقول ابن دحية : « وبسنننا الى ابي عبد الله محمد بن شرف قال : أكثر ما يكون توارد
الخواطر ووفوع الاتفاق وما يقاربه اذا طلب الشاعران أو الناشران معنى واحدا في قافية واحدة » المطب : ٦٧ لم
يورد بعد ذلك شعرى ابن رشيق وابن شرف في وصف الموز، ولي مدح الزغب على سوق بعض حطايا المعز .

وكان الذي قال ابن رشيق :

يعيون بلقيسية أن راوا بها

كما قد رأى من تلك من نصب الصرحا

وقد زادها التزغيب لمحاكمثل ما

يزيد خدود الفيد تزغيبا لمحا

فاتنقذ المعز على ابن رشيق قوله « يعيون »
وقال : قد أوجدت لخصما حجة بأن بعض
الناس عابه ، وهذا نقلا ما فطنت له (٥٩) .
وهكذا رأينا المعز بن باديس الذي كان حريصا
على أن يقرب الكتاب والشعراء وأن يلحظهم
بخاصته ، ويجمعهم في ديوانه ، حتى اجتمع
في بلاطه مائة شاعر بليغ كما يقول حسن
حسني (٦٠) ، يطيب له أن يبيت في الشعراء
روح التنافس ، وأن يدفعهم إلى التسابق
في الإجابة ، والمباراة في الإحسان فيما يقترحه
عليهم من أغراض ، وأن يساجل بعضهم
بعضا ، وينافره فيما يفرض عليهم ، ويطلب
اليهم القول فيه ، وأن يفرض بعضهم ببعض
شجلا لقراءتهم ، واستخراجا لأجود
ما عندهم ، حتى عادت تلك المساجلات
والتنازلات على الأدب بلطيف الأثر وأحسن
النتائج يقول حسن حسني « وكثيرا ما كان
المعز يظهر الليل إلى أديبين دون آخر ، أو ينشب
بين شاعرين فيوقع بينهما تنافسا أدبيا ينشأ

والقصود واحدا » ولقد قال من حضر ذلك
اليوم : ماندرى مم نتعجب أمن سرعة البديهة ،
أم من غرابة الثقافة ، أم من حسن الاتفاق (٥٨) .
ثم ينقل ابن ظافر بعد ذلك عن ابن شرف قوله :
« استخزلنا المعز يوما ، وقال : أريد أن
تصنعا شعرا تمدحان به الشعر الرقيق
الخفيف الذي يكون على سوق بعض النساء ،
فأنى استحسنته وقد عاب بعض الشعراء
بعضا به ، وكلهن قارات كائيات ، فاجب أن
أزهرن ههنا ، وأدعى أنه قديم لاحتج به على
من عابه ، وأسر به من عيب عليه ، فانفرد كل
منا ، وصنع في الوقت ، فكان الذي قلت :

وبلقيسية زينت بشعر

يسير مثل ما يهب الشحيح

رقيق في خدلجة رداح

خفيف مثل جسم فيه روح

حكى زغب الخدود وكل خد

به زغب فعمشوق مليح

فان يك صرح بلقيس زجاجا

فمن حدق العيون لها صروح

(٥٨) بدائع اليدالة : ١٢٧ - ١٢٨ والطرب : ٦٧ - ٦٨ وليس في الناقلم هذا ما يدعو إلى التسبب ، لو شيع
الاستغراب لأن العلاقات الوثيقة والروابط التينة التي جمعت بينهما واتصالها القوي الطويل قبل أن يصبوا بجلد
العزيز بادوس . والناقلم في الأخذ من مشاعر علماء عصرهما وأدبائه أمثال التنازل وأبى اسحق الحميري وليرحسا ..
بالإضافة إلى الفرض الواحد الذي فرض عليهما ، وطلب اليهما أن ينظما فيه على طريقة واحدة ، فضلا عن أنهما لم
يكونا يصدران في ذلك عما يدور بخواطرهما ولم يكونا يتناوذا هذه الموضوعات التي فرغت طليعا كما يحسن بها في دخول
نلوسهما ، وكما تقع في وجدانيهما . وقد نتج عن كل ذلك أن جاء شعرهما في الموضوعات المتروكة طليعا متقنيا متشابه
كما رأينا ، وهكذا سخر المعز الشعراء لإيجاد أوقات فراغهم اللاهي المأيت ، ولتوبة حين يليب له أن يجو ، ولتلك حين
يجلو له أن ينشد اللذة ويلعبها فيتقدم اليهم أن يصنعوا شعرا في مدح زغب ثبت على سوق من فبتت به من طليعه ،
أو يلقوا في وصف فاهتهم اللواتك حتى كان الشعراء في بلاطه لا يكونون يصدرن إلا عما يدور بقلده ، ويحس في خاطره ،
وتحدثه به نفسه ولما كانوا يصدرن عن داخل نلوسهم أو وجدانيهم .

(٥٩) بدائع اليدالة : ١٢٧ - ١٢٨ والطرب : ٦٨ - ٦٩

(٦٠) بساط العليق : ٥١

عنه تسابق في اختراع المأاني بتوايد البكترات، وحصل بسبب هاته المنافذ ان، بعض ناسوق الادب، وظهرت حركة عامية وفكرية اجند، افريقية من ثمراتها البائغة ما يحق لها الإذجار به (١١) .

ويغلب على الظن ان ما اثر لنا عن ابن رشيق وابن شرف من مساجلات ومناظرات وما قام بينهما من مناقضات وما رتبا وسجلتها كتب الادب، كان لا يعدو كون لونا من ألوان المباحثات، وغربا من غروب المناقشات لا يصدران فيها عن داخل - - - - -، وكما كان من مولىهما ينفقوا - - - - -، وعندهما، ويعتروا احدهما بصاحبه - - - - -، ويثبوتونه به - - - - -، ويحترسا بينهما استخراجا لما عندهما، واستمنا، ما يصدر عنهما، ثم يحكون لهما ذلك، ولم يكن كل ذلك ليصل بهما الى حصة البعض او العدا او القطعة والعصاف عن المردة وتقطع اسباب التصادق بينهما، وفي حفظ هذه المناقضات احيانا احدهما على صاحبه وتهيجته وتثير حجبته عليه، فينصرف مفاضيا، ولكنه سرعا ما يعود اليه، وتتصل اسباب الصداقة والمودة بينهما، ولا يبقى للحفيظة والغضب مكان في نفسه، وقد فطن لذلك ياقوت، وفيه اليه حيث يقول : « وكان ابن شرف وابن رشيق صاحب العمدة متقدمين عنده على

سائر من في حضرته من الافاضل والادباء فكان يقرب هذا تارة، ويذني ذلك تارة اخرى فتنافسا وتناظرا ثم تهاجيا، ولكن لم يتغير احدهما على الآخر بما جرى بينهما في المناقضات (١٢) نعم لم يتغير احدهما على الآخر بسبب هذه المساجلات والمناقضات، وليس ادل على ذلك من ان المكاببات والمخاطبات ظلت متصلة بينهما، يكتب كل منهما لصاحبه ويحييه حتى بعد ان انخرط في سلك خدمة المزم، واشتد التنافس بينهما، فما هو ذا ابن شرف يسبق ابن رشيق الى صقلية، وحين يصل اليها يذكر ايامه مع ابن رشيق، فيكتب اليه - وهو بالمهدية - قصيدة يتشوقه فيها، ويحييه ابن رشيق بقصيدة اخرى على ما يروي لنا القفطي حيث يقول : « وكان بين ابن رشيق وبين محمد بن شرف الشاعر مباينة بعد مواسلة وذلك انهما كانا شاعري ابن باديس، ودخلا اليه، واتصلا بخدمته في وقت واحد، وكان ابن شرف ممن لا ينكر حذقه، ولا يدفع في هذا النوع صدقه، ولم يزل بينهما مكاتبات ومخاطبات، فمن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها الى ابن رشيق وهو بالمهدية يتشوقه اولها :

عدمتك من بعد وان زدتنا قربا
على ان فيما بيننا سيبا سهبا

(١١) بساط العقيق : ٥٥ كما يقول في موضع آخر عن تنافس ابن رشيق وابن شرف، وحرس المزم على ادراك تنافس التنافس بينهما : « فانه (اي ابن شرف) كان يترصد اهل الزلات للوقوف على صاحبه، وجرى بسبب ذلك تنافس ادبي ومكافحة كلام، وتسابق الى الاختراع والابتداع، اجتنى منها سوق الادب فواكه فكرية رسمها كل واحد منهما في تأليف كانت احسن اثر لتتألف فرائح شاعرنا، وديما كان المزم يحرض على هذا التنافس بين ابن رشيق وابن شرف بالتأله تارة الى الاول، واخرى الى رفيقه سعيما متعمدا تشييع الاداب وترويض موادها » بساط العقيق : ٥٩ ويقول احمد امين : « وقد كانا صديقين، ثم دبت بينهما الغصوة فتساجلا في الادب كذلك المساجلة التي كانت بين القوارزمي وبنديع الزمان الهمداني » لغير الاسلام : ٢٠٨ .

(١٢) معجم الادباء : ١٩ : ٣٧ كما اشار ياقوت الى ما كان بينهما عند ترجمته لابن رشيق حيث يقول : « وكان بينه وبين ابن شرف الاديب متفاهات ومخاطبات، وصنف في الرديعية عدة تصانيف : « معجم الادباء، ١١، ومن ذلك ما ذكره ابن رشيق في الرد على ابن شرف من انه منسوب الى امرأته الجملة .

المعروف بابن شرف القيرواني مناقضات ومهاجدة ، وصنف عدة رسائل في السرد عليه منها رسالة سماها « ساجور الكتب » و « رسالة نجح الطلب » و « رسالة قطع الانفاس » و « رسالة نقض الرسائل الشعوزية » و « القصيدة الدعية » و « الرسالة المنقوشة » و « رسالة رفع الاشكال ودفع المحال » (٦٦) اما العمري في مسالك الايسر فقد ذهب الى ان ما وقع بينهما انما هو من قبيل ما وقع بين الخوارزمي وبينه في الزمان (٦٧) ويؤكد مذهبنا اليه انهم كانوا في هذا العصر كثيرا ما يلجأون الى الهجاء لا لشيء الا لتنتدب والتسلياة وايجاد اوقات الفراغ ، ومن ذلك ما يرويه الصفدي وابن شاكر الكتبي (٦٨) من ان ابن شرف قال بيتين على قافية القاف في ذم حمام ، فبلغ ذلك ابن رشيق ، فقال مجيزا لهذين البيتين بيت هجاء فيه ابن شرف وبزوه بالبور والصلع وهو :

وانت ايضا اصور اصلع

فصادف التشبيه تحقيقا

وكتب اليه ابن رشيق قصيدته التي اولها :
عتابا عسى ان الزمان له عتبي
وشكوى فكم شكوى الانتله قلبا (٦٩)

ولعل هذا هو مدافع الصفدي في ترجمته لابن شرف الى ان يشير الى ان ما جرى بينه وبين ابن رشيق من مهاجدة ومعاداة انما هو امر يحدث عادة بين المتعاصرين (٦٤) حيث يقول : « وكانت بينه وبين ابن رشيق مهاجدة وعداوة جرى الزمان معادتها بين المعاصرين » ثم يتبع ذلك بسرد أسماء عدة رسائل لابن رشيق يدعو فيها ابن شرف ، ويعدد اغلاظه ومساوئه ، فيقول : « ولابن رشيق فيه عدة رسائل يهجو فيها ، وبذلك اغلاظه وقبالحه منها » رسالة ساجور الكتب « و « رسالة قطع الانفاس » و « رسالة نجح الطلب » و « رسالة رفع الاشكال ودفع المحال » و « رسالة ذم الملح ونسخ الملح » (٦٥) ويقول الوزير السراج في بر : « لابن رشيق : « وكان بينه وبين عبدالله بن ابي سعيد بن احمد

(٦٢) انباء الرواة : ١ : ٢٠١ والقطبي وان كانا لم يحددا المكان الذي بعث منه ابن شرف قصيدته الى صاحبه يتسلفه فيها الا انه يقبل على الظن انه بعث بها من صقلية ، لانهم المعروف ان ابن شرف سبق صاحبه اليها ، لم يقبل القطبي بعد ذلك ثم ان المناقشة اوقعت بينهما ، وتفاخرا في الهجاء ، وعمل ابن رشيق عدة تصانيف في الرد عليه والخراج معاني اقواله واستولى عليها وعلجها في كتابي الذي اسماه « الاتيق في اخبار ابن رشيق » بعيشة الله وعونه الياء الرواة : ١ : ٢٠٣ فالقطبي هنا بعد باخراج كتاب يشتمل على رسائل ابن رشيق ومصلحته في الرد على ابن شرف وابراز اغلاظه ومعاني اقواله ، ولا ندري ان كان القطبي قد ولي بوعده فخرج هذا الكتاب ام لا .

(٦٤) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ وانظر فوات الوفيات ٢ : ٤١

(٦٥) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٧ وفوات الوفيات ٢ : ٤١ ويقول ابن بسلام : « وبينه وبين ابي علي بن رشيق ما جرح البرادة ودام ، ورجع نجم هذه العتامة فاستقام وذهب من المناقضة طعنا تازمها شرا طويلا ، وخلصه ذكرا معلولا ، واحتلله ان لم يسم الله ولذا قيل . وكان ابو علي واسمها نفسا والفرجها متمسكا ، ولابن شرف اصالة منزعه وجلالة مقنعة ومثالة لفظه وسعة حلقه ، فتسمع شمره ملازم منوعة وججمة ، ولكن ما ابد ما يرويه وابده » اللخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٢٣ .

(٦٦) المحلل السندي في الاخبار التونسية الجزء الاول القسم الاول : ٢٧٩ ويقول ابن خلكان : « وكانت بينه وبين ابي عبد الله محمد بن ابي سعيد بن احمد العرف بابن شرف القيرواني والقيروما جريتا يطول شرحها » وفيما الاميان ٣ : ٣٨٨ .

(٦٧) المكتبة الصقلية : ٦٥١ نقلا عن مسالك الايسر ج ١٧ ويقول حسن حسني « وقع بينهما بالقيروان ما وقع بين جرير والفرزدق او بين الخوارزمي وبينه في الزمان » مجلة التنقيب المجلد السادس : ٢٥٢ وانظر رسائل البهلاء ٣ : ٢٠٥ .

(٦٨) الوافي بالوفيات ٣ : ٩٨ والفيث المسج ٢ : ٢٥٥ وفوات الوفيات ٢ : ٤١٠ .

بل انهم كثيرا ماكانوا يهجون انفسهم ،
ويتندرون عليها حين لا يجدون من يهجوهم
ويتندرون عليه ، فقد اجتمع ابن رشيق يوما
مع بعض اصحابه وكان فيهم ابن شرف وكان
اعورا ، والطوسي وكان اعمى وكان ابن رشيق
احولا ، فقال في صاحبيه وفي نفسه :

لا بد في العور من تبه ومن صلف

لانهم يصرون الناس انصافا

وكل احوال يلغى ذا مكايمة

لانهم ينظرون الناس اضعافا

والعمى أولي بحال العور لو عرفوا

على القياس ولكن حاف من حافا (٦٩)

**ولم يزل ابن شرف ملازما لخدمة المعز بن
باديس مقبلا عنده اثرا لديه ، ولم تزل
الناقضات والمساجلات والناشرات متصلة
بينه وبين ابن رشيق ، ولم يزل الهجاء والتندر
قائما بينهما ، وهكذا مضت الحياة بهما
وبغيرهما من الشعراء الذين ضمهم بلاط
المعز بن باديس الى ان هاجم اعراب الصعيد
القيروان ، فاضطر المعز الى الخروج منها
ومغادرتها الى المهدي سنة ٤٤٩ هـ ولحق
به من شعراء بلاطه وكتاب ديوانه ، ومن
بين من لحق به ، واتصل بخدمته بالمهدي ابن
شرف وابن رشيق يقول باقوت : « ولم يزل
ابن شرف ملازما لخدمة المعز الى ان هاجم
عرب الصعيد القيروان ، واضطر المعز الى
الخروج منها الى المهدي سنة سبع وربعين
واربعماية ، فخرج ابن شرف وسائر الشعراء
معه اليها ، واستقروا بها » (٧٠) ولكن المعز
في المهدي كان مهوما محزونا ضيق الصدر**

منقبض النفس ، فقد سقطت القيروان حاضرة
ملكه وقصبة افريقية في ابدى الاعراب الذين
عاثوا في الارض تسادا ، وانتقصوا مملكته من
اطرافها ، واشاعوا في جنباتها الخراب والدمار ،
فلم يعد يعقد المجالس الادبية ، ويدعو اليها
الشعراء ، ويقترح عليهم الاغراض التي تخطر
بباله ، وانما هو منقبض النفس ، ضيق الصدر ،
متبرم بكل شيء ، فاذا حدث وعقد مجلسا
من تلك المجالس التي كان كثيرا ما يعقدها
بالقيروان ، ودعا اليه الشعراء لا يلبث ان
يضيق ذرعا به وبين فيه من الشعراء ، كما
فعل حين مرق الرقعة التي فيها قصيدة ابن
رشيق ، ولم يكتف بتعزيقها ، حتى قدمها
طلعة للتران . يقول العمري في مسالك
الابصار نقلا عن ابن بسام : « ولما طلع
نجوم النحوس بسماء المعز بن باديس خرج
الى المهدي بسماء كاسفة الاقمار ، وذمء
اقصر من طي الخمار ، وكان ابو علي معن
انحسر في زمرة الحورية ، وتحيز الى ثنته
المنكوبة اقام معه ، وغشى المهدي فما بعد
استطول الروم ، فاصبح البحر ثنائيا تطلع
المنايا ، واکاما تحمل مونا زؤاما ، فدخل على
المعز حين وضع الفجر ، فوجده في مصلاه ،
والرقاع عليه ترد ، والنموع بين يديه تتقد
فقام ينشد قصيدته التي اولها :

تثبت لا بخامرك اضطراب

فقد خضعت لعزك الرقاب

فقال له : مه ، متى عهدتني لا تثبت ، اذا
لم تجئنا الا بمثل هذا فمالك لا تسكت عنا ؟
ثم امر بالرقعة التي كانت فيها القصيدة
فمزقت ، ولم يقنه حتى اذناها الى الشمع
فاحرقها (٧١) .

(٦٩) القيث المستجم ٢ : ٢٥٥ وديوان ابن رشيق : ١١٦ - ١١٧ .

(٧٠) معجم الادباء ١٩ : ٣٧ .

(٧١) المكتبة الصقلية : ٦٥٠ نقلا عن مسالك الابصار المجلد السابع عشر .

واطمأن مقامه بها تذكر عهدا سلف ، وإيما مضت مع ابن رشيق في ربوع القيروان والمهدية ، وفي بلاط المعز بن باديس ، فبيعت إليه وهو بالمهدية بقصيدة يشوقه فيها ويحبيه ابن رشيق بقصيدة أخرى على ما يروى لنا القفطي حيث يقول : « فمن شعر ابن شرف قصيدة كتب بها إلى ابن رشيق وهو بالمهدية يشوقه ، أولا :

عندناك من بعد وإن زدتنا قربا
على أن فيعنا بيننا سببا سبها

وكتب إليه ابن رشيق جوابا عنها قصيدته التي أولها :

عتابا عسى أن الزمان له عتبي
وشكوى فكم شكوى الأنت له قلبا (٧٥)

ويركب ابن رشيق ثبج البحر إلى صقلية في أثر صاحبه ابن شرف ، وينزل بمأز أحدي مدنها على أميرها ابن مذكود ، فيؤثره ، ويقربه ، ويسلكه في عداد خاصته ، ويصيب عنده حظوة كبيرة ، حتى أنه قرأ عليه كتيبه ، ومن بين ما قرأه عليه من كتيبه العمدة ، وعاشي يقول القفطي « ونزل مأز أحدي مدنها على أميرها ومتولياها ابن مذكود ، فأكرمه واختصه ، وقرأ عليه كتيبه ، ومن جملة ما رأته من قراءته عليه كتاب العمدة في صنعه الشعر ، وهو أجل كتيبه وأكثرها ، ورأيت خط ابن رشيق على نسخة منها ، ولم يزل عنده إلى أن مات بمأز (٧٦) بيد أن الأستاذ أحمد أمين ذهب إلى أنها قرأ عند غزو الهلاليين

ويضيق ابن شرف بالتمام في المهديّة ، وينتو بها منزله ، ولا يطيب له العيش بها بعد أن لقي من المعز انتقباضا عن كل شيء ، وضيقا بالشعر ، وانصرافا عنه ، وعزوا عن الأدب ، وأزوارا عن الشعراء ، وتوفا منهم ، وعزوا عنهم ، وعدم ارتياح لهم ، وانحرافا عنهم لحق به من الأدباء ، وجفاء لهم ، فلم يلبث بالمهدية إلا قليلا حتى ركب ثبج البحر ، وولى وجهه شطر صقلية وأفدا على أميرها القائد ابن محمد الحسن بن عمر بن مذكود ، وكانوا تراسي إلى سمعته ، ونمى إلى علمه أن الشعراء يصيبون حظوة كبيرة في بلاط هذا الأمير ، وأنه يقدمهم ويؤثرهم ، ويحيوهم ، ويجزل لهم العطاء ، ويقول ياقوتة : « فأقام ابن شرف مدة بالمهدية ملازما خدمة المعز بن باديس وابنه تميم ، ثم خرج منها قاصدا صقلية ، ولحق به رفيقه ابن رشيق فاجتمعا بها ، ومكثا بها مدة (٧٧) وقد أشار العمري إلى أن ابن شرف سبق ابن رشيق إلى صقلية حيث يقول بعد أن أورد خبر ابن رشيق مع المعز ، وتمزيق المعز للرقعة التي كانت بها قصيدته التي لم يرفه مطلعها ، ولم يعجبه ابتداؤها واستهلها وأحراقها ، والجفوة التي وقعت بينهما نتيجة لذلك : « فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق ، وكانت وجهته إلى صقلية ، وكان ابن شرف قد سبقه إليها وقد قتله عليها (٧٨) ويقول حسن حسني : « وأقام ابن شرف مدة بالمهدية مع زمرة شعراء الملك بخدم الأمير المعز وابنه تميم إلى أن رحل عنها قاصدا جزيرة صقلية لما سمع من كرم أميرها (٧٩) » .

وكان ابن شرف وقد وصل إلى صقلية ،

(٧٢) معجم الأدباء : ١٩ : ٢٨ .

(٧٣) المكتبة الصقلية : ٦٥٠ - ٦٥١ نقلنا من مسائل البصار المجلد السابع عشر .

(٧٤) مجلة القتبس المجلد السادس : ٣٥ والنظر رسائل البغداد : ٣٠٥ .

(٧٥) انباه الرواة ٢ : ٣٠١ .

(٧٦) انباه الرواة ١ : ٣٠٣ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نراه ٣ :
 أثر في النهضة الأدبية بجزيرة صقلية ، فبعد
 أن: رجل إليها ، وألقى بها عصا التسيار ،
 وأطمان مقامه بها أخذ يدرس كتابه العمدة ،
 والتفت حوله طائفة من أهل الأدب ، وأقبلوا
 عليه يأخذون عنه ويتلقون عليه ، وغير بعيد
 ماسبق أن ذكرناه من أن ابن مذكود أمير مازر
 نفسه قرأ على ابن رشيق كتابه العمدة ، وقد
 كلف أهل صقلية بكتاب العمدة ، وشغفوا به،
 وأقبلوا عليه يتدارسونه ، ومن كلف كلف به
 من أهل صقلية بيو عمر عثمان بن علي بن عمر
 الصقلي ، فقد قرأه ، وأعجب به ، واختصره ،
 يقول حاجي خليفة : « واختصره الصقلي
 وسماه العمدة » (٧٩) .

وهكذا يتبين لنا من خبر أبي عبدالله الصفار
 مع ابن رشيق أن أشعار ابن رشيق قد سبقته
 إلى صقلية ، وذاعت بها ، وأنه كان باتجاهه
 الأدبي والتقدي موضع الإعجاب والتقدير من
 أدباها ، بالغ التأثير فيهم ، حتى أننا نرى ابن
 حمد بن الصقلي مع أنه أبعد حظاً منه في
 الشعاعية يتناول شعره بالمعارضة .

ويبدو أن خاصة ابن مذكود وجلساءه كان
 يحلو لهم أن تقوم المناظرات بين ابن رشيق
 وابن شرف ، وأن تتصل المساجلات والمناقضات
 بينهما ، كما كانت في القيروان ، فقد تراءت
 إليهم أخبارهما الأدبية ، وسمعوا بما كان
 بينهما من مناقضات ومساجلات ، ووصلت
 إليهم أخبار ابن رشيق وأشعار وعبرت البحر

مدينة القيروان ، وأن ابن رشيق قصد إلى
 صقلية ، بينما ولي ابن شرف وجهه شطر
 الأندلس . (٧٧) ولم يشر إلى أنهما خرجا مع
 المعز بن باديس بعد خراب القيروان إلى
 المهدي ، وأقاما بها معه مدة ، ثم ذهب
 ابن شرف إلى صقلية ، ولحق به رفيقه ابن
 رشيق ، ثم شخص ابن شرف وحده إلى
 الأندلس تاركا صاحبه بصقلية ، وأن ابن
 رشيق قد دام بعد ذلك الشخص إلى الأندلس
 فلم تقاطعه نفسه على ركوب البحر ، فأقام
 بعازر حتى أدركته منيته بها .

ويبدو أن ابن رشيق أصاب حظوة كبيرة
 عند ابن مذكود أمير مازر ، وكان أقرب إلى
 نفسه وآثر عنده من ابن شرف ، وليس في
 هذا غرابة ، فقد كان لابن رشيق أثر بعيد
 في النهضة الأدبية بصقلية فقد ذاعت شهرته
 بها ، وترامت إليها أخباره الأدبية ، وولنت
 أشعاره في جنباتها ، وتداول أهل صقلية
 أخباره ، وتلقوا أشعاره ورووها وتدارسوها،
 حتى غدا مطمح أنظار بعض الصقليين ، وإمامهم
 الذي يتأسون به في اتجاههم الأدبي ، كما كان
 له أصدقاء كثيرون معجبون به بهذه الجزيرة،
 وقد اتصلت أسباب الصداقة بينه وبينهم ،
 وكانوا على اتصال دائم به ، ويدل على ذلك
 أننا نجد واحدا منهم وهو أبو عبدالله الصفار
 يصرح بذلك حيث يقول : « كنت سكاكنا
 صقلية ، وأشعار ابن رشيق ترد على ، فكنت
 أتمنى لقاءه ، حتى قدم الروم علينا ، فخرجت
 فاراً بهجتي ، تاركا لكل مملكت يدى (٧٨)

(٧٧) غير الإسلام : ١ - ٣٠٨ .

(٧٨) بدائع البهائم على هاشم معاند التنصيص : ٢ - ١٠٣ وورد الخبر مع بعض تصرف في مسالك الإبرار المجلد السابع
 عشر والتف الكتب الصقلية : ٦٥١ وما بعدها وفي الغريدة قسم شعراء الغرب : ٨٣ - ٨٤ في فصل بعنوان « جماعة من
 شعراء جزيرة صقلية عند الحديث عن أبي عبد الله محمد بن علي الصباغ الكاتب : (وكان في عهد ابن رشيق ، وبينهما
 مراسلات » وكتب إليه أبو علي بن رشيق عند وصوله من القيروان إلى مازر في أول رسالة ..) ثم يورد ثلاثة أبيات
 من الشعر أجابه عليها ابن الصباغ بثلاثة أبيات أخرى .

(٧٩) كشف القنون : ٢ - ١٦٩ والتف الكتب الصقلية : ٧٤٠ ويقول القليفي في ترجمته لثمان بن علي : « ومن معتنفائه
 مختصر عمدة ابن رشيق وشاهدت هذا المختصر بحلب بخدمته من ألبان القيسري ، وقد زاد فيه أبوابا أهل بها ابن رشيق
 وهي واقعة مؤلفها من التصنيف » ، الباه الرواة : ٢ - ٣٤٣ .

ذلك مد رعا بمكانته من ابن موكود أمير مازر .
وبمنازلته الرقيقة التي احتلها من نفوس أهل
جزيرة صقلية ، ودالته عليهم ، فكان كما يقول
العمري : « ربما اعترض وتعرض » . وتحت
ولعته ، وأما ابن حرقان فلم يحل مانع ، ولا
حال مانع . (٨٢) .

وطبيب لابن حرقان المقام بجزيرة صقلية ،
فقد هادنه ابن رشيق ، وأمنت الهدنة فيما
بينهما وانصلت ، وأصلح من بالجزيرة من أهل
القيروان ذات بينهما ، واستقامت الأمور بينهما ،
حتى عادا إلى الصفاء والأخاء والسلم . يقول
حسن حسني : « فلما اجتمعا بصقلية
تسامحا » (٨٣) ثم تهيات الظروف لابن حرقان ،
وانتهت له الفرصة ، فركب ثوب البحر ، وعبر
السى عدو الإندلس وولى وجهه لملوك
الطوائف ، وتردد عليهم ، وانتهى به المطاف
عند الامون بن ذي النون صاحب طليعة جنود
ابن بسلام : « فتردد على ملوك الطوائف بالإندلس
بعد مقارعة أهوال ومباينة خطوب طوي . . .
واستقر أخيرا عند الامون بن ذي النون ، فعليه
خلع آخر لبوسه ، ونثر بقية كبسه » (٨٤)
ويقول الدباغ : « وقدم الإندلس ، وسكن الرية
وغيرها وتردد على ملوك الطوائف » (٨٥) حتى
سكنه ابن شاذلي في عداد نحول شعراء الإندلس
والقرب ، فقد استهل ترجمته بقوله : « محمد
بن سعيد بن أحمد بن حرقان القروي الطليسي
أحد فحول شعراء الإندلس والقرب » (٨٦)
وبعد الصفدي أحد شعراء القرب (٨٧) .

إلى صقلية قبل أن يعبرها هو إليها ، وكأنما
طالب لهم أن تقوم تلك المناقضات والمساجلات
والناظرات بينهما في ربوع صقلية ، كما قامت
بينهما من قبل في ربوع القيروان ، وإن بعدا :
سيرتها الأولى حتى ينشط الشاعران ، وتروج
سوق الأدب ، ويلهو الناس ، ويسعدون
بما يصدر عنهما . يقول العمري : « وقد
وقع بينهما بالقيروان ما وقع بين إزارزمي
وبديع الزمان ، فلما اجتمعا يوما بصقلية
تنمر بعضهما لبعض ، وتذوق أعلام : «
لما كان بينهما من أبرام وتغفر » (٨٨) وكان
أهل صقلية سعوا بين الشارين وحرصوا
بينهما ، وأغروا إحداهما بالأخر ، إلا أنه يبدو
أنه كان بصقلية من أهل القيروان من يخشى
مغبة الخصومة بين الشاعرين ، ويدرك سوء
عاقبتها ، لو دبت مقارب السهابة بين الشاعرين ،
وأذكي القوم نار العدا ، بينهما ، فأخذ نفسه
باصلاح ذات بينهما ، حتى لا يصحبا في دار
غربتهما موضعا لتندثر أهل صقلية وسخرتهم
بقول العمري : « فقصده ابن رشيق بعض
أخوانه ، وقال له : انتم على الإحسان وشيخا
أهل القيروان ، وقد أصبحتما بحال جلاء وبين
الأعداء ، والأشبه بكما ألا تغريا أديكما ، ولا
تطعما الأعداء لحومكما ، فقال له : إيت ابن
حرقان ، فوجده أجنب للسلم ، وأدنى إلى الحلم ،
برى إليه من صبيه وصعده ، وأعطاه بذلك
صفقتي لسائه وبده » (٨٩) بيد أن ابن رشيق
كان يتحرض أحيانا بابن حرقان ، وينال منه ،
ويتعرض له ، ويسعى به ، ولعله كان يفعل

(٨٠) المكتبة الصقلية : ٦٥١ فلا من مسالك الأبحار المجلد السابع عشر .

(٨١) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨٣) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ ورسائل البغلة : ٣٠٥ .

(٨٤) اللخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٢٢ .

(٨٥) معالم الأيمان : ٢ : ٢٢٩ .

(٨٦) قوات الوفيات : ٢ : ٤١٠ .

(٨٧) الوافي بالوفيات : ٣ : ٩٧ .

ان نطمئن الى انه توفي باشبيلية ، وانه اتصلت اسبابه باسباب المعتضد ، وعاش في كنفه الى ان ادرسته منيته . وقد سبق ان بسطنا القول في هذه المسألة ، وانتهينا الى ترجيح انه توفي بطليطلة في كنف ابن ذي النون لاننا نجد ابن بسام يقول : « فتردد على ملوك العلوائف بالاندلس بعد مقارعة احوال ومباشرة خطوب طوال ... واستقر اخيرا عند المأمون بن ذي النون فعليه خلع آخر لبوسه ونثر بقية كيسه » (٨٦) .

آثاره ومصنفاته :

خلف لنا ابن شرف مؤلفات كثيرة سقطت من يد الزمن ، ولم يصل الينا منها الا القليل ويشيد ابن بسام بمؤلفاته وينوه بها حيث يقول : « ولأبي عبد الله عدة تواليف افاضها بحارا واطلمها شموسا واقمارا » ويقول حسن حسني : « اما تأليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله الينا المؤرخون » ومن هذه المؤلفات .

إبكار الأفكار :

ويشتمل هذا الكتاب على مختارات مما انتجه ابن شرف من شعر ونثر يقول فيه ياقوت « إبكار الأفكار جمع فيه ما اختاره من شعره ونثره » (٩٠) ويقول الصغدني : « وهو كتاب حسن في الادب يشتمل على نظم ونثر من كلامه » (٩١) ويقول ابن ذحية : « ولابن شرف مصنفات عديدة وأوضاع مفيدة منها » إبكار الأفكار « في سفرين ، وهو اختراع كله في الحكم والامثال والنظم والنثر » (٩٢) ويقول حاجي خليفة : « إبكار الأفكار لحمد بن سعيد الجذامي

ويؤكد مآذهينا اليه - من أن المهادنة التي تمت في جزيرة صقلية بين ابن رشيق وابن شرف قد امتدت واتصلت ، وأن الامور بينهما قد استقامت وصلحت - ماقرأ في كتب التراجم من أن ابن شرف حين فقد النية على مفادوة صقلية ، وازعم الرحلة الى الاندلس استنهض صاحبه ابن رشيق في أن يجتمعا بالطريق ، وأن يجوزا معا الى الاندلس ، ويبدو أن ابن رشيق تباطأ عنه ، ولم ينهض معه ، بل تردد واعتذر عن عدم النهوض ، فعضى ابن شرف وحده ، يقول ياقوت : « ثم استنهضه ابن شرف على دخول الاندلس ، فتردد ابن رشيق ، وأنشد :

معا يزهدني في ارض اندلس
اسماء مقتدر فيها ومعتشد

القاب مملكة في غير موضعها
كالحبر يحكي انتفاخا صولة الاسد

فاجابه ابن شرف على الفور :

ان ترمك الغربية فسي معشر
قد جبل الطبع على بعضهم

فدارهم مادمت في دواهم
وارضهم مادمت في ارضهم (٨٨)

ثم شخص ابن شرف منفردا الى الاندلس ، وانتقل في بلادها ، وسكن المرة بعد مقارعة احوال ومقاومة خطوب ، وتردد على ملوك الطوائف كال عباد وغيرهم ، وتوفي باشبيلية سنة ستين واربعمائة كما يقول ياقوت ، وقد سبق ان ذكرنا انه يخالفنا الشك ، ولا يمكننا

(٨٨) معجم الادباء ١٩ : ٢٨ .

(٨٩) النخبة القسم الرابع المجلد الاول : ١٢٢

(٩٠) معجم الادباء ١٩ : ٤٣

(٩١) الوالي بالوليات ٤ : ٩٧ والنظر فوات الوفيات ٢ : ٤١

(٩٢) المطرب : ٦٦

باسم باديس بن جيس » وهذا الكتاب مفقود يكون كل ما وصل الينا منه هو ما نقله ابن ظافر في كتابه « بدائع البداه » (٩٨) .

أعلام الكلام :

وقد حدثنا ياقوت عن هذا الكتاب وموضوعه ، حيث يقول وهو بسبيل تعداد مؤلفات ابن شرف : « وأعلام الكلام مجموع فيه فوائد ولطائف وملح منتخبة » (٩٩) ثم يشير عقب ذلك مباشرة إلى أن لابن شرف كتابا آخر بعنوان « رسالة الانتقاد » ويحدثنا عنه بقوله : « ورسالة الانتقاد وهي على طراز مقامة نقد فيها شعور طائفة من شعراء التجاهليين والإسلام » (١٠٠) فهل هما كتابان مختلفان أو اتفهما اسمان لكتاب واحد ، ونحن نرجح أن رسالة أعلام الكلام هي رسالة الانتقاد ، وأنهما اسمان لكتاب واحد .

وقد نشر هذا الكتاب حسن حسني في مجلة المقتبس تحت عنوان « رسائل الانتقاد » على نسخة في خزائنه وأخرى في خزنة الإسكوريال برقم ٥٣٦ (١٠١) من القسم العربي ، كما نشر ضمن « رسائل البلغاء » كما نشره الخانجي مستقلا سنة ١٩٢٦ م وصدره بمقدمة جاء فيها : « كتاب أعلام الكلام الذي نشره اليوم بين يدي القاري الكريم وقد سبق لأحد الأفاضل التونسيين ، وهو حسن أفندي عبد الوهاب

القيرواني .. جمع فيه من نظمه ونثره » (٩٣) ويقول البغدادي : « له إبداء الأفكار نظما ونثرا » (٩٤) ويقول حسن حسني : « أما تأليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله الينا المؤرخون فمنها كتاب « إبداء الأفكار » جمع فيه ما اختاره من نظمة ونثره ، وهو انفس مصنفاته مفقود وقد يوجد شيء منه في كتب الأدب » (٩٥) ويحدثنا ابن شرف نفسه عن كتابه هذا ، فيذكر أنه اشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال حيث يقول : « وقد كنت حاولت منه ما لم أسبق إليه ، ولم أجعل سوى نظري معني عليه ، فصنعت الكتاب الملقب « إبداء الأفكار » يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال » (٩٦) ثم يشير إلى أنه من اختراعه ، ومما أنتجته قريحته ، وأنه اشتمل على الجهد والهزل فيعقب ذلك بقوله : « مما عزوتها إلى من لم يحكما ، وأضفت نسجها إلى من لم يحكما ، قد طررت بلمح الجهد والهزل ، وحسنت بمقابلة الضد للمثل ، وليس في ذلك كله رواية رويتها عن قديم ولا جديد ، ولا حديث بها عن قريب ولا بعيد ... » (٩٧) .

وقد أهدى ابن شرف هذا الكتاب إلى المعتضد ، وبعث به إليه . يقول ابن بسام : « وطرأ تأليفه (إبداء الأفكار) باسم عباد ، وبعث به إليه على البعاد ، وقد كان وسعه قبل

(٩٣) كشف اللثون ٦١

(٩٤) هدية العارفين ٢ : ٧٢

(٩٥) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ والنظر رسائل البلغاء : ٢٠٥

(٩٦) اللخعة القسم الرابع المجلد الأول : ١٤٠

(٩٧) المصدر السابق : ١٤٠ - ١٤١

(٩٨) بديع البداية : ١٢٦ - ١٢٨

(٩٩) معجم الأدباء ١٩ : ٤٣

(١٠٠) نفس المصدر السابق والمصلحة

(١٠١) النظر حديثه عن النسخ التي اشتملها في « رسائل الانتقاد » مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٠

والإسلام» (١٠٤) ويحدثنا عنها ابن بسام بقوله: «ولابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه وصب فيها على قلبه، منها مقامة فيها بعض طول لكنه غير ملول، آخذة بطرف مستطرف من أخبار الأدباء وذكر الشعر والشعراء» (١٠٥) ويقول أحمد أمين: «كما وضع ابن شرف كتابه (أعلام الكلام) وموضوعه مقامة طويلة كمقامات الحريري، تعرض بطلها لمشهورى الشعراء من المتقدمين والمحدثين يصفه في قول قصير، وبين مزاياء وعيوبه في إيجاز» (١٠٦) ويقول حسن حسنى: «وهي من أجمل ما وضع الواضعون في هذا الفن الجليل الذى كاد أن يكون مفقودا في النصائيف العربية» (١٠٧) كما ذهب في مقدمته لها إلى أنه يبدو أن ابن شرف كان يهدف من ورائها إلى معارضة كتاب «الععدة» لابن رشيق وأنها ربما كانت أطول مما وجده وحققت ونشره، وقد استند في رايه هذا إلى ما جاء في سياق كلام ابن شرف في مقدمته للمجلس الأول يقول حسن حسنى: «ويلاحظ لى أن مؤلفنا قصد بتدوين هذه الرسائل معارضة كتاب «الععدة»... إلا أن الرسائل المعارض بها كانت أطول وأكثر مما وجدناه وأوردناه هنا يؤيد ذلك ما جاء في سياق كلام ابن شرف في مقدمته للمجلس الأول حيث يقول: «فاقت من هذا النحو عشرين حديثا» فالمنظون أنه يقصد بالحديث مجالسه مع الاستاذ الموهوم الذى سماه «أبا الريان» كما اختلق الحريري في مقاماته شخص

إن نشره في مجلة المقتبس تحت اسم «رسائل الانتقاد» وقد خيل لحضرته أن رسائل الانتقاد هذه غير أعلام الكلام، كما أشار بذلك في مقدمته (١٠٢) ويحدثنا الدكتور ياغى عن رسالة أعلام الكلام وأنها هي بعينها «رسائل الانتقاد» كما أنها تسمى أيضا «مقامة عن الشعراء» فيقول: «أعلام الكلام نشرها الخانجي وهي هي رسائل الانتقاد»، كما هي في الأسكوريال برقم ٥٣٦ وعليها اسم «مقامة عن الشعراء» وقد صورتها لى الجامعة العربية، وبينها وبين نسخة الخانجي بعض الاختلافات القليلة» (١٠٣) وهكذا نرى أن «أعلام الكلام» و «رسالة الانتقاد» و «مقامة عن الشعراء» كلها أسماء أطلقت على كتاب واحد ومسمى واحد.

وتكاد هذه الرسالة تكون هي الآخر الوحيد الذى وصل إلينا من مصنفات ابن شرف وآثاره التى امتدت إليها يد الضياع، وقد كتبها بأسلوب السجع المعروف في المقامات، وأثقلها بالمحسنات البديعية، واتخذ لها شخصا خاليا دها «أبا الريان الصلت بن السكن» وتحدث على لسان هذا الشخص الخيالى أو البطل عن مشاهير الشعراء القدامى والمحدثين فوصف كل واحد باختصار، وعرض لمزاياء وعيوبه في إيجاز، وأغفل المضمورين منهم والمجاهيل ولم يشر إليهم، ويقول ياقوت: «وهي على طراز مقامة نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية

(١٠٢) انظر مقدمة رسالة أعلام الكلام، وممن لعب من المحدثين إلى أن رسالة «أعلام الكلام» كتاب آخر غير «رسائل الانتقاد» حسن حسنى حيث يقول وهو يعيد عرض مؤلفات ابن شرف: «فومنها كتاب «أعلام الكلام» به نخب ومفاج مقلود أيضا، لم رسائل الانتقاد، والمنظون أنه ألها بمدحجته النظر التومس كما يستفاد من سياق كلامه في مقدمته» مجلة المقتبس المجلد السادس: ٣٥٤ - ٣٥٥ وانظر رسائل البلقاء ٣٠٦

(١٠٣) حياة التولون وموقف ابن رشيق منها: ٢٠٥

(١٠٤) معجم الأدباء ١٩: ٤٣

(١٠٥) الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول: ١٥٤

(١٠٦) نظير الإسلام: ١: ٨: ٣٠٨

(١٠٧) بساط العليق: ٥١

على التهاون بما اتشدت له ، فإن ذلك جور في الأحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما أو عليها» (١١١) ثم يقول : « وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تثبيت القلوب بسيرة القادريين ، ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم « أنا وجدنا آباءنا على أمة » وقال تعالى « لن نعبد إلا ما وجدنا عليه آباءنا ... » فلا يترك أن تجرى الحق في جميع الخلق ، فيه قامت السماوات والأرض ، وبه أحكم الإبرام والنقض ، وسامثل لك في هذا أمثالا ، وأما اسماعيل مقالا ، وفهمك عدلا واعتدالا ، هذا امرؤ القيس أقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم شعرا وذكرنا ، وقسو السمت الاقوال في يضل انسانا لم يفكر غيره بعثله ، حتى أن العامة تظن بل توفن أن جواد شعره لا يبكوا ، وإن حسام نظمه لا ينبو وهيئات من البشر الكمال ، ومن الأدمنين الاستواء والاعتدال» (١١٢) ثم يعضي بعدد على بعض الشعراء القدامى كثيرا من السقطات والهفات ، وينعى عليهم ما وقعوا فيه من أخطاء وعيوب ويجرحهم ، ويشهر بهم بادئا بامرئ القيس أقدم الشعراء عصرا ، ومقدمهم ذكرا وشعرا ويرى أنه كسائر الشعراء لا يخلو من العيوب ولا يسلّم من الهفات والمآخذ ، ثم يعرض لطائفة من عيوبه وسفاه شعره وساقطه .

وإذا كان ابن شرف يحدث عن القدامى والمحدثين كما رأينا في النص السابق إيرادا من هذه الرسالة الذي حمل فيه على مقاييس الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لاجد قنمه وسبق الزمن بصاحبه ، فإنا نجد ابن

الحارث بن همام وأخترع الهمداني عيسى بن هشام ، فمضى أن يساعدني الحظ بالعثور على بقية هذا التأليف النفيس أن كان في عالم الموجودات » (١٠٨) .

هذه هي رسالة اعلام الكلام وأقوال العلماء القدامى والمحدثين فيها وفي موضوعها ويجدر بنا قبل أن نتحدث عنها أن نقارن بينها وبين « كتاب العمدة » و رسالة قراضة الذهب » لابن رشيقي .

وإذا قارنا بين رسالة « اعلام الكلام » لابن شرف ، والعمدة ورسالة قراضة الذهب لابن رشيقي وجدنا تشابها بينهما في كثير من الموضوعات ، فإين شرف مثلا يقول عن ابن الرومي : « وأما ابن الرومي فشجرة الاختراع وثمره الابتداء ، وله في الهجاء ما ليس له في الاطرار فتح فيه أبوابا ، ووصل منه اسبابا ، وخلع منه أبوابا وطوقه رقابا» (١٠٩) ويقول ابن رشيقي « وكان ابن الرومي ضئيلا بالمعاني ، حربصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال قلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه إلى كل ناحية ، حتى يعينه ، ويعلم أنه لا مطمع فيه لاحد » (١١٠) ونرى ابن شرف في الرسالة يحدثنا عن الشعراء القدامى والمحدثين ويحمل على اتجاه الرواة وعلماء اللغة ومقاييسهم في تقسيمهم للشعراء إلى طبقات ، وتفضيلهم القديم لجد قنمه وسبق الزمن بصاحبه حيث يقول : « وتحفظ من شيئين : أحدهما أن يحكمك أجلاك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : أن يحكمك أصغارك المعاصر المشهور

تأثر بصاحبه ، وتأسى به ، أو نقول : أن اتفاقهما وتشابههما هو مجرد توارد خواطر كالذي رأينا في الإشعار التي حملهما عليها المعز بن باديس ، ودفعهما إليها دفعا مثل اشعارهما في صفة الموز أو في وصف شعر السوق .

وقد بدا لي بعد كل هذا أن أستنتج أن ابن رشيق أخذ من ابن شرف ، وأميل إلى أنه تأسى به ، وأرجح أنه تأثر به خاصة أننا نجد ابن شرف يستعمل رسالته، ويفتحها بقوله : « هذه احاديث صغتها مختلفة الأنواع، مؤلفة في الاسماع ، عربيات المواشم غريبات الترجام ، وعزوها إلى ابن الريان الصلت بن السكن من سلامان ، وكان شيخا هما في اللسان ، وبدرا تما في البيان ، قد بقي احقايا ، ولقى اصفابا ، ثم القته اليما من ياديته الازمات وأوردته علينا العزمات فامتحننا من علمه بحرا جاريا ، من فهمه زنبدا وأريا ، وأدركنا من بره طرفا ، واجتينا من ثمره طرفا ، ونحن اذ ذاك والشباب مقتبل ، وغفلة الزمان تهتبل (١١٥) ... » فابن شرف يصرح في هذا النص أنه كتب هذه الرسالة في مقتبل الشباب وصدره ، وإذا عرفنا أن ابن شرف ولد في سنة ٣٩٠ هـ كان لنا أن نزم أنه ألها بين سنتي ٤١٠ هـ و ٤٢٠ هـ أي في العقد الثامن عمره في مقتبل الشباب وشرخه وصدره ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه يمكننا أن نقول : أن ابن رشيق ألف كتابه « العمدة » في الفترة ما بين سنتي ٤١٢ هـ و ٤٢٥ هـ لأننا نجده يورد خبر هجاء دميل بن علي الخزاعي للمعتصم وهرويه من وجهه ، فإرا بهيجته

رشيق يعقد لهم بابا مستقلا وقائما ببداته في كتابه العمدة بعنوان « القدماء والمحدثين » .

وإذا كان ابن شرف يحدثنا في رسالته عن امرئ القيس ، ويذكر أنه « مؤسس الاساس ، وينبئانه عليه الناس ، كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس : أسيلة مجرى الدمع ، وكانوا يقولون : تامة القامة وطويلة القامة وأشباه هذا وجيداء ، وتامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهبى القروط » وكانوا يقولون في الفرس السابق يلحق العزال ، ويسبق الظلام ، أو العظيم ، وأمثال هذا ، حتى قال : بمنجود قيد الاوابد هيكل » ومثل هذا له كثير (١١٣) فإنا نرى ابن رشيق يحدثنا في رسالته « فراضة الذهب » عن امرئ القيس بقوله : « وأنا اقتصر من جميع الشعراء في أكثر ما أورده على امرئ القيس ، لانه المقدم لا محالة ، وأن وقع في ذلك بعض الخلاف فالتميز الحاذق بطرق البلاغة يجيد لكلامه من الفضيلة في نفسه مالا يجده لغيره من كلام الشعراء ، والبحث والتفنن يش يزيدانه جلالة ، ويوجبان له على ما سواه مزية ، ويشهد الطبع وذوق الفطرة شهادة بينة واضحة لا تدرکہا شبهة إذا قصد الإنسان العدل ، وترك التعصب وأول ما أبدا من ذلك ما كان من جهة الاستعارة كقوله : « بمنجود قيد الاوابد هيكل » فإنه أول من قيدها ، وسبق إلى الاستعارة البديعة فاتبعه الناس (١١٤) فهل لنا بعد هذه المقارنة بين أصلام الكلام لابن شرف ، وقراءة الذهب والعمدة لابن رشيق التي أوردنا أطرافا منها أن نقول : أن أحدهما

(١١٣) اعلام الكلام : ١١٦

(١١٤) فراضة الذهب تحليق الشلالى بو يحيى ط تونس سنة ١٩٧٢ م ص ٢٠ - ٢١ .

(١١٥) اعلام الكلام : ١٣

(١١٦) العمدة ١ : ٥٧

عصره ، فيهدى كتابه إلى ابن أبي الرجال ، وأن يسرف في مدحه ، ويغالي في إطرائه شأنه شأن غيره ممن هم على شاكلته من الإديباء والكتّاب حتى يقول : « ولم أرسم كتابي هذا باسم السيد زاده الله تعالى سوا لاكون كجالب الثمر إلى هجر ، ومهدى الوشى إلى عدن ، ولكن تزيينا باسمه الشريف وذكره الطيب : واستسلاما بين علمه الطال والديه الكامل ... (١١٨) فإذا عرفنا أن ابن أبي الرجال هذا الذي إهداء ابن رشيق كتابه « العمدة » توفى سنة ٢٥ هـ فإن من المقطوع به أن يكون هذا الكتاب قد تم تأليفه قبل هذا التاريخ ، وعلى هذا يكون ما ذهبنا إليه ، واقتراضه من ابن رشيق أخذ من رسالة اعلام الكلام لابن شرف ، وأفاد منها ، وتأثر بها أمر جائي بقبلة العقل ، ولا يحيله بولامع من ذلك أن ينفي ابن رشيق عن نفسه في كتابه العمدة نعمة الإخذ من بعض معاصريه ، وذلك أنه حين ألف كتابه العمدة ، وأخرجه للناس يبدو أنه ظفر بأجباب الجمهور ، وأصعب المحظوظين من الأمر الذي أفرغ صدور خصومه فتالوا من الكتاب ، وانتقصوا من قدره ، وبخسوه حقّه ، وتقوا على صاحبه ، وفقطوه حقّه ، وادعوا عليه الإخذ والاتصال والسرقة ، فقال معرضا بهم في بداية سباب التضمين والإجاسة : « وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء ممن ليس له تقوى في العلم ولا خلق بالصناعة كجماعة ممن وسم في بلدنا بالعرفه ، وينسب إليها مكدوبا عليه فيها ، كاذبا فيما ادعاه منها ، ولتعرفهم في حصن القول (١١٩) كما يمرض بهم في موضع آخر حيث يقول : « وكم في بلدنا هذا من المحفّات

منه ، بعد أن طلبه المعتصم وشكر دمه ، وإبعاده في الحرب حتى أدركته مئنيته ، وحمل قضاه بالمغرب يزوللة بنى الخطاب حيث دفن إلى جوار قبر عبد الله ابن شيخه القزاز حيث يقول : « وإلى جانب قبر عبد الله بن شيخنا أبي عبد الله محمد بن جعفر النحوي رحمه الله » (١١٦) فهو يذكر قبر ابن شيخه القزاز ، ويقرن اسم شيخه بقوله : « رحمه الله » فإذا ذهبنا إلى أن الدماء بالرحمة إنما هو لشيخه القزاز وأنه كان قد توفى أثناء كتابة تلميذه ابن رشيق قصة دعبيل وخبره مع المعتصم أمكننا أن نقول : أن ابن رشيق ابتداء تأليف كتابه هذا في سنة ١٢ هـ وهنالك قرينة ثمانية تدل على أن هذا الكتاب ألف في الفترة آتفة الذكر ، وهي أن أول ما يطالعنا من هذا الكتاب أن ابن رشيق يرفع إلى ابن الحسن على بن أبي الرجال رئيس ديوان إنشاء المعز بن باديس ، ويهديه آياه ، فيقول : « السيد الأمجد والفد الأوحده حسنة الدنيا وعلم العلياء وباني الكرام وآبي المظالم رجل الخطاب وفارس الكتب أبي الحسن على ابن أبي الرجال الكاتب زعيم الكرم وواحد الفهم ، الذي نال الرئاسة وحاز السياسة » (١١٧) ولم يكن ابن رشيق في صنيعة هذا ، وإهدائه كتابه إلى ابن أبي الرجال بدعا من المؤلفين والمصنفين وإنما كان يجري على سنة العصر الذي عاش فيه ، فقد جرت عادة العلماء والإديباء حينئذ أن يرفعوا كتبهم ومصنفاتهم إلى الأمراء والوزراء وكبار رجالات الدولة ، ويهدونها إليهم ابتغاء المنفعة والمنفعة ، والتماسا لجزيل عطاياهم وتواهم وصلاتهم وظلما للشهرة وذبوع الصيت فلا على ابن رشيق أن يجري على سنة

(١١٧) العمدة ١ : ٢

(١١٨) العمدة ١ : ٥

(١١٩) العمدة ٢ : ٨٠

خرجت به الى الاوهام سبقا
وقل له عن الوهم الخروج
الى الملك المعز ابي تعمير
امر بمن سواه فلا أعيج

فابن رشيقي يحدثنا عن هذه الابيات بقوله : « ومن قصيدة صنعتها بدربة بالمهدية ساعة وصولي اليه - ادام الله عزه - عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا » (١٢٢)، فالمعز يرى ان ابن رشيقي انما ذهب الى المهدية ، ولحق بالمعز بن باديس بها بعد خراب القيروان على ايدى الاعراب سنة ٤٤٩ هـ . وهي سنة جلاء المعز من القيروان الى المهدية ، ولنا ان نسأل الميمني وان تناقشه فيما ذهب اليه ، فمن ذا الذي زعم او قال : ان المعز بن باديس لم يذهب قط الى المهدية الا في سنة ٤٤٩ هـ بعد خراب القيروان ؟ ومن يستطيع ان ينكر ان المعز قد ذهب اليها ، وزارها قبل هذا التاريخ اثناء ازدهار ملكه لتفقد احوال رعيته فيها ، اليست احدى المدن الكبار الواقعة في نطاق دولته ؟ اليس المعز قد ولي عليها ابنه تعمير ، وعهد اليه بامرها ؟ ثم ألم يحدثنا المؤرخون القدامى والمحدثون ان المعز كان بالمهدية في صحبة جده يوم مات ابو باديس وأنه ولي الملك ، وآلت اليه الامارة وهو بها سنة ٤٠٦ هـ ؟ على ما يحدثنا ابن ابي دينار حيث يقول عن وفاة باديس : « فأذركه اجله على مدينة المحمدية آخر ليلة من ذي القعدة سنة ست وأربعمائة ، فكنتم اكابر دولته موته ، وتشاورا فيما بينهم ، فانفق رأيهم على تولية ولده المعز وكان صفيرا اذ ذاك لم يبلغ عشر سنين ، فجعلوا باديس في تابوت وأوصلوه الى المهدية

قد صاروا لعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهيئ » ان البغاث في أرضنا يستنسر ، ولولا ان يعرفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم في هذا الكتاب ، ويدخلوا في جملة من يعدخله ، ويحصى زلله للكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيحه وفساد معانيه وركاكة لفظه ما بذلك على مرتبه من هذه الصناعة التي ادعوها باطلا ، وانتسبوا اليها انتحالا ، وقد بلغني ان بعض من لا يتورع عن كذب ، ولا يستحي من فضيحة زعم اني اخذت مسائل من هذا الكتاب لو سئل عنها الان ما علمها » (١٢٠) وربما كان يقصد بمن لا يتورع من الكذب ، ولا يستحي من الفضيحة ابن شرف القيرواني قريبه وغريمه ومناقسه في بلاط المعز بن باديس .

وقد ذهب حسن حسني الى قريب مما ذهبت اليه ، فقد ذكر ان ابن رشيقي ألف كتابه « العمدة » في حدود سنة ٤٣٠ هـ او قبلها بقليل حيث يقول : « واشهر تأليف لابن رشيقي في الادب هي كتاب العمدة في صناعة الشعر وتقده الفها في حدود سنة ٤٣٠ هـ او قبلها ببسيرة (١٢١) وأنه لمن الغريب حقا ان يذهب الميمني الى ان ابن رشيقي ألف هذا الكتاب بعد سنة ٤٤٩ هـ معتمدا في ذلك على خبر ابيات لابن رشيقي وردت في هذا الكتاب وهي :

وذلك له رجل طحون
لما نزلت به ويد زجوج
يطير باربع لا عيب فيها
لظهران الصفا منها عجيح

(١٢٠) العمدة ٢ : ٢١٨)

(١٢١) بساط العليق : ٨٧)

(١٢٢) العمدة ١ : ٢٠٣)

وكان ولده المعز بها خرجت به جدته للنزاهة وجعلتها حرزا لاموالها ، لما كانت ترى من الفتنة في دولة ولدها باديس» (١٢٣) .

على أن قصة هذه الإبيات التي اعتمد عليها الميمني في تحديد زمن تأليف كتاب «العمدة» وردت برواية أخرى في النسخة الخطية أقدم نسخ الكتاب تقول هذه الرواية : « قبل وصولي إليها » فهو يصرح فيها أنه قال هذا الشعر قبل أن تتصل أسبابه بأسباب المعز بن باديس ، وينخرط في سلك خدمته ، ويصطنعه المعز ، ويصطفيه لنفسه ، ويصبح شاعرا بلاطه المقدم عنده الأثير لديه ، وليس أدل على ذلك من أنه قال هذا الشعر حين اقتراح أحد شعراء الوقت ، ولو كان قد قاله بعد سنة ٤٤٩ هـ - كما ذهب الميمني - ما كان بحاجة إلى اقتراح غيره عليه أن يقول شعرا وإنما يكون الاقتراح قبل أن يصل حبله بجبل المعز ، فيدفعه المقترح إلى أن يقول شعرا في هذا الغرض أو ذلك ، وبدا يكون الزمن الذي حددناه لتأليف الكتاب أقرب إلى الصحة والصواب ، ولا يكون ابن رشيقي ألفه بعد سنة ٤٤٩ هـ بحال من الأحوال كما ذهب الميمني .

على أننا لو تركنا هذا الموضوع جانبا ، ونظرنا إلى سن ابن رشيقي حين رحل إلى المهديّة ولحق بالمعز بن باديس بها سنة ٤٤٩ هـ لرأينا أنه قد ناهز الستين إذ أنه ولد سنة ٣٩٠ هـ

وكان ولده المعز بها خرجت به جدته للنزاهة وجعلتها حرزا لاموالها ، لما كانت ترى من الفتنة في دولة ولدها باديس» (١٢٣) .

على أن قصة هذه الإبيات التي اعتمد عليها الميمني في تحديد زمن تأليف كتاب «العمدة» وردت برواية أخرى في النسخة الخطية أقدم نسخ الكتاب تقول هذه الرواية : « قبل وصولي إليها » فهو يصرح فيها أنه قال هذا الشعر قبل أن تتصل أسبابه بأسباب المعز بن باديس ، وينخرط في سلك خدمته ، ويصطنعه المعز ، ويصطفيه لنفسه ، ويصبح شاعرا بلاطه المقدم عنده الأثير لديه ، وليس أدل على ذلك من أنه قال هذا الشعر حين اقتراح أحد شعراء الوقت ، ولو كان قد قاله بعد سنة ٤٤٩ هـ - كما ذهب الميمني - ما كان بحاجة إلى اقتراح غيره عليه أن يقول شعرا وإنما يكون الاقتراح قبل أن يصل حبله بجبل المعز ، فيدفعه المقترح إلى أن يقول شعرا في هذا الغرض أو ذلك ، وبدا يكون الزمن الذي حددناه لتأليف الكتاب أقرب إلى الصحة والصواب ، ولا يكون ابن رشيقي ألفه بعد سنة ٤٤٩ هـ بحال من الأحوال كما ذهب الميمني .

على أننا لو تركنا هذا الموضوع جانبا ، ونظرنا إلى سن ابن رشيقي حين رحل إلى المهديّة ولحق بالمعز بن باديس بها سنة ٤٤٩ هـ لرأينا أنه قد ناهز الستين إذ أنه ولد سنة ٣٩٠ هـ

(١٢٣) المؤنس : ٧٩ - ٨٠ وفي بساط الصديق : ٤٢ : « ولما أدركت النية والده باديس آخر ليلة من ليل القعدة سنة ٤٠٦ هـ بمدينة الهندية ، تلاوا صديرو الدولة بينهم ، فالتقوا بهم على تولية المعز ، وكان وقتئذ في الترتيز صبيحة جدته بالمهديّة » وبهم من كلام ابن عذاري أن المعز كان في صحبته أم بلال عند تولية الإمارة بالمهديّة ، وليس في نسخة جدته الظفر البيان القريب : ٢٨٦ وقد لعب إلى ذلك أحمد بن علي في كتابه « الدولة الصنهاجية » حيث يقول من أم ملال : « وهي سيده بنت الأمير المتصور وشقيقة الأمير باديس نشأت ودرجت في كنف والدها وأخوها ، واشتهرت ببرجاعة العقل وسعة التنكير ولقب الراي وطو التشافة ... وبذلك تاهلته لأن تتزوج صبيحة على ابنه الأمير المتصور بالإمارة » تعاريفه أمود .. « الدولة الصنهاجية : ٦٢ - ٦٣ وذكر ابن الأثير أن ولاية المعز كانت بالمهديّة ، ولم يشر إلى وصاية مته عليه حيث يقول : « ووصلوا إلى المهديّة ، والمعز بها لأمير الحرم ، فركب المعز ووقف حبيب يطمع بهم ، ويذكر له أسماهم ، ويعرفه بقواهم وأكابرهم ، فرحل للمعز من المهديّة ، فوصل إلى المتصورية منتصلا بالحرم » الكامل : ٩

في الاندلس والمغرب العربي قبل أن يعرفه المشارقة ولا تكاد نعرف الا غريبته في سقلية ، ثم الغربة والوحدة في الاندلس كما سبق أن بينا ، وإذا كان الامر كذلك وكانت كتابة الرسالة بعد هذا كله فلا يمكننا أن نزع أن ابن رشيق تأثر بابن شرف أو أخذ عنه لا في (العمدة) ولا في (قراضة الذهب) ، ولعل هذا النص هو الذي دفع حسن حسنى الى أن يرجح أن ابن شرف ألف هذه الرسالة بعد هجرته من القطر التونسي حيث يقول وهو بصدد تعداد مصنفات ابن شرف : « ثم رسائل الانتقاد ، والمظنون أنه ألفها بعد هجرته القطر التونسي كما يستفاد من سياق كلامه في مقدمتها » (١٢٧) .

ومن هنا ترى أنه لم يكد يصل اليها من مؤلفات ابن شرف الكثيرة التي يقول فيها ابن بسام : « ولابن عبدالله عدة توالياف أفاضها بحارا ، وأطلعها شجوسا وإقمارا » (١٢٨) والتي يحدثنا عنها حسن حسنى بقوله : « أما تأليف ابن شرف فكثيرة على ما نقله اليها المؤرخون سوى رسالته أعلام الكلام » (١٢٩) أما باقي مؤلفاته فقد فقدت ، وامتنعت اليها يد الضياع ، الا أنه ينبغي أن نشير هنا الى أنه توجد اثار من نثره وشعره مبنوثة في ثنايا كتب الادب ، ولا سيما (اللخيرة) لابن بسام ، فقد احتفظ لنا فيها بجملة صالحة من آثاره تكفي لإبراز قيمتها ، وأورد لنا طائفة كبيرة من نثره وشعره ، وبسط القول في أخباره الأدبية وأفاض فيها حتى كسر عليها ما يزيد عن خمسين صفحة ، فمن نثره الذي

شرح شبابه ومقتبل عمره ، والدنيا عليه مقبلة والسultan عنه راضى ، والظروف مهيأة له ومتاحة ، والزمان موات له ومساعد ، ومن العجيب أن اليمينى يقرر بعد ذلك أن ابن رشيق سنة ٤٤٩ هـ كان في عهد هرمه وشيوخه ، وأنه لم يصنف فيه شيئا جديرا بالذكر حيث يقول : « أن هذا العهد كان عهد هرمه وهيموه ، وأنه لم يعمل فيه عملا يصلح للذكر اصلا ، أو على ما بلغنا » (١٣٥)

فهل لنا بعد كل هذا أن نركن الى ماذهبنا اليه ، وافترضناه ، واستنتجناه من أن ابن رشيق أخذ من ابن شرف ، وتأثر به ، وكان من الممكن أن نطمئن الى ما انتهينا اليه لولا أننا رأينا ابن شرف يورد في مقدمة رسالته ما ينقض كل ما افترضناه واستنتجناه وذهبنا اليه ، ويأتي عليه من القواعد ، ويجعلنا لانطمئن الى ما انتهينا اليه حيث يقول « ولعمري ما أشكر من نفسي ، ولا اثنى على شيء من حسي الا ظفري بالأقل مما حاولته ، على ما أضرمته نيران الغربة من قولي ، وللمنة صفقات الفتنة من لبي ، وقطعت أهوال البر والبحر من خواطري ، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائزي وبصائري » (١٣٦) فهذا النص يدل على أن الرسالة كتبت بعد معاناة أهوال في البر والبحر ، وبعد غربة وفتنة ، وليست هناك الا فتنة سقوط القيروان التي هزته ، فكل ما سأتاها في عدة قصائد تعد من عيون شعر رثاء المدن ، هذا اللون الذي شاع

(١٣٥) ابن رشيق : ٦٧

(١٣٦) رسالة اعلام الكلام : ١٤

(١٣٧) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ - ٣٥٥ وانظر رسائل البلقاء : ٣٠٦

(١٣٨) اللخيرة القسم الرابع المجلد الاول : ١٢٤ .

(١٣٩) مجلة المقتبس المجلد السادس : ٣٥٤ وانظر رسائل البلقاء ٣٠٦ . وقد قد البغدادي ضمن مؤلفات ابن شرف جميع النصح وسر البر ، ولا ندري شيئا من موضوع هذين الكتابين ولا المصادر التي استقى منها إذ اتفقا بذكرهما دون أن يشير الى موضوعهما ولا الى المصادر التي اعتمدت في هذين الكتابين .

يؤنس من لقائه ، والوئوع في حياته ، وهي تصور خوفه من المعتضد واشفاقه من القدوم عليه أدق تصوير وأروع ، ومنها عدة مقطوعات في النسب وقصائد في مدح المنصور حفيد ابن أبي عامر وابن طاهر أمير مرسية وابن أبي الرجال رئيس ديوان الإنشاء في بلاط المرين باديس ، وعدة قصائد في رثاء القروان ووصف لكتيها وتصوير مأساتها تعد من عيون الشعر العربي في رثاء المدن والأعمار ، ومنها مقطوعة تعد من رائع الشعر وجيده يصف فيها ما كان من صيانة الحرير وامتاعه وتصونهم قبل حدوث مأساة القروان وما صرن إليه بعدها من الاكتشاف والتبطل في الحل والترحال ، وما عاتبته من خطوب وأحوال يقول في هذه المقطوعة :

بعد خطوب خطبت مهجتي
وكان وشك البين أمهلها
ذا كبد أفلاذها حولها
قسمت الغربة أعشارها
اطافل ما سمعت بالفلأ
قط فعابت الفلأ دارها
ولا رأت إصغارها شطأ
ثم جلت بالبحر أبصرها
وكانت الاستار أفأفها
فعادات الإناف استغرها
ولم تكن تعلقو سريرا علأ
إلا إذا وافق مقطوعها
ثم ملت كل عشور الخطأ
ترسى بها الأرض وأجبرها
ولم تكن تلحظها مقلة
لو كحلت بالشمس استغرها
فأصبحت لا تنقي لحطة
إلا بأن تجمع أطمرها

أورده ابن بسام رسائله إلى المعتضد التي خاطب في أحداها وزيره ابن زيدون ، وفصل من رسالة بعث بها إلى المظفر بن الأنطس ، وفصول من النثر في مختلف المعاني وشتى الموضوعات ، ثم ختمها بقصة قصيرة سماها مقامة ، وقد التزم السجع ، وكلف بالمحسنات باليدوية في كل كتاباته ، فانتقل نثره بالمحسنات اليدوية ، وأسرف في استعمالها ، وغالى في تزوين الألفاظ وتزويق العبارات ، وحشد فيها كل ما يستطيع أن يأتي به من تلك المحسنات حتى أننا لانكاد نجد عبارة واحدة لا تنقلها المحسنات ، وقد كان هذا شأنه في كل ما اثر لنا عنه من نثر سواء أكان نثرا انشائيا صريفا كالرسائل والفصول التي أوردها ابن بسام ، وتحدثنا عنها آنفا ، أم كان نثرا تناول فيه الأبحاث الأدبية مثل رسالته «أعلام الكلام » تلك الرسالة الوحيدة التي وصلت إلينا من بين مؤلفاته ، والتي نتناول فيها الشعراء بالنقد ، فقد حشد فيها كل المحسنات اليدوية ، وكلف بالسجع الركيك ، واحتفل به ، والتزمه من أول الرسالة إلى آخرها كما أوقع بالألفاظ الغريبة ، حتى كادت الإنكار والإحكام العامة الخالية من الضبط ، والتحليل المشتملة عليها هذه الرسالة تضع في أوج السجع والألفاظ الغريبة ، ونغيب في خضم الصنعة المفرطة المغالى فيها ، فهو يعرض فيها للشعر والشعراء ومنازلهم في الجاهلية والإسلام ، ويبين رأيه فيهم وموقفه منهم سالكا في ذلك سبيل المقامات .

ومستخدما أسلوبها ، فعنى بتزوين الألفاظ واهتم بتزويق العبارات ، وكلف بالسجع ، واحتفل بالمحسنات والصنعة ، حتى أنك لانكاد تجد عبارة واحدة في هذه الرسالة لا تنوء بانقل المحسنات اليدوية والصنعة المفرطة المغالى فيها .

أما الأشعار التي أوردها ابن بسام فهي في موضوعات شتى منها المقطوعة الطريفة التي خاطب فيها المعتضد ، وبعث بها إليه

الفضة من صباب في الصحارى والقفار وعلى
متون البحار فرارا بأنفسهم من صنف الأعراب
وعنتهم وأذاتهم .

يقول ابن شرف :

كلنى وافرأخي اذا الليل جننا
وبات الكرى يجفو جفونا ويطرق
حملم اضللن الوكور فضمها
تجانسها حتى تراءى المفرق (١٣١)

الى آخر هذه المقطوعة التى سبق ان
أوردناها عند حديثنا عن أسرته . ومن أشعاره
قصيدة يندب فيها القيروان ، ويكى فيها
وطنه الضائع ، ويلدرف على ضياعه دموعا
صادقة ويسترجع ذكرياته بالقيروان في مرارة
واسى وحسرة ولوعة ، ويتشوق حياته الماضية
بها، ويعود السالفة في ربوعها ومغانبها فيقول:

ياقيروان دددت انسى طائمر
فأراك رؤبة طائمر متامل
أها وأبة آهة تشفى جوى
قلب بنيران الصابرة مصطلى
أبدت مفاتيح الفيوب عجائبا
كانت كوامن تحت غيب مقفل

زعموا ابن آوى فيك يعوى والصدى
بذلك بصرخ كالحرزين المتكسل
با بيد رولة والشوارع حولها
مغمورة أبدا تفص وتمتلىسى
يا اربى في القطب منها كيف لى
يبعاد يوم فيك لى ومن أين لى

وفي البيت الخامس من هذه المقطوعة قد
ملحح يقول ابن بسام معلقا على هذه المقطوعة
« قوله » وكانت الاستار آفاقها « من الكلام
الفصيح والقلب المليح ، ويشبه منعا وان لم
يكن في معناه قول الأول :

فرد شعورهن السود بيضا
ورد وجوههن البيض سودا

وكقول الآخر :

ندبى جارية ساقية

ونزهت ساقية جارية (١٣٠)

**وقف بسط ابن شرف القول ، وأجاد كل
الإجادة في تصوير تكة القيروان حاضرة
افريقية ، وما أصابها على أيدي الأعراب من
صنوف التخريب والتدمير والمحق بأهلها
من الران العسف والأضطهاد ، وما حاق بهم
من فنون الأذى وشروب التعذيب ، والمحق
بهم من الدلة والهوان ، وكان ابن شرف قد
أحسن للدق المصيبة وحرها ، وذاق مرارة
التكة ، وتجرع غصص الكارثة في نفسه وأهله
وولده ، وهزته المأساة وأزعجته عن حرمه
الآمن ، وعانى من بلائها ما عانى فانطقته بشعر
صورها فيه تصورا دقيقا ، حتى انه قلما
تجد عند غيره من الشعراء من صور مأساة
القيروان مثل هذا التصوير الدقيق المتمثل ،
ونحن مثل هذه اللمسات الحزينة التى تشيع
في كل مراتب القيروان ووصف مأساتها وماحل
بأهلها ، ومن لم كانت مرأى ابن شرف
للقيروان ، وتصويره لمأساة سقوطها ، وماحل
بأهلها من اصدق الشعر عاطفة ، وأعمقه أفرا
في النفوس وخاصة حين يصور حال أسرته
وأطفاله الصغار ، وما تجشموه في هذه السن**

وسفورهم من هول الكارثة وتبذهن وامتهانهم ،
وما لقينته من أهوال وأخطار ، وما تجشمنه من
صعاب بعد رغد عيشهن ، وتقلبهن في أعطاف
النعيم مصونات ممتعتات .

ونود أن نشير هنا إلى أن المغاربة قد كلفوا
بتقليد المشاركة ، وإن ابن بسام قد أدرك ذلك ،
وأحس تعلق بنى وطنه بالمشاركة ، ولوهمهم
بتقليدهم ، والتأسي بهم ، فاحفظه ذلك ،
وأغضبته وأثار حميته ، فراح ينمى على قومه
تطلعهم إلى الشرق وعلمائه وأديانته ، وأفنتانهم
بهم ، واحتفالهم بأثارهم ، وكلفهم بتقليدهم
والتأسي بهم حيث يقول : « أن أهل هذا
الافق أبو إلا متابعه أهل المشرق يرجعون إلى
أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى فتادة ،
حتى لو نطق بذلك الأفق غراب ، وأوطن بأقصى
الشماء والعراق ذباب لجشوا على هذا صنما ،
وتلوا ذلك كتابا محكما ، ففاضنني منهم ذلك ،
وأنفت مما هنالك غيرة لهذا الأفق القريب أن
تعود بدوره أهلة وتصبح بحارته معاداة مضمحلة ،
وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان
واختص أهل المشرق بالإحسان » (١٣٢) .

أما في مجال الشعر فقد كان غاية ما يطمح
إليه أحد الشعراء المغاربة والأندلسيين وتصبوا
إليه نفسه أن يشبه بأحد شعراء المشرق ويلحق
به ، ويقرن اسمه باسمه ، فالشعالي يعجب
بأن دواج القسطل ، ولا يتجاوز في تعبيره عن
أعجابه به أن يشبهه بالمتنبي في المشرق ، ولا

بالو شهدت إذا رأيتك في الكرى
كيف ارتجاع صباى بعد تكمل
لاكثره الإحسان تنسى حيرة
هيهات تذهب علة بتعلل
وإذا تجدد لى أخ ومنادم
جددت ذكر أخاء خل أول
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم
يوم الرحيل فعلت مالم أنفل (١٣٢)

كما توجد مقطوعات من شعره في كل الكتب
التي ترجمت له مثل (معجم الأدباء) (والوافي
بالوفيات) و (المطرب) (معالم الإيمان) ،
كما توجد أكان من شعره ونثره في ثنابا الكتب
الأدبية الأخرى مثل (الفيت المسج) (فيه
عدة مقطوعات من شعره ، كما توجد قطعة من
نثره في مدح الشطرنج وهذه القطعة موجودة
أيضا في إنزهة الجليس ومنية الأديب الأتيس) .

ونستطيع أن نقول أن أجود أشعار ابن خرف
هي قصائده التي رلى فيها القروان وطنه الضائع
وبكاهها فيها ، وندب أبامه بها ، واسترجع
ذكرياته فيها ، وصور حال أسرته وأطفاله
الضفائر ، وما تجشموه من صعاب بعد أن
هزتهم المأساة وأزعجتهم الفتنه عن حرمهم
الأمين ، وتلك التي صور فيها أجلاء العرب
لأهلها بعد أن روعوهم في حرمهم الأمين ،
وأوقموا بهم ، ووصف خروج نساء القروان

(١٣٢) (الخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٨١ - ١٨٢ والظلال معالم الإيمان : ١٥٠ هما أورد له الدباغ قصيدة يصف
فيها خلاد القروان ، وجيلاد أهلها فيها ، منها :

الآن منزل فيه اتيس مغالط
فيلت عن الفسردان واقه فالسر
السم لك فلما في البلاد الكبار
سوى سائر أو فاقين وهو سائر
القيمت تتود منهم ومتلبر

الآن منزل فيه اتيس مغالط
توى سيئات القروان لعاطفت
تراها أصيبت بالكبار وحدها
ترحل منها قاطونها فلا ترى
تكتفيت الأتار منهم وديها

والظلال الخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٨٢ - ١٨٤

(١٣٢) (الخيرة القسم الأول المجلد الأول : ٢)

« قوله (أى ابن دراج) :

فمن حرة حليت بالجلاء
وعنداء نصت بنص الزميل

ثم يتبع ذلك بقوله : « أنتحى ابن شرف فيما وصف فتنة قيروانه منحنى القسطنطينى شكوى زمانه ، والحديث عن الفتى ، فكأثر البحر يوشل مشفوه ، وجارى الريح بكودن لأفضل فيه » (١٣٦) إلا أنه ينبغي ألا ننمط ابن شرف حققة في الشعر ، فهو يعد من الشعراء المغاربة الجيدين ، وشعره يمتاز بوضوح المعاني والأفكار والدقة في الوصف وجزالة الالفاظ والتراكيب كما رأينا من أشعاره التى تناولناها وعرضنا لها .

هذه هى آثار ابن شرف التى فقدت وامتدت إليها يد الضياع ، والتى لم يبق لنا منها إلا آثار متناثرة في ثنايا الكتب ، وقد عرضنا لنشره وشعره حسبما أسعفتنا النصوص ، ولنعرض لأرائه النقدية المتطفلة في رسالته « أعلام الكلام » .

آرائه النقدية :

تتمثل آراء ابن شرف في النقد الأدبي في رسالته « أعلام الكلام » تلك الرسالة التى ضمنها آراءه النقدية ، وبين فيها موقفه من كثير من القضايا الأدبية التى كانت تشغل بال معاصريه ، وهى بأشتمالها على عديد من القضايا النقدية ، وأحاطتها بكثير من المسائل الأدبية ربما تعد متنا في النقد الأدبي .

يبدو أن بلحقه به فيقول : « وكان يصقع الإندلس كالتنبي يصقع الشام » (١٣٤) ولم يكن ابن شرف بدعا من شعراء عصره من المغاربة في التعلق بالمشارقة والافتتان بهم ، فنراه ونحن نطلع الذخيرة لابن بسام مفتونا بالتنبي ، كلغا بمجاراته ومعارضته ، وكأني به وقد زهى بشاعريته ، وأحس أنه نظير للمتنبي ، وقرين له حتى حدثته نفسه أن يجاريه ويعارضه ، وسولت له أن يطاوله ويساميه ، يقول ابن بسام أن ابن شرف « قال يوما للمأمون بن ذى النون أيام خدمته إياه ، واستشفافه صياغة عمره في ذراه ، وقد أجروا ذكر أبى الطيب ، فذهبوا في تأنيبه كل مذهب : أن رأى المأمون - لافارق العزة والغلاب - أن يشير الى أئ قصيدة شاء من شعر أبى الطيب حتى أعارضة بقصيدة تنسى اسمه ، وتعفى رسمه فتناقل ابن ذى النون عن جوابه علما بضيق جنباه ، وأشفقا من فضيحتة وانتشابهه والى أبو عبد الله حتى أخرج ابن ذى النون وإغراه ، فقال له : دونك قوله « لعينيك مايلقى الفؤاد وما لقي » فخلا بها ابن شرف إياما ، فوجد مركبها وعرا ، ومريرتها شورا ، ولكنه أبلى عدرا ، وأرهق نفسه من امرها عسرا فمعا قام ولا قعد ، ولا حل ولا عقد » (١٣٥) .

كما يذكر ابن بسام في موضع آخر أن ابن الأشرف كان في وصفه نكبة القبروان وماساتها متناسيا بابن دراج ، ومقلدا له ، ثم ينال منه ، ويغفله حقه ، ويصفه بالقصور عن شأو ابن دراج كدابه دائما في التعصب لبنى وطنه وانتقاص من عداهم وغفط حقوقهم ، والغف من شأنهم ، حيث يقول مقارنا بين بيتين لابن شرف وابن دراج :

(١٣٤) البيضة ٢ : ٢٠

(١٣٥) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول : ١٤

(١٣٦) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول : ٧٤ على أن ابن شرف كان معجبا بشعر ابن دراج وخاصة أشعاره التى قالها في محنته انظر أعلام الكلام : ٢٦

ودمنة (فاضلوا حكمه الى الطير الحوائم ،
ونطقوا به على السنة الوحوش والبهائم ، لتعلق
به شهوات الأحداث ، وتستعذب بشرة الفاظ
الحدث وقد نحا هذا النحو سهل بن هارون
الكاتب في تأليفه كتاب « النثر والتعجب » وهو
مشهور الحكايات بديع المراسلات ، مليح
المكاتبات ، وزور ايضا بديع الزمان الحافظ
الهمداني وهو الاستاذ ابو الفضل احمد بن
الحسين مقامات كان ينشئها بديها في اواخر
مجالسه وينسبها الى راوية رواها له يسميه
عيسى بن هشام ، وزعم انه حدثه بها عن بليغ
يسميه ابا الفتح الاسكندري ، وعددها فيما
يزعم رواها عثرون مقامة ، الا انها لم تصل
هذه العدة البتة ، وهي متضمنة معاني مختلفة ،
ومبنية على معان شتى غير مؤلفة ، لينتفع بها
من الكتاب والمجاهرين من سرها من هول الى
جد ومن شد الى ضد ، فاقمت من هذا النحو
عشرين حديثا ، ارجو ان يبين فضلها ، ولا
تقتصر عما قبلها » (١٢٨) .

ويحدثنا ابن خلكان عن بديع الزمان ومقاماته
يقوله : « صاحب الرسائل الرائعة والمقامات
الفائقة على منواله نسج الحريري مقاماته ،
واحتذى حذوه ، واقتفى اثره ، واشراف في
خطبته بفضلها ، وانه الذي ارشده الى سلوك
ذلك المنهج » (١٣٩) .

وقد اقر الحريري لبديع الزمان بالفضل
حيث يقول في خطبة المقامات : « فاشار من
اشارته ، وطاعته غم الى ان انشئ مقامات
اثلو فيها ثلوا البديع ، وان لم يدرك المظالم شأوا
الضليع » (١٤٠) .

وقد سبق ان عرضنا لها ، وبيننا آراء العلماء
فيها ، ومواقف منها ، وقارنا بينها وبين قراضة
الدبب والعمدة لابن رشيق ، وذكرنا انه كتبها
باسلوب المقامات ، ذلك الاسلوب الملتزم للسجع ،
والمنقل بالمحسنات البديعية ، والمتسم بتزيين
الافلاظ وتزويق العبارات ، والحافل بحوشي
الافلاظ وغريبها ، وانه اتخذ لها شخصا خاليا
او بطلا دعاه ابا الريان الصلت بن السكن ،
وتحدث على لسان بطله عن مشاهير الشعراء
القدامى والمحدثين واغفل المغمورين منهم
واعلمهم ولم يشر اليهم .

وقد ابتدأ هذه الرسالة واستهلها بقوله :
« هذه احاديث صفتها مختلفة الايوان مؤلفة
في الاسماع ، غريبية المراسم ، غريبية التراجم ،
واختلفت فيها اخبارا فصيحيات الكلام بديعات
النظام لها مقاصد ظراف ، واسانيد ظراف ،
بروق الصفر معانها ، والكبير مغزاها ،
وعزوها الى ابي الريان الصلت بن السكن من
سلامان » (١٣٧) .

ثم يذكر انه لم يكن مستعدا لهذه الاحاديث
على غير مثال سابق ، ولم يكن سابقا الى
اختراعها وابتكارها ، وانما هو متبع لمن سبقه
في امثالها ، وحاذ حذوهم وناسج على منوالهم ،
ولاسميا بديع الزمان الهمداني في مقاماته التي
بلغ عددها على ما يرويه الرواة في ذلك الحين
عشرين مقامة ، وان كان هذا العدد لم يكد يصل
اليه فيقول : « واحتدثت فيها ذهبت اليه ،
ووقع تعريض عليه من بث هذه الاحاديث
مارايت الاوائل قد ضمت في كتاب » (كتيبة

(١٣٧) رسالة اعلام الكلام : ١٢ وسلمان يفتح اوله سادسني شيبان على طريق مكة الى العراق ، وبه مات نوفل
بن عبد مناف . معجم ما استعجم ٢ : ٧٢٥ ويبدو ان ابن شرف اختار سلمان الذي هو منزل القبيلة شيبان اضافة
بهذه القبيلة وتوحيها بشاتها ، اذ ينسب اليها ولي نعمته ابو الحسن علي بن ابي الرجال الشيباني رئيس ديوان
الانشاء في بلاط العزيز بن باديس .

(١٣٨) رسالة اعلام الكلام : ١٢ - ١٢

(١٣٩) وفيات ١ : ١٠٩

(١٤٠) وفيات الايمان ٢ : ٢٨٨ والنثر مقدمة مقامات الحريري : ٤ ، د الحبي .

وخمسون مقامة قد ثبت منذ زمن طويل ، لأن
الحريري عارض هذا العدد بعثله . » (١٤٢)

**وابو الريان الصلت بن السكن الذي اجرى
ابن شرف على لسانه هذه الاحاديث اتعا هو
رجل استعاره ، او شخص جرده من نفسه ،
وانتزعه منها ،** فكان ابن شرف يخاطب ابا الريان
هذا البطل المزعوم ويسالنه ، وابو الريان
يجيبه بما يعرفه عن كل شاعر الا انه قصر
حديثه على الشعراء المشهورين في العصور
الجاهلية والاسلامية ، واغفل المجاهل
والمفهورين منهم ، واهملهم ولم يشر اليهم وعمل
ذلك بعدم قدرته على استقصائهم ، والاحاطة
بهم ، ومن ثم اجتزأ بالمشهورين وقصر حديثه
عليهم ، يقول ابن شرف : « وجازيت ابا الريان
في الشعر والشعراء ومنازلهم في جاهليتهم
واسلامهم ، واستكشفت حن مذهبه فيهم
ومذاهب طبقتهم في قديمهم وحديثهم فقال :
الشعراء اكثر من الاحصاء ، واسعاهم ابعاد
من شقة الاستقصاء فقلت : لا امنتك باكثر
من المشهورين ، ولا اذاكر رايلك الا في المذكورين
مثل الفضيل والقتيل ... » (١٤٣) ومضى
يسرد اسماء المشهورين من الجاهليين
والمخضرمين والاسلاميين والمولدين ، كما سرد
اسماء طائفة من مشاهير شعراء الاندلس
والمغرب مثل : احمد بن عبد ربه ، وابن هاني
وابن دراج القسطلي وعلى بن العباس الايادي
التونسي ، حتى انتهى من سرد اسماء
المشهورين وتسميتهم طالبا من ابي الريان ان
يبين رأيه فيهم واحدا واحدا ، فاجابه ابوالريان
بقوله : « لقد سميت مشاهير واقيمت الكثير .
قلت : بلى ولكن ما عندك فيمن سميت لك قال :

ومقامات بديع الزمان تبلغ اربعمائة مقامة
عارض بها احاديث ابن دريد على ما ذكره
الحصري في زهر الاداب حيث يقول : « ولما
راى ابا بكر محمد بن الحسين بن دريد الازدى
اغرب باربعين حديثا ، وذكر انه استنبطها من
يتابع صدره ، واستنتجها من معادن فكره
وايداعها للابصار والبصائر ، واهدائها للافكار
والضمائر في معارض اعجمية والفاظ حوشية
فجاء اكثر ما اظهر تنبؤ عن قبوله الطباع ، ولا
ترفع له حجتها الاسماع ، وتوسع فيها اذ
صرف الفاظها ومعانيها في وجه مختلفة وشروب
متصرفة فعارضها باربعائة مقامة في الكدبة
تلذب ظرفا ، وتقطر حسنا ، لا مناسبة بين
القائمتين لفظا ولا معنى ، وعطف مساجلتها
ووقف مناقلتها بين رجلين سمى احدهما عيسى
بن هشام ، والاخر ابا الفتح الاسكندري
وجعلهما يتهاديان الدرد ، ويتناثان السحر في
معان تضحك الحزين ، وتحرك الرصين ،
يتطلع منها كل طريقة ، ويوقف منها على كل
طليقة ، وربما افرد احدهما بالحكاية ، وخص
احدهما بالرواية » (١٤١)

بيد ان المتداول منها الان بين ايدينا احدى
وخمسون مقامة فقط ، ويغلب على الظن
انه لم يصل الى افريقية في عصر ابن شرف
سوى عشرين منها ، ويقول بروكلمان : « بديع
الزمان يغتخر في احدى رسالته بأنه صنف
اربعمائة مقامة ، وطبيعي انه لا ينبغي فهم
العدد هنا على معناه الحرفي ، فهذا محمد
بن شرف التبرواني التوفي سنة ٤٦٥ هـ لم
يكد يعرف في كتابه « اعلام الكلام » سوى
عشرين مقامة للبديع ، ولكن ينبغي ان يكون
عدد المقامات التي اثرت وبقيت لنا وهو احدى

(١٤١) زهر الاداب : ٦٦١

(١٤٢) تاريخ الادب العربي : ١١٣ - ١١٤ وهو يقصد المأثلة التلجية فان عدد مقامات الحريري خمسون مقامة ،
وفد اشار الحريري نفسه في مقدمته الى ذلك حيث يقول : « انشأت على ما اعانيه من قريضة جاسنة ولفظة خادمة ...
خمسین مقامة » مقدمة المقامات : هـ

(١٤٣) رسالة اعلام الكلام : ١٤

شعراء بنى أمية ، ثم ذكر جملة من الشعراء المولدين ، ومضى يحدثنا عن تلامه ، وإلى بعدهم ، ثم ختم حديثه بالمرض لطافة من شعراء المغرب والاندلس مثل : ابن عبيد ربه وابن هانيء وابن دراج وابن على الأبادي حيث يقول : « هذا ما عندي في شعراء المشرق ، وقد سميت لى من متأخري شعراء المغرب من لعمرى لا يبعد عن معاصره ، ولا يقصر عن سابقة وأما ابن عبيد ربه الاندلسي وإن بعثت عنا دياره فقد صاحبنا اشعاره .. » (١٤٦) .

ومن الأمثلة التي أوردها نجد أن أبا الريان كان يقف عند كل شاعر ليتقدم ما عنده ، وما يعرفه ، ويقرر وضعه وما عرف به ويميز به ، ويبرز صفاته وخصائصه ومميزاته ، وما تفرده به عما عداه .

وبعد أن أعجب بإحاديثه عن الشعراء المشهورين من الجاهليين إلى المولدين ، ومن المشاركة إلى الفاربية والتي أوردها أطرافاً منها أخذ يسأله عن النقد ، ويبدى رغبته الشديدة في أن يقف على رأيه فيه ، وأن يقتبس من عمله الصائب ، وأن ينال نصيباً منه ، فيجيبه بأن النقد موهبة تولد مع الإنسان فمن وهبه ومنحه وحظي بنصيب منه كان قادراً على الخير بين جيد الشعر وردئية واستحسان الحسن منه ، واستقباح القبيح منه ، أما من لم يرزق هذه الموهبة ولم يحظ بها فهو غير قادر على التمييز بين جيد الشعر وردئية والتفرقة بينهما ، ويؤيد رأيه وما ذهب إليه من أن النقد موهبة ومنحة يحظى بها أناس دون آخرين أنه رأى كثيراً من علماء الشعر وروائيه ممن له يؤتوا هذه الموهبة لإنفاذ لهم في نقد الشعر ، ولا فطنوا عندهم ولا بصيرة في التمييز بين جيد وردئية ، بينما رأى كثيراً ممن لا علم لهم بالشعر ممن منحوا هذه الموهبة لهم نفاذ وبصيرة وإدراك

أما الضليل مؤسس الأساس ، وبنياته عليه الناس ، كانوا يقولون : أسيلة الخد ، حتى قال امرؤ القيس « أسيلة مجبرى الذمغ ، وكانوا يقولون : قامة القامة وطويلة القامة ، وأشباه هذا ، وجيداء وقامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس : « بعيداء مهوى القرط » وكانوا يقولون في الفرس السابق : يلحق الفزال ، يسبق الظليم أو الظلام وأمثال هذا حتى قال : بمنجرد قيد الأوابد هيكلاً « ومثل هذا له كثير » (١٤٤) »

ويحدثنا عن الحارث بن حلزة الشكسرى بقوله : « وأما ابن حارث الشكسرى فسهل الحزون ، قام خطيباً بالموزون ، والعادة أن يسهل شرح الشعر بالثر ، وهذا أسهل السهل بالوهر ، وذلك مثل قوله :

أبرموا امرهم بليل قلما
أصبحوا أصبح لهم ضواء

من مناد ومن مجيب ومن
تصالح خيل خلال ذلك رضاء

فلو اجتمع كل خطيب سائر من أول وآخر يصفون سفرأ نهضوا بالاسحار ، وعسكراً تنادى بالنهوض إلى طلب النار لما زادوا على هذا أن لم ينقصوا منه ، ويقصروا عنه ، وسائر قصيدته على هذا المسلك شكاية وطلاب نصفة وعتاب في عزة وأتفة ، وهو من شعراء وائل وأحد السنة هانيك القبائل ... (١٤٥) » وهكذا مضى أبو الريان على هذا الأسلوب ، وأخذ يصف طائفة من شعراء الجاهلية ، ثم عرض للمخضرمين ممن أدركوا الجاهلية والاسلام كالثابتة الجعدى ، ثم مضى إلى الشعراء الاسلاميين وأبهمهم بالحديث عن

شرف : « قلت : أنا شديد الرغبة ان فضلك في ان تسهني من ميزك وعقلك ما استهدى بسراجه على مستقيم متهاجه ، فأقف من سرائره على بعض ما وقفت ، وأعرف من مفاهره ومعانيه جزءا مما عرفت ، قل : نعم اول ما عليه تعتمد ، وإياه تعتقد الا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستيراد ولا باستملاح ، حتى تنعم النظر وتستخدم الفكر ، وأعلم ان العجلة في كل شيء مركب زلوق وموطيء زهوق ، وان من الشعر ما ينال لفظه المسامح ، ويرد على السامع قناعع ، فلا ترك شماخة ميناء ، وأنظر الى ما في سكنائه من معناه ، فان كان في البيت ساكن فذاك المحاسن ، وان كان خاليا فاعدهد جسمنا باليا ، وكذلك اذا سمعت الفاظا مستعملة وكلمات مبتدلة ، فلا تعجل باستضعافها حتى ترى ما في اضعافها ، فكم من معنى عجيب في لفظ غير غريب » . (١٤٨)

ثم يعرض ابن شرف لقضية اللفظ والمعنى ، ويبدو انه كان يقف من هذه القضية موقفا وسطا ، فهو يرى ان الالفاظ قوالب واجسام للمعاني هي الارواح فهو اذن لا يفضل اللفظ على المعنى ولا المعنى على اللفظ بل يجمع هذين الركنين في وحدة كاملة لا تنجزا ولا تنقسم ، ومن ثم فهو ينادى بضرورة الموازنة بين اللفظ والمعنى والعناية بكل منهما ، فان حسنا بلغ الشعر الغاية المنشودة ، وان قبح احدهما انحط الشعر عن مكانته المرجوة ، ونزل عن مستواه المطلوب ، الا انه كان يفضل المعنى على اللفظ ، ولعل ذلك راجع الى شيوع هذا المذهب وسيداه في المغرب وميل المغاربة الى اعتناقه والاخذ به ، يقول ابن شرف : « والمعاني هي الارواح ، والالفاظ هي الاشباح فان حسنا فذلك الحظ المدحج ، وان قبح احدهما فلا يكن الروح » (١٤٩) . ويكاد ابن

لغاض الشعر ، وقدرة فائقة على الميز بين جيده وردئه يقول ابن شرف : « قلت لابي الريان في مجلس عقب هذا المجلس : يا ابا الريان لقد رأيت لك نقدا مصيبا ومرمى عجيبا ، ولقد اربغ في ان انال منه نصيبا ، فقال : انقد هبة في المولد ، وفيه زيادة طارف الى تالد ولقد رأيت علماء بالشعر ورواة له ليس لهم نفاذ في نقده ، ولا جودة فهم في رديه وجيده وكثير ممن لا علم له بفظن الى غوامضه والى مستقيمه ومتناقضة » . (١٤٧) باستحسان ولا استقباح ، والا نبادر الى استملاح ولا استيراد الا بعد انعام نظر وطول روية وإناة ، فالاستحسان والاستهجان تابعان للرؤية وطول النظر وحسن المران والدربة ، فيجب ان نتم النظر ونستخدم الفكر في نقد الشعر ، والا ما كنا قادرين على النفاذ الى كنهه وحقيقته وجوهره لمعرفة محاسنه ومساوئه وادراك غوامضه ومتناقضه ، والوقوف على مستقيمه وأعوجه من جميع الوجوه ، فالخطأ موكل بالعجلة ، ومع المستعجل الزلل ، ثم يعلم ما ذهب اليه من ضرورة التزام الاناة والروية وحسن المران والدربة في الشعر ، وان الاستحسان والاستهجان تابعان للرؤية وطول النظر وحسن المران والدربة وان الشعر منه ما ينال لفظه المسامح فتخطيء فيه ، وتوهم في معناه ، ونغلط في حقيقته ، ولا نلتفت الى كنهه ومفهومه ، فنحكم باستحسانه لما فيه من قمتة وجلية والفاظ تملأ السامع دون نظر الى معناه ، وهو غير جدير بالاستحسان ، كما انه لا ينبغي ان تعجل باستهجان الشعر واستقباحه اذا اشتمل على الفاظ مألوفة معتادة وكلمات مبتدلة مطروقة كثر استعمالها ودورانها على الألسنة ، حتى نتم النظر في معناه ، فكم من معنى طريف غريب في لفظ مبتدل مألوف ، فالمنى اذن هو الغاية المنشودة ، يقول ابن

(١٤٧) رسالة اعلام الكلام : ٢٧

(١٤٨) رسالة اعلام الكلام : ٢٧

(١٤٩) رسالة اعلام الكلام : ٢٧ - ٢٨

لمجرد قدمه ، وسبق الزم من بساحبه ، ولعلمهم كانوا مدفوعين فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم الشعر القديم وإبثاره واستحسانه الى انه كان موضع الاستشاد والاحتجاج به للغة ، فالشعر القديم حتى الرديء منه صالح الاحتجاج والاستشهاد به في اثبات اللغة وقواعدها وضوابطها وتفسير كتاب الله تعالى وسنة رسوله ، اما الشعر المحدث فغير صالح لشيء من ذلك ، فالاحتجاج به ساقط ولا يجوز الاستشهاد به ، وانما يؤتى به على سبيل التمثيل والاستثناس ، يقول ابن شرف منها الى خطأ هذه القضية ، وحاملا على انجباء الرواة وعلماء اللغة في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه ، ومغتندا بمقاييسهم ، ومحلرا من الوقت فيها : « وتحفظ من شئتين : أحدهما : ان يحكمك أجلاك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له ، والثاني : ان يحكمك أصفارك المعاصر المشهور على التهاون بما انتشدت له ، فان ذلك جور في الاحكام ، وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما او عليهما ، فهذا باب في اعتلايه استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة عنه انتعاب » (١٥١)

فهو ينبه في هذا النص الى خطأ هذه القضية قضية تفضيل القديم لمجرد قدمه وينظر الى الشعر بعين النصفة ، ويدعو الى التزام الحيطة في الحكم عليه ، وتوقيفه من حيث هو اثر فني دون نظر الى قائلته وزمنه ، ثم يقول : « وقد وصف تعالى في كتابه الصادق تشبث القلوب بسيرة القديم ، ونفارها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا لقولهم : « انا وجدنا آباءنا على أمة » وقال تعالى : « لن نجد الا ما وجدنا عليه آباءنا » ... فلا يترك ان تجري على منهاج الحق في جميع الخلق ، فيه قامت

شرف في هذه القضية قضية اللفظ والمعنى يتفق مع ابن رشيق الذي يقف منها ايضا موقفا وسطا لا يفضل أحدهما على الآخر ، ولا يفصل بينهما ، بل يشبههما أيضا بالروح والجسد الا ان ابن رشيق بسط القول في هذه القضية ، وفصله في كتابه العدة : « اللفظ جسم ، وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فاذا سلم المعنى ، واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الاجسام من العرج والشلل والورم وما أشبه ذلك من غير ان تذهب الروح ، وكذلك ان ضعف المعنى واختل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظا كالذي يعرض للاجسام من المرض بمرض بعض الأرواح ، ولا تجد معنى يختل الا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من الوان ادواء الجسوم والأرواح ، فان اختل المعنى كله فسد بقى اللفظ موانا لا فائدة فيه ، وان كان حسن الطلاوة في السمع كما ان البيت لم ينقص من شخصه في رأى العين الا انه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة ، وكذلك ان اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصبح له معنى لانا لا نجد روحا في غير الجسم البتة » (١٥٠) فابن رشيق في هذا النص يشير الى الارتباط الوثيق والتلاحم التام بين اللفظ والمعنى ، وتلازمهما وتلاجهما ، فاللفظ جسم روحه المعنى ، ومن هنا كان ما يوصف به أحدهما يعد وصفا للآخر ، وما يعترى أحدهما من ضعف او بطاؤه عليه من اختلال ينعكس على الآخر .

ثم يتحدث ابن شرف عن طبقات الشعراء القدامى والمحدثين ، ويحمل حملة عنيفة على مقاييس علماء اللغة والرواة فيما ذهبوا اليه من تفضيلهم القديم واستحسانه لا لشيء الا

السموات والأرض ، وبه أحكم الإبرام
والنقض » . (١٥٢)

**ثم طفق ينعى على بعض الشعراء القدامى
كثيراً من الهنات** ، وأخذ يعدد عليهم طائفة من
السقطات ، وما وقعوا فيه من أخطاء وأغلاط
وتعقيبهم مشهوراً بهم ، ومجرحاً إياهم بادئاً
بنقد امرئ القيس أقدم الشعراء عصرًا ،
ومقدمهم شعراً وذكرًا وتعداد سقطاته وأخطائه
وسرد عيوبه وهناته ، وما أخذ عليه مع اتساع
الاقوال في فضله اتساعاً لم يحظ به غيره ،
حتى إن عامة الأدياء والنقاد يظنون بل يوقنون
أن جواد شعره لا يكتبو ، وأن حسام نظمه
لا ينبو ، وهبات من البشر الكمال ، ومن
الآدميين الاستواء والاعتدال ، ثم أخذ ينقده
ويعدد عليه سقطاته وأخطائه في معلقته أعظم
ما أثر لنا منه من شعر حيث يحدثنا عن هذه
العيوب وتلك الهنات في هذه المعلقة بقوله :
« يقول في قصيدته المقدمة ومعلقته المخمسة :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة

فقال لك الويلات إنك مرجسلى

كما كان اغتاه عن الإقرار بهذا ، وما
أشد فغلتكما أدركه من الوصمة به » (١٥٣)
وعدد ما ترتب على فعلته هذه من العيوب
والهنات والسقطات والمآخذ ، فيقول : « وذلك
أن فيه أعداداً كثيرة من النقص والبخس منها :
دخوله متطفلاً على من كره دخوله عليه ، ومنها
قول عنيزة له : « لك الويلات » ومن قوله
لا تقال إلا للخبس ، ولا يتقابل بها لرئيس ..
وهكذا يعضد بعض سرد عيوبه وسقطاته وهناته
إلى قوله :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع

فألهيتها من ذى تمايم محسول

فينقده بقوله : « وأنا المعروف للعاشق
الانفراد بمعشوقه ، وإطراح سواء كالتقيسين
في ليلى ولبنى ، وغيلان بعية وجميل وبثينة
وسواهم كثير ، فلم يكن لها عاشقاً بل
فاسقاً » (١٥٤)

ويعضى في نقده على هذا النحو ، ثم يحره
ذلك أو يسوقه إلى ذكر إبيات ثلاثة من قصيدة
له أخرى غير المعلقة وهى :

سعوت إليها بعد ما نام أهلها

سمو حباب الماء حلالاً على حال

فقال : لحاك الله إنك فاضحى

الست ترى السعار والناس أحوالى

حلفت لها بالله حلقة فاجر

لنأمو فما أن من حديث ولا صال

ونقد هذه الأبيات ، وعدد ما فيها من عيوب
وهنات وسقطات بقوله : « فأخبرها هنا
أنه حين القدر عند النساء وعند نفسه ويرضاه
قولها : « لحاك الله » فحصل على « لك الويلات
من تلك ، وعلى « لحاك الله » من هذه ، فشهد
على نفسه أنه مكروه مطرود غير مرغوب في
مواصلته ، ولا محروس على معاشرته ، ولا
مرضى بمشاكلته ، ثم أخبر عن نفسه أنه يرضى
بالحنث والفجور ، وهذه أخلاق لا خللاق
لها » (١٥٥)

ثم يأخذ على امرئ القيس أنه أقر واعتزف
بما يكتمه الأحرار حيث يقول : (ثم أقر في
مكان آخر من شعره بما يكتمه الأحرار ، ولا
ينم بقبحه إلا الأوضاع الإشرار ، فقال :

ولما دنوت تسديتها

فثوب نسيت وثوب أجر

(١٥٢) رسالة اعلام الكلام : ٢٨

(١٥٣) رسالة اعلام الكلام : ٢٨ - ٢٩

(١٥٤) رسالة اعلام الكلام : ٢٩

(١٥٥) رسالة اعلام الكلام : ٢٠

مؤسس الأساس ، وبنائه عليه الناس ، فإذا كان قد سما أسلوبه ، وعلا في أمور عديدة ومواضع كثيرة فقد انحط وتسفل في سلوكه ونهجه في أخرى ، فيقول : « ولست نذكر هذه العيوب ونزارتها وما أقرنا له به من الفضائل ونذارها » (١٥٨)

ثم يعرض لحال المتعصبين للقديم الجسود قدمه وسبق الزمن بصاحبه ويرى أنهم غفل سذج ، وأنه من الأولى بهم ألا يتعرض لهم ، وأن يتركهم وشأنهم يتخبطون في عمايتهم وضلالتهم وجهلهم فيقول : « وسنجد ناصرا لا يصدق معاصرا ولا يفضل على متقدم عصر متأخرا يبني على شعبه اسمه ، ويفديه من الجهل والعيوب بنفسه فإذا اعترضك من هذا النمط معترض فاعرض عنه ، ودعه على أخلاقه واتبع المنهج الذي أوصحته لك (١٥٩) ثم يذكر أن فضلاء الشعراء كثيرون جدا إلا أنه قلما يسلم واحد منهم من هتات وعيوب وسقطات وأخطاء ، فلكل منهم سقطاته وعيوبه ، ثم يرى أن يجتزئ بالعرض لبعض هذه العيوب ، إذ ليس في وسعه أن يحيط بها وأن يأتي عليها مستهدفا من وراء ذلك إيضاح منهج من مناهج النقد ، والتدريب عليه لا حرصا على انتقاص الفصحاء ، ولا رغبة في غمط حقوقهم والتبيل منهم ، وليس الغرض التنبيد بالأبداء دون عرض المحاسن والفضائل وبيان نواحي التمكن فمنهجه مبنى على القصد والاعتدال يقول : « وفضلاء الشعراء كثير جدا ، ولكل سقطات ، وسافك على بعضها لعظيم المؤونة في الإحاطة بها ليس إلا لأوضح لك بذكرها منهجا من مناهج النقد ، لا حرصا على نقص الفصحاء ، ولا قصدا إلى تهميج الصرحاء ، وإية رغبة لنا في ذلك وهم جرونة

وأي فجر في الإقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حبه ، وإين هذا من قول يعقوب الخريمي :

ولا أسأل الولدان عن وجه جارتي

بعيدا ولا أرماء وهو قريب (١٥٦)

ثم يعالج ابن شرف اعتراف امرئ القيس بهذه التندبات واغفراره بما كان ياتيه من فحش وفجور بأنه كان مبيضا للنساء مفروكا من حلالته واتواجه لأسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فخرمه ، ومنع منه فعلا ادعاه كذبا وزورا . شأنه شأن غيره من الشعراء ممن كانوا مبغضين للنساء كالفرزدق مثلا فيقول : « وإنما سهل عليه كل هذا حرصه على ما كان ممنوعا منه ، وذلك أنه كان مبيضا للنساء جدا ، ومفروكا ممن ملك عصمتها لأسباب كثيرة ذكرت ، وكل من حرص على نيل شيء فمنع منه فعلا ادعاه قولا ، وله أشباه فيما أتاه يدعون ما ادعاه اتكا وزورا وكذبا وفجورا ، ومنهم الفرزدق » (١٥٧)

وهكذا يمضي ابن شرف في نفسه لأمريء القيس ذلك الشاعر الذي ساد الاعتقاد فيه عند العامة وبعض الخاصة أنه لا ينتقد ، وكان نقده في موضعه شئني عليه عيوبه ، وما أتاه من فحش وفجور وتعيير ، وعدد عليه هتاته وسقطاته .

ثم ختم حديثه عن امرئ القيس بأن قرر أن هذه العيوب والمآخذ وتلك السقطات والهتات والاستدراكات نزرة قليلة بالنظر لما أقر له به من الفضائل الأدبية التي تفرد بها ، وسبق إليها ، وبالقياص إلى محاسنه ومزاياه التي خصها بحديث سابق ، ونوه بها ، وأنه

٢٠ (١٥٦) رسالة اعلام الكلام :

٢٠ (١٥٧) رسالة اعلام الكلام :

٢٣ (١٥٨) رسالة اعلام الكلام :

٢٢ (١٥٩) رسالة اعلام الكلام :

فروضا ، وبهم افتخارنا جميعنا » (١٦٠) ومثل ذلك بزهير بن أبي سلمى ، وحمل عليه ، وأورد جملة من سقطاته وطائفة من هسانته وغيوبه في معلقته مع اشتراطه برفعة مكانته في الشعر وسمو منزلته فيه ، فيقول : « قال زهير على ما وصفناه به ، ووصفه غيرنا من العلو والرفعة في هذه الصنعة من مذهبته الحكيمية ومعلقته العلمية :

رأيت المنايا خيط عشواء من تصب

تمته ومن تخطىء يعمر فيهم

وقد غلط في وصفها بخيط العشواء على أننا لا نطالبه بحكم ديننا ، لأنه لم يكن على شرعنا ، بل نطلبه يحكم العقل فنقول : « إنما يصح قوله لو كان بعض الناس يموت وبعضهم ينجو ، وقد علم هو ، وعلم العالم حتى اليهائم أن سهام المنايا لا تخطىء شيئا من الحيوان حتى يعمها رشقها ، فكيف يوصف بخيط العشواء ... (١٦١) فهو لا يعيب على زهير هذا البيت ، ولا يأخذ عليه ما فيه من مخالفة لعقيدتنا وخروج على ديانتنا ، لما كان عليه من جاهلية ، فهو غير مطالب بحكم ديننا وشريعتنا ، لأنه لم يكن على شريعتنا ولم يكن يدين بديننا فلا تريب عليه من هذه الناحية ، وإنما عاب عليه أنه عارض العقل وخالف المنطق فيما راه ، وذهب إليه من أن المنايا خيط عشواء ، فزأبه في هذه القضية قائل ومذهبه باطل ، ثم عاب عليه بيتا آخر ورد في معلقته هو :

ومن لم يلد عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم لناس يظلم

بأنه أسرف وتجاوز حدود الحق والعدل ، وقد كانت له مندوحة عن ذلك فيقول في تعليقه على هذا البيت : « وقد تجاوز في هذا الحق الباطل وبني قولا ينقضه جريان العادة وشهادة المشاهدة ، وذلك أن الظلم وعرة مراكيبه ، مدمومة عواقبه في جاهليته واسلامنا ، فحرص في شعره عليه » (١٦٢)

وهكذا مضى ابن شرف في نقد زهير ، وعاب عليه أبياتا أخرى في فصول أخرى له غير المعلقة ، وبعد أن عرض لطائفة من هسانته ، وغيوبه ختم حديثه عنه بأن له سقطات وهنات أخرى غير ما سردناها وعددها ، وأنه أولا المشقة والكلفة لآتي عليها وعرض لها مع ما عرف عنه واشتهر به من أنه امدح الشعراء وأجزلهم ، ثم ذكر أن التعصب له من الأمور المستحيحة التي لا تحسن بالنافذ المنصف ، اذ أن النقد الموجه له لا يقطع حقه ، ولا ينال منه ، ثم ذكر أن ماجاء في شعره من هنات وسقطات لا يخل بما عرف عنه من حكمه الأخرى الرائعة وحسن أسلوبه ورقته وما افر لنا عنه من أقوال مستحسنة ومبشرات مليحة وإن المستحسن لا ينكر ، والبيع لا يهمل فيقول : « ولزهير غير هذا من السقطات أولا كلفة الاستقصاء هذا على اشتهاره بأنه امدح الشعراء ، وأجزل الوافدين على الأشراف والأمراء ، ويتعمى التعصب له عن وضوح هذا البيان ، وسينكر جميع هذا البرهان ، ويجعل التفتيش عن غوامض الخطأ والصواب استقصاء وظلما ومطالبة وهضا ، ويكرم أن جميع الشعر لو طلب هذه المطالبة لبطل صحيحه ، وانعم فصيح ، والباطل الذي زعم ، والمحال الذي به تكلم ، فالسليم سليم والكليم كليم ، وإنما سمع المسكين أن امدح الشعر ما قلت عبارته ، وفهمت اشارته

(١٦٠) رسالة اعلام الكلام : ٢٢

(١٦١) رسالة اعلام الكلام : ٢٢ - ٢٤

(١٦٢) رسالة اعلام الكلام : ٢٢

ويظهر من حديثه عن قدامى الشعراء واشعارهم ، وعن الشعراء المحدثين وانتاجهم ، وما جادت به قرائهم ، وموازنته بين الفريقين القدامى والمحدثين ان ضلعه كان مع المحدثين وميله اليهم وهواء معهم وتمصيه لهم ، كما يبدو لنا ذلك في ثنايا الرسالة .

ثم اخذ في سرد عيوب الشعر وتعدادها مبتدئاً باللحن اظهر عيوب الشعر ، اذ تضيّق عنه اللغة العربية ولا تتسع له ، وحفر من ارتكابه والوقوع فيه ، وان تحيل له بعض النحويين يشتي الحيل ، واعتذر له بمختلف الاعذار فيقول : « ومن عيوب الشعر اللحن الذي لا تسمعه نسخة العربية كقول جرير : »

واو ولدت لعنزة جرو كلب
لسب بذلك الجسرو الكلابا

فنصب الكلاب بغير ناصب ، وقد تحيل له بعض النحويين بكلام كالضرب لا يسمن ولا يفتن من جوع ، وكقول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع
من المال الا مسحتا او مجلف

فرفع مجلفاً وحقه النصب . وقد تحيل بعض النحويين ايضاً للفرزدق على وجه الاقواء احسن منه ، فاحذر مثله ، واياك وما يعتذر منه بفسيح من العذر فكيف بضيق « (١٦٦) »

ثم عد من عيوب الشعر ايضاً خشونة حروف الكلمة كلفظة « يوزع » التي وردت في بيت من قصيدة لجرير تعد من عيون شعره واحسن قصائده واجزاها وافصحها ثقُلّت

ولمحت لحه ، ولمحت ملح ، ورققت حقائقه ، وحققت رقائقه ، واستغنى فيه باللمحة الدالة عن الدلائل المتطاولة ، وامثال هذا الكلام في استعمال لطائف النظام ، فتوهم ان خلل الشعر زلله وضعف اركانه ، وتناقض بنيانه وانقلاب لفظه لفوا ، وانعكاس مدحه هجوا داخل فيما فدمنا من الاوصاف المستحسنة ومن لمح اشاراته وملح عباراته « (١٦٧) »

ثم يقرر بعد ذلك ان فيما ذكره واورده من شعر هذين الشاعرين الفحلين المتقدمين القديمين ما يغنى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، ويجزىء عن تسقط عشرات غيرهما ومن عداهما والبحث عنها فليقتس عليها ما لم يقله ، فقد اوضح امرنا عظيماً يتصل بسلوك الشاعر ومنهجه ونفسيته وأنه تناول شعره وتقدم من ناحية اتصاله بالمجتمع وتعلقه به ، فيقول : « وفيما اطلعتك عليه من شعري هذين الفحلين والمتقدمين القديمين ما يغنى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، فقتس على ما لم تره بما ترى ، واهلم ان كل الصيد في جوف الفرا ... » (١٦٨) »

وتراه يتعصب للمعنى ، وينتصر له ، فيقول : « وما ابو الطيب المتنبي فقد شغلت به الألسن وسهرت في اشعاره الأعين ، وكثر الناسخ لشعره والاخذ لذكره ، والفائس في بحره ، والغنى عن جماله ودره ، وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف ، وله شيعة تفلو في مدحه ، وعليه خوارج تنغايا في جرحه ، واللى أقول : ان له حسنات وسيئات ، وحسناته اكثر عدداً ، واوقى مدداً ، وغرائب طائفة وامثاله سائرة ، وعمله فسيح ، وميزه صحيح ، فيقدر ويبرى ما يورد ويصدر (١٦٩) »

(١٦٧) رسالة اعلام الكلام : ٣٦ - ٣٧

(١٦٨) رسالة اعلام الكلام : ٣٧

(١٦٩) رسالة اعلام الكلام : ٣٥

(١٧٠) رسالة اعلام الكلام : ٣٧ - ٣٨

القصيدة ، واستبدت بهذه اللفظة التي لا تكاد تجد لها نظيراً في شعر جرير كله وذكر أن الفرزدق قد كثرت في شعره ألفاظ كثيرة خشنة يقول ابن شرف : « وما يعاب به الشعر ، ويستعجه النقد خشونة حروف الكلمة تقول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا

هـلا هزأت بفسيرنا يا بوزع

وهذا البيت في قصيدة من أحلى قصائد جرير وأملحها وأجزلها وأفصحها : فتعلقت القصيدة كلها بهذه اللفظة ، والفرزدق لفظات كثيرة خشنة الحروف تجدها أن استقصيتها ونفشتها على لفظة جرير هذه ، ولا تكاد ترى اختارها في شعره » (١٦٧)

ثم عد من عيوب الشعر أيضاً التعقيد اللفظي وتقديم آخر الكلام وتأخير أوله ، وذكر أنه مما يكرهه النقاد ، ولا يستسيغونه ، وإنما لا تكاد نرى هذا العيب في شعر جرير ويمثل له بيت الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا

أبو أمه حتى أبوه يضاربه

ويعلق عليه بقوله : « وهذا غاية التعقيد والتشديد ، وليس تحته سوى أنه شريف كإبن أخته ، ولا تكاد ترى في شعر جرير شيئاً من هذا » (١٦٨)

ثم ذكر أن من عيوب الشعر أيضاً الكسر وهو وصف شامل لكل عيوب الشعر ، وعده من أشد عيوب الشعر ، وأنه لا يمكن ارتكابه وألوقوع فيه ، إذ أنه إذا وقع في الشعر أخرجه عن اسمه فلا يسمى الشعر الذي وقع فيه

هذا العيب حينئذ شعراً ، وليس هذا العيب مما يقع لمن وصف بالشعر وعد شاعراً من الشعراء وسلك في عدادهم ، أما سائر عيوب الشعر المتصلة بالوزن أو القافية أو الضرويات الشعرية كالاقواء والإبطاء والسناد والاكتفاء والزخاف وصرف ما لا ينصرف ، فكل هذه العيوب محتملة ويمكن للشاعر ارتكابها ، والوقوع فيها واستعمالها ولا يخرج الشعر معها عن كونه شعراً إلا أن السلامة من هذه العيوب وتجنبها وعدم الوقوع فيها وارتكابها أفضل وأجمل ، فيقول : « ومن عيوب الشعر كلها الكسر ، لأنه يخرج عن نعتة شعراً ، وليس مما يقع لمن نعت شاعراً ، فاما الإقواء والإبطاء والسناد والاكتفاء والزخاف وصرف ما لا ينصرف فكل ذلك يستعمل إلا أن السالم من جميع ذلك أفضل وأجمل » (١٦٩) ثم عد من عيوب الشعر المذمومة مجاورة الكلمة ما لا يناسبها ولا يقاربها مثل مجاورة كلمة « الدل » لكلمة « الشنب » واقترباها بها في قول الكميت :

حور تكامل فيها الدل والشنب

وكقول بعض المتأخرين في مرثية له :

فأناك غيبت في حفرة

تراكم فيها نعيم وحور

وان كان النعيم والحور من مواهب أهل الجنة فليس بينهما في النفوس تقارب ولا لفظة تراكم مما تجمع بين الحور والنعيم ، وكقول بعض المتأخرين :

والله لولا أن يتسال تفسيرا

وصبا وإن كان التصابي أجدا

لأعاد تفاح الخلدود بنفسجا

لثما وكافور التراب عتبرا

ومثل قول ديك الجن :

كانه وكأنها حلال الخلعة

وقف الحلول اذ بغمها

وجه العيب في افتتاحي ابن تمام وديك الجن
انهما ابتدآ قصيدتهما بضمائر لم يسبقها اسم
ظاهر تعود عليه .

كما عاب أيضا الافتتاحات التي يطير بها ،
ويتشاهم منها ، والكلام المضاد للفرض المطلوب
ويضرب مثلا لذلك بابتداء قصيدة ابن نواس
التي اتسدها جعفر بن يحيى البرمكي بعنقه
بينائه دارا جديدة ، فدخل عليه عند كمالها
وقد جلس للهناء والدعاء ، وعنده وجوه الناس
فابتداء فانشد قصيدة مطلعها :

اربع البلى ان الخشوع لبادي

عليك واتى لم اخشك ودادي

فنكس جعفر راسه ، وتناظر الناس بعضهم
الى بعض ثم تبادى ، فختم الشعر بقوله :

سلام على الدنيا اذا ما تقدمت

بني برمك من رالحين وغداي

تكمل جهله: وتم خطاه، وزاد القلوب التوقعه
للخطوب سرعة توقع ، وأضاف للنفوس
التوجهة بذكر الموت شدة توجع ، وأراد أن
يبدع فهجا ، ودخل ان يسر فشجى « (١٧٢)

ثم يفر ب مثلا آخر لهذا العيب بما وقع
للمنتهي في أول شعر اتسده كافورا الاخشيدي
وهو :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا

وحسب المنايا ان يكن امانيا

فاجاد الوصف واحسن الرصف لكون الورد
من قبيل البنفسج ، وهكذا نجد ابن شرف
قد بسط القول ، وافاض في الحديث عن
العيب الذي سماه « مجاورة الكلمة ما لا
يناسبها » (١٧٠) وهذا العيب من عيوب
الشعر المذمومة .

ثم ذكر ان لفضل الشعراء المولدين سقطات
وهذه **مختلفات في اشعارهم** ، ووعده بأنه

سيذكر اطرافا منها لا رغبة في طلب الزلات
وتلمسها ولا شهوة في اقتفاء العثرات
واستقصائها وتتبها ، وإنما لنستدل بها على
اغراضنا ونقف منها على منهجنا ، ويضرب
مثلا لذلك بشار فقد كانت طبقات شعره
تتفاوت وتباین ، فيسوء ويرتفع كثيرها ،
وينحط ويسفل قليلها ، وكذلك شعر ابى
تمام حتى بلغ من تفاوت طبقات شعر هذين
الشاعرين وتباينهما الى هذا الحد أنك لو
سمعت جيدها لا تكرت ان رديتهما لهما ،
ولو صغ عندك وثبت ان هذا الرديء لهما
لا تكرت جيدهما ، ونفيتها عنهما ، واقسمت
انه ايس لهما ، وأما هو لغيرهما فيقول :
« والفضل المولدين سقطات مختلفات في
اشعارهم ، اذا ترك منها في اشياء لتستدل بها
على اغراضك ، ولا لطلب الزلات ولا لاقتفاء
العثرات ، كان بشار تباين طبقات شعره
فصعد كثيرها ، وبهبط قليلها كثيرا ، وكذلك
كان حبيب الطائي فاذا سمعت جيدها كلبت
ان رديها لهما ، واذا صغ عندك ان ذلك الردي
لهما اقسمت ان جيدها لغيرهما » (١٧١)

ثم عد من عيوب الشعر الافتتاحات الثقيلة
والابتداءات المستبردة المجوجة وضرب لهذا
العيب امثلة كثيرة مثل قول ابى تمام :

هن عواذي يوسف وصواحيه

(١٧٠) تحدث ابن شرف عن هذا العيب في ص ٢٨ ، ص ٣٩ من رسالة اعلام الكلام .

(١٧١) رسالة اعلام الكلام : ٢٩

(١٧٢) رسالة اعلام الكلام : ٤٠

ووجه العيب في هذا المطلع انه خاطب كانوا بالكاف ، وهذا امر مستهجن ، وخاصة في اول لقائه له معه وفي ابتداء استجداء واستعطاف ... » (١٧٣)

ثم يضرب مثلاً آخر لتعجب مطلع القصيدة واستغثاها وقع لأحد الشعراء المعاصرين له، فيذكر أن بعض الشعراء اتشد بعض الأمراء في يوم المهرجان :

لا تقل بشري ولكن بشريان
غرة الداعي ووجه المهرجان

فامر الأمير باخراج الشاعر، واستطاريافتناحه وجرمه احسانه ، ثم علق على هذا المطلع المستقيم بأنه لو كان هذا الشاعر حاذقاً لكان اصلاح هذا الفساد أسر الاشياء عليه ، وذلك بأن يعكس البيت فيقول :

وجه من أهوى ووجه المهرجان
أي بشري هي لا بل بشريان (١٧٤)

ثم يذكر أن من عيوب القافية البالغة النافية في الاستهجان والاستعجاب أن تأتي بكلمة القافية معججة لا ترتبط بما قبلها من الكلام ، وإنما هي مفردة يحشو القافية بقول بعض الشعراء :

فبلغت المنى برغم أصاديك
وابشاك سالماً رب هود

يقول ابن شرف : « فانت ترى غثاثة هذه القافية ، والله تعالى رب جميع الخلق وكل شيء فخص هودا عليه السلام وحده لتضعف ثقته ، وعجز عن الايمان بقافية تليق وتحسن » (١٧٥)

ثم يذكر أن مما يقع في النسب الجفاء على العيب والنسوة عليه والتضجر بعده ، وأغلاظ العقاب على هجره وصدوده ، ويضرب مثلاً لذلك بقول أبي نواس في اول قصيدته المشهورة التي مدح بها الخصيب بن عبد الحميد عامل مصر :

اجارة بيتينا ابوك غيور
وميسور مايرجى لديك عسير

فان كنت لا خلا ولا انت زوجة
فلا برحت منا عليك ستور

وجاورت قوما لا تزاور بينهم
ولا قرب الا ان يكون نشور

يقول ابن شرف : « فلم اصعب بأوحش من هذا النسب ، ولا بأخشن من هذا التشبيب وذلك قوله ان لم تكوني لي زوجة ولا صديقة فلا برحت منا ستور التراب عليك ، ولا كان جارلكما عشنا نحن الا الموتى الذين لا يتأودون ولا يتواصلون الى يوم النشور مع ان كلامه يشهد عليه بأنه شاك ، وإنما المعروف في اهل الرقة والظرف ، والمعمود من اهل الوفاء والعطف ان ينفذوا احبابهم بالنفوس من كل مكروه ويوس ، فاین ذهبت ولادته البصرية وآدابه البغدادية حتى اختار الفدر على الوفاء وبلشت به طباعه الى اجفى الجفاء » (١٧٦)

ثم عرض للسرقات الشعرية ، وعدّها من عيوب الشعراء ، وذكر أن أنواعها كثيرة وأقسامها متعددة ، فمنها سرقة اللفاظ ، ومنها سرقة معان ، وبين أن سرقة المعاني أكثر من سرقة الالفاظ لأنها أخفى ، وسرقة المعاني متعددة : فمنها سرقة المعنى كله ، ومنها سرقة

(١٧٣) رسالة اعلام الكلام : ٤٠ .

(١٧٤) رسالة اعلام الكلام : ٤١

(١٧٥) رسالة اعلام الكلام : ٤١

(١٧٦) رسالة اعلام الكلام : ٤١ - ٤٢

ثم ختم الرسالة بالحديث عن أحسن الشعر وأجوده ، فقال : « فأمّا نقد المستحسن فتتمثّله لك بعظم ويتسع لكثرة فلا يسعنا إيراد ، وكفى ما سلم في جميع ما أوردناه فهو في حيز السالم ، ثم تتسع طبقات الجودة فيه ، وأحسن الحسن منه ما اعتدل منبه ، وأغرب معناه ، وزاد من محمودات الشعر على سواء ثم يمدح الأدون فالأدون بمقدار انحطاطه إلى حيز السلامة ، ثم لا مدح ولا كرامة » (١٧٨)

ثم بدأ لابن شرف أن يسأل أبا الريان السؤال الأخير بعد أن طوف معه كل هذا التطواف ، فسأله عن مذهبه في انتقاء الأشعار واستنفس من منهجه وطريقته في اختيارها ، وعزم عليه أن يخبره عما سأله عنه ، واقترح عليه أن ينشده ولا يعلل من مستحسن الأشعار وأجودها ، وأن يعلل عليه ولا يعلل من منتقاهها ومتخيرها ، ومنتخبها ، فأجابهُ أبو الريان إلى طلبه ، وحقق رجاءه ومبتغاه . وهكذا نجد ابن شرف يختم رسالته بإيراد بعض أمثلة من أجود الأشعار ومنتخبها ومتخيرها في شتى الموضوعات وفي مختلف الأغراض ، فابتدأ بإيراد طائفة منها في الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لأمثلة أخرى من منتخب شعر الفول ، ثم اتبع ذلك بإيراد مختارات من المراثي مبتدئاً بمراثية قتيلة بنت النضر بن الحارث في أخيها النضر بن الحارث وقد قتلته الرسول صلى الله عليه وسلم صبوا ، وتعد هذه المراثية من أحسن المراثي وأقصعها وأوجعها وأقربها ، ثم عرض لمنتخبات من أشهر المدائح وبذلك تنتهي هذه الرسالة .

هذه هي رسالة أعلام الكلام لابن شرف التي تمثل آراءه النقدية ، ومن حديثنا عنها ، وعرضنا لأرائه فيها يتبين لنا أن آراءه النقدية قد عرض لها كثير من النقاد السابقين عليه والمعاصرين له كالحافظ وابن قتيبة وابن رشيق

البعض ، ثم ذكر أن أحسن السراقات السرقه باختصار في اللفظ وزيادة في المعنى ، وأن أفتح السراقات هي السرقه بزيادة الفاظ مع قصور من المعنى ، وهناك سرقه محضه بلا زيادة ولا نقص ، والفضل في مثل هذه السرقه راجع للعسوق منه ، ولا شيء للسارق ، ومثل لها بسرقه ابن نواس معنى بيت أبي الشيبان بنماه وهو :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
متأخر عنه ولا متقدم

فسرق أبو نواس معنى هذا البيت بكماله فقال :

فما حازه جود ولا حل دونه
ولكن يسير الجود حيث يسير

يقول ابن شرف : « فسلما على أن بيت أبي الشيبان أحلى وأطبع ، ومع حالوته جزالة وقد ذكر من الحسن أنه قال : ما زلت أحسد أبا الشيبان على هذا البيت حتى أخذته منه ، وسرقه المعاصر قصور همة » (١٧٧)

ثم ختم حديثه عن عيوب الشعر بالحديث عن الإخلال بالتناسب في المعنى والأبيات ، أو تعقيد الكلام ومثل له بقول المتنبي :

« كفى بك داء أن ترى الموت شافيا »

وهذه العيوب التي عرض لها ابن شرف أوسمها علماء البلاغة والبيان بحثا ودراسة ، وأفاضوا في الحديث عنها ، فالأخطاء اللغوية معيبة يؤاخذ عليها الشاعر واللحن ينتقص من قدرة الشاعر ، ويغض من شأنه ، والخلل اللفظي في المفردات وفي التراكييب معيب على الشاعر ، ويستوجب توجيه النقد إليه .

كتابه تثبت القلوب بسيرة القديم وتفاوها عن المحدث الجديد ، فقال حاكيا قولهم : « أنا وجدنا آباءنا على أمة » فلا يرك أن تجرى على منهج الحق في جميع الخلق ، فيه قامت السموات والأرض ، وبه احكم الابرام والنقش (١٧٩) وابن شرف لم يأت بجديد في هذه القضية ، ولم يعد أن يكون مرددا لكلامهم . فمعاصره ابن رشيقي أدلى بدلوه في هذه القضية وتكلم فيها بأسلوب أوضح من أسلوب ابن شرف ، وعالجها على نحو أكمل وأولى مما عالجها به صاحبنا ، فهو مثلا يستهل الباب الذي عقده في العمدة بعنوان « باب في القدماء والمحدثين بالجملة على القياس البالية التي اصطنعها الرواة واللغويون في تفضيلهم القديم لمجرد قدمه وسبق الزمن بصاحبه ، وبين أن القدم والحداثة امران نسبيين ، فيقول : « كل قديم من الشعراء فهو محدث في زمانه بالإضافة الى آخر : « وانما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدا هذا ببناء فاحكمه واقفه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن » (١٨١) كما نجد لابن قتيبة السابق عليهما في هذه القضية رأيا أكثر دقة ووجاهة وصوابا من رأييهما ، فقد بسط القول في هذه القضية وفصله ، وأفاض فيه حيث يقول : « ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة تقدمه ، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل للغريقين ، وأعطيت كلا حظا ، ووفرت عليه حقه ، وأنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده إلا أنه قيل في زمانه ،

وإن ابن شرف لم يأت بجديد في هذه القضايا النقدية التي عرض لها كما ينبغي لنسا من آرائه النقدية في هذه الرسالة أنه بالرغم من الجهد الذي بذله في اصدار احكام صحيحة على الشعراء وبيان منازلهم وتقويم ادبهم ، فإن هذا الجهد قد ضاع في خضم التعابير اللغوية المتخيرة ، وغاب في أمواج الافراط المتقاة ، كما نلاحظ أنه يعمل التدقيق في الإنكار التي يبني عليها احكامه كما فعل قريعه ومنافسه ابن رشيقي في كتابه « العمدة » ومن ثم جاءت احكامه عامة خالية من التحليل والتدقيق ضالما ما فيها من صواب محدود في خضم السجع الزكيك وجواشي الافراط وغريبها ، وغالبا ما اشتملت عليه من افكار في أسلوب المقامات التي التزمه في هذه الرسالة ذلك الأسلوب المعنى بتزيين الالفاظ ، وتزويق العبارات والحاصل بالمحسنات البيديعية والصناعة اللفظية ، حتى أنه لا وجه للمقارنة والموازنة بين احكام ابن شرف وآراء ابن رشيقي التي بلغت درجة الكمال إذ يوجد بون شاسع بينهما ، فابن شرف ، فضلا عن أسلوبه الساذج هو دون أسلوب ابن رشيقي في كتابه « العمدة : » ، لم يبلغ منزلة ابن رشيقي في النقد الأدبي ، ولنتجزيء بعرض آرائهما في قضية القديم والمحدث ، فابن شرف يقول : (وتحفظ من شئئين : احدهما أن يحملك اصفاك المعاصر المشهور على التهاون بما انتشدت له ، فإن ذلك جور في الاحكام وظلم من الحكام : حتى تمحص قوليهما فحينئذ تحكم لهما أو عليهما ، فهذا باب في اعتلاقه استصعاب ، وفي صرف العامة وبعض الخاصة منه اعتاب ، وقد وصف تعالى في

كما يتضح لنا كيف تناول ابن شرف في رسالته « أعلام الكلام » الشعر والشعراء ومنزلهم في جاهليتهم وإسلامهم ومذاهبهم قديمهم وحديثهم ، وكيف كانت الأشعار قبل امرئ القيس سواذج حتى جدد فيها ، ووضع الأساس الذي بنى عليه الناس ، وكيف أقام الصوى والأعلام التي اهتدى بها كل من جاء بعده ، فقد كانوا يقولون : « أسيلة الخد » حتى قال امرؤ القيس : « أسيلة مجرى الدمع » وكانوا يقولون : « تامة القامة وطويلة القامة وأشباه هذا حتى قال امرؤ القيس : « بعيدة مهوى القنوط » وأشباه هذا من الاستعارات والاشارات التي لم يفتن لها من قبله ، وتأسى بها وبنى عليها من أتى بعده ، فحسنت بها أشعارهم ، وكيف أخذ يتناول كل شاعر على حدة ، ويعرض لأخباره المشهورة وسماته ومميزاته الخاصة به ، وكيف مضى في إبداء رأيه على هذا النحو في مشاهير شعراء المشرق ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مشاهير الشعراء المغاربة والأندلسيين يعرض لهم ، ويبدى رأيه فيهم دون التقيد بمنهج نقدي شامل ودون تحليل أو تعليل ، وكيف عرض بعد ذلك لطائفة من عيوب الشعر ، وكيف اختتم رسالته بإيراد نماذج وعرض أمثلة من أجود الأشعار ومتخيرها في شتى الموضوعات ومختلف الإغراض مبتدئاً بعرض أبيات من شعر الحكمة وما جرى مجرى المثل ، ثم عرض لأمثلة أخرى متخيرة من شعر الفحول ، ثم أورد منتخبات من المراثي مبتدئاً بمروية قتيلة بنت الحارث في أخيها التمر بين الحارث أحسن المراثي واقصصاً وأوجعها ثم عرض ذلك لمنتخبات تعجب من أشعر المذائع .

هذه هي طريقة ابن شرف في النقد الأدبي ، وهي كما رأينا لا تتقيد بمنهج نقدي يقوم على الاستقصاء والاستقراء والتحليل والتعليل

أو أنه رأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والإبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم « (١٨٢) كما يقول بعد ذلك : « فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وإثنيته به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الرديء إذا ورد علينا للمقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » (١٨٣) ويردد ابن قتيبة رأيه هذا في القديم والمحدث مرة أخرى في مقدمة كتاب « عيون الأخبار » حيث يقول : « وكذلك مذهبننا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين إذا كان متخير اللفظ لطيف المعنى لم يور به عندنا تأخر قائله ، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه ، فكل قديم حديث في عصره ، وكل شرف فاوله خارجية ، ومن شأن عوام الناس رفع المعلوم ووضع الموجد ورفض المبدول وحسب المتنوع وتعظيم المتقدم وغبغان زلته وبخس المتأخر والتعنى عليه ، والعاقل من ينظر بعين العدل لا يعين الرضا ، ويوزن الأمور بالتسسطاس المستقيم » (١٨٤) ومن أقوال ابن قتيبة التي عرضنا لها في قضية القديم والحديث نجد أن رأيه في هذه القضية كان أكثر دقة وسوابا ووجاهة من رأى ابن شرف وابن رشيق .

وهكذا يتضح لنا اتجاه ابن شرف في النقد الأدبي وطريقته في تناول القدامى والمحدثين والموازنة والمقارنة بينهم وقضية القديم والحديث حظيت باهتمام كبير من النقاد العرب ، وكانت التسفل الشاغل للأوساط الأدبية في المشرق والمغرب على السواء وفي جميع العصور ومختلف البيئات ، وقد بينا موقف معاصره ابن رشيق منها ، وموقف ابن قتيبة السابق عليهما من هذه القضية أيضا .

١٨٢) مقدمة الشعر والشعراء : ٦ - ٧

١٨٣) مقدمة الشعر والشعراء : ٧

١٨٤) مقدمة عيون الأخبار : ٧

والندقيق وإنما تتناول طائفة من الأخبار النقدية
والتأثيرات متفرقة هنا وهناك ، وتبدى آراء
جزئية في هذا الشاغل أو ذاك ، وتصدر أحكاما
عامة متناثرة في الأدب . يقول أحمد أمين :
« وظهرت في المغرب حركة جيدة في النقد
الادبي وردت أول الأمر نتفا في كتب الأدب
كقول عبد الكريم النعشلي : قد تختلف المقامات
والأزمنة والبلدان ، فيحسن في وقت ما لا
يحسن في آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما
لا يستحسن عند أهل غيره ومثل قول
ابراهيم الحصري : الشعر مطبوع ومصنوع ،
فالمطبوع الجيد الطبع مقبول في السمع قريب
المثال بعيد المثال أتبع الديباجة رقيق الزجاجة
.... ثم ارتقى هذا النقد حتى صار موضوعا
قائما بنفسه » (١٨٥) وتظل هذه الطريقة في
النقد الادبي سائدة في المغرب إلى أن يجيء ابن

رشيقي فيخصص في نقد الشعر عامة ، وينفرد
به ، ويولي عناية واهتماما ويشمله برعايته ،
ويأخذ بهذا الأمر أهيته ، وبعد له عدته ،
فيبوب البحث وينظم منهجه ، ويفرد لذلك
كتابه « العدة » الذي توج به حركة النقد
الادبي التي ظهرت في المغرب ، فقد نقل فيه
فن النقد الادبي كما يقول الأستاذ أحمد أمين :
« من نقد شاعر خاص أو شعراء معينين كما
فعل صاحب الموازنة والوساطة إلى نقد الشعر
عامة » (١٨٦) ويقول ابن خلدون : « وهو
الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واضعها
حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده
مثله » (١٨٧) ويقول فيه التفتلي : « وهو
أجل كتبه وأكبرها ، وأنه اشتمل على ما لم
يشتمل عليه تصنيف من نوعه ، وأحسن فيه
غاية الاحسان » (١٨٨) .



(١٨٥) شعر الإسلام : ١ - ٢٠٦ - ٢٠٧

(١٨٦) شعر الإسلام : ١ - ٢٠٧

(١٨٧) مقدمة ابن خلدون : ٥٤

(١٨٨) انباه الرواة : ١ - ٢٠٢

مراجع البحث

- ١ - الأعلام للزركلي ط ثانية سنة ١٩٥٥ م .
- ٢ - أعلام الكلام لابن شرف القيرواني ط مكتبة الخاتمية سنة ١٣٤٤ هـ .
- ٣ - أنباء الرواة على أنباء النحاة للقلبي تحقيق أبي الفضل ط دار الكتب ج ١ سنة ١٩٥٥ م . وج ٢ سنة ١٩٥٢ م .
- ٤ - بدائع البداه لعلی بن طاهر ط بولاق سنة ١٢٧٨ هـ .
- ٥ - بساط العقيق لحسن حسنى عبد الوهاب ط الطبعة التونسية سنة ١٣٣٢ هـ .
- ٦ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ط السعادة سنة ١٣٢٦ هـ .
- ٧ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى ط بيروت بدون تاريخ .
- ٨ - تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ترجمة عبد الحليم التجار ط دار المعارف سنة ١٩٥٩ م .
- ٩ - تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ط الحسينية المصرية سنة ١٣٢٦ هـ .
- ١٠ - حياة القيروان وموفق ابن رشيقي منها لعبد الرحمن باقلى ط بيروت سنة ١٩٦١ م .
- ١١ - الغريدة ، قسم شعراء المغرب للعماد الأسفهانى ط تونس سنة ١٩٦٦ م .
- ١٢ - ديوان ابن رشيقي جمع وتحقيق الدكتور عبد الرحمن باقلى ط بيروت .
- ١٣ - الأخيرة لابن بسام ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥ م .
- ١٤ - رسائل البلقاء اختيار وتصنيف محمد كرد علي ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ م .
- ١٥ - ابن رشيقي القيرواني للدكتور/عبد الرؤوف مغول، سلسلة أعلام العرب ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ١٦ - زهر الآداب للحمري تحقيق علي محمد الجاوي ط الحلبي سنة ١٩٥٢ م .
- ١٧ - الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق الشيخ أحمد شاكر ط الحلبي سنة ١٣٦٦ هـ .
- ١٨ - الصلة لابن بشكوال ط مكتب نشر الثقافة الإسلامية سنة ١٩٥٥ م .
- ١٩ - طهر الإسلام لأحمد أمين ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- ٢٠ - المعتمد لابن رشيقي القيرواني تحقيق مجيب الدين ط مصر سنة ١٩٢٤ م .
- ٢١ - عيون الأخبار لابن قتيبة ط دار الكتب سنة ١٩٢٥ م .
- ٢٢ - الفيتح المسجى في شرح لامية المعجم للسفدى ط الوطنية بالإسكندرية سنة ١٢٩٠ هـ .
- ٢٣ - فوات الوفيات لابن شاكر الكتيبي تحقيق مجيب الدين ط النهضة سنة ١٩٥١ م .
- ٢٤ - فرائد الذهب في نقد أشعار العرب لابن رشيقي تحقيق الشاذلي بو يحيى ط الطبعة الرسيفية بتونس سنة ١٩٧٢ م .
- ٢٥ - الكامل لابن الأثير ط مصر سنة ١٢٩٠ هـ .

- ٢٦ - كشف الفنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ط استنبول سنة ١٢١٠ هـ .
- ٢٧ - مجلة المكتبي المجلد السادس .
- ٢٨ - مسائل الإيمار ج ١١ قسم ٢ مصورة معهد المخطوطات بالجامعة العربية .
- ٢٩ - العرب من أشعار أهل القرب لابن دحية تحقيق الأبياري وزميله ط الطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٩٥٤ م .
- ٣٠ - معالم الإيمان في معرفة أهل القيوان للديباغ ط تونس سنة ١٣٢٠ هـ .
- ٣١ - معجم الأدياء لياقوت الحموي ط دار المادون .
- ٣٢ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري تحقيق السقاط لجنة التأليف سنة ١٩٤٥ م .
- ٣٣ - مقدمة ابن خلدون ط المكتبة التجارية بدون تاريخ .
- ٣٤ - المكتبة الصقلية لأماري ط ليسك سنة ١٨٥٧ م .
- ٣٥ - المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن دينار ط تونس سنة ١٢٨٦ هـ .
- ٣٦ - التنف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف للفيضي ط السلطية سنة ١٣٢٤ هـ .
- ٣٧ - هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين لاسماعيل الجدادى ط استنبول سنة ١٩٥٥ م .
- ٣٨ - الوافي بالوفيات للصفدي ج ٢ ط الهاشمية بدمشق سنة ١٩٥٣ م .
- ٣٩ - وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق محيي الدين ط السعادة سنة ١٩٤٨ م .

★ ★ ★



مقدمة السكان

تحليل سوسيوولوجي

عرض وتعليق الدكتور مصطفى ناجي

الجزء الثاني من الكتاب (الفصل السادس
— العاشر) يتضمن مناقشة عوامل التركيب
السكاني ومتغيراتها — الوفيات (Mortality)
— الولادات (Fertility) والهجرة (Migration) .
الجزء الثالث والاخير يشتمل على ستة
فصول تتعلق بالنتائج التي تترتب على التغيرات
السكانية وانماطها الديموجرافية والاجتماعية
والاقتصادية والسياسية ، كذلك السياسات
السكانية .

يتكون الكتاب من ثلاثة اجزاء رئيسية
مقسمة الى سبعة عشر فصلا بالإضافة الى
اربعة ملاحق وثماني صفحات من البيلوجرافيا
وفهرس . وتبلغ مجمل صفحاته ٥٢٠ صفحة .
يضم الجزء الاول خمسة فصول ويعالج بصفة
اجمالية التصورات المختلفة عن الناس والسكان
والمجتمعات

(Perspectives on People, and Societies)
وفيه استعرض المؤلف تأثير التغيرات السكانية
على التنظيم الاجتماعي والاقتصادى والسياسي
بصفة اجمالية وفي المجتمع الامريكى بصفة
خاصة .

Prentice-Hall, Inc., Englewood Cliffs. New Jersey 07632.

بدأ الفصل الأول بإحصائيات توضح مدى الانفجار السكاني الذي حدث في العالم خلال القرن العشرين ، حيث ازداد عدد السكان من بليون ونصف في بداية القرن إلى ما يقارب أربعة بلايين في عام ١٩٧٥ ، مع احتمالية وصول هذا العدد إلى ستة بلايين في نهاية القرن المذكور أى بمعدل نمو يوازي أربعة أضعاف .

رغم الحديث الكثير عن الانفجار السكاني^١ رغم الوعي الذي بدأ يتزايد عن أبعاد المشكلة يعتقد المؤلف أن ذلك لا يعني بالضرورة وجود تنهم علمي للمشكلة أو اتفاق على النتائج التي تترتب على الزيادة السريعة في السكان ، وقد لخص الآراء المتداولة إلى : -

١ - ظاهرة الانفجار السكاني تمثل كارثة على الجنس البشري حيث أن النقص في الغذاء والموارد الأولية والتلوث والتلف الذي يحدث في البيئة كلها يشكل ظواهر تنبئ وقوع كارثة ، وأن مجرد تخفيض معدل نمو الزيادة السكانية لن يؤخر وقوع مثل هذه الكارثة ، ولذا فهناك ضرورة حتمية وملحة لتوقف النمو السكاني تماماً ، أى الوصول إلى معدل للسكان معادل للصفر (Zero Population Growth)

ب - التزايد السكاني يوفر فرصة ذهبية للنمو والتوسع الاقتصادي والاجتماعي وذلك بتطويره فرص العمل ، ومساعدته في اكتشاف واستغلال المواد الأولية عن طريق استعمال الابتكارات التكنولوجية والتنظيمية .

ج - الانفجار السكاني يعتبر عاملاً مضاعفاً للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويؤدي إلى قصور الخدمات الاجتماعية بصورة عامة . ومن مسلمات هذا الرأي أن حل كثير

من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية سيكون متيسراً لو تناقصت معدلات نمو السكان المرتفعة في كثير دول العالم النامي .

تطرق المؤلف في الفصل الثاني إلى منشأ وتطور الحركة المناهضة بتوقف النمو السكاني ، كما استعرض نشطات المنظمات القائمة بالدعوة لهذه الفكرة ، وناقش الوسائل التي اتبعتها لتحقيق أهدافها . لقد ظهرت هذه الحركة في أوائل الستينات من خلال أنشطة بعض منظمات القطاعين العام والخاص في الولايات المتحدة بهدف التأثير على برامج تنظيم الأسرة وتشجيع تحديد النسل . وما لبثت أن تطورت أهداف الحركة من اهتمام أولي بمساعدة الأفراد كمبرر لتحديد النسل إلى إبراز خطورة النمو السكاني على النواحي الاجتماعية والديموقراطية والاقتصادية والسياسية كمبرر أساسي يستوجب إيقاف النسل . وأشار المؤلف إلى عدم وضوح كيفية التوصل إلى الأهداف المنادى بها ، خاصة وأنه من المسلم به أن تنظيم الأسرة الاختياري لن ينتج عنه توقف أوتوماتيكي في الزيادة السكانية . وأن تحقيق معدل نمو سكاني معادل للصفر يستوجب اعتبار برامج أخرى إجبارية .

رغم استمرار الجدل العلمي حول خطورة النمو السكاني وأفضل الوسائل المتبعة « لتحديد » أو « إيقاف » النسل (اختياري أو إجباري) ودور الزوجين أو الأفراد في مقابل مسؤولية الدولة ، نبه المؤلف إلى حقيقتين :

(١) معدل الولادات في الدول الغربية بما فيها الولايات المتحدة قد أخذت بالانخفاض الواضح حتى وصلت في السبعينات إلى مستوى منخفض يضمن بالكاد الاستبدال (Replacement)

١ - خصصت مجلة عالم الفكر العدد الرابع من المجلد ١ لخاص (يناير - مارس ١٩٧٥) مناقشة المشكلة السكانية .

الغزو (ولو أن احتمالاتها أصبحت ضعيفة في الوقت الحاضر) .

النمط الثاني : اقتباس الابتكارات الحديثة في التكنولوجيا والنظم الاجتماعية لفرض استغلال الموارد الطبيعية استغلالاً أفضل (الحل الاقتصادي) .

النمط الثالث : ويتمثل في تحديد نمو السكان سواء من طريق زيادة الوفيات أو تناقص الولادات (الحل الديموجرافي) . ولقد كان اللجوء إلى زيادة الوفيات وسيلة منتشرة في بعض المجتمعات .

قدم المؤلف في الفصل الرابع هيكلاً عاماً (Typology) ليوضح العلاقة بين العوامل الديموجرافية والتركيب الاجتماعي، وفي ضوء من الدقة وصف اجتماعات تأثير هذه العوامل على البيئة الإنسانية والنظم الاجتماعية . وقد قسم السكان حسب التغيرات الآتية : العدد Size المساحة Area الكثافة السكانية (Population Density) ريف وحضر Rural / Urban والتركيب العمري Age Structure وكذلك خصائص النمو . وكانت تقسيماته للمجتمع مقتصرة على : بدائية - بسيطة - ومتطورة بالنسبة لقدراتها التكنولوجية .

وبعد تعريف المجتمع الإنساني على أنه مجموعة من السكان المرتبطة بأنماط من العلاقات الاجتماعية بفرض المعيشة والتأقلم للبيئة المحيطة ، تطرق المؤلف إلى النظريات العلمية البارزة في حقل البيئة الإنسانية Human Ecology والتي تصنف المجتمعات حسب طبيعة تكنولوجيا إنتاج المواد الغذائية التي تمتلكها . وكذلك نظام تقسيم العمل في هذه المجتمعات . وذكر المؤلف أن التحول التدريجي للمجتمعات من المستوى البدائي

(٢) معدلات النمو السكاني في بعض الدول النامية وخاصة في دول شرقي آسيا كالصين وتايلاند وإندونيسيا وكمبوديا والجمهورية الأسبانية في الاتحاد السوفيتي قد بدأت بالتناقص بشكل ملحوظ ، مما حدا بكثير من علماء الديموجرافية بدراسة احتمال توقف النمو السكاني عامق هذه الدول في خلال القرن العشرين وتحليل النتائج المحتمل وقوعها .

من النماذج المستخدمة في شرح النمو السكاني التي قام المؤلف بمناقشتها في الفصل الثالث نموذج التحول الديموجرافي (Demographic Transition) والتي تصف تجربة العالم الغربي والصناعي في تخفيض معدل نموه السكاني منذ بداية حركة التصنيع، ويمكن وصف مراحل هذا التحول كالآتي : -

١ - مرحلة ما قبل التصنيع وهي الفترة التي تكون فيها معدلات كل من الولادات والوفيات مرتفعة .

٢ - مرحلة بداية التصنيع وفيها تنخفض معدلات الوفيات مع بقاء معدلات الولادات ثابتة ومرتفعة ، وهذه المرحلة هي التي ينتج عنها ما يسمى بالانفجار السكاني .

٣ - مرحلة التصنيع وفيها تبدأ معدلات الولادات بالانخفاض .

٤ - مرحلة ما بعد التصنيع وفيها تصل معدلات الولادات إلى مستوى منخفض يتناسب مع المعدلات المنخفضة للوفيات ورتبهما تيم مرحلة التحول الديموجرافي .

وفي نهاية الفصل حدد المؤلف ثلاثة أنماط من استراتيجية الاستجابة لنمو السكان .

النمط الأول : ويشمل التوسع في الحدود وضم أراض جديدة ، وهي استراتيجية اتبعت في كل العصور (الحل السياسي أو

البسيط الى التنظيم المتطور المعقد يعزى الى التوسع الايكولوجي المتأثر بالزيادة السكانية وما ينتج عنها من تكيف اقتصادي واجتماعي وتنظيمي لغرض تحمل المضاعفات التي قد تنشأ في مرحلة النمو والتطور .

ويتطابق مفاهيم الهيكل العام الذي حدده المؤلف على المجتمع الأمريكي (الفصل الخامس) حاول أن يربط بين العوامل الديموجرافية ، وخاصة عامل الهجرة ، وبين التغيرات التي حدثت في التكنولوجيا وأنماط الاستيطان والتكيف الايكولوجي المتميز بالاتجاه الظاهر نحو العمران وخاصة في الفترة التي اعتبرت الحرب العالمية الثانية .

وبمقارنة أمريكا ذات الطابع الريفي في القرن التاسع عشر بأمريكا الحضرية في القرن العشرين ، أوضحت الأولى بانتشار المجتمعات الصغيرة Communities المنعزلة نوعاً ما والمأهولة بالأسر ذات التركيب المتمد والوظائف المتعددة ومنها : الدينية والترفيهية وتربية النشء ، هذا بالإضافة الى كونها وحدات انتاجية واقتصادية كانت تمثل حلقة الوصل الرئيسية ما بين الفرد ونشاطاته واتصالاته في المجتمع .

يتصف المجتمع الأمريكي حالياً بالتركيز الشديد في الكثافة السكانية في جزء بسيط من مساحته الشاسعة وفي التزايد الحضري والعمراني الهائل المتميز بالمجتمعات الامتجانية التي يغلب عليها نمط الأسر الصغيرة التي تغير كثيراً من طبيعتها التربوية والاقتصادية والترفيهية وقدانها لمعظم هذه النشاطات .

وإيرز المؤلف أهمية عامل الهجرة (الخارجية منها أو الداخلية) في : (١) تشكيل أنماط توزيع السكان وتطورها في المجتمع الأمريكي والتي أدت في النهاية الى ظهور المدن الضخمة Megalopolis (٢) احلال روابط

اجتماعية متصقة بالحضرية محل الروابط التقليدية مثل رابطة الدين ، الجنسية ، المنشأ ، كذلك الروابط العائلية .

بدأ المؤلف الجزء الثاني من الكتاب بتعريف للتحليل الديموجرافي على انه وصف كمي للطاقة البشرية وكوناتها بالمجتمع . تلا ذلك استعراض اولي (الفصل السادس) لطرق دراسة النمو السكاني وكيفية حساب مؤشرات النمو ، وبين كذلك استعمالات أبرز هذه المؤشرات وهي معادلة الموازنة السكانية $(P_2 = P_1 + B - D + M)$ حيث (P_2) حجم السكان في وقت (2) يساوي حجم السكان $/ P_1$ في وقت سالف زائدا حجم الولادة (B) ناقصا حجم الوفيات (D) زائدا أو ناقصا حجم الهجرة (M) . كذلك اشار الى بعض مصادر البيانات من السكان مثل التعدادات والمسوحات وسجلات الظواهر الحياتية .

ومن الواضح أن الهدف من هذا الفصل هو تزويد القارئ المبتدئ بقليل من الخلفية العلمية من مفاهيم ومصطلحات ومؤشرات .

في الفصول الأربعة التي تلت قام المؤلف بمناقشة علاقة التركيب الاجتماعي وكلا من الوفاة والبقاء (الفصل السابع) والزواج وصنع الزواج Match Making (الفصل الثامن) والولادات (الفصل التاسع) والهجرة (الفصل العاشر) .

تتبع المؤلف في الفصل السابع التطورات التي حدثت في معدلات الوفيات في أوروبا وغيرها من القارات المسكونة بالعنصر الأوروبي حيث شهدت تنافسا تدريجيا ومستمرًا منذ القرن الثامن عشر وحتى الحسب العالمية الثانية . وكان ذلك التنافس نتيجة لتحسن الأحوال الاجتماعية والتعايش والاستجابة للتطور الاقتصادي والاستقرار السياسي الذي

كنظام اجتماعي وركز بشكل محدد على اختلاف طبيعة الزواج في المجتمعات الأوروبية أو التي من أصل أوروبي عنها في المجتمعات الأخرى . ومن خصائص المجتمعات الأوروبية :

١ - وجود فائض من النساء في سن الزواج بالمقارنة بالمجتمعات الأخرى .

٢ - انتشار الفكرة القائلة بأن الزواج يجب أن تسبقه فترة طويلة من التعارف بين الطرفين .

٣ - اللجوء إلى تأجيل الزواج نتيجة لشعور الفرد بأهمية الضمانات المالية وتطلعه إلى مستوى معيشة أفضل .

٤ - عملية اختيار الزوج أو الزوجة تنصف بأنها أقل تأثراً بعوامل السن أو العنصر أو الدين أو مستوى التعليم والقرابة واللغة عنها في المجتمعات الأخرى .

هذا بالإضافة إلى أن عوامل أخرى ذات طابع ديموجرافي يمكن أن تسبب حالات من الضغط على الزواج Marriage Squeeze وذلك جعلها العرض والطلب يفقدان التناسق فيما بينهما ، ومن أمثال هذه العوامل الهجرة المتزايدة لأحد الجنسين وكذلك اختلاف سن الزواج ما بين الزوج والزوجة المنتشر من الدول النامية . هذا بالإضافة إلى بعض التقاليد التي تحتم الزواج من نفس الطبقة الاجتماعية .

أن مسؤولية اختيار أو تحديد ظروف الخطبة وكذلك مكان الإقامة وطبيعة الأحوال المعيشية للمتزوجين الجدد ما زالت في يد الآباء أو الأقارب ، ولم تنسك كاملاً للأشخاص أنفسهم حتى في الزواج العصري ما زال للآباء قدرة التحكم في مكان وكيفية تقابل الطرفين .

أدى إلى امسلاحات اجتماعية وارتفاعات في مستوى المعيشة وكذلك في تحسن طرق الوفاة العامة ، أما في الدول النامية فإن الانخفاض السريع في معدلات الوفيات الذي حدث عقب الحرب العالمية الثانية فيرجع إلى إدخال وسائل الصحة العامة والصحة الوقائية والطب الحديث أكثر مما هو ناتج عن أي تفسير اجتماعي أو اقتصادي .

بالرغم من أن علماء الديموجرافية قد ابدوا اهتمامهم بدراسة الحالة الزوجية للسكان وتأثيرها على معدلات الولادات ، إلا أنهم ، وفي رأي المؤلف ، أقل رغبة في دراسة العلاقة ما بين الزواج من ناحية وتركيب الأسرة ويكون القربان والطبقات الاجتماعية من ناحية ثانية حيث ظلت هذه المواضيع موضوع اهتمام علماء الاجتماع والانثروبولوجي . وعند مقارنة الدول الأوروبية والغرب أوروبية نجد أن ظاهرة الزواج المتأخر أو الامتناع الكلي عنه منتشرة في معظم الدول الأوروبية منها في الدول الأخرى ، وتفسر هذه الظواهر أنها ناتجة عن الشعور المتاصل بالفردية Individualism وباهمية احساس الفرد بالاستقرار الشخصي والمالي كخلفية لازمة للزواج والانجاب .

أن ظاهرة رواج الزواج Marriage Boom التي وقعت بعد الحرب العالمية الثانية في الولايات المتحدة وأوروبا حدثت بين مجموعات من السكان كانت تتحاشى الزواج كليا أو تختار الزواج المتأخر ولذا ادت حركة رواج الزواج هذه إلى تخفيض سن الزواج وكذلك إلى تخفيض نسبة غير المتزوجين في المجتمع مما نتج عنه تقارب معدلات الزواج في المجتمعات الأوروبية وبين الريف والحضر وكذلك بين الطبقات الاجتماعية المختلفة .

وفي تحليل وصفي لتكنولوجيا ظاهرة الزواج ، اختيار الزوج ، والزواج المبكر أشار المؤلف إلى التغيرات التي حدثت في الزواج

النسل في أغلبها بالتشجيع المباشر . ولذا استخلص المؤلف بأن منشأ الاسرة الصغيرة والعودة الى معدلات الولادة المنخفضة في الدول الغربية ليس له علاقة وطيدة بأى سياسة سكانية حكومية بوجه عام .

لقد اتجه علماء الديموجرافية حديثا الى التحليل الدقيق Micro لموضوع الخصوبة والولادات والاختلافات في كل منها كالتباين في عدد الولادات وفي توقيت المواليد . وهذا وبالإضافة الى ذلك يرجع الباحثون الى الكثير من النظريات الاجتماعية والنفسية والاقتصادية لتفسير حجم الولادات واختلافاتها ومن أمثلة ذلك نظرية العلاقة ما بين المنزلة الاجتماعية والحراك الاجتماعى

Social Status and Social Mobility

ومستوى الخصوبة وكذلك نظرية الكلفة - المنفعة - Cost-Benefit القائلة بأن العامل الاقتصادى يتحكم في تقديرات الزوجين وبالتالي لجوءهما الى استعمال اساليب منع الحمل او عدم استعمالها .

ذكر المؤلف ان دراسة الهجرة تتطلب وجهة نظر أكثر من خلفية علمية واحدة ثم تطرق الى شرح تاريخى للهجرة العالمية وخاصة الهجرة من أوروبا والتي اتجه معظمها الى الولايات المتحدة ، ورغم ذلك فإن نسبة المهاجرين الى المولودين في الشعب الأمريكى لم تزيد في دورتها عن ١٣ ٪ . وقيل جدا من دول العالم التى يبلغ فيها المهاجرون نسبة عالية من السكان تصل في بعض الحالات الى النصف مثل الكويت وهونغ كونغ واسرائيل .

كان للهجرة الداخلية تأثير كبير على توزيع السكان في الولايات المتحدة وعلى حركتهم الى الغرب التى صاحبت الاسكان بالولايات الغربية وخاصة ولاية كاليفورنيا . كما أدت الى التزايد السريع في درجة العمران بالولايات المتحدة فترة زمنية قصيرة . وتظهر آثار التحسرك

من المتفق عليه بين علماء الديموجرافيا ان عامل الولادات هو العامل الرئيسى المؤثر في النمو السكاني . ولدراسة هذا المتغير يتبع الباحث عادة في تحليله أحد المستويين التاليين أو كليهما : - الأول Macro وهو عبارة عن تحليل العوامل الهيكلية الرئيسية المؤثرة على الخصوبة والولادات . الثانى Micro او التحليل الدقيق المتعلق بدراسة العوامل السلوكية والفردية المؤثرة على الظاهرة .

رغم وصول معدلات الولادة في أوروبا والدول الغربية عموما الى مستوى منخفض نسبيا في بداية الحرب العالمية الثانية ، عادت للزيادة في الفترة التي تلت الحرب مباشرة Baby Boom ، وكان هناك نمطان لهذه الظاهرة (الأول) استمر لفترة زمنية قصيرة لتعويض حالات الولادات المأجلة خلال فترة الحرب ، (الثانية) امتد لفترة اطول خاصة في الولايات المتحدة وأستراليا ونيوزلندا وكان محصلة تعويض للولادات المأجلة في فترة الحرب بالإضافة الى زيادة حقيقية في معدلات الولادة والاتجاه نحو الولادات على فترات زمنية متقاربة . بدأت الولادات في دول أوروبا الشرقية وجنوب أوروبا ودول أمريكا اللاتينية مثل الأرجنتين بالتساقط تدريجيا في أبان الحرب العالمية الأولى ولكنها أخذت بالانخفاض السريع حتى الحرب العالمية الثانية .

عند بداية الحرب العالمية الأولى كان معدل الولادات في الدول الأقل تطورا (النامية) عاليا نسبيا (أعلى من ٣٥ بالالف) ، وتتنصف معدلات الولادة بالانخفاض الملحوظ في مجموعة منها بعد الحرب العالمية الثانية بينما استمرت معدلات الولادة العالية في البعض الآخر .

كما أبرز حقيقة ظاهرة وهي ان الدول التي اتجهت فيها معدلات الولادة بالانخفاض السريع لم تتبع الا القليل مما يوصف بسياسة سكانية محدودة ، وفي الواقع لم تحظ برامج تحديد

بمناقشة تأثير التفرع السكاني على النظام الاجتماعية مثل تقسيم الـ Division of Labor وتوسيع المحيط الاجتماعي وكذلك تبني الابتكارات والاستفادة منها مستعينا في شرحه بالنظريات العلمية المفسرة لهذه الظواهر ومشيرا الى ان النمو السكاني على نطاق واسع يجعل مستجيلا على التركيب الاجتماعي ان يستمر بصورته الاولى . هذا بالإضافة الى ان التزايد في الكثافة السكانية يؤدي بدوره الى تكثيف النشاطات المتعلقة بإنتاج المواد الأساسية كما حدث في ظاهرة الانقلاب الزراعي Agriculture Revolution

لقد حدد المؤلف نمطين من استراتيجية الاستجابة الديموجرافية للنمو السكاني ويتلخص في : (1) زيادة الاتجاه العمراني بما فيه زيادة وتعدد المناطق المتصفة بالحضر والعمران وانتشار المدن الكبيرة Megalopolis (ب) التجاذب بعض المجتمعات الى تشجيع الهجرة الخارجية . ونظرا لان احتمالات الهجرة الخارجية أصبحت في عالمنا الحاضر محدودة ، فإن النمط الرئيسي للتجاوب ينحصر في الاتجاه نحو العمران وفي استعمال الزراعة المكثفة . ولظاهرة العمران صفات اجتماعية مميزة منها تباين صفات السكان Heterogeneous وتنوع وتعدد الاتحادات والنظم الاجتماعية . هذا بالإضافة الى الميل التخصص Specialization الوظيفي والبنائي .

ونظرا لعدم وجود سياسة تحكم الهجرة الداخلية في معظم الدول باختلاف بعض الدول الاشتراكية ، فإن المؤلف يتساءل عما اذا كان من المستطاع التأثير في الحراك السكاني عن طريق سياسة سكانية محددة . ويستخلص بان الموضوع ما زال يحتاج الى بحث اكسر لتحديد إبعاده .

السكاني أيضا في ظاهرة نمو الضاحية Suburbanization الذي تزايدت بشكل ملحوظ من بعد الحرب العالمية الثانية .

رغم ان معظم العوامل الخلفية التي ينبغي دراستها بالنسبة لظاهرة الهجرة ما زالت غير واضحة ومتغيرة التأثير فان معظم النظريات التي توضح اسباب الهجرة تركز حول ضرورة فهم تأثير العوامل الاقتصادية على الميل للهجرة وكذلك علاقة الصفات الاجتماعية والديموجرافية بالعمر والحالة الزوجية والجنس وخلافه على الاستعداد للهجرة .

هذا ورغم الاعتراف بوجود عدة عوامل غير اقتصادية مؤثرة على ظاهرة الهجرة الا انه ما زال ينظر الى تحركات القوى البشرية على انها متعلقة بصورة رئيسة بالعوامل الاقتصادية خاصة فرص التوظيف ، اختلاف الأجور ، وهيكل سوق العمالة والبطالة بأنواعها .

ان للهجرة تأثيرا واضحا ليس فقط على المجتمع بل ايضا على الفرد وهناك علاقة ما بين هجرة الافراد وصفاتهم الديموجرافية وغير الديموجرافية كالخصوبة والانحرافات والمرض العقلي وخلافه . بالإضافة لذلك فان الهجرة تأثيرا آخرها مباشرا على العلاقات والمنظمات الاجتماعية وكذلك على الميول السياسية والانفصال العنصري او التثاقلي ونظم التعليم وخلافه .

وباختصار ان معظم المجتمعات التي تشتد بها حركة الهجرة يجب ان تطور منظماتها ومؤسستها لكي تضمن الاستقرار والاستمرارية في الصلات والتفاعلات الاجتماعية على جميع المستويات .

في الجزء الثالث من الكتاب يناقش المؤلف انماطا مختلفة من الاستجابات الاجتماعية والديموجرافية والاقتصادية والسياسية للتغير السكاني . ويتبدى الفصل الحادى عشر

منها هو الإصلاح الاجتماعي لمكانة المرأة وليس التحكم في السكان وتحديد النسل . ان مجهودات مسز (Singer) منذ عام ١٩١٣ في الولايات المتحدة وفي مدينة نيويورك بالذات تشكل بداية الحركة المناهضة باستعمال وسائل منع الحمل وتحديد النسل . لقد تطورت الحركة بشكل ملحوظ بعد الحرب العالمية الثانية على يد مستر John D. Rockefeller 111 وانشق عنها مجهودات هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها وبرامجها في العالم النامي . كما تكونت في الدول الأوروبية ولا سيما الولايات المتحدة بعض المنظمات حديثا التي تطالب بوقف نمو السكان وتؤكد بضرورة استخدام جميع الوسائل الممكنة بما فيها العمليات الجراحية Sterilization وذلك للاعتقاد بعدم كفاية وسائل منع الحمل التقليدية مثل استعمال حبوب منع الحمل .

ان العلاقة التي تربط العوامل الاقتصادية والعوامل الديموجرافية علاقة متشعبة ودقيقة . ومن أبسط مظاهرها أحداث التغير السكاني ودود فعل في كل من حجم ومعدل نمو كل من القوى العاملة والعمالة وسوق العمل ، وكذلك في حجم كل من الادخار والاستثمار ومستوى الانتاجية . وعند مناقشة هذه الموضوعات (الفصل الرابع عشر) فرق الكاتب ما بين أنماط الاستجابات الاقتصادية للزيادة السكانية في كل من الدول النامية وفي الدول الاقل نموا .

ونستعرض فيما يلي آراء المؤلف حول نوعية الارتباط بين النمو السكاني والعوامل السالف ذكرها .

النمو في القوى العاملة : تعتبر كل من معدلات النمو السكاني وهيكل التركيب العمري للسكان ومعدلات الهجرة بأنواعها من المتحكمات الاساسية في نمو القوى العاملة وفي تحديد نسبتها في السكان . من المعروف ان حجم

في الفصل الثالث عشر انتقل المؤلف الى مناقشة اشكال الاستجابة الديموجرافية وابتدا يذكر مبدا قديم عن الضوابط الإيجابية Positive Check مالتوس والقائلة بحتمة ارتفاع الوفيات في حالة زيادة السكان عن الموارد الغذائية . وتساءل المؤلف عما اذا كان من الممكن ان تسمح اخلاقيات المجتمعات الحديثة بمعدلات اعلی للوفيات كوسيلة لجباية اية زيادة في السكان غير متوازنة مع الزيادة في الموارد الغذائية وبالتالي هل تلجأ الى تخفيض معدلات الوفيات في حالة نقص السكان ، استخلص من الدراسات التي قام بها كل من Clark و Kreziok عن اتجاهات معدلات الوفيات بين الاطفال في المجتمعات الريفية والغري صناعية الى انه من الجائز ان تكون التغيرات التي تحدث في مستوى الوفيات وفي معدلاتها حسب المعر استجابات من المجتمع لظاهرة نمو السكان بغرض التكيف والبقاء .

كما نبهنا المؤلف الى فكر اخر من افكار مالتوس عن اهمية التحكم في سن الزواج كوسيلة من وسائل الحد من النمو السكاني والذي لا شك فيه ان انماط الزواج والطلاق واعادة الزواج والقيم المتحكمية في هذه الظواهر لها ارتباط بمحاولات المجتمع التحكم في معدلات نمو سكانه ، ولو ان نوعية هسده الارتباطات غير مدروسة . وقد اشار المؤلف على سبيل المثال الى الاتجاه الحديث نحو انخفاض سن الزواج وزيادة نسبة السكان التزوجين وارتباط كل منها مع التوسع في استعمال وسائل منع الحمل بما فيها الاجهاض وخاصة في الدول الغربية لا سيما في الولايات المتحدة .

وفي لبدة تاريخية عن تطور وسائل منع الحمل اشار المؤلف الى تواجد العديد من وسائل منع الحمل في مختلف العصور وانه رغم ما نثر من الموضوع في القرن التاسع عشر تطورت الى حركة نسائية كان الغرض

اشير المؤلف الى أهمية دراسة تأثير التركيب العمري للسكان والتغيرات التي تحدث فيه على معدلات الادخار ، ورغم أنه فيما يبدو ينتمي الى المدرسة القائلة بأن الزيادة في عدد الاطفال في حد ذاتها ليس لها تأثير كبير على القدرة على توفير حيث أن :

١ - معظم الادخارات تتوقف على حجم الضرائب في القطاع العام أكثر من توقفها على الادخارات التوفية في الأسرة .

٢ - عدم وجود الأدلة الكافية على أن ادخارات الأسرة تشكل المصدر الرئيسي للاستثمارات .

أورد المؤلف عدة نماذج توضح اختلاف الآراء حول تأثير النمو في السكان على مستوى الانتاجية *Productivity* منها : أولاً) قوانين ماثوس عن تناقص العوائد في قطاع الزراعة *Laws of Diminishing Returns* التي ينتج عن الزيادة كثافة العمل وحدود الرقعة الزراعية . ثانياً) افكار آدم سميث عن الاقتصاد على نطاق واسع *Economics of scale* والتي تعكس نوعية العلاقة بين الحجم والانتاجية ، ومن مضبوها أنه كلما زاد حجم الوحدة زادت كفاءتها الانتاجية . كذلك قام المؤلف بشرح آراء كيبنت المشهورة عن الركود الاقتصادي *Staguation* وينتج من نقص في النمو السكاني وللأسباب الآتية : -

١ - في المجتمعات الغنية يراى المال التي تتصف بمستوى دخل مرتفع ونمو بطيء في السكان عادة ما يكون صعباً فيها زيادة فرص الاستثمارات .

٢ - في المجتمعات الغنية يراى المال ، نسبة صغيرة من الدخل المرتفع يستهلك فقط تاركاً نسبة أكبر للاستثمارات .

القوى العاملة بتأثر بمعدلات الاشتراك في سوق العمل لكل من المجموعات العمرية والبيئية المختلفة ، وتلك تتأثر بدورها بعوامل ذات طبيعة ديموجرافية كحجم الأسرة والهجرة من الريف الى الحضر وزيادة حجم السكان الذين يبلغون سن التقاعد وخلافه .

من الظواهر التي تتضارب حولها الآراء هي العلاقة المحتمل وجودها بين النمو السكاني من جهة وبين مستوى البطالة من جهة أخرى وأرتكر المؤلف في شرح هذه العلاقة على آراء كل من *Spengler* و *Keynes* فمن رأى الأول مثلاً أن النمو السكاني ولو بمعدل قليل يعتبر أمراً ضرورياً لتلحاق البطالة الشديدة .

وفي حالة تفقيب معدل نمو سكاني مناسب فان على الحكومة أن تزيد من نفقاتها لتعويض النقص في الاستهلاك المحتمل نشوءه . هذا طبعاً يناقض كثيراً من آراء *Spengler* التي ترى في تناقص معدل نمو السكان خلفية مشجعة لمستويات أعلى العناية .

ورغم أن المؤلف لم يلتزم برأى معين في هذه المسألة إلا أنه أوضح أن العلاقة ما بين النمو السكاني وكل من البطالة والعمالة تختلف بالبدول النامية عنها في الدول الصناعية . فمعظم الدول النامية تتصف بارتفاع معدلات النمو السكاني وبالتالي ترتفع فيها معدلات الزيادة السنوية في القوى العاملة ، وبالتالي معدلات كل من البطالة والبطالة المقتنصة بالذات .

هذا بالإضافة الى ان الهجرة السكانية في الدول الصناعية عادة ما تحدث تكاملاً بين الموارد البشرية والموارد الاقتصادية في حين انها في الدول الأقل نمواً تعبر عن نقص دائم في الطلب على العمل الناتج من انخفاض الأجور في الزراعة كذلك ارتفاع الزيادة السكانية في المناطق الزراعية .

١ - خلق انعطاف من السلوك الذاتي والفردى ومن التطلعات الشخصية ذات الفائدة المحدودة في فهم أو تكييف التطلعات الجماعية.

٢ - زيادة الاختلافات الموجودة في المهارات وفى احتياجات الافراد .

٣ - امكانية التفاضل عن أو السماح لبعض السلوك المنحرف من التقاليد بالتواجد مع السلوك العرفي .

٤ - تشكيل قوى اجتماعية بهدف تنظيم أو استغلال أو تجنب الخلافات الفردية وخاصة الناشئة عن قصور في بعض الامكانيات والمجهودات مما يضاف امكانية المجتمع نحو الانتاج والاستهلاك بل والبقاء ، وفى مقدمتها قدرته على التكيف .

ومن رأى المؤلف انه اذا كان للنمو السكاني القدرة على توافر احتمالات الاختلافات والتنازع الاجتماعي فانه من الواضح ان ازدياد الكثافة السكانية تخلق حاجة للتمييز الطبقي وكذلك التباين في النظم الاجتماعية وذلك يرجع لان ارتفاع الكثافة السكانية يصاحبه عادة :

١ - ارتفاع معدلات الاتصالات الانسانية الناتجة من القرابة الجسمية .

ب - التنافس نحو الاولوية في جذب الاهتمام وفى المشاركة .

ج - التنافس لحرية الوصول الى المؤسسات والاماكن وفى المجهودات الاجتماعية .

وباختصار فمن الجائز ان يقلل النمو السكاني من قيمة بعض الارتباطات الاجتماعية ويجعلها قليلة الفائدة في نفس الوقت يمكن ان ينمى موايا ارتباطات اخرى . ولذا فانه من الطبيعي ان تاتي الاستجابة الاجتماعية لمشل هذه التغيرات السكانية في صورة ابتكارات اجتماعية بما فيها من تغير في القيم وقوانين

٣ - في حالة ثبات أو نقص معدل النمو السكاني تزداد معدلات البطالة لعدم كفاية الطلب على الخدمات والبضائع .

٤ - تغييب التأثير الإيجابي الذى يحدثه النمو السكاني في تشجيع ارتباطات التعاقد وتشكيلها لنمو كل من الانتاج ونتاجية الفرد.

وقد اشار المؤلف الى انه لا يوجد نتائج علمية ثابتة تحدد العلاقات الرئيسية ما بين كمية العمل والقدرة الانتاجية ، وكيف تتأثر كل منها بازدياد السكان وان عدم نجاح الاقتصاديين أو بالأحرى تجاهلهم لمعالجة هذه العلاقة يرجع عادة الى انها تحدث في اطار اجتماعي وسياسي وعليه فان نوع الاستجابة تختلف باختلاف الظروف السياسية والاجتماعية وان هذه الظروف تتوقف على ثلاثة متحركات:

١ - قرارات الجهة المنظمة للاقتصاد .

٢ - الضوابط والمفشرات التى يمكن تطبيقها على الوحدات الاقتصادية .

٣ - تركيب هيكل الجراءات والتقديرات وكذلك العقوبات المنظمة للنشاطات الاقتصادية.

من المسلم به ان اى تغير ملحوظ في السكان غالباً ما ينتج عنه اعادة ترتيب كثير من المؤسسات والمنظمات والعلاقات الاجتماعية.

من امثال الظواهر الاجتماعية التى تنتج عن التغير السكاني وخاصة من الهجرة التغيرات التى تطرأ على التركيب الوظيفي والبنى والعنصرى في بعض الحالات مما حدا ببعض علماء الاجتماع القول بان مقداراً من الصراع يصاحب دائماً التغير في العلاقة بين الجموعات السكانية وبين مؤسساتها الاجتماعية وان الاستجابة الاجتماعية لنمو السكان تأخذ عادة عدة اشكال منها :

التشريعية الى تنظيم شبه بيروقراطي نظرا لازدياد ظاهرة تعدد الخواص التي تصاحب الزيادة السكانية . و أخيرا يتأثر التوازن السياسي بين المجموعات المهنية والدينية والثقافية والعنصرية ليس فقط بالزيادة السكانية ولكن بحركة وهجرة السكان الداخلية وقدرة الأحزاب والمنظمات السياسية على توضيح مواقف معينة وقيم أيديولوجية متعددة لكل الجماعات والمجموعات المختلفة من السكان.

وأخيرا يتساءل الكاتب في الفصل الأخير عن امكانية تواجد مدينة الاحلام Utopia ذات الصفات الاجتماعية والديموقراطية المتكاملة وكذلك تسأل عن دور السياسة السكانية في تحقيق ذلك الحلم . فصل بين مفهوم كل من السياسة السكانية والنظرية السكانية حيث عرف الأولى على انها تتكون من تبين واضح لحاكم أو جهة ذات سلطة لبعض الاهداف السكانية التي تخدم المنفعة العامة ، وكذلك التحكم في الموارد المتاحة بشأن تحقيق هذه الاهداف اما بواسطة تدخل مباشر أو غير مباشر في عوامل الوفيات والولادات والهجرة .

وقد رأى المؤلف ان السياسة السكانية يجب فصلها عن السياسات الأخرى المحتملة التأثير على حجم ونمو وانتشار السكان ولكن من خلال تشكيلها لعوامل أخرى غير العوامل الديموقراطية . هذا بالإضافة الى ان لا يمكن بصفة عامة تحديد تركيب محدد للسياسات السكانية يكون له صفة الدوام وانما هي عادة اقل تحديدا وغالبا ما تشمل فترة زمنية معينة .

قام المؤلف باستعراض التجربة الامريكية واستنباط الخلفيات التي صاحبها وخاصة ظاهرة الهجرة من أوروبا والعوامل التي أدت الى اقبال سياسة الباب المفتوح وظهور نظام الحصص Quota System المنظمة للهجرة في أوائل العشرينات والتي استبدلت

التبادل وكذلك في تعريف الموارد بل والحوافز الاجتماعية .

اختتم المؤلف هذا الفصل (الخامس عشر) بمناقشة سطحية لتأثير الهجرة على الارتباطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واستعمل التفسيرات الآتية للمقارنة المهاجر باستثمار ، المهاجر أحيانا ، الغير مهاجر أو الثابت ، وبين كيف ان عملية الهجرة ينتج عنها إعادة صياغة الصفات الاجتماعية للمنظمات والمؤسسات وحتى للمجتمعات الصغيرة نتيجة للحركة السكانية .

ابتدأ المؤلف (الفصل السادس عشر) بقوله ان موضوع الاستجابة السياسية للزيادة السكانية ما زال حديثا ولم يحظ بالدراسة المناسبة الا مؤخرا ، ثم وجه اهتمامه الى ثلاثة موضوعات ذات علاقة : أولا - الضغوط السياسية والإدارية التي يتعرض لها المجتمع نتيجة للزيادة السكانية. وثانيا - التكامل السياسي المرتبط بظاهرة تغير الخواص Variation الصفة التي تلازم عادة التغيرات السكانية . وثالثا الحراك السكاني على الانضمام والاشتراك في الاحزاب والمنظمات السياسية والقيادة .

استخلص المؤلف : أولا - ان المجتمعات ذات الكثافة السكانية العالية والنمو السكاني المتزايد تتطلب نسبة مرتفعة من الخدمات الحكومية بشئى أنواعها مثل الخدمات الصحية والتعليمية والثقافية . وثانيا - التركيبيات العمرية في حد ذاتها تؤثر في نوعية وتخصص الخدمات الحكومية اللازمة ، فمثلا ازدياد الاعمار في سن الشباب يتطلب التوسع في بناء المدارس وفي فرص العمل في حين ان زيادة نسبة كبار السن في السكان تتطلب التوسع في برامج العلاج الطبي والضمان الاجتماعي . ثالثا - صاحب الزيادة السكانية عادة ازدياد حجم الهيئات التشريعية في المجتمع والازدياد تعقيداتها ولحول العملية

ورغم وجود هذه الخلفية التاريخية للمسألة السكانية في أوروبا فإن الخطوات التي أدت إلى انخفاض الولادات في تلك القارة لم تكن في الواقع ضمن سياسة سكانية وإنما تطورت تماماً دون تدخل حكومات الدول المعنية وجاءت استجابة لاصلاحات اجتماعية، وحتى القوانين التي لها تأثير مباشر على الولادات كالإسماح بالإجهاض في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية التي أعقبت الحركة الاشتراكية نشأت من مفهوم القوانين المتعلقة بحماية حقوق المرأة وبرامج العدل الاجتماعي.

تبنت كثير من الدول النامية حديثاً مبادئ عامة يمكن وصفها بأنها تشكل سياسة سكانية والغرض الواضح في خطط معظم هذه البلدان هو تخفيض معدلات النمو السكاني . في عام ١٩٧٤ - تبنت ٣٣ من الدول النامية سياسة سكانية الغرض منها تخفيض معدلات النمو في حين تبنت ٣٠ دولة أخرى برامج تنظيم الأسرة لغرض تحسين المستوى الصحي والاجتماعي وخلافه .

وفي هذا المضمار (برامج تنظيم الأسرة) كان لكثير من المنظمات العالمية والمؤسسات الخاصة وبعض الحكومات الغربية كالولايات المتحدة والسويد نشاط ملحوظ مما كان له اثر واضح في انخفاض معدلات الولادة وخاصة في بعض دول الشرق الاقصى كنيابند وتايوان وكوريا والفلبين .

ومع ذلك فإن بعض الانتقادات قد وجهت لهذه البرامج على أنها تحاول ان تحل محل برامج الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والتي هي في نظر الناقدين أهم بكثير في المدى البعيد لسكان هذه الاقطار .

وفي اعتقاد المؤلف أنه كلما ازدادت معرفتنا عن الخصوبة والولادة وعلاقتها بالتواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فإن درجة كبيرة من الاستقرار في معدلات النمو السكاني ستحدث تدريجياً عن طريق التحكم في الولادات

بثاقون الهجرة الصادر في ١٩٦٥ والساري المفعول حتى الآن .

وتطرق إلى شرح برنامج المساعدة الأمريكية للدول النامية في تنظيم الأسرة وكيف أنه بعد تردد طويل توسعت الحكومة الأمريكية في هذا الموضوع عن طريق برامج المساعدات الخارجية وبرامج المساعدة لغرض التنمية منذ منتصف الستينات . أشار أيضاً إلى نتائج الدراسة التي قامت بها الهيئة المشكلة بأمر من الرئيس السابق نيكسون في عام ١٩٧٥ للدراسة النمو السكاني ومستقبل أمريكا واستعرض باختصار أهم النتائج التي توصلت إليها اللجنة بعد دراسات مستفيضة لأكثر من عامين والتي أثرت في المفهوم العام للمشاكل السكانية .

وبمقارنة الولايات المتحدة والدول الأوروبية وجد أن اهتمام الدول الأوروبية يختلف من دولة إلى أخرى حسب طبيعة المشكلة السكانية في كل منها ومع ذلك فإن الخلاف الرئيسي بين التجربة الأمريكية والتجربة الأوروبية هو حداثة فكرة السياسة السكانية في الولايات المتحدة وتواجدها تاريخياً في كثير من الدول الأوروبية التي توصف بالمقارنة بأنها :

١ - تقبل مبداً مسؤولية الدولة في جميع البيانات وتنظيمها بل وفي التدخل لحل كثير من المشكلات الاجتماعية بما فيها مشاكل الهجرة وتوزيع السكان .

٢ - شهدت ظواهر سياسية كثيرة مرتبطة على تغيرات ديموجرافية مثل الحروب، تصارع القوميات الأوروبية ، انهيار النظام الاقتصادي وخلافه .

٣ - تبنت حكوماتها في بعض الاوقات مبادئ اقتصادية . وفلسفية ذات محتوى ضمني بغضل الزيادة في حجم السكان Mercantilism .

ولذا فإن الكتاب لم يأت بجديد من ناحية التحليل الديموجرافي البحث
Formal Demography

أما من جهة ربط العوامل الديموجرافية بالتركيب الاجتماعي وأنماطه فلا شك أن المؤلف قد قدم محاولة لا بأس بها في إبراز تشعب ودقة هذه العلاقة . لذا فإن معالجته للموضوع من وجهة نظر سوسيولوجية بحتة ولو أنها لم تفسح له المجال للاهتمام بوجهة نظر الفروع العلمية الأخرى عن طبيعة السكان ، إلا أنها أتاحت له التركيز على التركيب الاجتماعي بمضمونه الأوسع وبصورة منظمة ، وكذلك الرجوع إلى كثير من النظريات والنماذج العلمية من كل من فرعي الاجتماع والبيئة الإنسانية ، مما يجعل الكتاب أكثر ثشوباً لتخصصي فروع الاجتماع والانثروبولوجي عنها لتخصصي علم الديموجرافيا البحتة .

قدم المؤلف كتابه على أنه كتاب مدرسي الغرض منه إعطاء تحليل دقيق لنقط الالتقاء والتداخل ما بين العوامل السكانية والتركيب الاجتماعي . واتباع في تحليله ما أسماه بالمنهج الاستكشافي وليس المنهج الجامع ، أراد عن طريقه أن يثير كثيراً من الجدل بطرح الجديد من الأسئلة أكثر من محاولته حسم الأسئلة المطروحة والوصول إلى نتائج علمية ثابتة .

وفي هذا المضمون يمكن تحديد مجموعة من المشاكل والأسئلة العامة الرئيسية والتي يحس القارئ حتى بعد قراءة الكتاب بأنها مازالت بحاجة إلى توضيح . وفي اعتقادي ، وذلك هو الرأي السائد بين معظم دارسي علم السكان ، أن الإجابة عليها ستأتي فقط عن طريق الدراسات العلمية المستفيضة والبحوث الدقيقة ومنها الآتي : -

١ - مشكلة تحديد الارتباطات التشعبية بين عوامل النظام الإيكولوجي وهي السكان ، البيئة ، التنظيم الاجتماعي والتكنولوجيا . رغم أن المؤلف أهتم أساساً بعامل السكان

سواء تم ذلك عن طريق سياسة سكانية محدودة أم لا .

ويعتزم الموضوع بقوله أن اتباع سياسة سكانية واضحة من شأنه أن يساعد المجتمعات على سرعة وسهولة وصولها إلى مرحلة الاستقرار السكاني .

قبل توجيه اهتمامنا لمناقشة بعض آراء المؤلف أود أن أورد قليلاً من السلبات وأظهِر يقع في نطاق التنظيم والعرض أكثر منها في مجال العاومات .

من الواضح أن الكتاب غني بالافتكار والنظريات العلمية المتعلقة بموضوع السكان ، غير أن المؤلف قدم الكثير منها بطريقة الخشخشة ولم يعطها حقها من التفصيل . هذا بالإضافة إلى إحساس القارئ بأن المناقشة لم تتسع لمستوى واحد في كل الفصول ، فمثلاً يظهر المؤلف كثيراً من العمق ودقة التحليل في الجزء الثالث من الكتاب والذي في اعتقادي هو أقوى جزء فيه في حين تتصف بعض فصول الجزء الثاني بكثير من الملاحظات السطحية وبدائية التحليل .

أن اهتمام الكاتب موجه بصورة خاصة للسوق الأكاديمية الأمريكية لتوزيع الكتاب . لذا فإن كثيراً من تحليلاته انصبحت على الولايات المتحدة بالذات رغم أنه حاول بين الحين والآخر مقارنة الولايات المتحدة الأمريكية بالدول النامية .

كالمعادة في كل الكتب المدرسية ، معظم المعلومات الإحصائية الواردة في الكتاب تتوقف عند فترة زمنية معينة ، حتى عام ١٩٧٥ . معظمها أيضاً متداول في كتب أخرى عن علم السكان أكثر استعمالا وانتشاراً في جامعات الولايات المتحدة وأخص بالذكر كتاب William Peterson بعنوان السكان Population Dynamics و Ralph Thomlinson عن ديناميكية السكان

والوصول الى حالة التثبيت السكاني
Stationary Population في بعض
الدول توقع الآثار المترتبة على تضخم قيمة
الهرم السكاني وتحوله باتجاه كبار السن
والشيخوخة من جمود للتنظيم والعلاقات
الاجتماعية واحتمالات انطباضها بالتحفظ ، وكذا
تقلص الحراك السكاني والوظيفي بل وبعض
انشطة النظام الاقتصادي نفسه وبصفة خاصة
الانشطة الموجهة لمعالجة نمو السكان والاستجابة
لاحتياجات ذوي الاعمار الصغيرة .

باختصار قدم الكتاب كثيرا من الوصف
والتحليل لتأثير زيادة السكان على العلاقات
الاجتماعية والسياسية والبيئية وخلافه ،
ولكنه لم يتعرض لمناقشة تأثير الوصول الى
معدلات نمو معادلة للصفر على طبيعة
وتكوين مجتمع المستقبل ، هذا بالرغم من
وجود كثير من الاهتمام العلمي بالموضوع .
وليس من الواضح ان كان هذا الاطفال هو
نوعا من التخلف العلمي ام انه اختصار لما هو
ممكن ادماجه عمليا في كتاب واحد اغلب الظن
انه الاخير . ومع ذلك كان يجدر بالمؤلف الإشارة
البسيطة الى الاهتمامات الحالية خاصة في نطاق
مناقشة تجربة الولايات المتحدة والدول الغربية
الاخرى .

رغم الانتقادات التي اشرنا اليها فانه مما
لاشك فيه ان كتاب البروفيسور مارتس يعتبر
خطوة هامة في طريق توسيع نطاق الدراسات
السكانية من مضمونها التقليدي المهم بالنواحي
الكمية والاحصائية فقط ، الى مضمون تحليلي
اشمل وخاصة في هذا التخصص الاكاديمي
الذي يزداد فيه التراث العلمي بسرعة ملحوظة .
رغم تخلفه الواضح في جامعاتنا العربية ليس
فقط من الناحية الاكاديمية ولكن ايضا في
البحث والتطبيق في منطقة من العالم يتوجب
ان تجرى بها دراسات ديموجرافية مفصلة .
واخيرا ما احوح المكتبة العربية الى التراء
لمحتوياتها القليلة في هذا التخصص العلمي عن
طريق البحث والنشر والترجمة .

والتنظيم الاجتماعي الا انه من المعروف ان
لكل من عامل البيئة والتكنولوجيا ضغوطها
على طبيعة العلاقات المذكورة ، وفي الواقع
مازال هناك كثير من الاختلاف بين مدارس علمي
الاجتماع والبيئة حول اولوية اى من العوامل
الداخلية في هذا النظام حيث يتجه كثير من
التحليل الحديث الى ابراز اهمية عامل
التكنولوجيا كعامل مؤثر .

٢ - رغم ان المؤلف ناقش الاستجابة
الاقتصادية لنمو السكان في فصل منفرد فان
تحديد طبيعة العلاقة بين النمو السكاني
والتقدم الاقتصادي لم تتوفر . ومازال هناك
اختلاف بين مؤيدي الحل الديموجرافي لمسألة
التخلف ومجدي طريقة التنمية الاجتماعية
والاقتصادية مع ظهور رأى ثالث مناصر
باعتبارهما سياستين متكاملتين في مرحلة
النمو .

٣ - جدوى استعمال النماذج العلمية
المبنية على تجارب الغرب والدول الصناعية
في تفسير ظاهرة التحول الديموجرافي في الدول
النامية حيث تمر هذه الدول بظروف تاريخية
مختلفة وحيث التركيب الاجتماعي والاقتصادي
والسياسي والديموجرافي في هذه الدول اى
الدول النامية يعطى لها انماطا معينة .

٤ - الجدول القائم حاليا بين مؤيدي
تحديد النسل والراغبين في ايقاف النسل
تماما وامكانية اتباع كل منهما بل وشرعية
كل منهما وخاصة على ضوء ومحاولة استعمال
الطرق الاجبارية كما حدث في الهند اخيرا .

يشع المؤلف الرأى القائل بان المعدلات
العالية للزيادة السكانية ، وخاصة اذا اقترنت
بظاهرة الهجرة الداخلية او الخارجية تولد
جوا من التنافس والصراع الداخلى في النظم
الاجتماعية والسياسية ، وان الحركة السكانية
المرفعة تؤثر في قيم المجتمع .

بالمقارنة نجد ان اهتمام الباحثين حاليا
هو دراسة احتمالات توقف النمو السكاني



مهاجرون سود ومواطنون بيض

عرض وتعليق الاستاذ عبدالله عبدالغنى غانم

بموضوع آخر هو العلاقات بين السلالات . ووجهت أبحاث عديدة نحو دراسة علاقة هؤلاء المهاجرين بالمواطنين البيض وذلك في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

وكتاب اليوم هو أحد هذه الكتب التي تعالج العلاقات السلالية في مدينة نوتنجهام إحدى المدن البريطانية . ومن الجدير بالذكر أن الموضوع سبق أن تناوله وفي نفس المدينة باحثون آخرون ومنهم اليزابيث بيرلى ، وإيراكينز نلسن وغيرهم .

يحظى موضوع الهجرة في الوقت الحاضر ، وفي ظل مشكلات الانفجار السكاني ، باهتمام متزايد من كثير من علماء الجغرافيا والسكان والاجتماع والانثروبولوجيا والاقتصاد وغيرهم .

وقد حظى موضوع الهجرة في بريطانيا بقدر أكبر من الاهتمام خاصة مع وجود مشكلة المولدين من مهاجري دول الكومنولث اللذين يعيشون كأقليات وسط الأغلبية البيضاء من المواطنين الأصليين باعتبارهم ينتمون إلى سلالات مختلفة عن أبناء البلاد . ومن ثم ارتبطت دراسة موضوع الهجرة في بريطانيا

* Daniel Lawrence: Black Migrants : White Nations, Cambridge University Press, 1974,

ومؤلف كتاب اليوم هو دانييل لورانس
محاضر علم الاجتماع بجامعة نوتنجهام .
ويتألف الكتاب من ثمانية فصول بما فيها
المقدمة والخاتمة .

وفي المقدمة التي اعتبرها المؤلف فصلا مستقلا تجده يذكر أن الباحثين الذين درسوا العلاقات بين السلالات في نوتنجهام قد اختلفوا بما بينهم ، فقد قال البعض بأن مدينة نوتنجهام لا تعكس أى صراع سلاسى ، وأن العلاقات بين السلالات في هذه المدينة تنسم بالوفاق والتسامح . بينما قال البعض الآخر بوجود أزمة في العلاقات السلافية بين الملوثين من ناحية والوطنين البيض من ناحية أخرى . ومؤلف كتاب اليوم يوافق الرأى الثانى، ويرى أن شهرة مدينة نوتنجهام بالوفاق والتجانس بين السلالات قول لا يصمد كثيرا النقد وأن القائلين به أساءوا فهم العلاقات بين السلالات في هذه المدينة، وأنهم اعتدوا في قولهم بالوفاق في العلاقات على عدم وجود معارضة منظمة ضد الملوثين في المدينة . ويعلق على هذا بأن فهم العلاقات السلافية يقتضى أن نتمعق بعيدا عن المظهر الخارجى . وأن ما نعتقده وما كنا نأمله من الأبحاث التى تناولت هذا الموضوع في مدينة نوتنجهام هوان تقوم هذه الدراسات بأعطاء تقبيب للدور الذى تلعبه العوامل الثقافية والبيئية في علاقات السلالات وفي رؤية كل من الوطنين البيض للمهاجرين والعكس .

كذلك هناك حاجة لربط هذه الرؤية بالظروف التى أتت بالمهاجرين الى بريطانيا . لماذا تركوا بلادهم ؟ لماذا أتوا الى بريطانيا ؟ هل في نيتهم العودة الى مواطنهم الأصلية ؟ ولا بد من معرفة المكانة التى يحتلها المهاجرون في كل من مجال المسكن والتوظيف ، وأن تقر ما هي الاسواق الممكن لهم أن يتأمنوا فيها في هذين المجالين سواء حاليا أو مستقبلا . هذه النقاط لا بد أن تربط بسياسة التطور العام في بريطانيا والسؤال الآن هو : ماهي المشكلات

السياسية اليوم وكيف تؤثر أو تصطدم بالعلاقات السلافية، فإذا اجبنا على هذه الاسئلةمكن أن نجيب على التساؤل إذا ماكانت مدينة نوتنجهام تحظى بعلاقات سلافية متوافقة أم لا .

ويذكر المؤلف ان فصول الكتاب توضح ان غياب الصراع الظاهر لا يجب ان يخطأ بحالة التوافق السلافى المزعومة، وان هذا هو مانجده في نوتنجهام حاليا. حيث ان عدم غياب الصراع الظاهر والتوافق السلافى هو الذى اوجد حالة من التغاؤل في غير موضعها .

ويضيف المؤلف : ان غياب الصراع الظاهر في العلاقات السلافية لا يرجع الى سيادة التسامح في هذه العلاقات بل انه يرجع الى الطريقة التى يحدد على اساسها المهاجرون وضعهم في البلاد كما ان عدم ظهور الصراع يرجع ايضا الى مجموعة اتجاهات وظروف عقوية (في مجالات الاستخدام او العمل والاسكان) ، أدت الى تقليل التنافس المباشر بين الاهالى والمهاجرين ومن ثم قلت من فرص الصراع المكشوف ومع ذلك فان هذه الظروف في سبيلها للتغير وذلك يزيد من احتمالات المنافسة والصراع. ويقول انه بعد دراسة ذلك كله يمكن الحكم على العلاقات السلافية بالمدينة. ثم ينهى الفصل باستعراض تيار الهجرة نفسه الى المدينة مؤكدا انه قد بدأ في الخمسينيات بالنسبة لجزء الهند القريبة وأن الهنود والباكستانيين قد بدأوا الهجرة اليها فى الستينات ويوضح تعداد ١٩٦٦ (بالعينة) انه حوالى ٨٥٠٠ نسمة ممن يعيشون بالمدينة هاجروا اليها من دول الكومنولث ، وذلك بين سكانها البالغ عددهم ٣٠٥ آلاف نسمة اظليهم من الجمايكيين ثم الهنود ثم الباكستانيين .

وبالعلاج المؤلف في الفصل الثانى بعض الظروف التى أشرت في الطريقة التى ينظر بها المهاجر الى وضعه بالمدينة، فبعالجب أسباب قيام المهاجر بالهجرة الى بريطانيا . ثم يعالج نقطة لها تأثيرها في دراسة سلوك المهاجر بالمدينة

على السلوك الحالي لانه حتى لو لم يكن المهاجر يقوم بالإدخار فعلا من أجل العودة فإن هذا لا يعنى أن سلوكه واتجاهاته في مجالات أخرى غير مثالية بمعنى بقصد في العودة . وهنا يوضح أن كلام من الهنود والباكستانيين يرون أن بريطانيا مجتمع غريب عنهم وأنهم ليسوا راغبين في التمثل له . بعكس الجامايكيين . وليس معنى هذا أن الجامايكيين يشعرون بأنهم بريطانيون بل أن ٩٠ ٪ منهم أفادوا بأنهم يشعرون بعكس ذلك رغم تعليمهم للمجتمع الانجليزى . وقد ثبت أن النسبة الغالبة من المهاجرين يرسلون موعات اقتصادية لدويم بمواطنهم الأصلية . كما ثبت أن اصطحاب الزوجة الى منطقة المهجر أو الجسد ليس دليلا على نية الاستقرار الدائم بها إذ ثبت أن ٩٣ ٪ من مصطحبي زوجاتهم في بريطانيا من المهاجرين من الباكستانيين و ٨٩ ٪ من الهنود يتوون العودة لبلادهم . وعموما فإن اعلان الرغبة في العودة كان أكثر وضوحا بين غير مصطحبي زوجاتهم وبجانب ذلك فإن نية العودة لدى المهاجرين لعبت دورا هاما في مقابلة المهاجرين للظروف غير المرضية بنوع من التسامح . فحيث أنهم ينظرون للهجرة كشيء مؤقت فإنهم يدخلون هذا في الاعتبار في الحكم على ما يواجهون من معاملة غير مرضية . اما عن النقطة الثالثة أى التوقعات والواقع فقد اجاب ٨٦ ٪ من الباحثين أنهم لم يجدوا بريطانيا كما كانوا يتوقعون ، فقد اوضحوا صعوبة حصولهم على العمل وكسب المال . والتفرقة العنصرية والاستقبال السيء للملونين والمستوى المنخفض معيشيا ، والاسكان الرديء وغيره .

وتناول المؤلف في الفصل الثالث مشكلة التمسك بين المواطنين الاصليين في نوتنجهام تجاه الملونين . فيتناول أهالى نوتنجهام انفسهم بالدراسة وبخاصة أولئك الذين يعيشون بالقرب من الملونين في المناطق الداخلية من المدينة ويوضح في الجزء الاول من هذا الفصل عدم القبول العام لدى الاهالى بالنسبة

وهي نظرة المهاجر الى هجرته وهل هي هجرة دائمة ام مؤقتة وقد ثبت ان معظم من تناولهم البحث لا يتوون الاستقرار الدائم في بريطانيا . والنقطة الثالثة التى يعالجها في هذا الفصل هي مدى اتفاق ما وجدوه في بريطانيا بالمقارنة مع ما توقعوه قبل هجرتهم اليها .

وباستعراض اسباب الهجرة التى ساقها المؤلف بالنسبة للجماعات الثلاث (جامايكيون ، هنود ، وباكستانيون) نجد ان اجراء عملية حسابية بسيطة على الجداول الموضحة لهذه النقطة توضح ان اسباب الهجرة تأخذ نفس الترتيب للجماعات الثلاثة . وهذه الاسباب هي : السبب الاقتصادي يليه الرغبة في السفر واكتساب الخبرة ثم الرغبة في التعلم او مواصلة التعليم . ثم مجموعة رابعة وضعها المؤلف تحت عنوان (اسباب أخرى) .

ونجد ان اسباب اختيار بريطانيا كمثقة مهجر هي الاسباب التالية (لانها المكان الوحيد المتاحة - مجرد الرغبة في الجيء الى بريطانيا - وجود الأهل والأصدقاء بها . - أخرى) . وأخيرا يوضح الباحث أن الهجرة عموما الى نوتنجهام هي هجرة اختيارية .

كما اوضحت المناقشة التفصيلية حول النظرة للهجرة وهل هي دائمة ام مؤقتة .

قال المؤلف ان هناك عددا كبيرا من الدراسات كلها توضح ان عددا كبيرا من المهاجرين الملونين الى بريطانيا لا يتوون الاستقرار في بريطانيا وهذه الحقيقة اوضحها كل من فيليبس ، وشيلابايرسون ، وديفيدسون ، وغيرهم . وأن هذه الحقيقة قد اوضح بروكس بشأنها امرا هاما عندما قال : ان كثيرا من الذين يوضحون أنهم سيعودون لمواطنهم الأصلية لا يفعلون ذلك بالفعل ، ويعلق المؤلف بأنه من الأفضل الا نركز على هذه النقطة أى قصد الاستقرار أو العودة بالفعل وإنما يجب ان نركز على اثر هذا القرار

وهو في هذا الفصل يحاول توضيح العلاقة بين الاسكان والعلاقات السبلالية في نوتنجهام .
فبالرغم من المشكلة السكانية الواضحة التي تعاني منها نوتنجهام ، فانه لم يظهر صراع واضح في مجال الاسكان . ولكن هذا مرجعه الى الظروف غير المتعمدة والاتجاهات العنصرية، وليس مرجعه وجود التسامح لدى السكان الاصليين في نوتنجهام في مجال الاسكان .

ويوضح المؤلف ان قيام أزمة الاسكان وتقص المسكن يخلق خصومة وعداء بين السود والبيض ، وهو امر يعتمد على عدة عوامل من أهمها مدى التبرم الذي يشعر به اؤلئك الذين يعيشون في ظروف اسكانية سيئة وهم الآن كما يبدو غير متبرمين بهذه الظروف وان كانوا ليسوا جميعا بالطبع مشتركين في عدم التبرم بها .

وفي هذا الفصل يقوم الباحث بوصف المساكن الخاصة بالمولدين موضحا اختلافها عن مساكن ابناء نوتنجهام من حيث ما تتمتع به من تجهيزات كالماء الساخن وغيرها . ويعلق بانه وحتى الآن فان الملايين من البريطانيين صموما يعانون من أزمة اسكان حادة اذ لا زال حوالي ٢ مليون يعيشون بمساكن تنقصها الضرورات مثل ، الحمامات ، كما لا زال البعض يعيش بدون مساكن بالرة - كما لا زال مليوناً نسمة يعيشون في مناطق متخلقة .
وجوه مشكلة الاسكان في نوتنجهام ليس اعداد المساكن . بل هو نوع هذه المساكن . فالاف الاسر لا زالت تعيش دون المستوى اللائق . ولكن حيث لا يوجد تعريف متفق عليه للاسكان غير اللائق فان المرء لا يستطيع تحديد عدد من يعانون منه . ولكن ، على العموم ، فان نوتنجهام تعاني فعلا من أزمة اسكان بالمعنى النوعي ، واغلب المهاجرين اللواتي بها يعيشون في هذه الأزمة .

للمولدين . ويتعرض للدراسة التي قام بها ابراهام على عينة من ٢٥٠٠ حالة في خمس مدن من بينها مدينة نوتنجهام نفسها والتي تناول فيها ابراهام موضوع التعصب . ويتنقاد المؤلف الاساس الذي وضعه ابراهام في دراسته هذا لتعريف التعصب حيث قال ابراهام ان التعصب كلمة تستخدم فقط لتدل على الاتجاهات العدوانية التي ترجع الى عمليات تقع داخل حامل الاتجاهات العدوانية نفسه .
ويلحق المؤلف بان هذا التعريف لا يميز بين الاتجاهات الناجمة من مصادر واسباب مختلفة وهنا يرى المؤلف ان المقياس الذي وضعه نيكولاس ديكن وصف على اساسه موقف الجورين (عندما درس التعصب للجنس) الى اربعة اقسام - شديداً التعصب - متعصبون - متوسطو التعصب - غير متعصبين يرى ان هذا المقياس افضل من تصنيف ابراهام الذي كان تصنيفه للأفراد هو (متعصبون - ميالون للتعصب - متسامحون - واخيرا ميالون للتسامح) حيث يرى المؤلف ان عدم وجود العداء لا يعنى بالضرورة وجود التسامح مثلاً . ويضيف المؤلف انه ليس هناك داع للقول بان مقولة التعصب هي المحدد الرئيسي او الوحيد للعلاقات السبلالية، فهناك القوانين التي تنظم الهجرة والتي تحرم التفرقة العنصرية وغيرها . ويقرر المؤلف هنا ان اغلب الاهالي في نوتنجهام من البيض يعتبرون المولدين قوما مختلفين عنهم وانهم اقل منهم ، ولا يجب ان يتساووا معهم .

ويمال الفصل الرابع الاسكان والعلاقات السبلالية ، فيشير الى ان أزمة الاسكان في نوتنجهام ترجع الى القرن الثامن عشر ، وقد بدأ الانفجار السكاني منذ ذلك التاريخ مع التطور الصناعي السريع ويتابع المؤلف التطور في تعداد السكان بالمدينة منذ ذلك التاريخ حتى الآن .

ويوضح المؤلف ان علاقات السلالات تتأثر بوضع الاسكان وان تحليله لهذه النقطة قد بناه على التحليل الذي قدمه rex & moor اللذان اوضحا ان العلاقات الاجتماعية في المجتمعات الصناعية تتحدد بنمط الصراع في المصالح رغم عدم اعتبارهما ان الصراع على الاسكان هو انعكاس الصراع الطبقات في الصناعة. فقد لاحظا وجود اختلاف كبير في تسهيلات الدخول في مجالات الاسكان بالنسبة للمشتريين في نفس العلاقة في مجال ملكية ادوات الانتاج (الطبقة) وهما هنا يتابعان ماكس فيبر عندما يقول (ان الصراع الطبقي يعمل للظهور عندما تسمح حالة السوق السائدة بمداخل مختلفة للملك) وهنا يظهر الصراع الطبقي ليس فقط بالنسبة لوسائل الانتاج الصناعي ولكن بالنسبة للملكية العائلية ايضا) ، والقول بان اكثر من مبدأ من مبادئ السوق يعمل في عملية توزيع الاسكان في بريطانيا لا يقتضي اكثر من تغير طفيف في نظرية فيبر بالنسبة للنظام البيروقراطي لتوزيع المساكن لكي نصل الى فكرة الاسكان الطبقي ، وهي فكرة هامة جدا في تحليل البناء والعملية الحضرية ، وان العملية الاساسية التي تدعم التفاعل الاجتماعي الحضري - كما يقول ركس ومور هي التنافس من اجل البيوت النادرة في الضواحي وعلى اساس من عمومية هذه الرغبة في الحصول على هذه البيوت وعلى اساس من قدرتها والاستقلال النسبي للصراع الطبقي من اجل السكن عن الصراع الطبقي الصناعي فان ركس ومور قالوا انه من المفيد ان تميز الطبقات السكنية التالية وقمنا بسبع طبقات حسب السكان طبقا لنوع السكن ونوع علاقتهم به مثلا (ملاك في مناطق مرغوبة ملاك ملكية جزئية بمناطق مرغوبة - مستأجرون لسكان الجالس المحلية ... الخ) . وكل مجموعة من هذه المجموعات السبع تمثل طبقة مختلفة عن غيرها ، وتختلف حالة السكان المهاجرين عن السكان الاصليين في مجال الاسكان فهو

يواجه التفرقة العنصرية عند محاولته السكنى او الحصول على مسكن في الضواحي . كما ان المناطق الداخلية قد شغلت شوارعها بسكان من مناطق البيض ثابتين نسبيا وهنا فان المهاجرين لديهم خيار ضئيل في ان يصبحوا اما مؤجرين من ملاك افراد او من مؤجرين آخرين . ومركز المهاجرين السري في سوق الاسكان لا يجلب عليه عطف السكان الاصليين من البيض بل انه بالاضافة الى العداء الناجم عن العوامل الثقافية والشخصية فانه ينظر الى المهاجرين باعتباره شخصا يعمل على اكتظاظ السكن ، ويقوم بتخريب البيوت التي يسكنها ، ومركزه هذا في سوق الاسكان يحدد مركزه في نظر الاهالي البيض . ويوضح المؤلف رفضه للقول بان سكان إنجلترا يتنافسون من اجل السكنى في الضواحي . كما يوضح ان البحث الميداني قد اوضح انه لا يوجد تنافس بين المهاجرين والاهالي على الاسكان الا انه اوضح قوله للتصنيف الطبقي في مجال الاسكان الذي ساقه كل من ركس ومور ولكنه اضاف اليه طبقتين أخريين لتصبح الطبقات السكانية عنده تسع طبقات وقد تابع المؤلف هذه الطبقات وتوزيعها مقارنا موضحا فيها بين المهاجرين والسكان الاصليين في توتنجهام . كما استعرض الصعوبات التي يواجهها المهاجرون في مجالات الاسكان ، موضحا انهم يواجهون صعوبة امكانية الحصول على مسكن في المناطق الراقية ، ولا يمكنهم الشراء فيها . وانهم يدفعون سعرا فائدا هائلا - او ان الثمن الذي يطلب منهم يبالغ فيه عادة بسبب اللون وضيق السوق امامهم . او يطلب منهم تأمين عال جدا . . الخ . كما انهم لا يحصلون على أية مساكن من المساكن المملوكة للدولة . وقد أوضح ان ١٤٪ من العائلات المهاجرة التي تركت مسكنها في مناطق مختلفة قد تحركوا الى مناطق مختلفة ايضا . ويقول ان سبب ذلك هو مواطنهم الاصلية ، ومن ثم فان التكلفة

ويقرر المؤلف أن كثيرا من الاعمال لا زالت تعبر بين الملثمين وبين غيرهم من القوى العاملة وأن ٦٧٪ من المبحوثين البيض قالوا بوجود إعطاء البيض أولوية في مجال العمل . وأن أهم أسباب عدم رضى الملثمين عن أعمالهم هو التفرقة التي يلاقونها فيه بل ذلك إحصائهم بإمكانية أداء أفضل مما يقومون به بينما أن المهاجرين ليس لديهم نفس الفرصة للحصول على العمل بنفس المؤهلات التي لدى الانجليزى الأبيض وذلك بسبب اللون . بينما قالت نسبة ٤٢٪ من العينة للبيض بوجود التفرقة بين السلالات في مجالات العمل والتوظيف .

ويناقش المؤلف في الفصل السادس السياسة والعلاقات السلالية - فيناقش اسلوك السياسي والبدائل السياسية المتاحة أمام الملثمين ، موضحا أن كثيرا من أولئك الذين صوتوا منهم في الانتخاب العام لم يفعلوا ذلك بحماسة تذكر وانهم انما فعلوا ذلك بسبب أنه لا يوجد أى بديل امامهم . ذلك أن الملثمين لا يعتقدون أن أى من الحزبين الرئيسيين (محافظين وعمال) مختلف عن الآخر ولا يختلف الامر بالنسبة لهم أن يفوز أى منهما ، ذلك أنهم اذا كانوا قد صوتوا لصالح المحافظين في الانتخابات الأخيرة فقد فشل المحافظون في الحصول على تأييد كاف لدخول السوق الأوروبية والحقيقة أن الخطوات التي اتخذتها الحكومة أخيرا فى مجالات الدخول والاسعار لم ترضى الناخبين عموما . كما أن القرارات التي اتخذها كلا الحزبين بصدد الهجرة والمهاجرين لم تقابل بالرضى من كل من المهاجرين أنفسهم ، وكذا من المواطنين البيض ، وهذه النظرة تنطبق على قوانين الهجرة التي صدرت في اصوام ١٩٦٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧١ . إذ ينظر الملثمون الى هذه القوانين على أنها تؤكد

الاضاعية في مسكن أفضل لا تبدو استثمارا معقولا لاموالهم من وجهة نظرهم وعموما ورغم هذه الظروف كلها فإن الاسكان لا يمثل مثارا لصراع بين السلالات . . أو على الأقل لم يؤد الى صراع ظاهر بينها ، فالنسبة المتبرمة من ساكنتها من الملثمين قليلة . ولم يثبت أن هناك تنافسا على المساكن النادرة الغالية . كما أن بعض البيض في صراع على المساكن في المناطق التي يسكنها الماوثون أنفسهم ولتينا بينهم .

ويناقش المؤلف في الفصل الخامس العلاقات السلالية والتوظيف - فيقول أن اغلب مهاجري الكومنولث يقيمون في مناطق ذات طلب على عنصر العمل ويقل إقامة الملثمين في المناطق التي يكون فيها الطلب على عنصر العمل خفيفا أو متوسطا ، وهم عموما يحلون في مجال العمل محل البيض في المناطق التي لم تنجح في جذب عدد كاف من البيض . ويستعرض المؤلف التاريخ الصناعي والخدمي لمدينة نوتنجهام موضحا كيف أصبحت تشتري الآن بالصناعات الرأسمالية في مجال التصدير والمجال المحلي ، وأن النسبة الغالبة من المهاجرين قد جاءت أصلا للبحث عن عمل ، وأن البحث الميداني قد أوضح أن هناك ٣٪ فقط منهم عاطلون حاليا - ثم قام الباحث بتتبع توزيع المجموعات السلالية على مختلف الصناعات ويوضح أن ثمة زيادة في عدد العمال غير المؤهلات بين المهاجرين منها بين البيض ، وانهم ، أى المهاجرين ، يعملون بأعمال غير مرضية وغير جذابة عموما للبيض . وعموما فإن فجوة التوظيف بين الملثمين وبين البيض فجوة واضحة . ولم تشكل هجرة الملثمين الى المدينة أى خطر على الأهالي البيض من الناحية الاقتصادية ، فالعمل متوفر للجميع ولا يشغل اللون من الوظائف ، أو الاعمال عموما ، إلا مالا يقبله البيض . ومن ثم لم يشكل مجال العمل مثارا للزاع السلالي .

الكثير من أجل تحسين العلاقات السلافية بالفعل . والسبب الثالث هو ما ذهب إليه كيتز نلسن من أن هذه اللجنة قد لعبت دورا دقيقا في علاقات بناء المدينة السلافية ، ويؤم المؤلف أن هؤلاء قد غالوا في أهمية هذه اللجنة ويقول أن ما قدمته لم يؤد إلا قليلا من المزج في العلاقات السلافية في هذه المدينة وأن الاهتمام الكبير الذي أحيطت به أكبر بكثير من دورها الحقيقي . وليس معنى هذا أنها لم تتم بعمل شييء مفيد ، إلا أن الغالبية الساحقة من المؤلفين ، وكذا النمط العام للعلاقات السلافية لم يتأثر بمجهودات هذه اللجنة إلا في إقليل الأثر . ويستعرض المؤلف في هذا الفصل دراسة كيتز نلسن لأعمال هذه اللجنة وتاريخها وتطورها . كما يستعرض موقف المهاجرين منها قائلا أنها لا تحظى بحماس الكثيرين منهم ، خاصة الباكستانيين والسود .

واخيرا يستعرض المؤلف في الفصل الثامن وهو الخاتمة ما انتهى إليه من نتائج ومحمدا أن المهاجرين في مجموعهم يشعرون بانهم غرباء وأن أغلبهم لم يأت للاستقرار الدائم بل للعمل ثم العودة لبلده ، ومستعرضا ملخصا سريعا لنتائج الفصول السابقة ، وموقفا المهاجرين في مجالات الإسكان والتوظيف وغيره مما سبق مرصه تفصيليا .

ومع أن الموضوع الذي يتناوله المؤلف هو الهجرة إلا أنه يركز على المهاجرين أنفسهم بقدر ما ركز على علاقاتهم بالمواطنين الأصليين ، وقد أعطى المؤلف صورة كاملة عن هذه العلاقة بالفعل إلا أن الكتاب لم يظهر العلاقات بين مجموعات المهاجرين من دول الهند وباكستان وجمايكا ، إذ لم يركز المؤلف على العلاقة بين كل جماعة من هذه الجماعات وغيرها من الجماعات ، ولا شك أن هذه نقطة كانت جديرة بالبحث خاصة أننا سبق أن

التمايز بين السلالات وذلك بالنسبة لقوانين ١٩٦٨ ، ١٩٧١ وأنها تحقر من شأنهم . بينما أدت القوانين التي قدمتها حكومة العمال في ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ إلى تهيج هذا الشعور (وقد لا حظ المؤلف أن أغلب المبحوثين لا يعرفون أن قوانين وتشريعات منع التفرقة العنصرية قد ظلت باقية) وصوما فقد نظر المؤلفون إلى قوانين ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، ومابها من ضعف على أنها تعكس تدليد حزب العمال . كما نظر إليها الكثيرون من البيض على أنها تعمل على وضع المؤلفين في مركز ممتاز . ويقرر المؤلف في النهاية أن مختلف المحاولات التي بذلت في سبيل تحسين العلاقات السلافية لم تنجح بسبب عدم وجود القوة التي تساند القوانين التي تصدر في هذا الشأن وأن المبحوثين من الإهالي أي المواطنين البيض - أو من المهاجرين المؤلفين لا يشعرون بأن النظام الحزبي الحالي يقدم من الوسائل والطرق وما يحقق مصالحهم . ويشير المهاجرون هنا إلى أنه لا يوجد في المجالس الحلية أي هندي أو باكستاني أو جمايكي .

وبعالم المؤلف في الفصل السابع (المنظمات وعلاقات السلالات) موضحا أنه يوجد الكثير من المنظمات المهمة بعلاقات السلالات في مدينة نوتنجهام سواء من الأشخاص أو الهيئات الرسمية . فثمة ١٤ منظمة رسمية تهتم بالعلاقات السلافية في نوتنجهام تشرف عليها جهات عدة مثل الصليب الأحمر البريطاني والمكتب الاسقي للشؤون الاقلاية وغيرهما ، وقد ركز المؤلف في هذا الفصل فقط على اللجنة الوطنية الاستشارية للمكنولت وما ترتبط به من علاقات بينها مع المنظمات ، مبررا ذلك بأنها اللجنة الوحيدة الرسمية في نوتنجهام التي تتلقى المساعدات المالية ، وأنها المسؤولة مسئولية مباشرة عن تحسين العلاقات السلافية. والسبب الثاني هو ماذهب إليه الكثيرون من أن هذه اللجنة قد قدمت

وغير مقصودة في مجالات العمل والاسكان . ولا شك ان العلاقات الداخلية بين افراد كل جماعة كانت ستشكل اساسا تفسيريا هاما لهذا كله ... او على الأقل احد الاسس التفسيرية له .

ولعل عدم متابعة العلاقات الداخلية بالتحليل ترجع الى اعتماد المؤلف على المنهج السوسيولوجي كلية ، المتمثل في الاعتماد على الاستمارة واستخدام المقابلة على عينة محددة (٣٠٠ حالة) من مجموع سكان المدينة من البيض ومهاجرى الكومنولث الملونين مع استخدام الاسئلة المغلقة .

وعلى اية حاله فان الكتاب يتعرض لموضوع امتدت اليه يد البحث مرات عديدة في المجتمع البريطاني وهو العلاقات السلالية بين الاهالي الملونين من المهاجرين . وقد حصر نفسه تعاما في هذه النقطة مما جعل من الكتاب صورة واضحة من هذه العلاقات دون أن يمس بعمق الصورة التي يعيش عليها المهاجرون انفسهم او المواطنون البيض انفسهم .

اوضحنا ان العلاقات السلالية هي النقطة الاساسية في هذا الكتاب . كما ان المؤلف لم يتناول بالدراسة العلاقات الداخلية بين افراد كل جماعة من هذه الجماعات المهاجرة رغم انه ذكر في المقدمة ان فهم العلاقات تلعبه العوامل الثقافية والبنائية في هذه العلاقات في الرؤية المتبادلة بين المهاجرين الملونين من جانب الاهالي من جانب آخر . ولا شك ان عدم اهتمام المؤلف بالعلاقات الداخلية بين مهاجرى كل جماعة من الجماعات المهاجرة قد عمل على غياب عنصر بالغ الاهمية في تفسير عدد كبير من النقاط والنتائج التي توصل اليها الباحث ، والتي لم يقدم تفسيرها كافيا لها ، مثل قوله بان الملونين لا يتبرمون بظروف السكن السيئة التي يعيشونها ، وقوله بان الملونين عموما غير متحمسين للتنظيمات السياسية ولا للمنظمات الخاصة بالعلاقات السلالية ، وقوله بان الجماعيين قد تمثلوا نسبيا للمجتمع البريطاني بينما لم يمثل الباكستانيون والهنود . وقوله بان غياب الصراع الظاهر في العلاقات السلالية يرجع الى مجموعة اتجاهات وظروف عفوية



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الاعداد القادمة

Abelson, Raziel, "Persons. A Study in Philosophical Psychology," The Macmillan Press Ltd., 1977.

Greeley, Andrew M., "Ecstasy. A Way of Knowing," Prentice-Hall, Inc. 1974.

Jacob, François, "The Logic of Living Systems. A History of Heredity,"
Translated by Betty E. Spillmann, Allen Lane, 1970.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Milunsky, Aubrey, "Know your Genes", Houghton Mifflin Company, Boston, 1977.

Whitby, M. C., Robins, D.L.J., Tansey, A.W., and Willis, K.G., " Rural Resource Development," Methuen & Co Ltd., 1974.

★ ★ ★

العدد التالى من المجلة

العدد الثالث - المجلد التاسع

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

قسم خاص عن

العلم والتكنولوجيا

بالإضافة الى الأبواب الثابتة

التمت
٢٥٠
فلساً

الخليج العربي	٥	ريال	٥	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريال	٥	المشاهرة	٢٥٠	ملياً
اليمن	٤٠	فلوس	٤٠	السودان	٢٥٠	ملياً
اليمن الجنوبية	٤٠	فلوس	٤٠	ليبيا	٣٥	قروشاً
اليمن الشمالية	٤٠	ريال	٤٠	مستط	٤٠	بابج
العراق	٣٠	فلوس	٣٠	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	٢,٥	تونس	٥٠	ماهم
الأردن	٢٥	فلوس	٢٥	المغرب	٥	درهم

الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت